رواية

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

الجزء الثالث



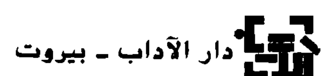
ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

الجزء الثالث

رواية





ربيع جابر

بيروت مدينة العالم III

بيروت مدينة العالم III

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الأولى، 2007

ISBN: 9953-68-226-7

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 سيدنا

هاتف: 212-2-2303339

فاكس: 2305726

e-mail: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت: ص.ب: 5158 ـ 113 الحمرا

هاتف: 352826(01) ـ 343701(01)

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب: 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633(01) ـ 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

بعد سنوات طويلة، عندما اشتدّت المجاعة وانتشر التيفوس، تذكّر عبد الغني البارودي زمن الكوليرا. بناته تراكضن حوله يجمعن الثياب ويحزمن الحقائب للخروج من بيروت، وهو رجع بالذاكرة إلى زمن أبعد من الكوليرا ورأى ساحة البرج قبل «فتنة الستين». رأى نفسه ولداً لم يبلغ العاشرة يركض خارجاً من خان أبيه. يقطع أشجار التوت. يخترق سوق الفشخة. يدفع باب الحارة المرصع بالحدائد. ويركض على «الطريق البيضاء» إلى أمه عائشة. قالت له «عندما يؤذن المؤذن الظهر تعالْ وكلْ قطايف».

«حارة البارودي» بسورها المستطيل وبوابة السنديان المرصعة بالحديد هُدِمت على دفعات بين 1915 و1919. أعمال الهدم لتوسيع دروب بيروت القديمة بدأها العثمانيون في مطلع الحرب العالمية الأولى وأنهاها الإنكليز والفرنسيون بعد انتهاء الحرب بهزيمة الأتراك وخروجهم من بلادنا.

أعمال الهدم أزالت من الوجود البيوت الأربعة التي بناها عبد الجواد أحمد البارودي. أزالت حارة القرميد التي رفعها في نهاية «طريق عبد الجواد» (طريق عبد الملك) ابنه الثاني الحاج عبد الرحيم أبو حسين البارودي. مات عبد الرحيم البارودي ممدداً على سريره،

محاطاً بالعائلة الكبيرة، سنة 1890. حفيداته الحائمات حول السرير نظرن إلى الجد بشعره الأبيض ووجهه المربع فامتلأت عيونهن بالدموع. مات قبل أن يصفر القطار الحديدي على شط بيروت منطلقاً من محطة المرفأ المجاورة. مات فوَرِث ابناه عبد الغني وعبد الفتاح أملاكه وأعماله. عبد الفتاح الملقب بالدمياطي لن يعيش طويلاً. عبد الغني البارودي أحاطته السماء بتسع بنات جميلات ذاع صيتهن حتى جاوز الإسكندرية. صلّى أن يُرزق ابناً ذكراً يحفظ السلالة فلا تنقرض العائلة. أُعطي تسع بنات ولم يُعطَ ذكراً.

عبد الغني البارودي المولود «سنة حلب» (1850) سيغرق في بحر بيروت المالح قبل بلوغه السبعين، وبموته تنقرض سلالة عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة. لكن هذه الميتة الحزينة في جوف المياه ما زالت بعيدة. لم نبلغ الحرب العالمية الأولى بعد. لم نرَ الوالي التركي ينقب بمعول فضة أول حائط في بيروت القديمة. لم نرَ «حارة البارودي» تتساقط.

ذات يوم تقع هذه البيوت. لم نبلغ ذلك اليوم بعد. نحن في زمنٍ قديم: لم نصل إلى «فتنة الستين» (حرب 1860). لم نرَ الجبل يحترق. لم نرَ نصارى دمشق ينزحون إلى بيروت. لم نرَ الهواء الأصفر. هذا خريف 1859. وهذه أم زهرة (سهيلة النابلسي البارودي) قاعدة على عتبة بيتها الملساء، تحت القنطرة البيضاء الحجر، تعجن عجيناً وتنظر إلى دجاجة حمراء تتقافز على طريق الكلس.

عجنة كبيرة. لا تعجن لنفسها ولابنتها زهرة وأولاد ابنتها زهرة فقط. تعجن للمطعم على المرفأ. ومرات تعجن للخان ـ خان العائلة، «خان التوتة»، خان ابن المرحوم زوجها ـ خان الحاج عبد

الرحيم. تنزل بثقل ذراعها البضّ الأبيض السمين في وعاء العجين، ترفع العجين على العجين وتضغط، والعجين يخرج من بين أصابعها ويدها تغوص في العجين. رائحة العجين تملأ وجهها. رائحة الطحين ورائحة الماء ورائحة الخميرة. تنزل بثقل جذعها الملآن وتسمع خفقة الدم في رقبتها وتسمع لهثة. «الحارة» اليوم ملآنة رائحة قرفة وجوزة الطيب. رائحة السكر والرزّ يغلي على النار. سعدية الحصّ، زوجة المرحوم عبد الجواد الرابعة، تكفلت بالمغلي. العادة أن تطبخ هي ـ أم زهرة ـ المغلي. لكن سعدية الحصّ ـ أم هند ـ أصرّت هذه المرة. هي أصرّت وأم حسين المجهدة ـ أتعبها العمل الطويل ـ قالت «طيب»، وأم زهرة كفّت عن الكلام وقالت كما تقول أم حسين، البنت بنتها.

وضعت زوجة عبد الرحيم (عائشة الفاخوري البارودي) بنتاً رابعة بعد صفية وحوراء وزاهرة. عبد الرحيم كان ينتظر ابناً ذكراً هذه المرة: يفرح بالإناث كما يفرح بالذكور، وأهل بيروت يذكرون كيف ذبح الخراف ومزج الشربات عند ولادة ابنته الأولى صفية. يفرح بالإناث كما بالذكور وسبحانه أكرمه بثلاثة أبناء أقوياء الصحة يفورون نشاطاً وحباً لله عزّ وجلّ: حسين وعبد الغني وعبد الفتاح. حسين جاوز الثانية عشرة. عبد الغني يصغره بعامين لكنه مثله يذهب إلى الجامع العمري ويصلّي صلاة الجماعة. لا حسين يبدو ولداً ولا عبد الغني. الاثنان يلبسان الثوب النظيف في الفجر فيحفظانه نظيفاً وبلا طيّات حتى ساعة العشاء. حسين كان في طفولته شقياً، عذّبه وهو يطلع على حيطان وينزل عن حيطان. تسلق مرة مئذنة جامع النوفرة المدوّرة وأوشك أن يدقّ رقبته. عبد الغني طبعه أهدأ، يُذكّره بنفسه هذا الصبي. هو أيضاً كانت طفولته هادئة. أم زهرة ـ زوجة

أبيه الثانية التي يناديها خالتي أم زهرة ـ ما زالت تذكر عبد الرحيم صغيراً ممدّداً على فرشة تحت النافذة في بيت أمه صفية الفاخوري البارودي (أم شاهين) يتأمل ظروف الخروبة كأنه يعدّها ظرفاً ظرفاً.

الحاج عبد الرحيم يفرح بالإناث كما بالذكور. عندما وُلد ابنه الثالث عبد الفتاح أول ازدهار الخان كان قلبه يقول له «هذه المرة ستُعطى بنتاً». لكن الرزّاق الكريم أعطاه ابناً. هذه المرة أنبأه قلبه أنه صبي فجاءت البنت الرابعة: رفعها عالياً وباسها على رأسها. قال «بسم الله الرحمن الرحيم» ومضى إلى الجامع العمري الكبير يتبعه أبناؤه وعبيده الأحباش. الأحباش تكاثروا بمرور الأعوام. عائلة سنان ـ أول حبشي اقتناه المرحوم أبو شاهين ـ تنزل الآن في البيت الأبيض الصغير عند الجميزة. (ما زالت خالته تسمّي البيت «بيت أم شاهين».) في هذا البيت وُلد عبد الرحيم، وفي هذا البيت وُلد بعده أخوه عمر، وفي هذا البيت وُلد في بداية القصة شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي.

ودَّ عبد الرحيم البارودي أن يأخذ عمر هذا البيت القديم المملوء بالذكريات الدافئة. كم صلّى أن يكمل أخوه دينه ويتزوج ويسكن هنا، جنبه، في قلب الحارة المستطيلة، بيوتها المتراصفة كحبّات البقلاوة على حافة طريق الكلس البيضاء. لكن عمر لا يدعس الحارة. رجع من القُرم مشروم الأذن غريباً. سكن في غرفة على سطح «خان التوتة» يُربي الحمام. يطبخ طعامه. ويأكل طعامه وحيداً على السطح. إذا غادر الخان لا يأتي إلى بطن البلد. لا يقطع طريق القوافل ويدخل من «باب السراي» إلى سوق الفشخة بمتاجرها المتلاصقة؛ أبداً لا يدخل عمر البارودي البلد إذا غادر قنطرة الخان الكبير. لا يذهب بمحاذاة أطلال السور حتى البحر. ولا يدخل من

«باب الدباغة» إلى الزقاق المسقوف المفضي إلى مطعم المرفأ. لا يقصد مطعم العائلة: حانوت الشواء الذي فتحه المرحوم عبد الجواد في الجزء الأول وظلّلته خمائل الياسمين في الجزء الثاني (عمر ذاته رفع هذه الخمائل هنا: ربط رؤوسها بخيوط الحرير وعلّقها من السطح ومن أعمدة العريشة).

عمر البارودي عاد وحيداً من حرب القُرم. لم يرجع معه من «الفرقة البيروتية» أحد. تسعون ذهبوا بالبحر وعاد وحده. عندما عاد بعد شتاءٍ صديقه عبد الكريم النصولي ـ ابن الحاج محي الدين النصولي التاجر المشهور ـ غادر عمر البارودي غرفته على السطح ونزل السلالم الحجرية إلى باحة الخان ملتفاً ببطانية صوف. خرج من الخان متجهاً إلى باب أبي النصر عند زاوية أبي النصر (جامع الأمين) قرب باب الدركاه. بدا أنه عزم على دخول المدينة. لكنه لم يدخل. وجد عبد الكريم النصولي ينتظره في بيت الشيخ محمد الفاخوري. هذا ابن خاله صاحب اليد المقطوعة. جلس وشرب الزهورات. تكلموا قليلاً ثم غادر البيت القائم في ظلّ أطلال السور وعاد إلى «خان التوتة». على السطح أعدّ الزهورات الساخنة وشرب كوباً بعد كوب.

الحاج عبد الرحيم يصلّي من أجل أخيه الصغير عمر. مع أنه يستغرب أن يكون هذا العملاق العائد بشعر أبيض من جزيرة الصقيع أخاه الصغير! وجده شبيهاً بالمرحوم شاهين. حتى لون عينيه تبدل هناك، وراء البحر اللعين الأسود! كأن الجليد أطفأ اللون الأخضر في عينيه! الجليد وسهول الثلج التي تغطيها الجثث. الحاج عبد الرحيم ذهب إلى عبد الكريم النصولي «الصقعان» وهنّأه بالسلامة. الرجل العائد نظر إليه وأسنانه تصطك. يوسف منيمنة هكذا من

قبلهما. يقضي نهاره وليله بين مناقل المطعم المشتعلة ولا يدفأ. في عزّ الصيف يلبس صوفاً تحت ثيابه. دُفن في «منسف ثلج» أثناء حروب الأناضول. كيف نجا وكيف عاد حيّاً إلى البلد، علم ذلك عند الله سبحانه. لكن عبد الكريم يدخل الأسواق ويخرج من الأسواق. يقعد في دكان أبيه الجديد، الدكان الكبير المجاور لخان الحرير. يدخن الأرجيلة ويشرب القهوة بالهال ويتكلم مع الخلان. صحيح أن كلامه بات بطيئاً ـ كأن الجليد عقد لسانه في القُرم ـ لكنه يتكلم مثلنا ويضحك مثلنا. وقبل وقتٍ عقد على ابنة الشيخ ملحم عيتاني وها هي في بيته، تبثّ الدفء في فراشه، تغسل قدميه وثيابه، تطبخ طعامه، وغداً تمنحه البنين زينة هذه الدنيا. أما أخوه! أما عمر!

خرج الحاج عبد الرحيم مع أولاده الثلاثة وعبيده من بوابة الحارة السنديان الثقيلة وردّوا البوابة خلفهم. الصغير عبد الفتاح سبقهم إلى زحمة سوق الفشخة راكضاً بين الأرجل. لحق به أخوه حسين قبل أن يقع تحت حوافر البغال. السوق شديدة الزحمة هذه الأيام. الشغل كثير والوقت قليل. الشتاء يدنو. وقبل أن تحلّ عواصف الشتاء وتقطع الثلوج طريق الشام وتقطع الرياح طريق البحر، قبل الزمهرير علينا أن نملأ هذه المخازن وعلينا أن نملأ عنابر المرفأ. الباب الشمالي للجامع العمري مقفل. هذا الباب الجديد المطلّ على سوق الفشخة ـ جهة البحر ـ يُقفَل ما إن تقسو نسمات الخريف. النسمات الباردة تتحول جليداً في جوف الجامع القديم السميك الجدران. رأى عبد الرحيم التجار أمام دكاكينهم، بين السلال وفوق السلال وتحت السلال، أكوام سلال وبضائع وصناديق وأكياس، حمير لا تعد وبغال لا تعد، وفي مداخل

الدكاكين العميقة المظلمة يقعد تجار ويقف تجار. الحاج عبد الرحيم يردّ تحياتهم، وهم ـ كأنهم يضبطون مواعيد صلاتهم على مواعيد ظهوره في السوق ـ ردّوا أبواب الحوانيت وأوصوا جيرانهم بالبضاعة المتروكة خارج الأبواب وأسرعوا يتبعونه إلى «سوق العطارين». هنا، تحت قناطر الجامع العمري، بدت الزحمة أشد. الجنود أيضاً، العساكر العثمانية، يُصلّون هنا. بين الوجوه الكثيرة رأى الحاج عبد الرحيم وجه وكيله على الخان وصاحبه عزّت بيضون. الشيخ عزّت بيضون رأى من بعيد وجه ولي نعمته الحاج عبد الرحيم يشعّ نوراً فضحك وجهه. غاص بين أمواج المصلّين ثم خرج أمام الحاج أبي حسين. ظنّ أنه رُزق صبياً كما تمنى. عندما قال الحاج «بنت» وضحك بلا حزن ربّت الشيخ عزّت على كتفه ـ على الشال الدمشقي العريض المطرز ـ وقال: «البنت لأبيها».

بينما يتوضأ ويرى أولاده يتوضأون ذكر عبد الرحيم أباه. الفسقية مدوّرة خضراء البلاط واسعة مملوءة ماء. صوت الماء رخيم، تكاد تسمع خريره مع ضجة المصلّين. الضجة تخفت رويداً رويداً، هذا وقت العبادة لا وقت تبادل الحديث. الماء على ذراعيك، الماء على رقبتك، الماء وراء أذنيك. الماء بارد يلمس الجلد الدافئ، وعبد الرحيم يتذكّر المرحوم. ذكر أباه وذكر أمه. ذكر رجوعه من الحجّ والتين يزهر، وذكر زغاريد. رجع وابنه عبد الغني يخرج من بطن أمه. سبحان الله! الأعوام تمضي وكلّما رُزق ابناً أو بنتاً تذكّر أخاه. كم تمنى أن يرى أبوه أولاده! كم تمنى أمه جنبه الآن، جنب عائشة بنت أخيها الكبير الحاج محي الدين الاسطمبولي. تزوج ابنة خاله حبّاً بأمه وبآل الفاخوري، تزوج ابنة خالة وسمّى طفلته الأولى صفية على اسم أمه. كم تمنى أن يكون

أهله معه في هذا اليوم. كلما صلّى في جوار المحراب المنحوت من خشب الأرز ذكر أباه قاعداً هنا، تحت النافذة المستطيلة، وفي الخارج ترتعش زهور الرمانة بين الورق الأخضر اللامع الأملس. يذكر أباه قاعداً جنب المحراب بعد وفاة أمه، أم شاهين. لا ينسى تلك الصورة أبداً، محفورة إلى الأبد في عينيه لا ينساها. كيف مضت السنوات؟ سبحان الخالق. وقبل دقائق، بينما يقطع «الطريق البيضاء» بالبيوت المصفوفة عن جانبيها وأولاده خلفه والأحباش خلفه، تذكّر أباه أيضاً. تذكّر وقوف عبد الجواد لحظة في ظلّ التوتة الخضراء، قبالة القنطرة البيضاء الحجر. يتأنى لحظة فتظهر خالته أم زهرة، تظهر في باب البيت المفتوح أو تطلّ برأسها من النافذة وتلقي عليه السلام. تحت شجرة التوت ذاتها وجدت خالته سعدية الحصّ البارودي أباه ميتاً، والدجاجات تنقر التراب عند رأسه.

احتشدت «حارة البارودي» بالأقارب والأصحاب. آل الفاخوري ملأوا الحارة كأنهم انتقلوا بكامل عديدهم ـ الشيوخ والرجال والنساء والأطفال والأحباش ـ من «دار البرتقال» داخل باب يعقوب إلى بيت الحاج عبد الرحيم البارودي. عشيرة الأخوال نزحت كاملة في هذا النهار محملة بالهدايا إلى «حارة البارودي». صلّوا الظهر في جامع النوفرة (جامع الأمير منذر التنوخي) على عادتهم، ثم توافدوا عابرين البازركان والعطّارين والفشخة إلى بوابة الحارة. غطّوا «الطريق البيضاء». وبنات جرجي تامر ظهرن أمام البيت يتأملن الوفود. بنات جرجي تامر وبنات بناته. هذه حارة بنات صارت. أم زهرة عندها ابنتها وبنات ابنتها. سعدية الحصّ البارودي عندها بناتها. زوّجت هند لكن ورد لم تتزوج وفاطمة لم تتزوج. فاطمة ستتزوج عما قريب وورد أيضاً، لكن حتى بعد زواجهما ستظل

الحارة حارة بنات. عندك بيت الصياد الدرزي، وهذا فيه ثلاث بنات. وبيوت الأحباش. وبيت موسى الحلبي وراء «الطريق البيضاء». وبيت سليم صعب. رائحة المغلي تغمر الحارة الآن، رائحة سكرية، طيبة وساخنة، يحبسها السور الحجر فتدور بين البيوت وتملأ الأفواه لعاباً.

أم زهرة ما زالت تعجن تحت القنطرة. العجنة كبيرة وهذه الشمس دافئة. تحبّ القعود هنا إذا رمت الشمس أشعتها على هذه البقعة. الحرارة تفيد العجين، هكذا يخمر سريعاً. والحرارة تفيدها. هكذا يخرج البرد من بطنها. الوقت خريف والخريف يضايقها. لحظة تسخن كالفرن ولحظة تبرد. لكنها الآن مسرورة. التوتة تخضر بموسمٍ ثانٍ من الورق. تعجن وتشمّ المغلي وتسمع أصوات الأولاد يلعبونَ وراء البيت تحت السنديانة وتسمع طرطقة المطارق في سوق الحدادين. زهرة مريضة تنام في الغرفة العالية. نجت من الكوليرا قبل سنوات لكنها مع كل هبّة هواء تمرض وتلزم فراشها. عليلة. كلّما انفتح الباب السندياني في مدخل «الطريق البيضاء» رفعت وجهها عن إناء العجين ورأت وجوهاً تطلّ وأجساماً تتقدّم.

الزوار كثر في هذا الصباح الأبيض. زغردت حتى بُحّ صوتها. لكن لا أحد في بيروت يزغرد مثل زوجة جرجي تامر. مع أنها تقدمت في العمر لكن صوتها ما زال قوياً. نحن في خريف 1859 وعائلة جرجي تامر ما زالت في «حارة البارودي». بعد خريف لن يكونوا هنا. لا أم زهرة تعرف ما تخفيه الأيام ولا الخواجه جرجي يعرف.

الزغاريد فن. تنتظر الجارة حتى تنهي زغرودتها ثم تجيب بزغرودة. أم هند تزغرد من البيت الذي بناه خليل الفاخوري فترد

عليها زغرودة أم سليمان النجّار من بيت الدروز في مدخل الحارة. لا الزغرودة الأولى ولا الزغرودة الثانية تطول. الزغرودة بلا نفس طويل ليست زغرودة. زوجة الخواجه جرجي تلحن زغرودتها وترسلها مديدة، تستطيع أن تعدّ الأشجار من أول «الطريق البيضاء» إلى نهايتها قبل أن تقفل الزغرودة. الحمائم تأتي على زغرودتها. وعصافير الدوري يرتفع نشيدها. الأولاد يضحكون وهي تزغرد، يطلع الصوت وينزل، يطلع وينزل، مرة رأتها أم زهرة في المنام واقفة على مئذنة الجامع العمري المستطيلة. قامت أم زهرة من منامها مذعورة. في أعياد النصارى تخرج زوجة الخواجه جرجي من الحارة مع بناتها، يحملن شموعاً. أحمد ابن زهرة، حفيدها العفريت أحمد، يساعد البنات على فصل الشموع: مرات تلتصق الشمعة الجديدة بالشمعة الجديدة. بنات جرجي تامر وحفيداته ينادين على أحمد كي «يفتح شموعهن». وأحمد يقفز قفزاً ويتركها. حتى في موسم الحرير، وهو يحبّ قطف التوت وفرم التوت والعناية بدود القزّ، حتى في موسم الحرير يتركها ويهرع إلى الجهة الأخرى إذا نادت أصواتهن.

الناس يتوافدون إلى الحارة. الحاج أبو حسين محبوب في بيروت. محبوب خارج بيروت أيضاً. التجار الشوام الآتون من دمشق وحوران وحلب ينزلون في خانه. طالما أولم لهم هنا، في قلب بيته الكبير. وهي ـ أم زهرة ـ كم مرة رأتهم عند طرف الشرفة البحرية العالية، ينظرون إلى المرفأ وسفن المرفأ وعبد الرحيم يدلّهم بإصبعه إلى الصخور. كلّه خطط ابن زوجها. كلّه خطط. الآن تفتح الحكومة مع الشركة الفرنساوية طريق عجلات من بيروت إلى دمشق: هو أخبرها عن هذه الطريق قبل سنوات، قبل أن تبدأ هذه الأشغال.

قبل سنوات طويلة عبرت طريق العجلة في باله. تراه ماشياً على «طريق عبد الجواد» وذؤابة عمامته مطروحة بين كتفيه فتذكر المرحوم. يا أرحم الراحمين. قمصانه تفوح برائحة الزعفران. أثوابه مقصبة. صيته عطر في بيوت بيروت كلّها. نصف الخبز على قفة الخبز عند زاوية الأوزاعي من زكاته.

صعدت إلى الغرفة العالية حاملة شوربة لزهرة. الحساء يفيدها. ومنذ أيام لا تأكل إلا برؤوس الأصابع. قبل أن تدخل انتبهت أن شتلة الحبق في الفخارة ذابلة. انتبهت أن الزهور تذبل والشتلات تذبل وأن اللون الأصفر غطى أحواض السطح. نسيت أن تسقيها؟

بينما تدفع الباب وتدخل، محاذرة لئلا يقع الحساء الساخن على يدها، قبل أن تدخل الغرفة وتترك الفضاء الأبيض، تذكرت مناماً رأته هذه الليلة. كيف نسيت المنام الغريب؟ ولماذا تذكرته هذه اللحظة؟ دخلت الغرفة حيث ترقد ابنتها فضايقتها الرائحة (رائحة المرض) وضايقتها العتمة (لماذا ردّت درفات النافذة؟). وضعت الحساء في الزاوية ثم اقتربت من الفرشة وجلست عند رأس زهرة. تلمست جبهتها بيدٍ ثم لمست خدها ثم لمست رقبتها. كانت حارّة كالجمر. للوهلة الأولى أوشكت أن تبعد يدها. كأن اللمس سيحرقها. الحساء لم يكن ساخناً في يدها هكذا! مع أن الطبق معدن. فتحت زهرة عينيها وسألتها عن الأولاد. قالت سهيلة النابلسي البارودي أنهم يلعبون تحت السنديانة. تكلمت وهي لا تريد أن تتكلم. كأنها ليست مع ابنتها في هذه الغرفة العالية التي رفعها المرحوم عبد الجواد لليالي الصيف الحارّة. تكلمت وهي لا تريد أن تتكلم. المنام الذي تذكرته فجأة ملأها حزناً وحيرة.

رأت أنها في بهو واسع، بهو بأعمدة. كأنها في جوف جامع،

أو كأنها في بيت عبد الرحيم الكبير قبل أن يكتمل بناؤه، قبل أن يُسقف قرميداً، قبل تركيب الأبواب والنوافذ. لعلها تذكرت أيام بناء البيت لأنها أمس حاولت مع أم هند أن تتذكر أين وُلد عبد الغني، في البيت القديم عند الجميزة أم في الحارة القرميد الجديدة. صفية وُلدت بالتأكيد في البيت القديم، وحسين أيضاً. كانتا تتذكران أين وُلد عبد الغني، في أي بيت، ولا بد أن هذا الحديث لزمها حتى نامت. في المنام رأت البيت الكبير المربع بلا سقف، رأت النوافذ بلا درفات والمداخل بلا أبواب، ورأت أن الأرض مفروشة سجاجيد كما تفرش في العيد أرض الجامع. سجاجيد على سجاجيد والمكان مملوء موتى. هذا ما رأته: رأت المرحوم أباها ورأت المرحوم زوجها ورأت المرحوم شاهين ورأت وجوهاً لا تعرفها. لكنها استوعبت من الأحاديث بينهم ـ كانوا يتكلمون طوال الوقت ـ أنهم جميعاً موتى. اضطربت وهي نائمة وابتعدت إلى زاوية. هنا لم تكن الأرض مفروشة سجاداً وحصائر. هنا كانت الأرض رملاً أصفر مثل شط البحر. جلست فرأت المرحومة أم شاهين. لم ترَها إلا عندما جلست. كانت المرحومة صفية الفاخوري البارودي قاعدة تأكل برغلاً بالبندورة. هذه من طبخاتها المفضلة. وتأكل معها خبزاً مرقوقاً وتأكل معها بصلاً أبيض. وإذا وُجد الكبيس (المخلل) تأكل كبيساً أيضاً. كانت قاعدة تأكل ورفعت وجهها وقطعت رغيفاً ودعتها: «تفضلي». لكنها دعتها كغريبة. كما تدعو شخصاً لا تعرفه. كأنها ليست ضرّتها. كأنها لم تجلس جنب رأسها وهي مسلولة، كأنها لم تمسح بالفوطة دماً عن فمها. أخذت الخبز فرأت أن الخبز ليس خبزاً بل قماشاً. قطعة من القماش. أبعدت القطعة فرأت أن طنجرة البرغل ليست طنجرة برغل بل هي فراش عليه أطفال. عدّت

الأطفال. كانوا أربعة. المرحومة أم شاهين دلّت بإصبعها على الأطفال وقالت: هذا شاهين، هذا عبد الرحيم، هذا عمر، هذا عمر أيضاً. وسألتها لماذا لا تأكل. في تلك اللحظة اقترب رجل تعرفه. هذا أبوها. ما زالت تذكر وجهه. اقترب وسألها عن صحتها. خافت منه وتراجعت بوجهها. خافت من أنفاسه. كأنه معمول من وحل. خرجت أنفاسه باردة، رائحتها طين وعرق.

سهيلة النابلسي البارودي فتحت درفات النافذة ليدخل نور الشمس الحلو إلى فراش ابنتها. بلّلت منديلاً بماء ومسحت وجهها ومسحت رقبتها. زهرة (أهل الحارة ينادونها «أم خالد») شربت الحساء بالملعقة. شربت الحساء وحدها. قالت إن صحتها أحسن اليوم، تشعر أن القوة ترجع إلى جسمها. رتّبت أم زهرة الغرفة ثم خرجت لتسقي أحواض الزريعة. نادت على سعدى وبهيجة. تريد مساعدة في حمل الماء إلى فوق. صارت تتعب من نزول الدرجات وصعودها بسبب سمنتها الزائدة. أول نزولها هنا كانت كيس عظم. عندما جلبها عبد الجواد من بيت أبيها المجاور لمقبرة السنطية كانت عظاماً تطرطق.

سقت الحبقة فخرجت رائحة الحبق من الورق الطري وأفعمت أنفها. تنشقت الرائحة الطيبة وحاولت أن تنسى المنام الأسود. ضحكة سعدى في أذنها أبهجتها. خرجت زهرة إلى الباب ونادت على بناتها. من الأسفل، من الطريق، جاءت أصوات أخرى. وفد جديد في طريقه إلى بيت عبد الرحيم. من الجانب الآخر أتت زغرودة. طارت عصافير الدوري من السنديانة وحطّت في التوتة. ثم طارت من التوتة وارتفعت مع الهواء وغابت.

هواء البحر يأتي من وراء حارة القرميد حيث تعالت من قبل

«صبيرات سرسق» الخُرافية (عبد المجيد الفاخوري الذي أقام زمناً في الأستانة قال إنه لم يرَ صبيرات بمثل هذه الضخامة والعلو إلا في جزر إيجه). الهواء يحمل رائحة المغلي ورائحة التوت ويحمل الزغاريد ويرفعها فوق سور الحارة. تبلغ الزغاريد سوق الفشخة لكنها لا تقطع السوق ولا تبلغ «بيروت الفوقا». حيطان الجامع العمري عالية، وحيطان جامع النوفرة (غرباً) عالية، وحيطان جامع السراي (شرقاً) عالية. هذه الحيطان على حافة سوق الفشخة، بعد الطريق المكتظة بالباعة والدكاكين والزبائن والحمير ودوامة الألوان والروائح والأصوات، هذه الحيطان القديمة المنفوخة بالرطوبة، المسودة بتعاقب الأعوام، المعرقة بالخزّ (الطحلب)، تمنع زغاريد «حارة البارودي» من بلوغ «بيروت الفوقا».

إذا هبّ الهواء الغربي لحظة، في المقابل، ترتفع الزغاريد دائرة في الهواء، ترتفع فوق الرؤوس، ترتفع فوق السلال المعلقة بالبكرات والحبال فوق سوق الفشخة الضيقة، ترتفع كما ترتفع أسماك البحر وطيور السماء، تطير، تطير زغرودة شكرية تامر فوق سلال القصب المملوءة جبناً أو بيضاً أو حلاوة، تطير فوق بائع السحلب عند الزاوية، بالمغرفة يرفع السحلب الساخن من الطنجرة إلى الطاسة، وبين حين وآخر يحرك السحلب لئلا يلصق بالقعر. الزغاريد ترتفع مع الهواء الغربي. ترتفع فوق قبب جامع السراي وتخرج من بطن البلد إلى ساحة البرج (يسمّونها «سهلات البرج»، مزروعة توتاً، هنا وهناك تتباعد بيوت. البيوت ليست كثيرة. في زمن عبد الجواد أحمد البارودي لم تكن توجد هنا إلا أكواخ قزّ. لكن في زمن ابنه عبد الرحيم ـ بينما «خان التوتة» ترتفع حيطانه رويداً رويداً ـ تكاثرت بيوت السهلات. حوادث 1841 و1845 في الجبل، ثم

حوادث 1850 في حلب، أرسلت نازحين إلى «السهلات». في 1855 نُكِبت السهلات بالطاعون الأسود. الحلبيون النازحون إلى ساحة البرج ضربتهم المصيبة وحصدتهم حصداً. أُحرقت البيوت التي أفرغها المرض من سكانها. الوالي أمر بهدمها. هُدمت ورُميت حجارتها في البحر وراء حارة الأمير ناصر الدين التنوخي المعروفة بحارة اليوناني.) تبلغ الزغرودة الطويلة العالية أشجار التوت والجميز خارج السور المتداعي العتيق لكنها لا تبلغ عمر البارودي على سطح «خان التوتة». عمر البارودي ليس هنا.

الغرفة فارغة. على الأرض أمام الغرفة عدد لا يحصى من الحمائم ينقر حبّاً. يلتقط الحبّ ويحرك رؤوسه كأنه يرقص. يرسل هديلاً متقطعاً ولا يطير. الشمس تظهر من بين الغيوم ثم تختفي. تظهر ثم تختفي. الخان يغلي كقفير نحل. قوافل داخلة قوافل خارجة. عمر البارودي ليس هنا. غادر عند الفجر. تحت جناح الظلام أخذ ثيابه القليلة واختفى.

الشيخ صلاح الدين بيهُم تاجر الحنطة العائد من زحلة إلى بيروت في ذلك النهار بالذات التقى ابن البارودي «المقروم» في خان عين داره القريب من ظهر البيدر. ألقى عليه التحية فردّ العملاق المشروم الأذن تحيته لكنه لم يقعد معه ويقاسمه الخبز والزيت والملح. قال إنه مستعجل وإن القافلة التي يسافر معها تتأهب للخروج. الشيخ صلاح الدين بيهُم تمنى لابن المرحوم عبد الجواد التوفيق وتركه يهرب من الخان كأن الحكومة تطارده. لم يستوقفه لأنه خاف أن يكون في ورطة.

الحاج عبد الرحيم البارودي تضايق من ذهاب أخيه هكذا، من دون أن يترك خبراً. استغرب أن يرحل الآن بالذات. أين يذهب؟

الشيخ عزّت بيضون ذكّره أنها ليست المرة الأولى وأن دنيا الله واسعة لكن الواحد يعود دائماً إلى مسقط رأسه. «وما هي إلا أيام أو شهور ثم تراه بإذن الله أمامك». أخبره الحاج أبو حسين عندئذٍ أنه سمّى الطفلة سليمة.

في الأيام التي أعقبت اختفاء عمر البارودي بدا أخوه الحاج عبد الرحيم واجماً. عزّت بيضون يراه مقطب الجبين طوال الوقت. سأله عن صحة الصغيرة سليمة فقال الحمد لله. سأله عن صحة أم حسين فقال الحمد لله. سأله عن أخواته وبنات أخواته فقال الحمد لله. سأله عن خالته سهيلة وسأله عن خالته سعدية فقال الحمد لله. سأله عن أخواله آل الفاخوري فقال الحمد لله. لم يعرف عزّت بيضون ماذا يشغل بال عبد الرحيم. وعبد الرحيم لم يقل. ماذا يقول؟ لا يتكلم إلا بعد تفكير طويل. كيف يقول ما يزعجه؟ كيف يقول إن هذه الشركة الفرنساوية تسبب له اضطراباً في معدته!

عندما علم قبل صيف أنهم اشتروا «توتات القوتلي» عند الطرف الجنوبي للسهلات ركبه الوسواس. اشتروا قطعة الأرض الكبيرة أمام بيت البستاني بعد ذلك. ثم علم أنهم يفاوضون خال علي سلامة لشراء التلة عند نبع الكراوية. سأل أخواله آل الفاخوري ماذا يعرفون؟ وهم سألوا عضو مجلس الأعيان الشيخ عمر بيهُم. والشيخ عمر بيهُم أخبرهم أن الشركة الفرنساوية عندها اتفاق مع الوالي وأن الحكومة سمحت للشركة بشراء هذه الأراضي في السهلات. عندما ينتهون من شق طريق العجلات بين بيروت ودمشق سيعملون هنا اصطبلات للخيول وعنابر للعربات.

هذا كلّه لم يضايق الحاج عبد الرحيم: ما ضايقه أن يرسل إليه أصحاب الشركة سمساراً من آل ربيز يعرض شراء «خان التوتة»!

يريدون الخان الذي بذل في سبيل بنائه سنوات العمر! هذا الخان السميك الحيطان، الواسع المخازن، العالي الأبواب، البديع القناطر! من قال لهم إن خانه للبيع؟ غضب الحاج عبد الرحيم البارودي وكاد لسانه يفلت أمام ابن ربيز. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وصان لسانه. أبوه كان يفور هكذا في اللحظة السوداء ثم يهدأ. «يا رضى الله ورضى الوالدين، يا رحمن يا رحيم»، قال الحاج أبو حسين تحت أنفاسه. سبّح بمسبحته العاج الـ 99 حبّة وجرّب أن يبتسم. لن يدع لسانه يفلت منه ولن يغضب.

قال لابن ربيز إن المُلك لله وإنه مسرور بحال الخان وإنه تعب حتى وصل إلى هنا ومن بعده يرث الخان ـ بإذن الله ـ أولاده. الحمد لله الحال مستورة ولا يطلب أن يخزن ذهباً لكنه لا يريد بيع الخان أيضاً. تأنى الحاج في اختيار كلماته ثم لفظ سؤاله:

ـ من أخبرك أن خان البارودي للبيع؟

تبسّم ابن ربيز وقال أصهارك. آل الصايغ قالوا اذهبْ إلى صهرنا الحاج عبد الرحيم، إذا كنت تشتري الأراضي في «السهلات» فلماذا لا تزوره؟

سأله من قال هذا، بطرس أم الخواجا نصر الله؟

قال ابن ربيز:

ـ كلّهم قالوا.

تضايق الحاج أبو حسين وبلع ريقه. عند المساء قال لأم حسين وهي ترضع الطفلة إن أصهاره عادوا إلى حركاتهم. أم حسين قالت الله يحميك من العين يا حجّ، مع أنك طالما كنت طيباً معهم. هو ردّ أن هذا جزاء الإحسان لكن الربّ يجازي. نام وفي نومه رأى

أخته ياسمينة وأخته سوسن وأخته نرجس. الأخوات الثلاث ساكنات في دار آل الصايغ. بناتهن جميلات مثلهن. دم آل البارودي يجري في هذه العروق. كلّما زارهنّ في العيد وجلس بين الأولاد تحت عريشة العنب المقساسي الأبيض في دار الصايغ الزاهرة أحسّ أنه بين أهله. لا يرتاح كما يرتاح في «دار البرتقال» عند أخواله، لكنه يرتاح. ينظر إلى أيوب الذي طال وكبر وصار رجلاً فيشعر بالودّ تجاهه. أيوب الصايغ واسع العينين خافت الصوت سريع الحركة. إذا رأى خاله عبد الرحيم في الطريق ركض إليه وباس يده وباس كتفه. يعمل مع أبيه في خان الصايغ على المرفأ. التجار يحبّونه ويقولون عنه أشياء طيبة. لم يسمع أحداً يذكره بسوء. تعلم عند الأميركان في مدرستهم قبالة القشلاق، وأخواته تعلمن في مدرسة البنات (مدرسة مسز سميث) المجاورة. كان يراه مع رفاقه عابراً الطريق الجديدة أمام الكرخانة خارج باب يعقوب، يحمل في زناره ريشة ودواة حبر، فيتذكر أياماً قديمة عندما كان يتعلم القرآن عند الشيخ سعيد المغربي. كيف مضت السنوات؟ يقعد بين أولاد وبنات لا يعرف عددهم تحت عناقيد العنب المقساسي، يأكل الحلويات الفرنجية ويسمع أخواته الثلاث يستعملن كلمات إنكليزية في حديثهن ثم يعتذرن، فيضحك ولا يتضايق، بل يطلب أحياناً من سوسن أن تعزف على الآلة التي جلبوها من وراء البحر: هذا البيانو الإنكليزي الكبير له أصابع بيضاء وسوداء، تقرع عليها سوسن بأنامل بنات البارودي الحلوة الطويلة فتتصاعد من صندوقه المفتوح نغمات أحلى من تغريد البلابل.

رأى أخواته في المنام وهو قاعد على الكنبة ذات المساند والغطاء الأبيض المطرز بالزهور الزرق. سوسن طرَّزت هذه الزهور،

رآها وقال تشبه الزهور التي كانت تُطرزها المرحومة أم شاهين على وجه المخدة. أخواته نظرن إليه ساكتات وهو عرف أنه أخطأ: أخطأ في مكان يجهله وعليه تصحيح الخطأ. عند الصباح استيقظ رائق المزاج. لبس قميصاً لم يلبسه من قبل ولفّ عمامته ومضى إلى الجامع العمري. بعد الصلاة انحدر في سوق القطن إلى خان الصايغ وتكلم مع أصهاره. لن يحبس غضبه في صدره. لن يغضب. السكوت لا يفيد. السكوت يتحول عداء. صارح أصهاره. بطرس الصايغ تورّد وجهه وحلف أن ابن ربيز فهم كلامهم خطأ. هم لم يقولوا إن الخان للبيع، قالوا إن زيارة الحاج لن تكون خطأ. بما أنه يشتري الأراضي حول الخان للشركة الفرنساوية فمن واجب حبيب ربيز أن يحكي مع «الحاج بو حسين» أولاً.

نصر الله الصايغ لعب بساعته الذهب المعلقة على بطن صدريته بسلسلة ذهب ثخينة وقال لا تزعل يا ابن عمي، الأعمال بالنوايا وقصدنا شريف.

الحاج عبد الرحيم شرب القهوة المرّة ناظراً إلى زكائب الفحم وقال لم أزعل. وبطرس تباسط في الكلام وهو تباسط معه. راق الجو وتكلموا عن البحر والمرفأ والباخرة «عز الله» التي جنحت قبالة الأوزاعي قبل أيام ثم غرقت. عبد الرحيم قام وقال الشغل لا ينتظر الواحد. سلَّم وخرج. عجّل في خروجه لأن عمر خطر في باله. فكر أنهم الآن يسألون عنه فخرج.

التقى خارج باب الخان خالد ابن أخته زهرة ذاهباً إلى شغله في المدبغة على الشط. حيّاه الشاب الطويل الرموش المحني الرقبة وباس كتفه. عبد الرحيم سأله لماذا لا يراه في الحارة هذه الأيام؟ وخالد قال الشغل يا خالي الشغل، وفتح يديه أمامه. نظر عبد

الرحيم إلى الأصابع المسودة المملوءة شقوقاً وطبطب على كتف خالد. رأى الأظافر المكسرة وربت على كتف الصبي الذي صار رجلاً وقال الله يرعاك يا إبن أختي، إذا احتجت شيئاً لا توفر خالك. خالد نظر محني الرقبة كالعادة إلى خاله، مثل الثور هذا الخالد ينظر من تحت رموشه ومن تحت جفنيه، صوته ثابت خشن فيه توحش، لكنه لا يقصد الشرّ، صوته فيه توحش مُوجه إلى بطنه، كأنه يقسو على نفسه، كأنه يطلب من نفسه أكثر مما تستطيع، من نفسه يطلب، ومن جسمه، يعمل كالثور من الفجر إلى النجر، عبد الرحيم يرصد أخباره، كم مرة قال له تعال اشتغل عندي، لكن خالد لا يأتي، يقول يكفي ما تفعله من أجلنا يا خالي، خيرك زائد علينا يا خالي.

سرّ برؤيته وودّعه وقطع بين المكارين النائمين ساعة في ظل العنابر وصعد الدرجات إلى المصطبة الخشب أمام المطعم. أسرع يوسف منيمنة خارجاً من أعماق الحانوت مرحباً به. جلس وتركه يسكب له قهوة ويعدّ أرجيلة. ارتاح برؤية هذا الرجل الصغير الطيب خالد. أبعد عنه كلمات آل الصايغ. ليسوا أهل سوء، لكن ألسنتهم طويلة. يخلطون القمح بالزؤان وألسنتهم كالمذاري. الله يلعن الطمع والحاسد لا يسود. ليست المرة الأولى. ويسمون خانهم خاناً! هذا خان؟ هذا مخزن. نصفه مخازن ملح ونصفه مخازن فحم. لم يتعلموا من الأميركان شيئاً. والحاج الاسطمبولي (عمه وخاله) يقول أنهم يسرقون الحكومة: يستوردون بضاعة لحسابهم ويقولون انها بضاعة للقنصل وبضاعة للمرسلين ولا يدفعون الجمرك على البضاعة. مع هذا ليسوا أهل سوء. أخذوا من الأميركان حبّ الدفاتر. يعرفون مسك الحسابات ولا يبذرون. لكنهم أحياناً

يخسرون في التجارة. البحر يطلع وينزل وعلى البحر حياتهم. كل تلك السفن! كل تلك البضائع! بدأوا باستيراد قوالب السكر الأميركاني الملفوفة بالورق الأزرق قبل آل فياض وقبل آل صباغة. الخواجا نقولا صباغة سرق نصف تجارتهم. وعندما غرقت الباخرة «تيموثي» كم خسروا؟ الله على كل شيء قدير. لكنهم ليسوا أهل سوء. من الفجر ينحدرون إلى الخان. بطرس ينام في الخان أحياناً. صار ضخم الجثة بطرس، وعليه أن يتوقف في نصف الدرج إذا أراد الصعود إلى السطح. يلهث ووجهه يصير أحمر كالشمندر. وطيات الشحم أعلى صدره تندفع إلى فوق. وتصير رقبته كرقبة الجمل المريض المتجعدة. يأتي أحياناً إلى هنا ويأكل شواء. يفك زناره الكحلي العريض الصوف ويطويه على ظهر الكرسي. يكوم أرغفة الخبز على ساق سرواله الفضفاض، على الفخذ الكبيرة، ويضحك. نصر الله نزع القمباز ولبس الزي الفرنجي. نادراً ما يأتي ويطلب شواء.

نصر الله بن سمعان الصايغ يلبس لباس الخواجات ويأمر أخوته ولا يحكي معهم. حتى أمام الغرباء ينهرهم. ما زال نحيل الجسم بارق النظرة، متحفزاً. يقعد على حافة المقعد، كأنه يستعد للنهوض في أي لحظة. عبد الرحيم كان يظن من قبل ـ قبل سنوات طويلة ـ أن بطرس الصايغ هو صاحب الأمر في العائلة. توهم ذلك من صوته العالي، ومن ضخامة جثته، ومن ظهوره الكثير في الأسواق وعلى أرصفة المرفأ. كما أن بطرس لبس الساعة الذهب بالسلسلة في عروة القميص قبل أن يلبسها أخوه نصر الله. لعله أول من لبس هذه الساعة الذهبية بين تجار بيروت. لكن تعاقبت الفصول وبدأ عبد الرحيم ينتبه إلى سلطة نصر الله المضمرة. ومع مرور الوقت لم يعد

الأمر خافياً على أحد: ما يقوله نصر الله يمشي في دار الصايغ ويمشي في خان الصايغ. الأخ الثالث إبراهيم الذي تزوج نرجس البارودي ـ كما تزوج نصر الله ياسمينة وكما تزوج بطرس سوسن ـ إبراهيم سافر إلى الإسكندرية بأمر من أخيه الكبير ورجع من هناك بأمر منه أيضاً. قال في السوق إنه ذاهب في تجارة مستقلة ثم اكتشف عبد الرحيم من أم زهرة أن زوج نرجس لم يكن يريد أن يسافر لأنه يدوخ عند ركوب البحر ولأنه يمقت الابتعاد عن بيته وفراشه. قالت أم زهرة ذلك وغضت بصرها. وعبد الرحيم همهم كأنه يستنكر. وبعد ابتعاده ضحك في سرّه، ضحك وتخيل إبراهيم الصايغ مغلوباً على أمره يدوخ في البحر من بيروت إلى الإسكندرية.

قلّب دفتر المطعم وهو يأخذ نفساً عميقاً من الأرجيلة. نبّه يوسف منيمنة إلى ديون القناصل وخواجات سوق الإفرنج وقال له أن يذهب بنفسه لتسليم الطلبيات عندما تتأخر المستحقات. عليه أن يمرّ على حانوت التبغ قبل الذهاب إلى الخان. وهذا العصر بعد الصلاة عليه المرور على مخزن البازركان. الشغل كثير والوقت قليل. مع أن حسين بدأ يمد يدّ المساعدة وكل الوقت يلزم الخان ويلزم الشيخ عزّت بيضون. يساعد في كل الشؤون: حتى معالف البغال يقلبها وينظفها ويملأها تبناً جديداً.

وضعه في كتاب الشيخ الصافي في جامع السراي فتعلم أن يفك الحرف وتعلم أن يجمع الأرقام. ما ان صار يكتب الفاتحة ويكتب اسمه واسم أبيه واسم جده واسم العائلة على القرطاس حتى قال هذا يكفي، يكفي يا أبي، إذا درست بعد أرمد وأعمى وأصير مقرئاً على مقابر الخارجة. الحاج أبو حسين ضحك من كلمات ابنه الذي لا يطيق القعود لا في الكتاب ولا في البيت. حتى في حانوت التبغ

يملّ. وفي مخزن البازركان يملّ. جرّبه في البدء هنا، تحت يد يوسف منيمنة، لكن حسين تضايق من الوقوف بين المناقل طوال النهار يُهوّي على الجمار ويقلب أشياش اللحم ويخلط الحمص بالطحينة ويقشر البصل ويدق الثوم. قال هذا شغل نساء، وأبوه ضحك وقال أنا اشتغلت شغل النساء حياتي كلّها إذاً، وجدّك من قبلي أيضاً. قال حسين «أعمل في الخان». فأخذه إلى الخان.

الأرجيلة تقرقر ويوسف منيمنة ينتبه مرة أخرى إلى الشبه الغريب بين عبد الرحيم والمرحوم عبد الجواد. لا يتشابهان في أمور ويتشابهان في أخرى. وَرِث الإيماءات ذاتها عن أبيه: حين يأخذ إبزيم الأرجيلة فيطويه نزولاً ثم ينفضه ويرفعه، سبحان الله، سبحان الخالق الناطق. وعندما يغمض عيناً ويترك العين الأخرى نصف مفتوحة ترمق الجمرة المطفأة، ينتبه يوسف منيمنة بلا كلام ويسرع بالجمرة اللاهبة الجديدة الحمراء. وعندما يقف بين المكّارين ويكلمهم، ويده ترتفع بالكم الفضفاض وتكشّ الذبان الذي يطنّ بين الوجوه. وعندما يمدّ ساقه اليمنى قاعداً عند طرف المصطبة ويلقي يده بالمسبحة فوق الساق ويُسبّح ناظراً إلى زحمة الميناء. سبحان الله. يتشابهان في أمور لا تعد. لكنه لا يقوم من جلسته قيام عبد الجواد. «الله يرحمك يا أبا شاهين»، قال يوسف منيمنة في قميصه، ورأى الرجل في خياله يقفز واقفاً، يده الواحدة لا تكاد تلمس بصفحتها الأرض، ينط عن الطراحة كالنمر. في لحظة يختفي بين العابرين في سوق القطن، صاعداً إلى دكان الخضر القديم أو ذاهباً إلى أحد معارفه من المنجدين اليهود أصحاب الدكاكين العميقة كأنها الدهاليز.

مسح عبد الرحيم الإبزيم بكمّه ثم ناوله ليوسف وقام واقفاً.

أوصاه أن يمرّ على «العطارين» بعد قليل وأن ينتقي من النقولات الفاخرة رطلاً، جوزاً وصنوبراً ولوزاً مقشراً «باب أول»، وان يأخذها إلى البيت قبل صلاة الظهر. أوصاه أيضاً أن يمرّ على أم هند ويسألها ماذا توصي من السوق، وألا ينسى المرور على أم زهرة. استدار ومضى، وبينما ينزل درجات المصطبة استدار الحاج عبد الرحيم مرة أخرى وهو يردّ شاله على كتفه:

ـ ولا تنسَ المغلي. كلْ كاستين ليس كاسة واحدة وإلا تزعل أم حسين، المغلي فيه حرارة، والجوز منقوع وطري، أنا نقعته بيدي هذا الصباح.

ضحك ليوسف منيمنة وابتعد صاعداً في سوق القطن ماراً بين حمير محملة بأكياس الملح. يلقي التحيات على المعارف. يرفع رأسه بين حين وآخر وينظر إلى غيوم تتباعد كالإبل في السماء. الأسواق بدأت تفور، هذا ليس وقت الراحة. وضع رأسه في الأرض. أسرع الخطى إلى حانوت التبغ قاطعاً سوق الفشخة، لا يدري ـ وكيف يدري ـ ما ينتظره على درج الدركاه. استوقفه الخواجة إسحاق طرازي لحظة أمام باب دكانه. تبادلا الكلام. وبينما يستعد لمتابعة الطريق سمع صوتاً أليفاً خلفه: التفت فرأى الخياط العجوز حمادة المصري يترك طراحته تحت حائط الجامع (جامع السراي) ويقترب. بعد السلام والكلام اخترق دهليز الحدادين القديم وخرج من ظلمة الدهليز المملوء برائحة الطين والماء والعفن إلى النور الجاف الدافئ. ثلاثة رجال يخرجون من باب حارة اليهود حيّوه وانتظروا مروره قبل أن يمرّوا. مرّ بهم وهم يطأطئون الرؤوس ويتبادلون كلاماً خافتاً. الطاقيات اللاصقات بسقوف جماجمهم ذكّرته بمأتم العجوز ملكة مزراحي. من هذه البوابة خرجوا يحملونها

إلى المقبرة. كان قاعداً على الكرسي القش (المقعد الصغير) أمام الحانوت يلف لفافة تبغ بين أصابعه القصيرة. لم يكن وحده. التاجر الديري ميخائل مشاقة كان جالساً عنده يشرب القهوة الحلوة ويلاعب حبّات مسبحته العنبر. قال الخواجه مشاقة أنها صمدت الشتاء كله، قطعت الصقيع ثم ماتت عندما بان العشب تحت المحدلة، البرد أنهكها. والحاج عبد الرحيم فكر أن الخواجه مشاقة قاعد في المكان ذاته حيث لفظ موسى يعقوب مزراحي - صديق أبيه وصاحب هذا الدكان الأول - آخر أنفاسه. لكن العجوز كان على طراحة، والخواجه مشاقة على كرسي بظهر، يلبس برنيطة فرنجية مزركشة ولا يلبس طاقية اليهود ولا يربط شعره تحت الطاقية كعكة. فكر في هذه الأشياء وقال «الله يرحمها».

دفتر حانوت التبغ لا يشبه دفتر مطعم المرفأ. كل هذه الخربشة! هذه الخطوط المتداخلة وهذه الأرقام المقلوبة وهذه الحسابات الانكشارية! هذه لحظة التأنيب والزعل، فورة الدم الصباحية. عليه أن يجد شخصاً يُدير هذا الحانوت، منذ سنوات يقول هذا، منذ سنوات يقول هذا الولد سلامة بلا مخ، عقله ليس في رأسه، والمصيبة المصيبة أنه صار يدخن أيضاً، وعنده زوجتان، ليس زوجة واحدة، زوجة واحدة لا يقدر أن يعيلها، والآن تزوج عليها، الملعون، وبزرته خصبة، زوجته لا تلحق عليه بطناً بعد بطن، الحاج عبد الرحيم ذهب إليه مرة ، كان مريضاً فذهب يسأل عن صحته، وجد بيته كالزريبة، وأولاده كالغنم.

سلامة هذا لا ينفع. لو أن عمر يضع عقله في رأسه ويأتي ويقعد هنا ويستلم هذا الدكان. التبغ كالذهب إذا غطت الثلوج ظهر البيدر وانقطعت طريق القوافل. تدخنه كأنك تبلع ذهباً. عبد الرحيم

يعرف كيف يخزن البضاعة، يعرف إلى أي حدٍ يسمح للسعر بالارتفاع، ويعرف في أي ساعة يطرح بضاعته في السوق. ليس ولداً، ليس ابن البارحة. فقط لو يقبل عمر. لكن أين عمر الآن؟ ومتى يرجع؟ وهل يرجع؟ نظر الحاج عبد الرحيم إلى سلامة يلف لفافة تبغ وهو ينفض شيئاً عن قميصه وقال ما هذا الخط، وكيف تقرأ هذه الأرقام يا ابني؟ هذه خربشة دجاج! من وراء سلامة أطلّ عبد الودود برأسه. كرأس العصفور هذا الرأس، رقبة عبد الودود طويلة. قبل الأضحى أمر سلامة أن يأخذه تحت جناحه وأن يعلمه المصلحة لأنه سيفتح حانوتاً جديداً للتبغ على باب «خان التوتة». سلامة عقله سميك، لكنه ليس سيئاً. لم يضطهد عبد الودود وإذا تكلم عنه يقول أشياء طيبة. يقول إنه يلقط ما يقوله له بسرعة. ومع الوقت يستطيع أن يدير دكاناً. هذا الفتى عبد الودود رآه للمرة الأولى وهو ينزل دامع العينين عن سطح «خان التوتة». ظنّ أنه يبكي ولم يعرف ماذا كان يعمل على السطح عند أخيه عمر. نادى على الشيخ عزّت بيضون وسأله من هذا الولد؟

الشيخ عزّت بيضون قال هذا ابن الحصّ، يتيم الأب يتيم الأم ربّاه أحد عمومته. أتذكر قرقماز الحصّ بائع اللبنة؟ هو ربّاه.

الحاج عبد الرحيم تذكر الرجل بالشامة الكبيرة على خده يمرّ في الصباح حاملاً دلو الحليب، وقال صحيح، تطوع وذهب إلى القُرم ولم يرجع، أذكر.

بعد أيام رأى الفتى عبد الودود يصلي صلاة العشاء في الجامع العمري فنادى عليه بعد الصلاة ووقف معه أمام دكان أمين العطّار عند قناطر الجامع. قال له تعال اشتغل عندي يا ابني. تكلما والرجل العطّار يحوم حوله ويعرض عليه الضيافة ويرجوه أن يجلس. هذا

العطّار طيب السريرة أبيض النظرة، عندما يسلّم عليه ساعة مروره من هنا ذاهباً إلى البازركان يتعمد النظر إلى وجهه: هذا العطّار الحلبي النصراني لا ينسى جميلاً. هو ساعده قبل سنين ودبّر له شغلاً حين نزل في «السهلات» فقيراً بلا حول ولا قوة. إذا رآه يضحك له، عيناه العسليتان تلمعان وتتسعان وهو ينظر إلى الحاج البارودي، يعترض دربه كي يسلم عليه. وإذا لاحظ أنه على عجلة سار جنبه إلى طلعة البازركان ثم تراجع في اللحظة المناسبة. يلمسه مرات بأصابعه ذات اللون البنّي الأحمر، هذا من الحنّة والأطايب، يلمسه لمسة خفيفة على كتفه ويدعو له ثم يتراجع عائداً إلى الدكان حيث تصطف أكياس التوابل.

عبد الودود الحصّ مدّ رأسه إلى أمام وقال عن إذنك يا حج، هذه الصفحة بيّضناها هنا. قال العبارات بصوت مهذب يحاول أن يكتم حماسة، ثم مدّ يداً نظيفة الأظافر وفتح على الصفحة التي بعدها. هنا رأى عبد الرحيم خطاً مستقيماً ورأى أرقاماً واضحة مقروءة. رفع وجهه إلى ابن الحصّ وقال خطّك حلو، انتبه دائماً لخطّك.

أسعده أن يرى هذا التحسن. ووجد خطوته أخف وهو يقطع الطريق أمام كنيسة مار الياس ثم أمام كنيسة مار جرجس ثم أمام الدكاكين المتكاثرة. سرب نساء بملاءات ملونة وقف أمام «فرن الدباس»، ووراء النساء رأى أولاداً وعبيداً يحملون صواني العجين وسلال اللحم والخضر والفواكه. فاحت الرائحة الشهية من الفرن الجديد وغمرت أشجار التوت الباقية حيث كانت من قبل «الساحة». كانوا يسمّونها ساحة العصافير والأولاد كانوا يجلبون الحساسين التي يصيدونها بالدبق إلى هنا، يعلقون الأقفاص على هذه الأشجار

وينتظرون الزبائن. دائماً تُحرك رائحة العجين المخبوز ذكرياته. رائحة المناقيش ورائحة اللحمة بعجين ورائحة الكشك ورائحة الفطائر. غمرته رائحة الزعتر الحارة وملأت فمه لعاباً. لكنه تجاوز زحمة النساء والأولاد أمام الفرن وتابع طريقه صاعداً في طلعة الدركاه إلى بيت سليم الحايك. هذا رجل آخر شغله الأراضي وبيع الأراضي، وعبد الرحيم البارودي عنده ما يكلفه به: سيطلب منه أن يعرض على الخواجا الياس طراد شراء جلّ الصبّير جنب «توتات القوتلي». الجلّ ليس كبيراً. كلّه رباعات صبّير وفي هذه الأيام يجذب العيون من بعيد: هذا موسم الصبير، الثمار تنضج، شمس الصيف الطويل أشبعتها حلاوة، ثمار برتقالية تنضح سائلاً عسلاً. ليس الوقت المناسب ليعرض شراء «صبيرات طراد». في أوقات أخرى تكون كفوف الصبير مغطاة بالرمادي، تبدو يابسة قاحلة، حتى العصافير لا تقرب أشواكها. هذا كلّه غير مهم. سيشتري الصبيرات حتى لو طلب الخواجا سعراً عالياً. يحتاج هذه الأرض. يكفي أن يشتري الجلّ المستطيل كي تعرف الشركة الفرنساوية أنه ليس في وارد أن يبيع شيئاً. الشراء بلى، البيع لا. لماذا يبيع؟ الخان مزدهر. وإلى ازدهار أكبر ان شاء الله. بسم الله الرحمن الرحيم. إذا كرّت العربات صار الخان محطة.

هذه «الشركة الفرنساوية ـ العثمانية» لن تسرق جنى عمره. منذ سنوات ينتظر هذه الطريق. أصحاب المساجيري تجار ليون ومرسيليا أصحاب المصارف وسكك الحديد في باريز لن يسرقوا جنى عمره من أمام عينيه. منذ سنوات رأى في رأسه هذه الطريق. الكونت برتوي استولى على خطته. كم مرة طرح أمام «مجلس الأعيان» هذه الخطة؟ الحاج محي الدين الاسطمبولي الفاخوري قالها بعظمة

لسانه: «هذه طريقك نفسها يا عبد الرحيم، لم يغيروا فيها شيئاً، كأنك رسمتها على التراب لهم!»

آل الصايغ لهم أن يضحكوا ـ في بيروت ناس كثر هوايتهم طق الحنك ـ وأن يقولوا الطريق ليست ملكاً لأحد، الطريق كانت هنا دائماً، لا أحد يخترع الطرقات، كنا نسلكها في قوافل، على حمير وبغال وإبل وأحصنة، وأجداد أجدادنا كانوا يسلكونها، الآن تصير أوسع لأن الفرنسيس يبذلون المال في توسيعها، تتسع وتُسوى أرضها فتكرج عليها العجلة، العربة تجرّها الجياد والواحد يصل أسرع والبضاعة تصل أسرع، هذا صحيح، الطريق خطة عظيمة، لكن لا أحد يخترع الطريق، هي من الأصل موجودة، والآن الفرنسيس جلبوا الفرمان وجلبوا المال ويوسعونها، بعد ذلك يجلبون العربات بالدواليب.

آل الصايغ يقولون السماء مشمسة زرقاء حتى لو كانت السماء ملبدة تمطر برداً على رؤوسهم وثلجاً، إذا قال عبد الرحيم إنها تمطر. ابتسم وهو يقفز متجاوزاً القناة الوسخة المياه ـ أمام حمام الدركاه ـ ويرتقي الدرجات جنب الثكنات العقد ويطلع إلى بيت الحايك.

السلالم الحجرية صقيلة في الوسط. شبه ذائبة. يحاذر لئلا يزلق وهو يرتقيها. الوقت يفعل فعله. وصبابيط العساكر والضباط أيضاً. الضباط يطلبون حديداً في نعالهم. يعرف ماذا يطلبون. هند ابنة خالته سعدية الحصّ تزوجت الإسكافي سلمان قدورة ابن الإسكافي محمد قدورة ابن الإسكافي سلمان قدورة. مثل آل الشدياق (أهل الخياطة) توارثوا هذه المصلحة. سلمان قدورة جاء إليه في «خان التوتة» طالباً يد هند ابنة خالته سعدية. الحاج عبد الرحيم تحيّر ولم

يدرِ ماذا يقول. ثم أنقذه طبعه ـ طبع التاجر ـ فقال أنت كريم الحسب والنسب يا أخي يا سلمان، لكن يلزم أولاً أن أشاور خالتي، البنت بنتها، هند أختي هذا مفهوم، لكن الأم لها رأيها. ظنّ الحاج أبو حسين أن خالته ستمانع وأن أخته هند ستمانع. الرجل يصنع مداسات وصبابيط وكنادر، يُصلح نعالً قاعداً في سوق الصرامي وراء حائط الجامع العمري طوال النهار، يراه أحياناً منكبّاً على صباط والصمغ لاصق بأصابعه والمسامير ظاهرة بين شفتيه يوشك أن يبلعها. حياته من الصباح إلى المساء طرطقة بالشاكوش وقص بمقص الجلد الكبير وحياكة بالإبرة الساخنة والخيط الحرير الذي يجرح اليد جرحاً. ظنّ أن خالته ستمانع وأن أخته هند ستتهرب. لا الأم سعدية مانعت ولا البنت هند مانعت.

ارتقى الدرجات إلى بيت الحايك المعلق نصفه فوق باب الدركاه. أخوه عمر وُلد عندما دخل إبراهيم باشا المصري بيروت من هذه البوابة. أين عمر الآن؟ ارتقى الدرجات شارداً يُخطط لزيارة الحاج الاسطمبولي قبل صلاة العصر واستشارته في مسألة الشركة الفرنساوية. الأفكار تتدافع في رأسه وصدره. وعليه أيضاً أن يمرّ على شريكه التوتونجي وأن يكلمه بشأن الناظر الجديد. معمل المنسوجات الحلبية أتعبه، هذه ليست مصلحته، والشراكة تُتعب. متى يمرّ على المعمل؟ المعمل هنا، خارج باب الدركاه في بساتين الغلغول والشلفون، يبعد عشرين خطوة أو ثلاثين. لكنه ملحوق. عليه أولاً أن ينهي مسألة الأرض. ثم أن يهرع إلى الخان قبل وصول قافلة الداعوق. «الواحد إذا سبَّع الكارات ينحني ظهره ويبيضّ رأسه»، قال له جده الأعمى المفلوج مصطفى غندور الفاخوري.

خيَّم على رأسه ظلّ في تلك اللحظة فرفع وجهه وهو يتسلق

الدرجة الحجر الأخيرة. فاجأته صبية مكشوفة الوجه مشروحة العينين شعرها أسود فاحم ظاهر من تحت منديلها الحرير الأخضر. إذا رأى امرأة مكشوفة الوجه في الطريق غضّ البصر أو أشاح بوجهه. هذه عادته. يرغب أن ينظر، بلى، لكنه يتجنب ولا ينظر. ليس ورِعاً ورع الشيخ عزّت بيضون لكنه يخاف ربّه ويحرص على عرض الناس حرصه على عرضه. لكن هذه الصبية البيضاء الرقبة، الحلوة الفم، فاجأته. ألقت تحية ومرت جنبه ونزلت الدرج بخطوة واثقة. تركت خلفها رائحة مسك وصابون معطر. يعرف هذه الرائحة ولا يعرفها. قبل سنوات كانت رائحة الصابون الديري الشهير تُدير مخّه كلما عبر الدهليز صاعداً من الفشخة إلى حانوت التبغ. في ذلك الوقت كان النازحون الديريون يعجّون كالنمل في الدهليز. الحدّادون غادروا المكان إلى سوق جديدة داخل باب إدريس، والديريون نزلوا في الدهليز المعتم وملأوا المكان روائح طيبة. سمّوه «دهليز السيدة» تيمّناً بسوقهم المجاورة لكنيسة السيدة في بلدهم الأم دير القمر. نزلوا من الجبل إلى هذا الدهليز. وعندما بدأ الدهليز يتصدع، وعندما خرجت من أرض الدهليز سوائل قاتمة، غادروا الدهليز ونزلوا في سوق الإفرنج وفي البازركان وفي باب السراي وباب يعقوب. تبعثروا هنا وهناك وبعثروا رائحة الصابون الطيبة على أطراف البلد. يعبر الآن الدهليز فلا يشمّ غير العفن والبول. مرات يدور الدورة، يذهب إلى العطّارين ويدور من هناك إلى سوق الصرامي متجنباً ولوج الدهليز. لكن أين يجد الوقت كي يبرم حول الجامع العمري في كل مرة؟

قلبه انكمش في صدره وهو ينظر إلى الصبيّة عاجزاً عن غض بصره. لم يضع وجهه في الأرض. ظلّ ينظر. نظرته التقت نظرتها.

وهي ألقت التحية ونزلت الدرج. وهو تأخر ولم يردّ التحية. بعد أن نزلت استدار وردّ التحية. التفتت التفاتة خاطفة، ألقت ابتسامة أخرى إليه من فوق كتفها، ثم اختفت عند انعطافة السلالم. اختفت وبقيت الرائحة. يعرف هذه الرائحة ولا يعرفها. كيف حدث هذا؟ لم يحدث مثل هذا من قبل. الصبية سرقت أنفاسه. خطا على البلاطة أمام الباب الخشب القديم ولم يقرع الباب. ظلّ واقفاً، غارقاً في الرائحة.

وُلد عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي ـ بحسب «الشجرة النَّسبية لأسرة البارودي البيروتية» ـ قبل ثلاث سنوات من الفتح المصري. عاش السنوات المصرية الزاهرة في كنف أبيه. مات المعلم عبد الجواد فوجد عبد الرحيم ابن الـ 14 عاماً نفسه مسؤولاً عن ثلاث عائلات وعن صف بيوت. وَرِث عن أبيه حبّ الله وعباده. وَرِث ذهباً وصيتاً عطراً. وَرِث طاقة ونشاطاً. لكنه وَرِث أيضاً خالات وأخوات وعبيداً ودكاكين ومسؤوليات تكسر ظهر جمل. لم ينكسر ظهره. سوَّر بيوت الحارة بحجارة من سور بيروت المقصوف. جعل للحارة بوابة سنديان مرصعة بالحدائد فلا تحطمها الفؤوس. تنفتح البوابة على طريق بيضاء. عندما ترد البوابة وراء ظهرك تغيب ضجة سوق الفشخة وتغيب الوجوه والسلال والزحمة والأصوات. لم ينكسر ظهر عبد الرحيم. حمل الأحمال. غيَّر دكان الخضر إلى دكان تبغ لأن البلد امتلأ بالجنود والجنود يدخنون كالمشاحر. لم ينكسر ظهره. حجّ إلى مكة. جاور قبر الرسول الأعظم. عاد إلى البلد وقد ارتقى درجة جديدة بين الأقارب والأصحاب. بنى في سهلات البرج على أرض كانت في الأصل تتبع الوقف الإسلامي خاناً اشتهر في تاريخ بيروت باسم «خان التوتة»

وبعد سنة السويس (1869) باسم «خان القزاز».

لم ينكسر ظهره. شارك حلبياً هارباً من المذابح في معمل للمنسوجات والألاجة خارج باب الدركاه حيث قام بعد سنوات دير اللعازارية وحيث يُرى الآن ـ في القرن الحادي والعشرين ـ مجمع اللعازارية التجاري الأصفر المرمم. لم ينكسر ظهر عبد الرحيم. تزوج ابنة خاله الحاج محي الدين الفاخوري الاسطمبولي وأكرمها. أكرم عائشة فأكرمه ربّنا وأعطاه البنين والبنات. من البيت الصغير قبالة الجميزة حيث وُلد وعاش سنوات الطفولة والفتوة انتقل بزوجته وعائلته إلى حارة قرميد. حارة رفعها في نهاية «الطريق البيضاء» جنب شجرة جوز وارفة ظلّلت فيما مضى بيتاً مربعاً، صغيراً وحزيناً، قضت فيه نصرانية دخلت الإسلام اسمها هيلانة جروة البارودي. قضت قبل أن يغطي الشحم عمودها الفقري. قتلتها الحمى المالطية. عبد الرحيم نجا من أمراض كثيرة: الجدري ترك ثقوباً في وجهه المربع. نجا. لم ينكسر ظهر عبد الرحيم. لكنه في ذلك الصباح الغائم من خريف 1859 وقف على البلاطة أعلى درج الدركاه وشعر بالاضطراب مثل ضائع في غابة.

ارتفعت يده مثقلة بالخواتم وقرعت الباب. بدنه (تلقائياً) أنقذ الروح من الحيرة. قرع الباب فتحرك الباب وحده وبانت غرفة طويلة مفروشة بالحصر، في جانب منها مقعد بفرشة ومساند. فوق المقعد نافذة مربعة يتدفق منها النور قوياً أبيض عارماً. ظهر آتياً من أعماق الدار رجل خمسيني يلبس ثياب البيت ورأسه عارية. كان يحمل إبريقاً نحاساً وفنجان قهوة شفة. عندما رأى الواقف في الباب أسرع إليه مرحباً مكثراً من الإيماءات وحركة الأيدي. كل وجهه عضلات صغيرة. وكل العضلات تتحرك معاً. رموشه تبربش. أذناه ترتعشان.

دعاه إلى المقعد تحت النافذة وهو يُبعد المساند ويرتبها ويصفّها. خبط بكفّه الكثيرة الشعر على الفراش فارتفع غبار خفيف وسبح في مكعب النور الشمسي الداخل من النافذة.

عبد الرحيم حاول أن يصرف نظرته عن الأذنين الكبيرتين الحمراوين وهو يكلم سليم الحايك. سأله عن صحته وأحواله. سأله عن العائلة والأولاد. قال كلهم بخير الحمد لله، كيف أحوالك أنت يا حاج؟ عبد الرحيم قال إنها مستورة وسأله هل أتى إليه في وقتٍ باكر؟

«أعوذ بالله أعوذ بالله»، قال سليم الحايك، «البيت بيتك، البيت بيتك، لكننا كنا ننظف عينيّ الصغيرة».

عبد الرحيم لم يفهم كلام الرجل. لكنه استوعب أنه جاء في وقت غير مناسب فقام واقفاً. الرجل هجم عليه وكبسه على كتفيه وأجلسه مرة أخرى. أجلسه ونادى على إحدى بناته لتأتي بالقهوة، وتدفق بالحكي شارحاً حال الصغيرة. قال إنها مرضت في عينيها. مرضت بعد أن فطمتها أمها. مرضت وصار «العَمَل» الخارج من عينيها يمنعها من النوم. تنام فتوقظها المادة الصفراء الخارجة من عينيها: ليست كالمادة التي يُخرجها الجلد إذا تعرّض لحرق. هي أشبه بالصمغ الذي تفرزه الأذن. لكنها أغزر وألين، وشبه سائلة. ليست رمداً. الشيخ الأميركاني الطبيب كرنيليوس فانديك جاء من زقاق البلاط وفحصها. معه حقيبة بحواف خشب وجلد، لها أزرار فضة. حقيبة تشبه الصندوق ولها مسكة. فتحها وأخرج قارورة لا يستطيع الواحد أن يرى ما فيها. قارورة سميكة الزجاج بلون التراب. سكب من القارورة في عينيّ الصغيرة فزالت المادة الصفراء. أخرج من حقيبته قطناً أبيض كالثلج. وسكب من القارورة

السائل الأبيض ذاته على القطنة. ثم مسح جفني البنت ومسح رموشها ومسح البقعة تحت عينها. زالت المادة الصفراء. وصارت فقاقيع بيضاء مثل فقاقيع الصابون تزحف على صدغها، هنا، فوق حاجبيها. مسح هذه الفقاقيع بكمّه وقال «الآن ننتظر». عندما ظهرت المادة الصفراء مرة أخرى قال: «صلّوا من أجلها، الربّ الشافي». أنا لحقته إلى كعب الدرج وقلت له أن يجرب مرة أخرى. قال اغسلوا عينيها بالماء عند الصباح وعند الظهر وعند المساء. اغلوا الماء على النار واتركوه حتى يبرد أو يصير فاتراً واغسلوا عينيها. وصلّوا من أجلها. قال إن حالها ميؤوس منها. ستفقد بصرها ولا يستطيع شيئاً. لم يقل هذا بالضبط. يتكلم بطريقة غريبة. لم يقل إنها ستعمى. لكنه قال إنها على الأرجح لن ترى بعينيها مرة أخرى.

عبد الرحيم فتح كفيه أمامه كأنه يتلو الصمدية. تكلم بصوت منخفض وواسى الرجل ما استطاع. دعاه إلى الصبر وذكر سبحانه. تكلم ما استطاع ثم سأله عن اسمها، اسم الطفلة المريضة.

ابتسم سليم الحايك وقال مريم، على اسم ستنا.

دخلت في تلك اللحظة إحدى بنات الرجل حاملة الطفلة. خلفها دخلت بنت أخرى تحمل صينية القهوة. فاحت رائحة البن وفاحت رائحة الهال الأخضر.

«شرّفتنا يا حاج»، قال الرجل. وسكب القهوة. عبد الرحيم نظر إلى الطفلة وقال سبحان الله ربنا يحفظها لكم ويحفظ بصرها. كان وجهها المدوّر الأبيض يشع نوراً. مغمضة العينين، نصف نائمة، نظر إليها ورأى رموشها سوداء طويلة. طويلة ومغسولة، ظاهرة رمشاً رمشاً كأنها ممشطة، فاحمة السواد. الجفنان متورمان بعض الشيء، فيهما حمرة خفيفة، ولا أثر للمادة الصفراء اللعينة. كرر مرة ثانية:

ـ الله يحفظها وتربى في دلالك.

الرجل الخمسيني تأثر أمام الكلمات الصادقة فبانت دمعة في عينه. ابنتا الرجل انسحبتا من الغرفة. الأولى حاملة الطفلة على ذراعيها، والثانية خالية الوفاض. الطفلة غابت في أعماق البيت مرة أخرى لكن أثرها لزم ذاكرة عبد الرحيم: البشرة البيضاء المخملية والرموش السوداء النائمة. لن نراها مرة أخرى.

شرب رشفة قهوة ساخنة وسأل الرجل مرة أخرى عن صحته. قال سليم الحايك الحمد لله، ألم الظهر يأتي بين وقت وآخر، وأحياناً أتعب على الدرج، لكن الله المعين، والبنات يساعدن أمهن، والشباب كما تعلم، واحد على المرفأ، وواحد في البازركان، والصغير يعمل عند خاله في المعصرة، نحمد ربنا.

عبد الرحيم قال إنه التقى إحدى بناته على الدرج.

سليم الحايك بربشت رموشه وبانت لمعة في عينيه. عبد الرحيم لاحظ اللمعة ولم يمل إليها. شرب الرجل الخمسيني ثمالة فنجانه ثم طرقه على الصينية. مسح فمه بقفا يده وقال «هذه ليست بنتي، هذه بنت جارنا جرجس نوّار. تعرفه؟»

عبد الرحيم قال لا. سمع صوته جافاً، خشناً، غريباً.

ـ اسبيرو نوّار أخوه.

هزّ عبد الرحيم رأسه. يعرف اسبيرو نوّار. يعمل في القشلاق. مسؤول السوقيات (المشتريات) في مطبخ القشلاق. كان من قبل خادماً صغيراً عند الوالي القديم. يعرفه. طالما جاء إلى المطعم يطلب شواء للقشلاق ويطلب متبّلات و«محشي ملفوف» وفتّة حمص. وقبل سنوات قبل أن تتعب أم زهرة من خبز الحلويات وصدور

الكنافة بالجبن، والبقلاوة، كان يأتي ويوصي على المعمول بالجوز والمعمول بالفستق ويقول: «أفخم السمن الحموي، الباب العالي»، ويضحك. يوسف منيمنة اعتاد أن يقول لأم زهرة: «الباب العالي يطلب معمولاً». هكذا «تُبحبح» المواد الثمينة في الصواني لأن ابن زوجها عبد الرحيم تهمّه هذه العلاقة بالقشلاق. الحاج الاسطمبولي معلمه. علّمه كيف يتصرف مع أهل الحل والربط، أصحاب الشأن سكان القصر على الهضبة.

سليم الحايك قال إن بيت نوّار جيرانهم، تذهب من هنا، من جنب الباب، على السور، إلى البيت وراء بيتنا، ومن بعد بيتهم تبدأ السوق وقلّة الحياء. كان يتكلم عن بيوت الملكة محاسن. صارت عجوزاً. الزمن ضاعف شهرتها. الوقت والألسنة. الوقت والألسنة و«العوالم» في بيوتها.

قال عبد الرحيم إنه جاء في عملٍ مستعجل، يريد أن يشتري «صبيرات طراد»، «وما تُوفره يا شيخ سليم يفوت في جيبك».

«صبيرات طراد»؟، قال سليم الحايك. وسأله لماذا يريد تلك الأرض، عنده ألف قطعة أحسن من تلك القطعة، «وعلى علمي الياس طراد لا يريد أن يبيع».

الحاج عبد الرحيم حسم الكلام لئلا يضيع وقته. قال هذا ما أطلب، تتكفل بتدبير البيعة أم لا تستطيع؟

توقف خفقان العضلات في وجه الرجل الخمسيني. بدا فجأة خائفاً. كأنك ألقيت ماء بارداً على رأسه. أذناه ارتعشتا مرة واحدة فقط. ثم تجمدت ملامحه وخرجت الكلمات متماسكة من بين أسنانه:

ـ هذا المساء أكون عندك يا حاج ومعي السعر الذي تريد. أذهب إليك في الخان أم البيت؟

قال عبد الرحيم إنه سينتظره في الخان. قام وقال «قهوة دايمة، الشغل كثير والوقت قليل». تبادلا كلمات سريعة وقال عبد الرحيم إن المنظر حلو من هذا الشباك. يرى البساتين ويرى حقول الغلغول، يرى كل المسافة إلى مزرعة المصيطبة، البرج هناك، هذا في مزرعة المصيطبة.

ضحك سليم الحايك وقال أرى معملك أيضاً، هنا تحت شباكي، مرات أرى شريكك وهو خارج من حمامه.

ضحك الحاج عبد الرحيم وخرج من الباب الأسود القديم ونزل درج الدركاه محاذراً. هذه نكتة شاعت في البلد: حمام شريكه التوتنجي. بنى جنب المعمل حمامين. حمام للعاملات في المعمل، وحمام لنفسه. ممنوع أن يستعمل أحد غيره هذا الحمام. العمال يقضون حاجتهم في البرّية، بين الصبّير. العاملات لهن جورة واحدة في هذه الغرفة الصغيرة الواحدة. وهو ـ ابن التوتنجي ـ له جورته في غرفته الشبيهة المجاورة. حتى ناظر المعمل لا يُسمح له بدخول «حمام المعلم». الحاج عبد الرحيم يستطيع طبعاً أن يدخل حمام شريكه. لكنه لا يذكر أنه دخله يوماً.

قرر أن يؤجل المرور على المعمل. عليه أن يلحق قافلة الداعوق. وبعد الظهر يمرّ على المعمل ثم يمرّ على البازركان. محزن البازركان بات في عهدة ابن خاله. عبد المجيد الفاخوري اشتغل معه في الخان أثناء سنوات القُرم ثم انتقل إلى متجر البازركان. اشترى منه نصف الدكان وصار شريكه. عبد الرحيم يحبّ هذه الشراكة. أبوه هكذا من قبله. حبّ آل الفاخوري يسري في دمهم.

اخترق سوق أبي النصر مارّاً جنب حائط الدركاه الساخن. هذا حائط الحمام. في الداخل تغلي المياه على المواقد العريضة. الحائط ساخن، وأسفله تنبت أعشاب كثيرة. الحياة تحبّ الحرارة. لم يمرّ مرة من هنا إلا واستغرب أعداد النمل والحشرات الـ «أم علي سيري». حشرات حلوة بظهور منقطة. اللون الأحمر واللون الأسود. ينظر إلى الحشرات ويتفاءل بها. يلمس حائط الحمام الحار وتعود إليه ذكريات عتيقة. هذه تأخذ من وقته برهة. لا وقت للشرود ولا وقت للتأمل. خطاه واسعة. يتحرك طائراً عبر السوق، متجاوزاً زاوية أبي النصر، ناظراً إلى شباك بيت محمد الفاخوري. يلقي التحية إذا كان الرجل ـ أو أحد أولاده ـ يشرب القهوة. إبريق الفخار على الحافة وجنبه فخارة وشتلة عطر. لكن لا أحد في الشباك. نزلوا إلى أشغالهم إذاً. قطع تحت السروات الممشوقة ملقياً التحية على أحمد اليافي بائع السحلب. هنا، في طرف السوق، صف من محلات الفول. عربات اجتمعت في ظلّ زاوية أبي النصر. أقل من سبع عربات. بعضها بلا دولاب. وعلى العربة ـ على لوح الخشب المستطيل ـ طاسات وأباريق زيت زيتون وصحون فخار عميقة. على حافة اللوح باقات بقدونس وفجل وعناقيد بصل وثوم. قوارير الكبيس: اللّفت والخيار. جنب كل عربة موقدة. وعلى الموقدة طنجرة كبيرة مسودة يرتفع منها البخار. رائحة الفول المسلوق ورائحة الحمص تملأ المكان. رائحة الكمون أيضاً. أهل الخان يطلبون «بليلة» من هنا أحياناً. باعة الفول المدمس بعماماتهم النحيلة البيضاء ألقوا على الحاج عبد الرحيم السلام. ردَّ التحية مسرعاً، راكضاً تحت الغيمات البيضاء، صوب الخان الذي يظهر بين أشجار التوت مثل سفينة ضخمة جانحة.

أسراب الحمام دارت خافقة فوق الخان. فوق المقابر المقفلة. فوق البحر وفوق «جل الإنكليز» وفوق «حارة اليوناني». دارت في أقواس واسعة. ارتفعت فوق جامع السراي بقببه المخضرة ومئذنته المدوّرة. حلقت فوق عنابر المرفأ وفوق السفن بالصواري والأشرعة وفوق البوابير. انتبه إلى دورتها تتسع وفكر أنها ستمطر هذه الليلة. أخوه عمر قال إن دورات الحمام تتسع عندما تشعر بدنو المطر. أين عمر الآن؟ لماذا يختفي هكذا؟ أراده أن يفرح معه بهذه الصغيرة. هل ترى سليمة عمها؟ هل يعود هذه المرة؟ شاهين من قبله، شاهين من قبله. الله يرحمك يا أخي يا شاهين. تكون جنب أبي الآن. وجنب أمي. الله يرحمكم.

عبر بين أطلال البيوت الباقية ـ بيوت الطاعون الأسود ـ واخترق بستان التوت وراء الخان. دخله من البوابة الصغيرة الجنوبية. لحظة دخوله علق ثوبه بالباب الخشب الموارب فسمع القماش يتمزق. «هذه عاقبة السرعة»، فكر متراجعاً، وخلص الثوب من خشب الباب. عندئذٍ عادت إليه تلك الصورة: الصبية على الدرج بعينيها المشروحتين ورقبتها البيضاء الناصعة.

وجد الشيخ عزّت بيضون في انتظاره. أعلمه الشيخ أن قافلة الداعوق ستتأخر إلى الظهر. جاء رسول ناقلاً الخبر، الرسول سبق القافلة على حصانه. تأخرت القافلة على الطريق بين قريتي بعبدا وفرن الشباك. الشركة الفرنساوية تبني حيطان دعم من أجل الطريق تحت بعبدا. العساكر أخرّت القافلة لكنها تصل ظهراً. الآن تكون على الطريق، ولعلهم بلغوا فرن الشباك بينما نتكلم.

الحاج عبد الرحيم قال سأقطع الطريق إلى السراي وأرتق هذا المزق عند الخياط حمادة، لحظة وأرجع، قلْ لسلمان ابن شامل في

القبو دهان طلياني، الدهان الباقي من غرفة الشيخ توما الخازن، قلْ له الآن ينزل ويدهن «الباب الورّاني».

كان يخرج من الباب ويهم بنزول السلالم لكنه التفت وهو يردّ شاله وسأل:

ـ نقلتم الرزّ إلى العنبر؟

والشيخ عزّت بيضون أجابه أنهم ينقلونه الآن وأن حسين معهم. «طيب» قال عبد الرحيم واختفى نازلاً الدرج.

قطع باحة الخان المتربة إلى البوابة الكبيرة بالقنطرة العقد. صبيان الخان تراكضوا حاملين المكانس الطويلة. يجمعون بعر الماشية وقاذورات الخيل والإبل من أنحاء الباحة. يكومونها في الزاوية بعد مدخل الاصطبلات. مجموعةِ أخرى انهمكت بجرف القاذورات ورفعها بالرفوش وتعبئتها في أكياس جنفيص. هذه الأكياس تؤخذ إلى بساتين الناصرة والرميل. الأولاد اجتهدوا عندما شمّوا زعفران ثيابه. الحاج عبد الرحيم يعرف كسلهم. في الصيف القائظ، عندما ترتفع حرارة الجو وتصير الشمس كالمرجل فوق الرؤوس، طالما كبسهم الشيخ عزّت بيضون مبعثرين حفاة شبه عراة على بلاطات التبن في أعماق الاصطبلات. يختفون وراء الخيول والمعالف والفواصل الحجرية. ويتبادلون النكات البذيئة. تغيروا قليلاً عندما دخل ابنه الخان. حسين يسيطر عليهم. يلازمهم. الشيخ بيضون قال «ربحنا ناظراً يفهم عليهم ويفهمون عليه».

كان عبد الرحيم قد بلغ القنطرة عندما استدار جسمه بلا إرادة منه. ذهب صوب السلالم الحجرية. وراء أجران الماء تصعد السلالم إلى السطح. إلى الغرفة حيث نزل عمر عقب رجوعه من حرب القُرم. كان شعره طويلاً يربطه بربطة قماش على ظهره كذيل

الحصان كما يفعل قراصنة اليونان. وذراعه مدقوقة بالأوشام كالبحارة القبارصة. لكن ما استوقفه أكثر من التبدلات الجسمانية كان الكآبة المظلمة الخارجة منه في موجات.

قصّ شعره عندما نزل هنا وقال «وفيتُ نذري». ولم يقل ماذا كان النذر. قصّ شعره وأقام على السطح يُربي الحمام. ولا يتكلم إلا قليلاً. أهل البلد يأتون ويسألون عن رجالٍ ذهبوا معه بالسفينة ولم يرجعوا. الحرب انتهت ولم يرجعوا. كان يقول هذا مات. هذا لا أعرف. هذا أخذوه إلى معسكر آخر. هذا لا أعرفه. هذا أظن أنه غرق. هذا جُرح لكنه لم يمت وقد يرجع لا أعلم. كان يقول أقل عددٍ ممكن من الكلمات. ثم يشرد ناظراً فوق الرؤوس إلى حافة السطح حيث بنى بيوت الحمائم. يسألونه لماذا تأخر إلى الآن في الرجوع والحرب انتهت قبل سنة؟ يجيب الجواب نفسه دائماً: «القُرم بعيدة».

«القُرم بعيدة»، قال الحاج عبد الرحيم البارودي واقفاً في باب الغرفة الفارغة. رائحة الحمائم تملأ السطح. عليه أن يقول للصبيان أن يطلعوا إلى السطح وينظفوا. نظر إلى الفرشة المطوية في الزاوية. نظر إلى الحصيرة شبه البالية. نظر إلى عدّة الزهورات. إلى الطنجرة المسودة. إلى كانون الفحم المملوء رماداً. نظر إلى الأشياء القليلة الجامدة. تقع عليها نظرته هنا أو هناك فلا يفهم معناها. «أخذ ثيابه وأخذ بطانيته وأخذ البارودة». نظر إلى إبريق الزهورات، إلى كاسات الزهورات الزجاج، إلى كيس يانسون يعرفه جيداً، نظر إلى هذه الأغراض الأليفة وشعر أنها ليست أليفة إطلاقاً. هذا الإحساس انتابه من قبل. متى انتابه؟ عندما نظر إلى مناديل أمه بعد دفنها؟

«أستغفر الله»، قال الحاج عبد الرحيم. وصلّى أن يرجع أخوه

وألا يطول غيابه. صلّى فاتحاً يديه أمامه ونظرته فارغة. كان يصعد إلى أخيه كلّما استطاع. في الفترة الأولى تعمّد الصعود كل يوم والقعود معه. مرات يتشاركان الطعام. يطلب طعاماً ويصعد إلى هنا. ويأكلان معاً. ومرات يتشاركان اليانسون أو الزهورات أو القهوة. القهوة ليس كثيراً، عمر لا يشربها عموماً. يقول إنه بلا قهوة يجد صعوبة في النوم ليلاً. ويُدخن كثيراً. لا يُدخن الأراجيل لكنه يلف لفافات تبغ طوال وقت قعوده. يلف اللفافات ويجمعها تحت فخذه أو تحت المخدة. ثم يشعل اللفافة تلو اللفافة. عندما يقف على السطح ويكش الحمام ترى عمود دخان طالعاً من رأسه.

يسأله عن الحرب. سأله في البدء، وعندما رأى أنه لا يحبّ الحكي كفّ عن سؤاله. لكن ابنه حسين يأتي ويسأله. حسين لم يجد عمه غريباً. لأنه لم يعرفه مثله. حسين صغير. يذكر عمه آتياً إلى الحارة يلاعب الأولاد ويرفعهم في الهواء ويعطيهم زبيباً وجوزاً، وخوخاً وتيناً. يذكر عمه عمر قبل القُرم. يذكر ضحكاته تفرقع بين أشجار التوت من الحارة القرميد إلى بيت أم زهرة. لا ينسى ضحكات عمه. وقعوده على الكرسي. وكيف يضع ساقاً على ساق مقلداً الخواجات والمرسلين الأميركان والتجار الفرنجة. يذكره قبل القُرم لكنه مع هذا لم يجده غريباً عند رجوعه.

الحاج عبد الرحيم سمع عمر يتكلم عن سرقة الذهب والثياب والمحابس. بقيت الصورة عالقة في ذهنه: رجال يعبرون سهولاً مغطاة بالجثث، ينزعون الخواتم من الأصابع، ينزعون الأساور، ينزعون الثياب والجزم، كل ما يؤخذ من القتلى يأخذونه. عمر قال إنهم جمعوا مرة في ساحة المعسكر تلّةً من الخواتم والمحابس. كانت النيران تحرق سيفاستوبول، وغيمة الدخان الأسود تلفّ القلعة

المدمرة، وفي الساحة يتحلق من بقي حيّاً حول تلّة خواتم.

سمعه في مرة أخرى يتكلم عن الروائح. الرائحة التي ترجع إليه في الليل وتخنقه خنقاً. خيمهم على الشط. والبحر مملوء جثثاً. زحف مرة بين جثثٍ وجرحى مسافة بطول المسافة من هنا ـ من خان التوتة ـ إلى «الرملة البيضاء». ليلة كاملة يزحف على بطنه وكوعيه، على الثلج، بين جيف وجرحى ينزفون. الناس هناك كالحيوانات، قال. وقال إن جنوداً يعرفهم كانوا يضاجعون الجثث. يفتشون عن أجسام لم تفقد حرارتها بعد ويضاجعونها.

ارتفع هديل الحمام وراء ظهره فاستدار. رأى الحمائم اصطفت صفّاً على حافة السطح الحجرية ترمقه بعيونها الغريبة. زوج «بقدونسيات» نزل فوق البيوت الخشب. وهذا الزوج أيضاً كان يحدق إليه. ويتحرك حركة الحمائم الغريبة، مخرجاً من جوفه الصوت المحبب. «سبحان الله»، قال عبد الرحيم.

بيض الحمام المسلوق. كل يوم يسلق عمر بيضاً. يسلق البيض الصغير في الطنجرة ثم يتركه في الهواء حتى يبرد. يقشره بأظافره الطويلة ويقول «البيض طيب». فقط بينما يأكل يشعر عبد الرحيم أن هذا أخوه عمر. فقط بينما يأكل.

يغادر مرات في رحلات صيد. يأخذ بارودته ويذهب. قد يغيب نهاراً، قد ينام ليلة في البرّية، لكنه دائماً يترك خبراً. إذا لم يخبر الشيخ بيضون أو حسين أو بولس مزاميري (بوّاب الخان) يخبر أحد الفوّالين المستيقظين فجراً، يقعدون على حائط الخان وقد أشعلوا المواقد ووضعوا عليها القدور. دائماً يترك خبراً. وعندما يعود بمشكاة ملآنة طيوراً يركض حسين إليه. يأخذ المشكاة ويخلص أعناق الطيور الميتة. يطرحها على الطاولة أو على بلاطة الدرج

ويعدّها. مرات يعود وعلى كتفه غزال. الغزلان قلّت في الشويفات، تعبر صحراء الزيتون من طرف إلى طرف ولا ترى هذه الأيام غزالاً. حتى وراء مستنقعات برج حمود صارت الغزلان قليلة. يذهب إلى جبال الشوف ويصيدها. يقول إنه يحبّ المشي والمشي والمشي، صعود التلال وهبوط الأودية. يقول الهواء طيب بين الأشجار ويصير الواحد كأنه ليس هو. عبد الرحيم البارودي سمع كلمات أخيه الغريبة. فهم ولم يفهم. هل هذا أخوه؟ عاد من القُرم غريباً.

أغرب ما فيه أنه لا يدخل البلد. أقام على السطح في «السهلات» خارج الأسوار. لم يذهب إلى «الحارة» ولم يدخل البلد. الحاج أبو حسين سمع من تجار الفشخة وتجار البازركان أن عمر يدخل مرات من «باب بيروت» إلى بيوت العوالم. «باب بيروت» ليس باباً من أبواب المدينة القديمة. قبل أن يقع السور، قبل أن يُهدم وتؤخذ حجارته وتبنى بها البيوت وحيطان الجلول والفواصل بين حارات الأعيان، قبل زوال الأسوار كان للبلد أبواب تُفتح فجراً وتقفل عند صلاة العشاء. وحده باب السراي كان يُترك مفتوحاً وفانوسه مضاء حتى يدلهمّ الليل. وعندئذٍ يُقفل. بالمفتاح يُقفل. المفتاح يحفظه المتسلّم. وتنام المدينة محضونة بأسوارها. «باب بيروت» الكائن بين باب الدركاه وباب يعقوب ليس باباً قديماً حقيقياً. هذا باب تفتقت عنه مخيلة الملكة محاسن. حدث قبل سنوات أن ضُرب الحجر الصحي على البلد خوف الهواء الأصفر (الكوليرا). أُقفل باب يعقوب وأُقفل باب الدركاه فوجدت الملكة محاسن نفسها حبيسة الأسوار. هوايتها النزهة في حقول الغلغول والشلفون، في بساتين الرمان وراء «مدرسة مسز سميث»، وفي هضاب الناصرة والمصيطبة ورأس النبع. كانت تذهب ماشية إلى قرية

فرن الشباك الصغيرة وتتناول الغداء هناك في بيت امرأة تعرفها (تقلي لها الباذنجان وتضع على البساط اللبنة والزيتون والبصل الأخضر). ثم ترجع منشرحة الصدر سعيدة. لم تُرَ سعيدة إلا في تلك اللحظات. الحجر الصحي أهلكها فنقبت حائط بيتها الكائن في بطن السور السميك. صار الباب «باب بيروت» وباباً من أبواب السوق السيئة السمعة.

حلبيات كثيرات دخلن في خدمتها من هذا الباب. الباب يطلّ على معمله. ويطلّ أيضاً على «كرخانة الحوت». كرخانة الحوت لصاحبها عبد الله الحوت طاردة للحلبيات. السبب ليس الحاج عبد الله بل ناظره. عنده ناظر قليل الحياء، فاسق. من فسقه تهرب الحلبيات إلى السوق العمومي. «دكّة الحلبية رخوة» يقول عبد المجيد الفاخوري.

قالوا في البازركان إن عمر الفاخوري ممتنع عن دخول البلد لكنه غير ممتنع عن العوالم. الحاج عبد الرحيم سكت ولم يقل شيئاً. ماذا يقول؟ شاهين من قبله.

قطع «طريق القوافل» إلى الجانب الآخر ودار حول مساكب العطر أمام سبيل السراي فوجد الخّياط حمادة المصري على طراحته قاعداً حيث بقعة الشمس. ترك الخياط يُخيط المزق. ظلّ لابساً الثوب قاعداً على المقعد القش الصغير ورائحة العجوز تملأ أنفه. رائحة عطوس وعرق جسم قديم. انتبه إلى رجفة أصابعه. انتبه إلى شامة بنية كبيرة على رقبته. انتبه إلى أنفاسه. كَبِر المعلم حمادة. لكنه ما زال يُرى طائراً على «بساط الريح» يبرم مطارداً الشمس حول جامع السراي ويُخيط ثياباً. لا يُرى أبداً بلا خيط وإبرة. كأنه وُلد هكذا. مع إبرة وخيط.

الشيخ توما الخازن نزل عنده قبل الأضحى. قبله جاء أخوه الشيخ يوسف الخازن، جاء مع عائلته. كلّهم هربوا من كسروان في الشمال. «شيخ شباب ريفون» طانيوس شاهين سعادة طردهم من حاراتهم وكسَّر أبواب الحارات. سلَّح رجاله، فرَّق على الفلاحين جبخانات، فتح المنازيل، وصادر أملاك المشايخ. قطع أحراشهم وسرق مخازنهم: سرق الحنطة والزيت والحرير، لم يترك للمشايخ كرماً إلا نهبه. المشايخ الخازنيون هربوا بجلودهم إلى بيروت. أتوا مع عائلاتهم تحت وابل أمطار وكبسات الخردق تطاردهم. أول ما طلبه الشيخ توما الخازن عند نزوله في «خان التوتة»: أن يؤتى إليه بخيّاط. طلب الخيّاط قبل أن يطلب خبزاً ولحماً. الحاج أبو حسين أرسل أحد الصبية ليجلب الخياط حمادة.

اضطروا عند نزول المشايخ إلى دهن الغرف في الجانب الشرقي. دهنوا الغرف هناك وفرشوها فرشاً يليق بالمشايخ. فنادق البلد الثلاثة على البحر مملوءة بالتجار الفرنجة. البنادقة والمالطيون والفرنسيس والإنكليز لا ينزلون في الخانات. المشايخ نزلوا في «خان التوتة» على مضض. لم يحملوا ذهباً كثيراً في زنانيرهم. الشيخ يوسف الخازن أخذ ليرات من «البنك العثماني» واستأجر بيتاً وراء كنيسة مار جرجس. عنده عائلة كبيرة وزوجته عالية الصوت مخيفة النظرة. كان الحاج عبد الرحيم يتضايق عندما يراها واقفة أعلى الدرج، أمام الباب، تأمر العبيد، وتوزع الكلام النابي. فرِح بخروجها. الشيخ توما الخازن لم يخرج.

خطف الحاج عبد الرحيم رجله إلى البازركان. يمرّ على عبد المجيد ويشرب فنجان قهوة. ترك الخياط وقد أنهى مهمته السريعة لاهث الأنفاس. بات سريع التعب. إذا عمل عملاً سريعاً يتعب. لا

يحبّ الضغط. ولا يحبّ أن يرتق ثوباً على لابس. إذا أردت أن ترتق قميصك اخلع القميص. لا يحب هذا الشغل السريع. ويتعب من الدوران حول الزبون. ويتعب من حبس أنفاسه. جوفه تغير. قبل أن يأكل طعامه يشم النفس خارجاً من جوفه ويحزن. هذه الأنفاس لا يطيقها وهي تخرج منه. فكيف يطيقها الغريب؟ وأشنع من هذا أن المجلس كلّه تغير. جوفه تغير والمجلس تغير. رائحة العطر من شتلات العطر في مساكب الجامع لا يكاد يشمّها. هو يسقي هذه الشتلات إذا تأخر خادم الجامع في سقايتها. لكن الرائحة لا تبلغه. دهليز الحدادين القديم، دهليز السيدة كما سمّاه الديريون، صار مزبلة. ليس مزبلة. مبولة. أولاد الحرام لا يستحون. تهجم عليه الرائحة وتقتله. حتى الشمس لم تعد دافئة. الشمس باردة وبدنه بارد ويده باردة. ترجف يده ويأخذ وقتاً قبل أن يدخل الخيط في خُرم الإبرة. الصابونة ترجف بين أصابعه والقماش يرجف والمقص يرجف. لكن الحمد لله، مستورة. ما زال يُخيِّط. يقعد على الطراحة وينظر إلى الناس ويتكلم مع جيرانه. الحمد لله مستورة. ما دام يُخيِّط، ما دام يخرج ويقعد على الطراحة، ما دام يُصلي في الجامع مع الجماعة، ما دام يأكل ويشرب وينظر ويتأمل، مستورة. يا ربّ يا معين.

«يا معين»، قال عبد الرحيم البارودي وهو يُشمِّر كميّه ويمدّ ذراعين قويتين ويساعد ابن خاله على تنزيل صندوق خشب دمشقي مطعم بالصدف عن ظهر البغل.

البازركان في هذه الساعة كأنه ساحة الحشر. بغال تتدافع وحمير تتدافع. باعة يتدافعون وزبائن يتدافعون. الحمّالون يقفزون من بغل إلى بغل. في الجهة الأخرى المكان أشدّ ظلمة. السقوف

واطئة. الإبل لا تستطيع الدخول. الحبشي (الفارع القامة) عليه طأطأة رأسه. الأرض زلقة والحيطان تغطيها الطحالب. مع هذا يتحارب التجار على كل دكان يفرغ في هذه الدهاليز. المكان الذي تجتمع فيه الدكاكين مرغوب. حتى لو كان البازركان مظلماً ورطباً، دكاكينه مرغوبة. دكان البارودي والفاخوري يقع في باب الدهليز. موقع فخم ممتاز. الخارجون من جامع النوفرة بعد الصلاة يهزّون رؤوسهم استحساناً ناظرين إلى البضاعة المعلقة في ضوء الشمس. في زمن المرحوم عبد الجواد كان البازركان أوسع، أرحب هواء ونوراً، أقل زحمة. تكاثرت السقوف والقبب في السنوات الأخيرة، قُطعت اللوزات، اتصلت الدهاليز بالدهاليز، وغاب ضوء الشمس. هذا سبب آخر دفع عبد الرحيم إلى التقليل من مروره على البازركان. المكان شديد الرطوبة وصدره يتضايق. يصير يسعل وعيناه تحمران. خصوصاً متى اشتعلت الأراجيل بالتنباك دفعة واحدة وصفاً واحداً طويلاً أمام الدكاكين. في نهاية الدهليز يختفي نور النهار ويشعلون القناديل. إذا لم يشعلوا القناديل ترى فحمات الأراجيل، جمرات تتوالى في الظلام.

سوق الفشخة ليست هكذا. سوق مفتوحة على السماء. صحيح أنها ضيقة أيضاً وصحيح أنها في الشتاء توحل ويصير الوحل يتطاير على أبواب الحوانيت لكنها مع هذا أحسن من البازركان. وفي السنوات الأخيرة لم تعد موحلة. جدّدوها، بلّطوها من جديد. ذاب البلاط المصري وتغطى بالوحول فبلّطوها من جديد. الطبقة التحتانية دكاكين والطبقة الفوقانية بيوت. صف هذه الجهة وصف هناك. هذه سوق! الواحد ينزل من بيته على الدرج الجوّاني إلى دكانه. ساعة يجوع ينده على ابنته فيأتي صحن الرزّ والطبيخ. ساخناً يأتي الطبيخ.

الحبال معلقة في فضاء السوق، تنقل بضاعة بين الجهتين فوق رؤوس المارة. يعرف الفشخة دكاناً دكاناً. من دكان إسحاق طرزاي تحت جامع السراي إلى دكان تحسين إدريس (الشيخ أبو طحين) على الزاوية البعيدة لجامع النوفرة. يعرفها. كيف لا يعرفها؟ أليست بلده؟ كم نعلاً أذاب قاطعاً هذه الأسواق؟ لا يستوعب كيف ينزل أخوه على سطح الخان بعد هذا الغياب الطويل ولا يدخل البلد ولا يقطع طرقاتها طريقاً طريقاً. كيف يرجع من القُرم ولا يصلي في الجامع العمري؟ كيف يرجع من القُرم ولا يدخل إلى حارته ويزور بيته أهله؟ لا يفهم الحاج عبد الرحيم. والآن اختفى. سليمة وُلدت ـ بعون الله ـ من هنا، وهو اختفى من هنا. كانت أم حسين تقول لعله يأتي عندما أضع. «يأتي ويأكل مغلي». تقول ذلك وتبتسم. لم يَصدُق ظنها. هي وضعت من هنا وأخوه اختفى. تحت جنح الظلام غاب ولم يزُر «الحارة».

سأله عبد المجيد عن الخان. وسأله هل مرّ على «دار البرتقال» اليوم؟ عبد الرحيم سأله ماذا هناك؟ وعبد المجيد قال له إن الحاج تعبان. كان يقصد جده: الشيخ مصطفى غندور الفاخوري. قال «تعبان» وزمَّ فمه.

قال عبد الرحيم «أمرّ بعد الظهر».

قال عبد المجيد «قد لا تلحق».

«تعبان إلى هذا الحد؟» سأله عبد الرحيم.

قال عبد المجيد «الأعمار بيد الله، يبدو أنه سيُفارق».

«الأعمار بيد الله»، قال عبد الرحيم البارودي في قميصه، منطلقاً بِخطى واسعة إلى «دار البرتقال». منذ الصباح وهو يركض. لم يرتح غير لحظة واقفاً على سطح الخان ينظر إلى الحمائم وإلى

الغرفة الفارغة. بلى، ارتاح لحظة على مقعد الخياط. وساعة الصباح جلس في بيت الحايك وشرب قهوة. لكن كأنه لم يجلس. منذ الصباح وهو يركض. هذه حياته. لا يرتاح لحظة. «الأعمار بيد الله»، قال في سرّه مرة أخرى وقد لاحت له البوابة القديمة. بانت من فوق البوابة رؤوس أشجار البرتقال. «الأعمار بيد الله» قال وهو يدفع البوابة ويرى في خياله ثلاث صور تتوالى: 1 ـ أم حسين تُرضع سليمة في نور القنديل. 2 ـ عبد الغني يتوضأ في الجامع العمري وقد لمَّ ثوبه الأبيض بين ساقيه الصغيرتين. 3 ـ الصبية ابنة جرجس نوّار تلتفت عند عطفة الدرج.

وجد الدار ساكنة. نظر إلى أشجار البرتقال الخضراء مثقلة بالثمر واستغرب سكون الدار. هذه دار نساء وأولاد وشواء. فواكه وكعك ومعمول. لعب وأصوات وضجة. من قبل أن يبلغ الباب يسمع ضجيجها. باغته الصمت. تحركت غيومٌ في السماء فسبحت ظلال على أرض الفناء. وارتعشت الأوراق المتساقطة على وجه البركة. سمع خشخشة الورق. سمع تموج المياه. سمع دعساته. واستغرب هذه السكينة. في تلك اللحظة ارتفع الأذان. أسرع عبد الرحيم قاطعاً الفناء متجاوزاً السلاحف المنتشرة بين البركة ومدخل البهو. حميدان ابن خاله عبد القادر يهوى جمع السلاحف. تجاوز السلاحف وأطلّ على عتمة البهو فسمع أدعية وصلوات كأنها تخرج من الحيطان. وسمع نشيجاً. بانت إحدى خالاته آتية من الغرف الداخلية تحمل سل خبز مغطى بالقماش. عندما رأته تهلل محياها وأسرعت صوبه وطمأنته. قالت إن الحاج يتنفس، فتح عينيه وطلب شربة ماء. خلفها ظهرت امرأة باكية في إزار أبيض وحجاب أبيض. لم يعرفها. اختفت المرأة وراء باب. جاء سليم الفاخوري يطقطق

بحبّات مسبحته الكوربا. وخلفه ابنه مصطفى ـ سمّوه على اسم جده ـ يطوي منديلاً ويودعه جيب القمباز. ظهر الحاج يوسف النصولي ابن خالته عزيزة. يدفع ثلاثة أولاد صامتين قدامه بيدٍ ويلاعب عصا خيزران طولها ثلاثة أشبار أو أربعة باليد الأخرى. رموشه شقراء محروقة ـ كأنه بلا رموش ـ وفي مشيته عرج خفيف. الحاج يوسف النصولي يعمل دليلاً في مواكب الحجّ، عنده زوجة أخرى في دمشق، ولا أحد يعلم كم زوجة طلّق في مواكب الذهاب والإياب. تحلّقوا في البهو يتبادلون السلام والكلام واقفين. قالوا إن الختيار أحسن. وسألوه عن أم حسين وعن الصغيرة وعن أولاده. تكلم معهم على عجل ثم تركهم في البهو ودخل على جده.

ناهز الشيخ مصطفى غندور الفاخوري التسعين. أبناؤه وبناته، وأحفاده وحفيداته، لم يتوقعوا له أن يبلغ هذه السن. عشيرة الفاخوري كلّها لم تتوقع أن يبقى حيّاً إلى هذا العمر. الفالج أقعده قبل خروج المصريين. عندما رجع حفيده محمد الفاخوري من بحرصاف مقطوع اليد كان الجد محمولاً بين رجلين، عاجزاً عن تحريك ساقيه. بعد عشرة أعوام، بينما الحلبيون يتدفقون إلى سهلات البرجّ هاربين من النار والدم، نزلت المياه الزرقاء في عينه اليسرى فأطفأتها. ظلّ يرى بعين واحدة ويقول لأهله ضاحكاً «ها أنا أعور» سنةً كاملة. ثم انطفأت هذه العين أيضاً. مع هذا يصرّ على الجلوس في الخارج، تحت نور الشمس الحلو، حتى في الأيام الباردة. يقول إن القيام من الفراش يُبقيه طيباً. بناته وحفيداته يتناوبن على مساعدته والعناية به. خالة عبد الرحيم، الست أم عصام، تحممه كل مساء. هذا الاستحمام بالماء الفاتر يمنع القروح عن جسمه. تُحممه بالصابون المعطر. وتنشفه متمهلة تحت نظرات عينيه البيضاوين.

مرات يغمض عينيه. ينزل الجفنان المجعدان على البياض الكامل، ويغفو بين أصابعها مثل طفل رضيع.

لن يموت الشيخ مصطفى في هذا الخريف. مع أنه بدا للحاج عبد الرحيم مشرفاً على الموت. رآه في الفراش ملفوفاً بالبطانيات وأولاده يتحلقون حوله. نظروا إليه عندما دخل. لم يتكلموا. عبد الرحيم نظر إلى جده مطروحاً على ظهره منكمش الجسم كأنه يتضاءل أمام عينيه. رأى يده اليسرى ظاهرة من تحت الأغطية. بدت صغيرة، هرمة، متجعدة، لحمها لحم السلاحف التي رآها قبل برهة. «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، دمدم عبد الرحيم في بطنه. انحنى على اليد القاتمة وباسها. استغرب حرارتها. لسعت الحرارة فمه.

الشيخ تململ بجذعه تحت الأغطية:

ـ كيف حال أم حسين؟

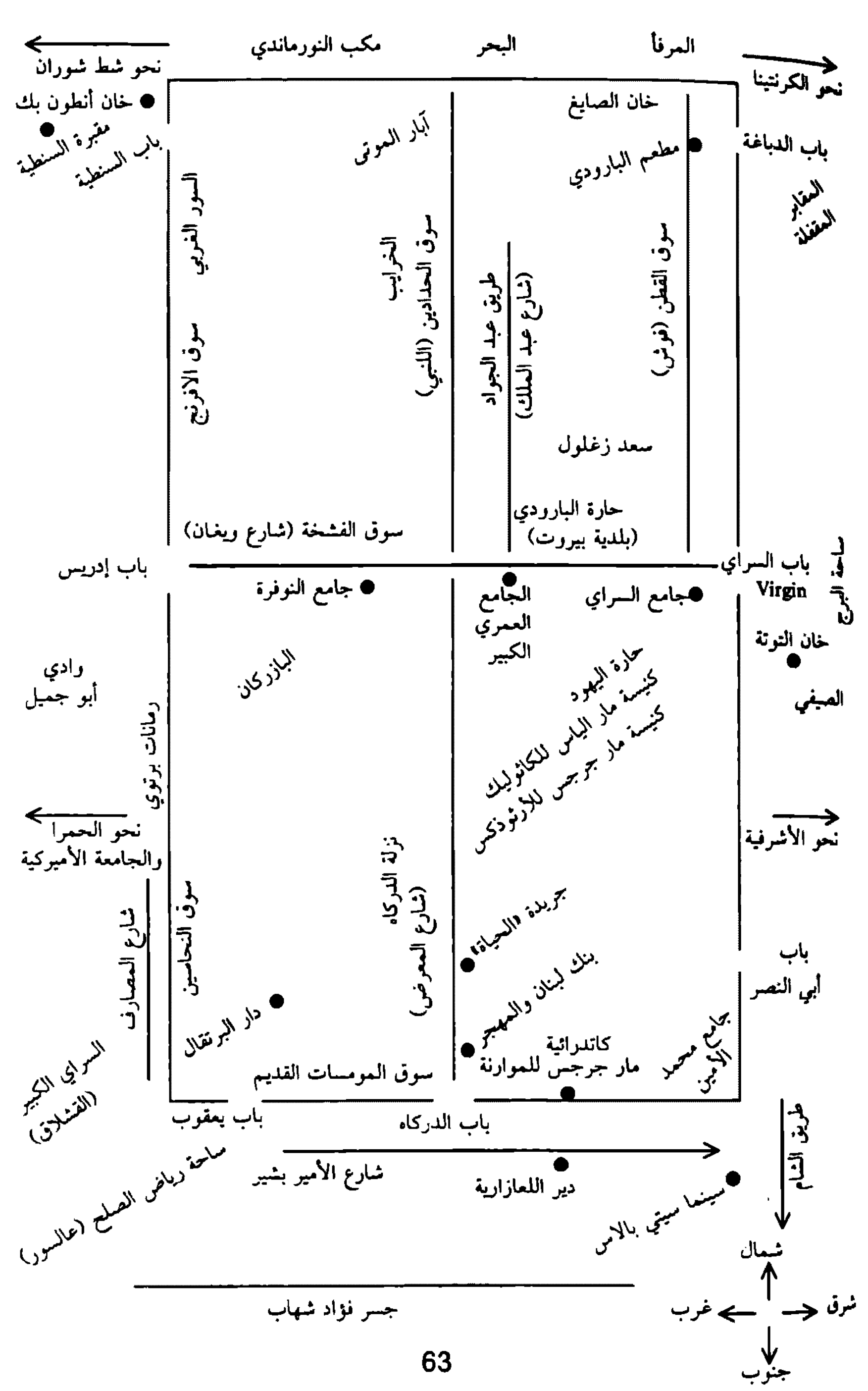
عرفه، وهو الأعمى، من دون أن يخبره أحد. سأل عن صحة عائشة. طلب شربة ماء أخرى. وقال اذهبوا إلى بيوتكم، لم تأتِ ساعتي بعد. حرّك رأسه على المخدة. جمّد رأسه متجهاً بأنفه الورمان صوب الزاوية حيث وقفت ابنته حسيبة. قال بصوتٍ ناعس:

ـ اشتقت إلى الرزّ واللبن يا حسيبة.

تركوه ينام ويرتاح. خرجوا تباعاً. ودّعهم عبد الرحيم وهو يبوس كتف الحاج محي الدين الاسطمبولي ويقول إنه سيمر عليه بعد صلاة العصر. عليه أن يركض إلى الخان الآن، حظه طيب أنهم لم يسألوا عن أخيه عمر.

هل يستطيع القارئ أن يتخيل طريق عبد الرحيم من «دار البرتقال» إلى «خان التوتة»؟ هل تستطيع أن تتخيل متاهة بيروت القديمة بأسواقها المتشابكة في خريف 1859؟ هذه مدينة سريعة. بنايات كثيرة وقعت وبنايات كثيرة ارتفعت بين 2003 (عندما نُشر الجزء الأول من هذه الرواية) و 2006 (أكتب هذه الكلمات ولا أعلم هل سأبلغ نهاية هذا الكتاب). هذا في ثلاث سنوات. فماذا نقول عن التحولات التي وقعت من 1859 إلى هذه الأيام؟

في ذلك الزمن البعيد كانت بيروت تحتل مساحة مستطيل عرضه من باب السراي إلى باب إدريس 345 متراً وطوله من باب الدركاه إلى باب الدباغة 540 متراً. في هذه المساحة الضيقة احتشدت البيوت والمتاجر. في هذه المساحة الضيقة احتشد ثلاثون ألف إنسان عدا الأجانب والجنود. خارج الأسوار المتساقطة، في سهلات البرج وفي الصيفي والرميل، تباعدت بيوت وقصور. رأس بيروت (الحمرا وجوارها) كانت رباعات صبيّر. أدغال صبير تتشابك بأدغال صبير. جلول توت وجميز ومقسيس. أكواخ قز متناثرة. هذه بيروت القديمة: متاهة أسواق وبيوت ومتاجر متلاصقة، تحاصرها بساتين ورمال من ثلاث جهات. أعقاد ودهاليز وزواريب تحتل المساحة الكائنة الآن بين «شارع الأمير بشير» والبحر. هذه المساحة باتت بعد عقود وسط بيروت التجاري. تمددت بيروت وغطت البساتين وغطت الرمل وابتلعت قرى مجاورة. يسكنها اليوم مليون ونصف المليون. إذا أراد القارئ أن يغادر العصور الحديثة عائداً إلى بيروت القرن التاسع عشر عليه أن يستدل بعلامات باقية: جوامع السراي والعمري والنوفرة مثلاً. هنا خريطة بيروت القديمة:



مكب النورماندي
البحر
المرفأ
نحو شط شوران
نحو الكرنتينا
خان أنطون بك
مقبرة السنطية
باب السنطية
خان الصايغ
آبار الموتى
مطعم البارودي
باب الدباغة
المقابر المقفلة
السور الغربي
سوق الأفرنج
الخراب
سوق الحدادين (اللنبي)
طريق عبد الجواد
(شارع عبد الملك)
سوق القطن (فوش)
سعد زغلول
حارة البارودي
(بلدية بيروت)
سوق الفشخة (شارع ويغان)
باب إدريس
باب السراي
ساحة البرج
Virgin
جامع النوفرة
الجامع العمري الكبير
جامع السراي
خان التوتة
وادي أبو جميل
البازركان
حارة اليهود
كنيسة مار الياس للكاثوليك
كنيسة مار جرجس للأرثوذكس
الصيفي
رمانات برتوي
نحو الحمرا والجامعة الأميركية
نحو الأشرفية
نزلة الدركاه (شارع المعرض)
سوق النحاسين
شارع المصارف
جريدة «الحياة»
بنك لبنان والمهجر
باب أبي النصر
دار البرتقال
كاتدرائية مار جرجس للموارنة
جامع محمد الأمين
السراي الكبير (القشلاق)
سوق الموسات القديم
باب يعقوب
باب الدركاه
طريق الشام
شارع الأمير بشير
دير اللعازارية
سينما سيتي بالاس
ساحة رياض الصلح (عالسور)
شمال
جسر فؤاد شهاب
غرب
شرق
جنوب

بيروت العثمانية تساقطت على الأرض أثناء الحرب العالمية الأولى. لم تهدمها القنابل. هدمتها المعاول والفؤوس. نزل الإنكليز على ساحل بيروت في نهاية 1918 فوجدوا المدينة شبه مدمرة. لم يستوعبوا ما جرى. أعيان بيروت طلبوا من قائد جيوش الحلفاء الجنرال السردامون اللنبي إكمال أعمال الهدم بين سوق القطن (فوش) وسوق الحدادين (اللنبي) «لئلا ينزل في هذه الخرايب اللصوص والفئران والطاعون».

ماذا كانت «الخرايب»؟ الكونت سليمان ده بسترس يذكر سوق الحدادين مهدماً. يذكر فتية عراة ببطونٍ منفوخة وعيون جاحظة يتقافزون كالهياكل العظمية فوق الأطلال. نُقبت الأسواق المسقوفة. وهُدمت الحارات المسّورة. فتكومت الحجارة على حافة الطريق. بانت بين جبال الحجارة برك وحل ومستنقعات. الكونت قال إن الحكومة كانت تنقل جثث الموتى أثناء المجاعة وشيوع التيفوئيد إلى آبار أسفل الحدادين. الوالي عزمي بك قدم أربعة محامل إلى الحكومة. قدم طنابر أيضاً. دودج قال إن بحارة الغواصات الألمانية كانوا يتجنبون النزول في بيروت لئلا يسمعوا صياح الأولاد: «جوعان». عندما اشتدت الحمى سنة 1917 غطّت الجثث أرصفة بيروت. وسدَّت الزواريب. الكونت قال إن مقبرة السنطية كانت تستقبل طنابر الموتى على مدار الساعة. الآبار عند «بيت مومنة» في الحدادين امتلأت. لم يقل أن الآبار سُميت «آبار الموتى». سوق البازركان هُدم في تلك الفترة. دكاكين المنجدين في سوق القطن هُدمت أيضاً. الحكومة كانت توزع خبزاً على عمال الهدم. اشتدت المجاعة ونقص الطحين فتوقفت أعمال الهدم قبل اكتمالها. أدرك الوالي عزمي بك أن الخسارة آتية. أدرك أنه لن يرى الشوارع

العريضة المستقيمة «الدوغري» تقطع بيروت من شط البحر إلى دير اللعازارية.

العثمانيون أعطوا أصحاب المتاجر والبيوت «سندات تمليك». قالوا «بعد الحرب تقبضون التعويضات». انتهت الحرب بخسارة العثمانيين. راحوا وراحت التعويضات. في ذلك الوقت تدفقت أمواج النازحين الأرمن إلى بساتين الدورة وبرج حمود والكرنتينا. هل خاف أعيان بيروت أن ينزل اللاجئون الأرمن في «الخرايب»؟ جريدة «لسان الحال» (أعداد 1918 و 1919) تتحدث عن مدينة «أرمنية عجيبة» تتكون جنب بيروت. مدينة خيّم وأكواخ خشب وصفيح تعجّ بالألوف، وأهلها يتكلمون لغة غير مفهومة. تذكر هذه الحادثة: الترامواي قطع ساق فتى أرمني كان يتعلق بالعربة ويقفز من عربة إلى عربة. لم تكن المرة الأولى التي يبتر فيها الترام ساقاً على هذه السكة. لكن هذه المرة هاجم الأرمن عربات الترام ورشقوها بالحجارة. أنزلوا السائق من العربة وضربوه. سائقو الترامواي أضربوا عندئذٍ عن قيادة الترام إلى محطة برج حمود.

سوق الخراب المستقيم الممتد بعرض 22 متراً من البحر إلى باب الدركاه عُلقت عليه أقواس النصر وآرمة كُتب عليها بالعربية والإفرنجية: «شارع اللنبي». لجنة استقبال مكونة من المركيز جان بك دي فريج وأحمد مختار بك بيهم وألفرد بك سرسق وجان بك بسترس قدمت للجنرال سيفاً من الذهب عليه آيات من القرآن الكريم «تقدمة من مدينة بيروت».

الكونت بسترس قال إن اللنبي امتلأ ببيوت الدعارة والمحاشش (غرزات الحشيشة) في قسمه الفوقاني: هذا القسم سُمي «المعرض» بعد أن أُقيم فيه معرض سنة 1920 أو 1921 للمفروشات والبضائع

والصناعات المحلية. معرض على غرار معرض لندن المشهور ومعرض باريس. معامل السيوفي للمفروشات حازت جائزة المعرض.

العابر في بيروت اليوم عليه أن يحذف من طريقه البرج الحجري لساعة البرلمان (تقدمة ميشال عبد لمدينة بيروت سنة 1933) كي يرى شارع اللنبي متصلاً بشارع المعرض.

سمعان يارد (1965 ـ 2005) اقترح بناء ساعة جديدة لا تسد البحر. ولا تقطع خط النظر بين الجزء الفوقاني من الوسط التجاري والجزء التحتاني. قدم اقتراحه في مسابقة تصاميم هندسية لترميم وسط بيروت عقب انتهاء الحرب الأهلية سنة 1990. «ساعة يارد» نسخة طبق الأصل عن «ساعة العبد» لكن قاعدتها معمولة من مادة شفافة: الزجاج.

«حارة البارودي» تحولت أثناء الحرب الكبرى إلى أنقاض. مات عبد الرحيم البارودي سنة 1890 فلم يرَ ما رفعه عالياً يتساقط على الأرض. ابنه عبد الغني البارودي عاش حتى رأى هذه النكبة. جزء من حجارة «حارة البارودي» نُقل بالعربات إلى رأس بيروت واستعمل في بناء سور الجامعة الأميركية.

أمامي شجرة آل البارودي. أنظر إلى الشجرة قاعداً في ليل بيروت. سنة 2006 تحتضر. البلد مقسوم العواطف يتأرجح على كف عفريت. أنظر إلى الشجرة ثم أغمض عينيّ. أشجار الميلاد تتوزع بيوت المدينة. تُزين شوارع ومتاجر وساحات. لمبات صغيرة ملونة تشتعل ثم تنطفئ. تشتعل ثم تنطفئ. لا أدري هل ينتهي يوماً هذا الكتاب.

رجع خالد الفاخوري عشية «حرب الستين» إلى بيروت فوجد حسين بن عبد الرحيم البارودي رجلاً. التقاه صدفة على باب المرفأ فعرفه من النظرة الأولى. قال انه عرفه من عينيه. حسين شَبَهَ عمه شاهين وشَبَه جده عبد الجواد. العينان السوداوان الواسعتان. الأنف الحاد. الجبهة العريضة. الشعر الأسود الجعد. والنظرة العارمة القوة. الحاج خالد الفاخوري قال لحسين: «أنا خال أبيك عبد الرحيم». حسين لم يعرف للوهلة الأولى من هذا الرجل الأبيض الشعر النازل لتوه من الباخرة. لم يعرفه لأنه لم يرَه من قبل. ولم يعرفه لأنه يعرف أخوال أبيه ويعرف جد أبيه (الشيخ مصطفى) لكنه لا يعرف هذا الرجل الطويل القامة.

قال خالد الفاخوري:

ـ أنا كنت شريك جدك عبد الجواد في مخزن البازركان. أبوك عبد الرحيم لم يخبرك عني؟

حسين البارودي ردّ ناظراً إلى حمالين يرفعون صناديق الرجل ويتحركون وراء ظهره:

ـ جدي عبد الجواد كان عنده شريك سرياني من عائلة الصايغ، اسمه سمعان وأبناؤه تزوجوا خالاتي بنات ستّي أم زهرة. لكن

سمعان الصايغ السرياني مات بالطاعون في بيت المقدس وهو يحجّ.

الحاج خالد الفاخوري اهتز ضاحكاً، وبطنه اهتزت أمامه. هذا الشاب حسين يتكلم باسم الوجه فخم الصوت جزيل النبرة. قال له:

ـ تذكر سمعان الصايغ وتعرف اسمه وقبره يا حفيد أختي صفية ولا تعرف من يكون خالد الفاخوري!

حسين البارودي سمع ضحكة تشبه ضحكات طالما ملأت «دار البرتقال» ففتح ذراعيه وعانق الرجل الكبير وباس الخاتم في يده. الحاج خالد أصلح العمامة على شعره الأبيض والتقط أنفاسه. نظر إلى أرصفة بيروت فلم يعرفها. نظر إلى العمارات الجديدة ولم يفهم متى بنوها. وأكثر ما أزعجه الحمالون والمراكب ووساخة البحر: لم يعهد البلد وسخاً. موانئ اسطنبول وسخة. وميناء إزمير تصب فيه المجارير. لكن متى اتسخ ميناء بيروت الصغير هكذا؟ ومتى امتلأ بهذه الروائح؟ رؤية حسين بن عبد الرحيم البارودي أنقذته من الهبوط. عرفه من مشيته، ومن رأسه الذي يعلو فوق الرؤوس. شَبَه عبد الجواد. سبحان الخالق. أخبار البلد تصل إلى «دار السعادة». تصل مع القوافل. وتصل مع البواخر. خالد الفاخوري المقيم في «حي الشوام» على ضفة مرمرة سمع أخبار الحاج عبد الرحيم وسمع بالمعارك الدائرة حول «خان التوتة»: الشركة الفرنساوية ـ العثمانية تحاصر ابن الجواد بالوسطاء والسماسرة. تريد أن تأخذ الخان المتربع في قلب «السهلات» جنب طريق القوافل. خالد الفاخوري وصلته أخبار عبد الرحيم. وسمع باختفاء أخيه عمر. وسمع عن هذا الفتى حسين، هذا الصغير الذي صار رجلاً.

أخبروه أن حسين البارودي تشابك بالأيدي مع سمسار من السماسرة. الشركة الفرنساوية صار عندها سماسرة معتمدون يشترون

من أجلها الأراضي. خطط الحاج عبد الرحيم مُنيت بالفشل. عجز عن شراء «صبيرات طراد». جاء إليه سليم الحايك عند المساء مخضوض الوجه وقال الخواجا لن يبيعك الأرض يا حجّ، لا يستطيع. الحاج عبد الرحيم اغتاظ:

ـ كيف لا يستطيع؟ أليست أرضه؟

سليم الحايك ردّ أنها لم تعد أرضه:

ـ الشركة اشترتها.

سبقوا الحاج عبد الرحيم وأخذوا الأرض. بان في تلك الفترة أن الشركة كانت تشتري خفية ومن وراء الظهور وبلا ضجة. اشترت سرّاً لئلا تتفتح العيون وترتفع أسعار الأراضي. الحاج محي الدين الاسطمبولي الفاخوري قال إن هذا الكونت برتوي داهية. من قبل كان قبطاناً في المساجيري. ربابنة السفن يعرفونه. كلّهم يقولون إنه ثعلب. في عواصف 1846 المشهورة، عندما تحطمت السفن الإنكليزية على صخرة جبل طارق، كان وحده يستطيع أن يقود البواخر عبر المضيق وأن يبلغ البرّ سالماً.

حسين البارودي رأى السماسرة يحومون حول خان أبيه كأسماك القرش فاستشاط غيظاً. تشابك مع واحد منهم ـ هذا جان فياض ابن ميشال فياض الرجل الذي امتلك قبل سنوات بعيدة بساتين رمان تبدأ عند زاوية العطارين فتنتهي بعد جامع النوفرة. أمسكه من رقبته ودفعه على شجرة توت ثم نطحه على وجهه.

جان فياض ابن ميشال فياض التقط صخرة عن الأرض وجرب أن يفتح رأس الثور الهائج. أبوه لم يكن رجل عراك. باع بساتين الرمان التي ورثها عن أجداده عندما بدأت الدكاكين تغزو كل شبرٍ من

سوق الفشخة. حسين البارودي وُلد بعد موت عمه شاهين بسنوات. لا يعرف كم مرة أصيب عمه بالإسهال وهو يغزو رمانات ميشال فياض. ما يعرفه أن عليه أن يتجنب هذه الصخرة. انحنى حامياً رأسه بيديه وقفز قفزة جبارة وحطم صدر جان فياض بركبته. أهل القوافل اندفعوا إلى الفسحة بين أشجار التوت ورفعوا ابن الحاج عبد الرحيم عن السمسار الخواجا الذي ينزف. جان فياض نزف من جميع فتحات وجهه. عندما مسحوا وجهه بالماء صار يبكي. كان يكبر الفتى حسين بعشرين عاماً. وصار يبكي.

الحاج عبد الرحيم جاء واسع الخطى، وكلّما اقترب خطوة زاد وجهه احمراراً. تخضب وجهه بالدم. التقط بكره حسين من كتفه وبرمه صوبه وصاح في وجهه صياحاً مخيفاً ثم طرده إلى البيت. «اذهب قبل أن أكسر رقبتك»، قال لابنه. انحنى على الخواجا الباكي الممزق الثوب، رفع طربوشه المكوي عن الأرض ونفض غباره. لم يقبل أن يأخذوا الخواجا إلى بيته. حملوا الخواجا إلى «خان التوتة». عبد الرحيم البارودي اعتذر المرة تلو المرة. لم يعتذر. كان يحوم حول الخواجا الدامع العينين ويشتم ابنه وأبناء السوء جميعاً. كان يهذي ويبرطم بالكلام كما لم يُرَ أبداً يهذي. الشيخ عزّت بيضون خاف عليه من عاطفته القوية وجلب له ماء وكاسة فيها سكر وماء ورد. الحاج عبد الرحيم حدجه بنظرة يتيمة فتراجع. أخذ الحاج عبد الرحيم الكاسة وقال للسمسار ابن فياض: «اشرب يا ابن عمي، الله يخزي الشيطان، أنا أعوضك، أنا أعوضك، اشربْ».

رتب الأمور مع جان فياض لئلا تتطور المسائل وتأتي العساكر إلى الحارة وتأخذ الولد الهائج الدم. رتب الأمور مع ابن فياض، وعندما غادر الخواجا الخان استدار الحاج عبد الرحيم إلى وكيله:

ـ لا تخف عليّ يا شيخ عزّت، لا تخف عليّ. لكن ماذا سأعمل بهذا المخبول حسين؟ هل كنت تتصور أنه يضرب الرجل هكذا؟ وبلا سبب!

الشيخ عزّت بيضون ابتسم ساكتاً. بعد هذه الحادثة لم يدعس سمسارٌ باحة الخان. أثناء شتاء 1859 ـ 1860 اشترت الشركة الفرنساوية «بلاطة السراسقة»: قطعة الأرض الصخرية الممتدة من أحراج الصيفي المحروقة إلى «توتات القوتلي».

الحاج محي الدين الاسطمبولي قال لابن أخته صفية:

ـ اسمعْ يا حج، هذا وقت الخطر، احمِ نفسك.

الحاج أبو حسين قال:

ـ أنت خالي وعمي ومثل أبي، انصحني، ماذا أعمل؟

الحاج الاسطمبولي نصحه:

ـ لا يحميك غير الوالي. لا تحميك غير هدية معتبرة. إذا قال للشركة ابتعدوا عن الخان، هذا الخان تحت حمايتي، لن تقترب الشركة من «خان التوتة». من دون الوالي وحماية الوالي يحترق الخان في ليلة بلا ضوء قمر. اسمعْ كلامي يا ابن عبد الجواد.

عبد الرحيم فرغ من كلام خاله. الحاج محي الدين عنده صلة بالوالي. صلة عميقة وثيقة. أكثر من هذا: الحاج محي الدين عضو في «مجلس الأعيان». أكثر من هذا: الحاج محي الدين له صلة بالشركة الفرنساوية ـ العثمانية. فزع عبد الرحيم من خاله. الحاج الاسطمبولي طمأنه:

ـ هدية واحدة معتبرة تكفي. أنا أضمن الوالي. وأنا أدبر الهدية من «دار السعادة».. طقم خناجر ذهب وتضمن الخان لأولادك وأولاد أولادك.

أعطى الحاج عبد الرحيم خاله خمسة أكياس ذهب. الحاج الاسطمبولي أخذ الأكياس وطرحها على السجادة. أظهر الاحتقار لهذا الذهب. مرّر أصابعه في لحيته البيضاء الطويلة. حدّق بعينيه العسليتين في عينيّ عبد الرحيم الواسعتين، ثم تكلم.

ـ اسمعني وتذكر كلماتي: بعد اليوم لن تقترب شركة الطريق من خان البارودي.

خرج الحاج أبو حسين من دار خاله أسود الوجه أسود النظرة. كانت الأمطار تتساقط كالحبال على بيروت. دار الحاج الاسطمبولي تقع خارج الأسوار. قطع عبد الرحيم طُرقاً موحلة فبلغ أطلال السور العتيق. صفحات المطر لسعت رموشه، لسعت عينيه. رفع رأسه. رفع وجهه ناظراً إلى الغيوم الداكنة. بدا في تلك اللحظة عفريتاً. كان النور يخرج أسود من عينيه ويشرقط حول جسمه كالكهرباء. وقف تحت الأمطار ونظر إلى أطلال السور ونظر إلى أشجار التوت تسوطها الرياح فتنحني. وراء أمواج التوت، وراء الأغصان العارية المتمايلة، ظهر خان التوتة بعيداً، كأنه يجنح ويميل على جنبه. كأن الأرض تسيل تحته. الأرض بحر والخان سفينة. انفجرت الرعود. اشتد المطر. التمعت البروق في الفضاء. أشجار زرقاء ملأت السماء. ثعابين النار امتدت من الغيوم وغطست هادرة في البحر. أين الهواء؟ أراد عبد الرحيم أن يتنفس. لم يجد الهواء.

كل هذه الأمطار! الفضاء يموج بالماء. كأنه نهر. صارع عبد الرحيم انهاراً تصبها السماء على رأسه، على الأرض. تلطخ ثوبه بالوحل. تعثّر بحجارة باقية من بيوت الطاعون الأسود، تعثّر وزلق مداسه على الوحل وسقط في بركة وحول. قام يلعن ساعة ولادته. وعندما انتصب واقفاً لم يجد مسبحته العاج الـ 99 حبّة. ضرب يده

على جيبه فلم يجدها. نظر إلى بركة الوحل. الماء ينهمر كالقرب المثقوبة، المطر يغلي على بركة الوحل. صوت البقبقة في أذنيه. ورأسه يدور. كأنه يدوخ. كأنه يقع من سطح عالٍ. «ماذا يحدث لي؟ ماذا جرى؟» خاف ووضع يديه على صدره. خاف من الدوخة. تابع البحث عن مسبحة أبيه بنظراته. هذه المسبحة عزيزة عليه. هبّت ريح الشمال قوية وطوحت خيوط المطر بعيداً من أمام وجهه. عندئذٍ رأى المسبحة على حافة البركة الموحلة. وقعت المسبحة على عشب أصفر. لم تتسخ. انحنى ذاكراً ربّه، يتلو الآيات الكريمة لعل الدوخة تذهب عنه. بينما يستقيم عادت إليه ذكرى بعيدة: صبي يطعم أخته فصوص برتقالة. صوت بكاء. أجسام عارية. وعظام ظاهرة من الجلد.

كفّت الشركة الفرنساوية ـ العثمانية عن مطاردته بعد ذلك الشتاء. اشترت أرض محمد وهبي. اشترت أرض عبد الخالق الشلفون. ثم كفّت عن شراء الأراضي.

حلَّ الربيع. الثلوج تذوب والقوافل تأتي على «طريق القوافل» من جديد. البحر هدأت أمواجه. وها هي السفن ترسو قبالة الميناء. الربيع حمل خبرين إلى الحاج عبد الرحيم البارودي: خبر جاء بالبحر مع الكونت يوسف طرازي. وخبر جاء بالبرّ مع عيسى أرقش ابن فيليبوس.

الخبر البحري سمعه الحاج في «مطعم المرفأ». كان قاعداً يدخن الأرجيلة الصباحية ويشرب فنجان القهوة عندما ظهر الكونت يوسف طرازي أمامه حاملاً مرآة مبروزة. أخبره الكونت أنه قضى الرحلة من مرسيليا إلى بيروت يلعب ورق الكوتشينة مع مهندسي

المساجيري. أخبره أن شركة الطريق اشترت جميع ما تحتاجه من أرض في بيروت وفي دمشق وفي شتورة. هذه أرض المحطات والمواقف والاصطبلات. أرض الطريق لا تشتريها. الطريق للحكومة. والشركة تدفع للحكومة ضريبة الطريق. الكونت طرازي قصير القامة قصير الأصابع قصير الرقبة. لكن العاطي حباه بلسان دافئ عسل يُعوض نواقصه الجسمانية جميعاً. أو على الأقل هكذا فكر الحاج البارودي في ذلك الصباح الربيعي. هبّت النسائم فارتعشت خمائل الياسمين. جاء يوسف منيمنة يسكب فنجان قهوة آخر لمعلمه فرأى وجهه متبدلاً. الوجه أشرق، شعّ منه النور.

الخبر البرّي حمله عيسى أرقش إلى خان التوتة. كان الحاج يشرف على توزيع البضائع على عنابر الخان ـ وصلت أصواف وجلود من الشام؛ وصلت كوفيات وسراويل من وراء البحر ـ عندما اقترب منه ابن فيليبوس ورائحة جسمه تسبقه. كان مبلولاً بالعرق. رأى الحاج قطرات العرق تقطر من أنفه. تقطر من رموشه. تقطر من أذنيه. أسنانه الصفراء بانت في صفّين وهو يقترب هاشاً من الحاج أبي حسين. يحمل خبراً طيباً: المعلم عمر موجود في حلب. تزوج بنتاً حلبية بيضاء كاللبنة. ويعيش في بيتٍ صغير في حقول حلب.

في تلك الفترة حُمِلت إلى بيروت على بواخر المساجيري الفرنسية بواريد دكّ طويلة القسطل. هذه البواريد ترمي إلى مسافات بعيدة، وخردقها يظلّ مجموعاً و«لا يفلش». عبد الله الفاخوري ابن محمد الفاخوري صاحب اليد الواحدة اشترى بارودة منها. كان يهوى الصيد لكنه اشتهر في بيروت بأباريقه لا بصيده. تعلم مهنة أسلافه ـ المهنة التي أعطت العائلة اسمها ـ على السيد عبد الرحمن الفاخوري. «أباريق عبد الرحمن» يطيب الماء فيها. تبرد في الصيف

كأنها ثلج ذائب. أباريق الفخار بعضها يتنفس وبعضها لا يتنفس. صانع الفخار البارع يعمل إبريقه قاسياً لكن فيه طراوة. هذا فن صعب. عائلتان اشتهرتا في تاريخ بيروت بهذه الصناعة: الحمندي والفاخوري. «أباريق عبد الرحمن» ملساء. لكنها مبرغلة أيضاً. هذه الكلمة مأخوذة من «برغل» وهو القمح المكسور المطبوخ نصف طبخة. إبريق الفخار ينتقل من شارب إلى شارب. وكذلك مفردات المهن. الفاخوري يستعير من الفرّان كلماته. يقول إنه يُخمر العجين ويخبز العجين. حسين الباروردي اشتغل بعد «معركته» مع قريبه عبد الله الفاخوري. لم يقبل الولد أن يبرمه أبوه من كتفه ويصيح به ويُذله أمام أقرانه. تمرد على أبيه عبد الرحيم كما تمرد شاهين الباروردي على أبيه عبد الجواد. تمرد وقال لا أذهب إلى الخان ولا أشتغل في الخان مرة أخرى. عباراته الغاضبة وصلت إلى عبد الرحيم عبر وسيط: أم حسين.

نقلت عائشة كلام ابنها دامعة العينين. عبد الرحيم لم يغضب. قال «لا تزعلي، ابنك يصير رجلاً، لا تزعلي». لم يغضب على حسين. وتركه يذهب ويشتغل بالفخار مع عبد الله. عبد الله صاحب دين ونخوة، ليس رجلاً سيئاً، يحبّ الله والله يحبّه. عبد الرحيم فكر في الأمر قبل أن ينام. وقرر ألا يُضيِّق على ابنه. سيرخي له الحبل. وفي الوقت المناسب يردّه إلى الخان. إلى كنف العائلة.

حسين الباروردي أعجبته المصلحة الجديدة. أعجبته وأضحكته. الضحك سببه العميان. عبد الله الفاخوري سلَّمه معلمه عبد الرحمن معمل الفخار على شاطئ شوران. هذا الشط يقع وراء قرية عين المريسة. في تلك المنطقة توجد أصناف التراب اللازمة لصناعة الفخار. التراب الأسود موجود هناك. ليس كثيراً مثل التراب الأسود

في جبل الأشرفية لكنه موجود. والمكارون ينقلون أحياناً التراب على البغال من الأشرفية إلى شوران. ليست مشكلة. الأهم الحوّارة. الحوّارة تربة لا تجدها في أي مكان. لكنها موجودة على تلّة السادات (قريطم) حيث مقابر السادات القديمة. كل هذه المنطقة الواسعة من التلال المسماة رأس بيروت تغطيها الأشواك ورباعات الصبير وبساتين التوت. نحن في ربيع 1860، وبساتين التوت خضراء مورقة. أكواخ قزّ قليلة تتباعد هنا وهناك. لكن رأس بيروت غير مسكونة. هذه الأرض برّية تسكنها بنات آوى. عبد الله الفاخوري وحسين البارودي ينامان في البرّية، في بيت جنب معمل الفخار على شط شوران. العميان لا ينامون هنا. إذا انتهى عملهم رجعوا إلى البلد. يسكنون مبعثرين في بيوت البلد، لكن القسم الأكبر منهم يتجمع في حيّ وراء كنيسة الموسكوب بجوار حمام الدركاه. هذا الحيّ يُسمى «حيّ الخوتان». حسين البارودي سمّاه ـ بعد أن بات مكلفاً بقيادة قافلة العميان ذهاباً إلى شوران ثم إياباً إلى الدركاه ـ «حيّ العميان».

معمل الفخار ليس معملاً كمعمل المنسوجات والألاجة في الغلغول. معمل الفخار عبارة عن بركة ومصطبة وفرن. البركة يُطرح فيها التراب ويُمزج بالماء والحوّارة. الحوّارة خميرة العجنة، قال عبد الرحمن لعبد الله. الحوّارة خميرة العجنة، قال عبد الله لحسين. «أنا أتعلم من أبي وابني يتعلم مني». حسين البارودي أحبّ حديث قريبه عبد الله الفاخوري. كلماته حلوة مستقيمة. ولا يعلك في الحكي. الحوّارة صفراء اللون، لونها لون دبس العنب. في صناعة هذا الدبس يستعملونها أيضاً. الحوّارة صفراء وتراب الفخار أسود. الماء يمزج اللونين فيصير برتقالياً إلى أحمر. هذا لا يظهر في

البداية. في البداية يغلب اللون الأسود على المزيج. المزيج لم يتحول عجيناً حقيقياً بعد. يلزمك أن تعجن أولاً. هذه مهمة العميان. يلبسون أكياس الجنفيص في أقدامهم ويربطون الأكياس بالربطات فوق الركبة ثم يقفزون إلى البركة. وهات يا عجن. يدورون على أنفسهم كالدراويش. الواحد منهم لا يدوخ وهو يدور ويدور ويدور. هذه نعمة سبحانه. الأعمى لا يدوخ كما يدوخ المبصر. يدوسون العجين ويعجنون. ساعات طويلة تحت الشمس ولا يدوخون. ثم يطلعون مبلولين عرقاً من البركة.

نبع شوران قريب من المعمل. المعلم عبد الرحمن ورِث المعمل عن أبيه عن جده. بُني المعمل هنا لسببين: الأول قربه من تراب الحوّارة. الثاني أنه يجاور نبع شوران. الماء الكثير ضروري في الفخار. هكذا يطيب الفخار وتكثر مسامه. حسين البارودي تأمل قريبه بعينين واسعتين وهو ينزل إلى البركة من ساعة إلى ساعة ويضع يده في العجين. تغوص اليد عميقاً ثم تخرج. تنفتح القبضة عن حفنة طين. عبد الله يذوق هذا الطين بلسانه. ثم يقول: «يلزمه ماء». مهم ألا تنشف العجنة. يسقيها إذا كانت الشمس قوية. ويسقيها إذا هبّت رياح الخماسين.

ضروري أن يخمر العجين، قال عبد الرحمن لعبد الله. ضروري أن يخمر العجين، قال عبد الله لحسين. الوقت يُخمّر العجين. بعد ذلك يُرفع إلى المصطبة. هنا شغل الفاخوري. شغل العميان انتهى. والآن يبدأ شغل المعلمين. آلات معمولة من حجر وخشب. وعجين يتدور بين اليدين بينما الأسطوانات تدور. يرق العجين حول كاسة المحور. قرص العجين الصغير ـ بحجم كوز صنوبر، بحجم قرص الكبّة ـ يتمدد بين أصابعه، يتلوى على

الكاسة، يتحول إلى إبريق، يتحول إلى جرّة، يتحول إلى كانون. اتخذ الشكل المطلوب لكنه ما زال طرياً كالعجين. حان وقت الفرن. بعد العجن والتخمير والرقّ يأتي وقت الخبز. الفاخوري يحبّ هذه المفردات. سهيلة النابلسي البارودي (أم زهرة) عندها مفردات غيرها. عندما جاء عبد الله الفاخوري يطلب يد حفيدتها سعدى ردّته خائباً. ردّته خائباً «لأن سعدى عليها طلب». طلبها الحاج حليم بيهُم لابنه عزيز. عزيز بيهُم مثل أبيه يُربي الحرير. عندهم بساتين توت كثيرة ويشيلون حريراً. كذا علبة قزّ يشيل السيد عزيز. «هذا ابن الفاخوري يشيل فخاراً لا يشيل الحرير». أم زهرة ردّت ابن الفاخوري خائباً. عبد الله الفاخوري دار برقبته كما يدور برقبته واقفاً على الجورة (فتحة الفرن). دار برقبته فرأى بنتاً أخرى تشبه سعدى كأنها هي. رآها من بعيد، وهنّ يسترقن النظر من وراء شجرة التوت. رأى الرؤوس تطلّ تحت القنطرة البيضاء الحجر ثم تغيب.

سأل حسين من تكون البنت التي تشبه سعدى كأنها هي. قال حسين «هذه فردوس صغرى بنات عمتي زهرة. ما زالت صغيرة، لم تبلغ سنّ الزواج بعد». عبد الله الفاخوري لم يتوقف عند هذه النقطة. تحركت رقبته ونزل وجهه نحو الأرض ثم ارتفع من جديد. حسين يعرف هذه الحركة. هكذا يعمل ابن الفاخوري ناظراً إلى أعماق الفرن. الحرارة إذا زادت شوت الفخار شيّاً سريعاً وأحرقته. يطلع قاسياً كالصخر لكنه سريع التشقق. سريع الانكسار أيضاً. النار أساس الفخار، قال عبد الرحمن لعبد الله. النار أساس الفخار، قال عبد الله لحسين. لا قوية تحرق. ولا ضعيفة تُميت العجين. النار فن. ولكل عجينة نار. نار الأباريق غير نار الجرار غير نار الخوابي.

نار المقالي غير نار النواعير. لكل خبز نار. رفع عبد الله الفاخوري عينيه فرأى حسين البارودي ناراً تبرق في البؤبؤين. أم زهرة جلست جنب زهرة. الست أم حسين لم تحضر الجلسة. خافت أن يغضب عليها الحاج أبو حسين. أم زهرة بدت في عمر ابنتها زهرة. زهرة معتلة الصحة، تسربت الحياة من أطراف أناملها وهي مطروحة على فراش. أم زهرة بدانتها فاخرة، كل هذه السمنة وما زالت تقوم خفيفة وتقعد خفيفة. عبد الله الفاخوري قال إن حبّ هذا البيت ـ بيت البارودي ـ يجري في دم عائلة الفاخوري منذ سنين. الستّ أم زهرة ابتسمت عندئذٍ وقالت «نحن بيت نقوزي الآن». وضحكت. زهرة الأرملة لم تضحك. لعلها تذكرت المرحوم.

عبد الله الفاخوري انحنى بوجهه مرة أخيرة ثم رفع عينين بارقتين:

ـ تكسرين خاطري؟

سأل سؤاله. ونظر في وجه أم زهرة. ونظر في وجه زهرة. حسين لم يعرف إلى من يُوجه صاحبه السؤال. الظلال تحركت على أرض الدار. من البوابة دخلت رائحة التوت الأخضر ودخلت رائحة البنات. لعله يتكلم مع بنت خارج الباب.

سهيلة النابلسي البارودي حسمت الموقف عندئذٍ:

ـ قرّر ما تريد يا ابني ثم تكلم مع الحاج. الحاج أبو حسين وليّ أمر البنات.

قالت كلماتها بنبرة حلوة. قالت «يا ابني». لا تسد الباب في دربه إذاً. الباب مفتوح. وتلزم بركة الحاج. حسين نصح عبد الله أن يتمهل. حسين أيضاً ـ مثل أبيه ـ صاحب خطط. قال لعبد الله ليس

الآن وقت الطلب، انتظر يومين. هذه خطته: أن يصالح أباه أولاً.

لم تكن مهمة صعبة. الحاج أصلاً لم يغضب على بكره. الشيخ عزّت بيضون كان حتى يحسب أن الحاج دفع حسين إلى «تربية السمسار ابن فياض». ربما لم يدفعه بالألفاظ الصريحة. لكنه بكلامه الدائم على هؤلاء السماسرة أبناء الحرام زرع البزرة في رأس الصبي. جاء حسين إلى البيت وقت العشاء وباس يد أبيه. الأب انحنى على ابنه وباس رأسه. وعائشة ـ كعادتها ـ بكت. كانت خائفة ألا يرضى أبو حسين. بكت فقال الحاج ضاحكاً: «احترنا معكِ. نزعل وتبكين. نتراضى وتبكين». وعائشة ضحكت وكفكفت دموعها وقالت: «الله يلعن الزعل».

الحاج انفرجت أساريره في الفترة الأخيرة. الربيع يتقدم. وأحوال الجبل لا تتحسن. لكن أساريره منفرجة. مرات تُسمع فرقعة بواريد إلى بيروت. الناس متوترون. درزي اسمه محمد أبو مطر قُتل عند خان الوروار عند سفح الجبل. مسيحيان قُتلا على جسر الأولي بجوار صيدا. ثلاثة مسلمين قُتلوا وراء نهر الكلب. الناس متوترون. أهل الجبل يبتاعون البواريد الفرنساوية والإنكليزية من المرفأ بالصناديق. يأخذونها بالجملة. قوافل محملة صناديق. يشترون البواريد ويشترون الغدارات ويشترون الطبنجات ويشترون الخردق ويشترون البارود. طانيوس شاهين سعادة عنده فرق مسلحة في كسروان، وأرسل المكاتيب إلى جبال الشوف. خطته أن يجمع الفلاحين هناك ضد المشايخ أصحاب الأرض، كما اجتمع الفلاحون على آل الخازن في بلده كسروان. لكن المكاتيب لا تنفع مع الدروز. الحاج خالد الفاخوري قال في «مطعم المرفأ» وهو يأكل شواء وحمصاً بطحينة وبابا غنوج إن الدروز أصعب الناس، لن

يجتمعوا مع الفلاحين الموارنة ضد سعيد بك جنبلاط. قال: «ينزل الثلج في عزّ الصيف ولا يقبلون».

الحاج عبد الرحيم مسرور لأن الشركة ابتعدت عن الخان. مسرور أيضاً لان حسين جاء ـ مثل رجل ـ يسترضيه. ومسرور لأن باله اطمأن ـ ولو نصف اطمئنان ـ على أخيه. عمر نازل في حلب، زوجته من آل الحلو من أقارب آل جروة. هذه عائلة يعرفها عبد الرحيم. أبوه عبد الجواد تزوج حلبية من آل جروة. سبحان مدبّر الأحوال. الحاج عبد الرحيم أرسل إلى أخيه مع إحدى القوافل هدايا: أرسل إليه قماشاً ثميناً وأرسل إليه كيساً ضخماً من اليانسون. أرسل كلاماً أيضاً. قال للرسول:

ـ قلْ لأخي عمر هذه ليست هدايا. قلْ له: أخوك أبو حسين يُسلم عليك ويقول القماش لزوجتك ولك، لكن اليانسون ليس لك، تذوقه من أجل الذوقان وتوزعه على أصحابك في حلب ثم تحمل زوجتك وتأتي إلى بيروت. قلْ له بيتك هنا وأخوك هنا وأهلك هنا. قلْ له إذا أراد أن يزرع القمح والشعير فعنده سهل الناصرة كلّه هنا. لا يريد أن يعمل بالتجارة مثل أخيه وأبيه، هذا حقّه. يريد أن يزرع الأرض ويأكل خبزه بعرق جبينه، هذا عمل شريف. له ما يريد. لكن لماذا في حلب؟ قلْ له أخوك عبد الرحيم ينتظرك ويدعو لك بالتوفيق.

ذهب الرسول مع القافلة فصعد الحاج إلى سطح الخان. غاب عن أنظار وكيله وأنظار عمال الخان. صعد حابساً غصّته إلى السطح. تهدّج صوته وهو يقول للرسول: «قلْ لعمر: أخوك عبد الرحيم ينتظرك». تهدّج صوته وأحسّ الدمعة رطبة في عينيه. هرب من نظرات عماله إلى السطح. اختلى بنفسه ناظراً إلى بساتين التوت

الخضراء، إلى القافلة التي تتسلق الهضبة صوب سهل الناصرة، إلى الحمائم تدور في أقواس فوق توتات القوتلي وفوق حقول الشلفون. نظر إلى غيوم الربيع تتباعد بيضاء قطنية في السماء. ودعا ربّه أن يقذف نوراً في صدر أخيه. وان يبهج قلبه. صلّى لا لعودة عمر ولكن لسلامة قلبه. يعود أو لا يعود، هذا قراره. المهم أن تفرح عيناه. أن يفرح بزوجته. وان يُعطيه العاطي البنات والبنين. صلّى أن يرى عمر ضاحكاً من جديد. صلّى صلاته فتذكّر البنت على درج الدركاه.

قبل شهور، أثناء الكوانين، رأى مناماً غريباً. كانت الرعود تهزّ الحارة. طريق القوافل مسدودة بالثلوج عند ظهر البيدر. والبحر فارغ لا تُرى فيه سفينة واحدة. الموج يرتفع ويلمس بطن الغيوم ثم يتساقط جبالاً فوّارة. حتى المراكب رُفِعت من مياه الميناء، مع أن الحاجز الصخري يصدّ الأمواج. لكن ليس في هذا الطقس. النوء مخيف. رفعوا المراكب إلى وراء العنابر. المياه دخلت العنابر قبل ليالٍ وأفسدت بضائع. البضائع في رأس الكومة سلمت. البضاعة أسفل الكومة أفسدها البحر. كانت الرعود تهزّ المدينة المحاصرة بالماء. ورأى هذا المنام الغريب: رأى أنه يسير في كروم تين وعنب. الطقس صحو والحساسين تُغرد في الشوكات. جلس تحت شجرة تفاح فرأى تفاحة صفراء كالذهب على الأرض. التقطها وضربها على فخذه. كما رأى أباه وهو صغير يخبط البصلة البيضاء و«يفقشها». ضربها مرة وأخرى فبدأ فخذه يوجعه. وتمزق قماش السروال. أزاح القماشة الممزقة فرأى نملاً يخرج من لحم فخذه. كان النمل الأشقر يخرج في صفوف من وكرٍ في فخذه، وكر فوق الركبة، في بطن الفخذ. خرجت نمال صغيرة لا تحصى. سعت على صفحة فخذه. فخذه أبيض اللحم لا يرى الشمس. أبيض بياض بطن

عائشة. تحركت النملات سريعة كثيرة على فخذه. لكن من أين تخرج كل هذه الأعداد؟ انحنى مرة أخرى على فخذه: الوكر عميق في لحم الفخذ. كيف يتسع فخذه ـ الوكر في لحمه ـ لهذا العدد اللانهائي من قطعان النمل؟ فجأة غادره الإيمان. ركب إبليس على صدره وامتلأ بفزع شديد. هذا حدث معه من قبل. عندما ركبته الظنون ناظراً إلى خاله وعمه الحاج محي الدين الاسطمبولي يعبث بلحيته البيضاء متفكراً. «هل يغدرني عمي؟ يغدر بي وابنته زوجتي وأولادي أحفاده؟ هل يضحك على ذقني ويسرق ليراتي وعرق جبيني؟» في المنام لم يفكر في هذه الأشياء. لم يفكر شيئاً. سال العرق على ظهره. ثم رأى نفسه في مكان بعيد. رأى صفاً من أشجار السدر. «أين أنا؟» يعرف هذا الشجر الصحراوي. عرف انه يسير على الرمل خارج «مقبرة الحجاج» في مكة. رأى أنه يبحث عن قبر. «قبر من؟ قبر الإمام الحوت صاحب المرجوم؟ أبي طالما ذكره، كان يقول: مولاي الحوت لولاه ما بقيت في بيروت؛ لولاه ما أعطاني الباري ما أعطاني». كان يبحث عن قبر. تموج الرمل وخبطت ذرّاته أوراق السدر. سمع صوت الأشجار. «قبر من أطلب؟ أبي قال: ذَهَبَ مولاي الحوت يحجّ ومات مجاوراً قبر الرسول الأعظم، أكرمه ربّنا». رأى خطاً من النمل الأسود يتحرك على الرمل. النمل ينزل من لحم ساقه، يتدفق كالدم ويتغلغل في رمل المقبرة. جلس أرضاً. أزاح الرمال بيديه فرأى امرأة. كانت عارية كما خلقها ربّنا. عارية تنام في الرمل الأصفر. على جفنيها رمل. وسألته لماذا تأخر كل هذا الوقت؟

قام من منامه مبلولاً بالعرق. هذه بنت جرجس نوّار تنام في رمل مكة بلا ثياب. ماذا أتت تفعل إلى منامه؟ نظر بلا انتباه إلى

فخذه. قام من السرير وأشعل سراجاً. نظر إلى جسمه. لم يرَ وكراً.

عند نهايات الشتاء رأى مناماً آخر. كان مع أبيه عبد الجواد وراء حانوت الشواء القديم، قبل أن يتسع حانوت الشواء. قبل بناء المصطبة. وقبل شراء الطاولات والكراسي. كان مع أبيه وراء الحانوت يذبحان عجلاً. نوفر الدم من رقبة العجل ولطخ حجارة الحائط الدكّ تحت تينات عيسى ساسين. رأى البقع الحمراء تسود على الحجارة. أبوه مسح العرق عن وجهه وجلس على العجل المتخبط. هكذا لا يُوسخ المكان كلّه بهذا الدم الساخن. عبد الرحيم أخبر أباه عندئذٍ عن البنت. قال أبوه: «خذها زوجة على ذمة الله ورسوله يا ابني». عبد الرحيم سأله: «أتزوج على أم حسين؟» عبد الجواد أجابه: «الرسول قال شرط أن تعدلوا». عبد الرحيم حاول أن يشرح: «عائشة قلبها ضعيف، لن تتحمل». عبد الجواد نهض وجرّ العجل بيده الواحدة. جرّ العجل ثم رفعه على حائط الجلّ. ليسيل الدم كلّه من جسمه. عبد الرحيم قال «أنا لست أنت يا أبي». عبد الجواد ضحك: «أنت لحمي ودمي. كيف لا تكون أنا. أنت مثلي يا عبد الرحيم. تزوجها».

جاءت السنونوات وجاء الربيع. فضاء بيروت امتلأ زقزقة. الطيور تخفق في السماء، تطير طيرانها المجنون، والقوافل تظهر على طريق القوافل من جديد. سكن البحر وبانت السفن وبانت البوابير. الناس خرجوا من بيوت الشتاء وتمغطوا على العتبات وتفقدوا الأزقة. عائشة الفاخوري البارودي وقفت عند شجرة الجوز ونظرت إلى «الطريق البيضاء» وإلى السنونوات السود بأجنحتها المخططة بالأبيض تتطاير فوق طريق الكلس وترسم خطوطها. صوت السقسقة ملأ تجاويف أذنيها. صدرها ملآن حليباً. وقلبها ملآن حبّاً

لهذه الحارة، حارة زوجها عبد الرحيم. هذا الحاج الطيب ابن أبيه. عاطفته بحر. وهي - أم حسين - تغرق في أمواج عاطفته الجياشة. إذا غمرها في الليل شعرت أنها ترتقي إلى السماء السابعة. نظرت إلى بنت تخرج من البيت الأبيض بالقنطرة الحجر وتقف تحت شجرة التوت وتمشط شعرها الطويل الأسود. لماذا تمشط شعرها هكذا، في العراء، تحت عين الشمس؟ نظرت فعرفت أنها فردوس، صغرى بنات زهرة البارودي نقوزي. عائشة لا تحبّ هذه الأرملة ولا أمها. أم زهرة غريبة الأطوار. عائشة لا ترتاح إلى هذه المرأة البيضاء الكبيرة. كانت تنزعج من رؤية عمر عندها. الأخ الصغير لزوجها. العملاق الهارب من الحارة إلى القُرم إلى خان التوتة إلى حلب إلى حيث لا يعلم أحد. ابن فيليبوس أرقش جاء إلى زوجها في الخان وأخبره. قال عمر تزوج حلبية من آل الحلو، يعيش في حلب ويزرع فولاً وعدساً وقمحاً. عائشة صدقت ولم تصدق. قالت ربنا يُوجه له الخير أينما ذهب، حرام عمر. قالت «حرام عمر» وسكتت. تذكرته وهو يافع ملآن ضحكات، أول نزولها في هذه الحارة. تذكرته يلاعب أطفالها قبل ذهابه إلى حرب القُرم. تذكرته قاعداً في البيت الصغير - بيت المرحومة - والباب مفتوح والعصافير تزقزق في الجميزة، وهي تحمل صفية الرضيعة بيدٍ وتضع صدر الطعام قدامه باليد الأخرى. عمر. الأخ الصغير لزوجها. لا تعرف ماذا جرى له. إذا أخبرها عبد الرحيم عنه لا تعرف كيف تربط العملاق الكئيب المشروم الأذن الراجف الكتفين الأبيض الشعر بعمر البارودي القديم آكل الزيت والزيتون واللبنة.

تعاقبت السنون وكبرت صفية. الأولاد يكبرون. زاهرة تكبر وحوراء تكبر. عبد الفتاح إذا تركته على رأسه بلا رقيب يتسلق الحيط

إلى السطح القرميد مثل أخيه حسين من قبله. وحده عبد الغني لم يُعذب قلبها. عبد الغني مثل البركة الراكدة. حتى أيام الرضاعة لم يعذبها. حسين أهلكها بالعضّات. عبد الفتاح كان يمتص حلمتها إلى زلعومه. قتلها عبد الفتاح في الرضاعة. قبلت نصيحة عماتها وفطمته باكراً. عبد الغني لم يعذبها. كان يشرب حاجته شرباً لطيفاً ثم يغمض عينيه الواسعتين ويغرق في نوم عميق. وسليمة مثله. حلوة هذه السليمة. أمس قال عبد الرحيم إنه ينظر إلى تكاوينها الصغيرة فيتذكر المرحومة أم شاهين. قال إن هذه الطفلة شَبَه ستّها. كأنها هي، قال. رفعها إلى وجهه وباسها بين عينيها.

جاء الربيع والتوت اخضرّ وامتلأ ورقاً. هذا موسم القزّ. بزر القزّ فقّس بارتفاع الحرارة. والديدان خرجت ترعى الأطباق المفروشة ورقاً أخضر. الورق مفروم، الدودة ما زالت زرقاء صغيرة، تحتاج طعامها طرياً. بيروت كلّها مشغولة بالقزّ. ليس كلّها. بيوت كثيرة كفّت عن تربية الحرير. أم زهرة ـ أرملة عبد الجواد البارودي ـ ما زالت تُربي حريراً. زهرة تنام في البيت الآن، تحت، وبنات زهرة ينامون تحت أيضاً. أم زهرة وحدها تنام فوق الآن، بين أطباق القزّ، تنام على صوت القزّ وهو يطحن ويطحن ويطحن. وتفتح عينيها على الصوت نفسه. وحدها تنام فوق الآن. المرأة البيضاء الكبيرة. في الغرفة الضائعة بين الغيوم وأغصان السنديانة، الغرفة حيث قضت كلفدان الشركسية.

بيروت مشغولة بالتوت والقزّ. الرحالة طومسون سمّى بلادنا «أرض التوت» (Mulberry Land). البيوت التي كفّت عن تربية الحرير ليست كثيرة كما تحسب عائشة. القزّ سهل. والتوت يملأ هذه البساتين. بيروت مشغولة بالقزّ. والجبل أيضاً. والسهول وراء

الجبل. هذه بلاد الحرير. من دون الحرير هل تملأ هذه السفن بحرنا؟ النساء ملأن بأثوابهن الملونة بساتين التوت. يقطفن الورق العريض الأخضر ويعبئن السلال. زهرة تعافت وعادت تساعد أمها. لكن الأم لن تلبث أن تقع مريضة. في عزّ القزّ، وهي تركض من بستان التوت إلى الغرفة العالية ساخنة الجسم، ضربها هواء بحري بارد (بحر بيروت يقع إلى جهة الشمال، هواؤه فظيع). ضرب الهواء المرأة الساخنة على كاحليها. ضربها على رقبتها. ضربها على رسغيها الحاميين. فبلغت غرفة القزّ مريضة.

هاجت عليها الحمى في الليل فعجزت عن النوم. زهرة النائمة بين أولادها في الأسفل فتحت قبيل الفجر عينين كعيني البومة وأصابها الأرق. أمها الضخمة تتقلب فوق، تتقلب وتهذي وتبرطم بكلام عجيب. صعدت زهرة إلى أمها فرأتها مبلولة بالعرق والقزّ كلّه مستيقظ يأكل حواف الأطباق القاسية وينزل من الأطباق طالباً الطعام وينتشر على الأرض. جرّت فراش أمها أبعد. وجففت عرقها بمنديل. الأم تهذي، تقول أشياء متشابكة، وزهرة تفتح فمها. عينا البومة تشعان في هذا الظلام المملوء بالأنفاس المريضة، بالكلام المخيف. بعد اليوم لن تنظر الأرملة الصغيرة إلى الأرملة الكبيرة كما نظرت من قبل. بعد اليوم تضع زهرة مسافة بينها وبين هذه المرأة البيضاء.

زهرة تذكرت في تلك الليلة المرحوم زوجها، اللحام الصيداوي ابن عائلة نقوزي. كانوا يسمّونه «الساطورجي». تذكرت وجهه وتذكرت كيف بدّله الهواء الأصفر (هل تذكرون اسمه؟ أين تضيع الأسماء؟ كيف نحفظها؟). تذكرته ولم ترَ أنه دخل غرفة القزّ العالية في تلك اللحظة من نهاية الليل وجلس في الزاوية. جلس تحت

النافذة وتأملها وتأمل أطباق القزّ على السقالات الخشب وتأمل المرأة المطروحة المريضة. هذا الرجل كالطيف، لا تراه عيون الأحياء، الهواء الأصفر بدَّد مادته. يروح ويجيء بين عالمين ويبدو هادئاً. القماشة السوداء مربوطة على رقبته. عيناه كبيرتان. أنفه صغير. وشعره ظاهر من تحت العمامة النحيلة. زهرة لم تره يتربع تحت النافذة ويسند رأسه إلى الحائط. أم زهرة رأته. كان العرق يسيل على رموشها. شعرت أن رموشها تتسنن وتقسو. شعرت مادة الحجر تتسرب من أرض الغرفة وتتوغل في قدميها وفي أصابع يديها. عاجزة عن النوم رأت أشياء غير مفهومة. الموتى جاؤوا وتوزعوا رأسها. رأت جمجمتها مفتوحة، وفي جوف الجمجمة يغلي الحساء السميك. كم مرة أرسل إليها عبد الجواد ـ ثم ابنه عبد الرحيم ـ المعاليق ورؤوس الذبائح لتعمل طبخاً لا أحد غيرها يعرف كيف يُعمل. في عائلتها وصفة نابلسية لحساء اللسان ـ لسان العجل ـ وصفة تتوارثها العائلة من زمن الإمام الرملي المشهور بالفتاوى. شوربة لسان العجل النابلسية ذاقها الأمير فخر الدين مرة فحلف أنه لم يذق في حياته طعاماً بهذه الطيبة. حلف بالحدود الخمسة، حلفان الدروز. صوت الشوربة، صوت اللسان، صوت الهواء والنار في الفم وبين الأسنان وفي الحلق. رجل الكوليرا (من أين أتى ولماذا يأتي في هذه الساعة؟) فتح درفات النافذة. لماذا يفتح الدرفات؟ هذا الهواء البارد يُرسل مرضاً في القزّ. هواء لعين. لماذا لا تتحرك زهرة وترد درفة النافذة؟ سطع نور أبيض (هذا ليس القمر، هذا النور دافئ، هذا نور الصباح. متى طلعت الشمس فوق جبل صنين؟ المؤذن لم يؤذن بعد! هذه الحمى تخدعها). دخلت الشمس إلى الغرفة. ودخلت مع الأشعة الصفراء المملوءة ذرات غبار ثلاث قطط

بيضاء سمينة. قطة جاءت إلى رأسها. قطة إلى بطنها. قطة اختفت تحت البطانية عند قدميها. أم زهرة تزحزحت ثقيلة على الطراحات ونظرت إلى القطة عند قدميها فرأتها تنفصل - مثل دمعة تنقسم إلى دموع كثيرة - البياض ينفصل عن البياض، والقطة الواحدة تصير قططاً كثيرة. عدد لا يحصى من القطط البيضاء تدفق داخلاً من الباب ومن النافذة. أحاطت القطط بالمرأة البيضاء ولحست جسمها الباكي المحموم. فتحت القطط عيونها. رأت المرأة لوناً أخضر كورق التوت.

زهرة أعطت أمها ماء. من دون ماء يتشقق جسمها، يصير طيناً وتراباً. أعطتها ماء حين رأت أناملها تتحول إلى أصابع فخار. اللون يتغير، والملمس يتغير. أم زهرة شربت الماء. وجهها يغلي حرارة. الماء ينزل في حلقها فلا تشعر ببرودته. تمكنت منها الحمى. أصابع غير مرئية تقبض على مصرانها، تعصر المصران. المصران يتقلص ويتمدد، وتسمع صوته في أذنيها. الأصوات تتضخم في أذنيها. وترى صوراً غريبة تعبر تحت الجفنين. ولا تدري أين هي، في بيروت التي تعرفها أم في جهنم الحمراء.

رأت عبد الجواد في الزمن الأول يزدرد حبّات المعمول بالجوز والفستق ويلحس السكر المطحون والسمن عن رؤوس أصابعه ثم ينظر إليها.

ماذا كان يقول بعد الطعام؟ «من دون حلاوة بعده، الطعام ليس طعاماً». تدنو راجفة الشفتين. يأخذها والباب موارب وصرار الحقل ينشد نشيده في تجويف التوتة. تذكره يميل معتمداً على ذراعه. ورائحة شاربه تبغ ومعمول. كيف عبرت السنوات على جسمه؟ رأته آتياً محني الرقبة على الطريق الكلس التي شقها بفأس بين الشوك

والمقسيس والصبير. يجرّ جسمه جرّاً ويده على بطنه المقروحة. بات لا يأكل. إذا أكل التهب جوفه كأنه يبلع إبراً ودبابيس. رأته يتوقف عند الجميزة ورأت امرأة تنزل من أغصان الجميزة وأساورها تغني على ذراعيها. من هي هذه المرأة؟ كيف رجعت أم شاهين المسلولة صغيرة هكذا؟ ولماذا تلبس أساور الجارية الشركسية؟ رأت يداً تنبت من أصل الكتف المقطوعة. الشمس تلمع على كلس الطريق والحمائم تحوم فوق مئذنة العمري المستطيلة. نبتت الذراع وعربشت مثل فرع لوبياء والتفت على المرأة ونزعت ثيابها. هذه سعدية الحصّ البارودي؟ استدارت المرأة فرأت الوجه النحيل ورأت الرقبة الممشوقة: هذه الحلبية المسيحية هيلانة؟ اقتربت أم زهرة من الرجل الذي يتسلق المرأة تحت الجميزة. هذا ليس عبد الجواد. هذا رجل بذراعين. من هذا الرجل؟ رأت صفيّن من الأسنان الصفراء. ورأت الرقبة السمراء والقماشة السوداء تخنق الرقبة. رأت الشرايين المحتقنة الخضراء. وقالت للرجل أن يبعد يده عن كتفها. الرجل ظلّ يلمسها. قالت له عيب لكنه نام فوقها.

زهرة هزّت أمها هزاً عنيفاً وأمرتها أن تفيق. أيقظتها بماء بارد على وجهها وعلى رقبتها وعلى كتفيها. وضعت طاسة من ماء الزهر عند رأسها وفركت بالزيت قدميها. «فيقي فيقي فيقي»، قالت. وظلّت تردد الكلمة ذاتها مثل لازمة، كررت الكلمة إلى ما لا نهاية كأن الهستيريا تمكنت منها. «فيقي فيقي فيقي»، قالت وهي تصفع أمها على خديها صفعات خفيفة. «فيقي فيقي فيقي» ظلّت تقول حتى فتحت أمها عينيها. فتحت المرأة عينين مريضتين لا تريان هذا العالم وتابعت هذيانها كأنها نائمة. «قومي قومي قومي» أنشدت زهرة فوق رأسها. وجلبت جرّة الفخار المملوءة ماء وصارت تغرف بالطاسة ماء

بارداً وتسكب الماء على رأس أمها. «قومي قومي قومي» قالت. فقامت الأم من الحمى. عصرت شعرها وأبعدت ابنتها من دربها وقامت لترى أحوال الدود. وجدت الديدان منكمشة على نفسها، تتكوم صفراء في الزوايا. «جاعت»، قالت المرأة الخارجة من المرض والتقطت المقطف وأسرعت تنزل الدرج إلى بستان التوت.

حسين بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي رآها راكضة تقطر ماء إلى التوتات الخضر فأدرك لماذا يتغامز أصحابه إذا ذُكرت الأرملة أم زهرة. كانت خفيفة في هذا الصباح كأن الهواء يحملها. وكانت ثقيلة أيضاً. بدت ـ في لحظة ما ـ موشكة أن تتعثر، كأن توازنها اختلّ وهي تبلغ أولى التوتات في الجل العريض الفاصل بين بيتها وبيت الأحباش. حسين الخارج من الحارة القرميد رآها تختفي في ظلال التوتات ورأى سرب طيور يغادر الأشجار مجفلاً. انطلقت الطيور في شكل مثلث إلى الجهة الأخرى من «الطريق البيضاء» واختفت وراء مخزن النصولي ووراء حائط الحارة وفوق بيوت سوق الحدادين. نظر حسين البارودي إلى غيوم قطنية البياض (ثلاث غيمات فقط، صغيرة، متشابهة) تتباعد في سماء عميقة الزرقة وشعر ببرد في بطنه. شعر ببرد خفيف وتذكر أن عليه زيارة شط شوران.

الأفراح عادت إلى حارة البارودي ذلك الربيع. بينما القزّ يُقطف، والأنامل تجذب شرانق الحرير الصفراوية البياض عن عيدان الوزال، عقد عبد الله الفاخوري على زينب نقوزي كبرى بنات زهرة بن عبد الجواد. عقد على كبرى البنات الجميلات واعداً نفسه أن يعقد على الصغرى أيضاً إذا أُعطي العمر والنصيب والمال. ابتنى بيتاً

خارج باب إدريس. إذا فتح النافذة أطلّ على سوق الفرنج. يقعد هنا وقت الصباح ويشرب قهوته الحلوة (سكر زيادة) من يد زوجته الحلوة. يتأمل الموج يفقس في عرض البحر والغيمات تتوالى في السماء وتسقف خان أنطون بك. إذا أمطرت على عجنة الفخار تفسد العجنة. ضروري أن ينتبه للطقس. حسين قال إنه يزداد براعة في صنع الأباريق. عندما يضع للجرة أذنيها، عندما يلصق الأذنين بجسم الجرّة يشعر باكتفاء عميق، كأنه قام للتو من صلاة. تصالح حسين مع أبيه لكنه ظلّ يقضي على شط شوران وقتاً أطول مما يقضي في «خان التوتة» في السهلات. ليس على الشط فقط، في بريّة رأس بيروت أيضاً. يستعير منه بارودته الطويلة القسطل ويختفي النهار بطوله بين رباعات الصبير. أو يذهب إلى حرج الصنوبر. أو يطلع في الجبال إلى بعبدا والقماطية وعاليه. صاد غزالاً بديع القرون خارج قرية فرن الشباك. عمال الطريق رأوا الغزال يفرّ قافزاً في الهواء فوق أخدود عميق ثم ينقلب في الفضاء ـ أصابه وهو يطير ـ ويسقط عند حافة الأخدود. هذا أخدود حُفر لبناء حائط دعم. هذه منطقة خطرة، ترابها يزلق إذا سقطت أمطار. سليم الفاخوري ـ ابن عمه خالد العائد من «دار السعادة» ـ عنده ورشة عمال. يُدير الورشة وهو يدخن الأرجيلة. تكفل ببناء حيطان الدعم لطريق الشام من قرية فرن الشباك إلى قرية الحازمية.

طريق الشام تتبع طريق القوافل على الحدود بين الشوف (جبل لبنان الجنوبي) والمتن (جبل لبنان الشمالي). عمال الطريق يأتون من الشوف (معظمهم دروز) ومن المتن (معظمهم نصارى). سليم الفاخوري قال وهو خارج من الصلاة في جامع النوفرة إن العمال يتشابكون بالكلام، مرات يتشابكون بالأيدي أيضاً. القلوب ملآنة.

الله يستر. تدافعوا في «خان العيون» بجوار عين دارة ولولا تدخل المصلحين من آل حداد وآل عبد الملك كانوا تضاربوا.

في بيروت أيضاً يُسمع كلام واقف بين حين وآخر. عبد الله بيهُم قال إن الخواجات النصارى يأكلون الأخضر واليابس بعون القناصل. الحاج وهبي عيتاني شتم جاره يوسف طراد في البازركان. شتم القناصل وتراجمة القناصل وشتم الامتيازات. لكن أهل الخير سرعان ما ظهروا. والشتيمة امتصتها حيطان البازركان. السوق سوق تجارة، سوق أخذ وعطاء، حرير وقماش وليرات، ليست سوقاً للسباب. الرجلان تعاركا صباحاً، تقاسما الخبز والملح ظهراً، واحدهما ألقى على الآخر تحية المساء ساعة غروب الشمس. هذا ما جرى في البازركان. بعد ذلك قد يتضخم الحكي، وتتكاثر الأقاويل والروايات. لكن العراك بين التاجرين انتهى. هذا لا يمنع نظرات غيظ يتبادلها شغيلة الحاج عيتاني مع شغيلة الخواجه طراد. المتجران متلاصقان. الباب على الباب. وقت التحميل تتصادم الأكتف، تتصادم النظرات، تتصادم البغال.

حسين البارودي عاد من رحلة صيد مثقلاً بالحجال. قال إنه بلغ جبل الباروك. نزل عن الحصان العرقان وهو يربت على العنق الضخمة المبلولة. البخار ارتفع من فم الحصان، ارتفع من مناخيره، ارتفع من جسمه. الحاج أبو حسين ظهر نازلاً درجات الخان. بدا صاحب كرش. كان يلوك عرق بقدونس بعد فطور من بليلة الحمص والفول المدمس. ألقى نظرة على صيد بِكره ثم أمره ألا يخرج في رحلات بعيدة وحده لأن الأحوال في الجبل ليست على ما يرام. حسين ردّ أن الناس في الحقول، والقرى لا تُسمع فيها شتيمة واحدة. «لا تصدق ما يقوله أهل القوافل»، قال حسين لأبيه عبد

الرحيم. الحاج أبو حسين نظر إلى عين الحصان الندية الواسعة وقال لابنه إن الناس تحب الحكي، هذا مفهوم، لكن حرام أمه، بالها ينشغل عليه إذا نام خارج البيت، خصوصاً هذه الأيام.

قاد حسين الحصان إلى أعماق الاسطبل. بقي الحاج عبد الرحيم وحده في باحة الخان. رائحة الثوم والبصل تفوح مع أنفاسه. عائشة قالت له إنه يأكل قليلاً. كل الوقت يركض، كل الوقت يشتغل، ولا يجد الوقت ليأكل، لا يجد الوقت ليقعد ويبلع لقمة. معقول؟ الحاج أبو حسين وضع يداً على كرشه وسألها: «وهذا الكرش؟». ردّت أنه من شرب الماء.

عبد الرحيم البارودي يخاف على بكره حسين. يخرج من بيروت في رحلات بعيدة. يأخذ الحصان. ومرات يذهب بلا حصان. لا يذهب بلا البارودة. صار ضخم الجسم. يخاف عليه. عائشة مررت إليه الخوف بالعدوى. مثل المرض هذا الخوف. رأت عائشة جسم بكره يتضخم فانتابها الخوف. لماذا تخاف؟ الصبي صحته حديد، صار رجلاً، ويرفع جرن الكبّة بيدٍ واحدة. الصبي ورِث قوة جده وعصب جده، لماذا تخاف عليه؟ عائشة قالت «لهذا أخاف عليه». قالت «أين أخوك الآن؟» وسكتت. عبد الرحيم لا يحبّ هذه الأحاديث. علّمها قبل زمن بعيد أن تتلو سورة الناس كلما هاجمها الوسواس. قلْ أعوذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس. لا تعرف القراءة. علَّمها الآيات الكريمة حفظاً. يراها تدمدم وهي ترضع الطفلة، تدمدم وهي تكنس كسور إبريق الفخار، تدمدم وهي تنقر الباذنجان، تدمدم وهي تُعلق جبّته، وهي تفرش التخت. تدمدم وهي تُلبس المخدة وجهها المغسول الفوّاح الرائحة. تدمدم خارجة من

باب الحارة، تدمدم داخلة إلى البيت. مرات يسمعها تصلي وهي نائمة.

الحاج عبد الرحيم سأل صاحبه الشيخ عزّت بيضون رأيه في حسين. الشيخ بيضون لا يقول إلا الكلام الطيب، وإذا تكلم عن أولاد الحاج عبد الرحيم جاوز نفسه. يحبّ حسين ويحبّ عبد الغني ويحبّ عبد الفتاح. عبد الرحيم البارودي قال له إن أم حسين شديدة الخوف على حسين، تنظر إليه فتتذكر أعمامه. الشيخ بيضون قال «حسين ابن أبيه، عقله في رأسه، لكن هذا وقت الفتوة، والحليب يفور ثم يركد».

عبد الرحيم اطمأن قليلاً. لكنه ـ في الأعماق ـ ظلّ مضطرباً. حسين ليس مثله. عبد الغني مثله. حسين لا. هو أيضاً ـ مثل أم حسين ـ ينظر إلى بكره فيرى أخاه شاهين ويرى أخاه عمر. لماذا يأخذ بكره صفات شاهين أو عمر ولا يأخذ صفاته! علّم ذلك عند الله. يا رحمن يا رحيم.

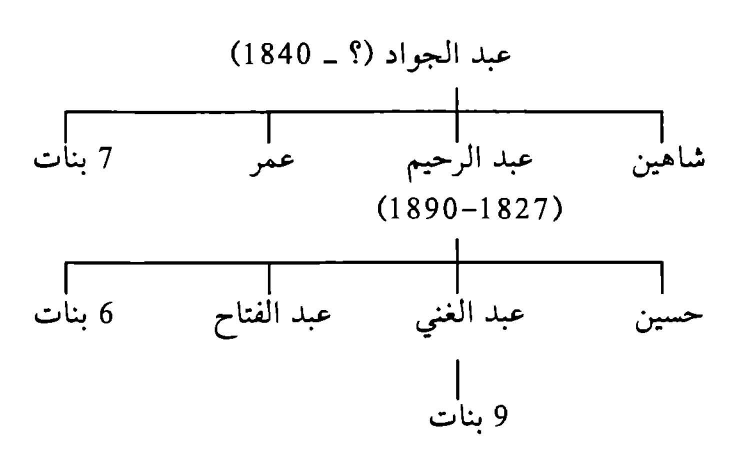
عبد الرحيم البارودي لم يكن يعلم عندئذٍ أنه على خطأ. الأعوام ستظهر له ما خفي عنه. أم زهرة راقبت من البداية أبناء عبد الرحيم الثلاثة آتين ذاهبين على «طريق عبد الجواد» وحدست أين تأخذهم الطرقات. حدست طبيعتهم. وحدست خصالهم وميولهم ونظرتهم إلى الأشياء. أم زهرة تعرف ما لا يعرفه ابن المرحوم زوجها. أم زهرة تنظر فترى المحجوب في بطن الإنسان. طالما اعتزلت كالنساك في غرفتها العالية. العزلة أعطتها قدرات. تقعد شاردة، تسبح في أعماق خفية، تستعرض الوجوه وتتأمل في قصص ونظرات وكلمات. ما زالت تذكر شاهين البارودي طفلاً. ما زالت تذكر عائلة جرجي تامر قبل أن تكبر العائلة وتتفرع إلى بيوت تنبت

بيتاً بعد بيت وراء البيت القديم الأول. تذكر الوجوه الصغيرة. وتقارن بين الطباع. وتعرف من يشبه من، ومن يبدو ـ للوهلة الأولى فقط ـ شبيهاً بغيره مع أنه لا يشبه هذا الغير أبداً، أم زهرة تنظر إلى حسين البارودي وترى ما لا يراه أبوه. ماذا ترى أم زهرة؟ في ليالي الحمى رأت وجوهاً كثيرة. رأت مناظر رأتها من قبل. ورأت مناظر أسيرة المستقبل. هل رأت عبد الغني بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي وقد جاوز الستين يحيا على حافة الحرب العالمية الأولى ولا يدري أي كوارث تنتظره؟ أم زهرة تنظر إلى حسين البارودي فترى فيه طاقة جده عبد الجواد ونباهة أبيه عبد الرحيم. لا ترى فيه طيش شاهين ولا ترى فيه نزق عمر. أم زهرة تنظر إلى عبد الفتاح فتراه نسخة طبق الأصل عن عمه المقتول في بحرصاف. إذا نظرت إلى عبد الغني ماذا ترى؟ أي مستقبل ينتظر هذا الفتى؟

أرى عبد الغني البارودي. أتغطى ببطانية في شتاء 2006-2007 وأنظر إلى الصور القديمة. أراه عبر غيمة من دخان أرجيلته. وجهه يبدو غامضاً مشوهاً وراء الغيمة. تحيط به بناته، وعلى الكنبة أعداد من مجلة «الهلال». كان رضيّاً هنيّاً، هذا الرجل الستيني. لم يُبدد ثروة العائلة لكنه لم يحفظها أيضاً. الأعوام قرضت أملاك أبيه قرضاً. الأعوام ومغامرات أخيه عبد الفتاح المشؤومة. أراه غائماً وراء دخان أرجيلته، ناعساً. من طفولته وهو كسول، يميل إلى التنبلة وأبوه يحسب هذه التنبلة تفكراً وتأملاً. تعاقبت عليه السنون وتحول إلى رجل متكرش لا ينفع، يحبّ بطنه وبناته والقراءة، يطالع أعداد «الهلال» التي تصله بالبحر (عنده اشتراك سنوي)، ويخرج للنزهة على رصيف المرفأ الجديد وعلى طريق مينا الحصن والفنادق وعين المريسة. الكونت لم يقل يوماً كلاماً قاسياً بحق جده لأمه عبد الغني

بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي. لكن...

«دفتر اليوميات. الإثنين 1 كانون الثاني (يناير) 2007. الثامنة مساء. سنة جديدة إذاً. النوافذ الطويلة العالية في قبة سيتي بالاس اختفت خلال الأيام الأخيرة. هل أُحرقت ألواحها الخشب؟ حطب للتدفئة؟ الخيم تغطي الساحة البيضاء الواسعة. تغطي المساحة كلّها ما بين جسر فؤاد شهاب وشارع الأمير بشير. منذ شهر تقريباً تغمر الخيم ساحات الوسط التجاري. هذه ليست خيم 1860. كيف تكتب عن «حرب الستين» في هذا الوقت؟ هل تقفز عن الحرب إلى ما بعدها؟ عبد الجواد رُزق شاهين وعبد الرحيم وعمر. عبد الرحيم رُزق حسين وعبد الغني وعبد الفتاح. عبد الغني رُزق تسع بنات. هؤلاء ذكور آل البارودي:



ماذا يحدث لهذا البلد؟ أين تأخذه الأيام والأعوام؟ منذ سنوات تقطع الدروب ذاتها من الأشرفية إلى وسط بيروت إلى الجامعة الأميركية إلى الحمرا. تقطع الطريق من «الحياة» إلى فوش (سوق القطن) إلى سعد زغلول إلى شارع عبد الملك (طريق عبد الجواد)

إلى اللنبي (سوق الحدادين). المطاعم ومحال الساعات والألبسة. الكراسي والوجوه والغيوم. تقطع الدروب ذاتها من الجامع العمري إلى النوفرة إلى الحديقة تحت السراي. تنظر إلى الآثار الرومانية. إلى قرميد الحمام الباقي منذ قرون. إلى السروات تميل تحت كنيسة الكبوشية. منذ سنوات تقطع الطريق ذاتها من جامع السراي إلى ساحة البرج (تمثال الشهداء) إلى فيرجين Virgin . تقف على حافة الطريق وتنظر إلى القناطر الأثرية في بطن التراب. قناطر مملوءة تراباً يغطيها العشب. ها هنا، عند تمثال الشهداء، كان خان القزاز، في بيروت القرن التاسع عشر. ظهرت السرايا سنة 1882 واختفى الخان. أين السرايا الآن؟ هدموها سنة 1950 وهم يوسعون الطريق ويوسعون الساحة. السرايا («السراي الصغير» كما سمّاها سليم حداد تمييزاً لها عن «السراي الكبير» أو القشلاق وهو «القصر الحكومي» الآن) باقية في الصور الفوتوغرافية. آل بابازواغلي بنوا نسخة طبق الأصل عنها في جبل لبنان، وجعلوا العمارة فندقاً. أين آل بابازواغلي الآن؟ انقرضوا كما انقرض آل البارودي. من ينقرض ومن يبقى؟ رجل تعرفه دخل إلى البحر قبل يومين وصاد سمكاً. أبحر في قارب صغير مع ثلاثة صيادين من شط الأوزاعي. من قلب البحر رأى أضواء المطار ساعة المساء. قبل ذلك، عند الغروب، كان البحر صفحة بارقة رقراقة، واللون البرتقالي يتلامع كالنيران معكوساً في نوافذ بيروت. بدت المدينة كأنها تحترق. وفي عرض البحر كان البرد قارصاً كأنك في ثلاجة موتى. لماذا تكتب هذه الرواية؟ القارب يدخل البحر. السماء تمتد إلى ما لا نهاية. شعر طويل أبيض. أمواج حزينة. البحر يمتد ويمتد. أصوات المدينة تبتعد، تتلاشى. لماذا تكتب؟»

غاب حسين ثلاثة أيام عن البلد، وعبد الرحيم امتلأ قلقاً. أعمدة الدخان ترتفع فوق الجبل. الأب خاف على ابنه. كم مرة قال له لا تطلع إلى الجبل في هذه الأحوال، كم مرة؟ مذ وقعت حادثة بيت مري قبل شهور وهو ينبه عليه ألا يصعد إلى الجبل. «إذا أردت أن تصيد اذهبْ إلى مستنقعات برج حمود، اذهبْ إلى صحراء الشويفات، لكن لا تترك الساحل ولا تطلع إلى الجبل»، قال لحسين. لكن حسين لا يسمع. هل أصابه الطرش وهو يدكّ البارودة ويقوص، يدكّ ويقوص، يدكّ ويقوص، هل أصابه الطرش؟ ما باله هذا الولد تحول ثوراً؟ ومن أين جاء إليه هوس الصيد؟ كل الوقت في البرية. وإذا رجع إلى البلد نام في الخان، في الاصطبل أو في غرفة عمه على السطح. وإذا نام في البيت عند أمه، إذا نام في الحارة ينهض مع أذان الفجر، ينهض قبل طلوع الشمس ويأخذ بارودته ويختفي. من أين جاء هذا الهوس بالصيد؟ ملأ الحارة طيوراً، يصيد غزلاناً وأرانب برية، كل الوقت في الصيد. وقبل أيام خرج في رحلة أخرى، وفي غيابه اشتعلت، فرقعة البواريد ملأت السماء، والحاج سليم الفاخوري جاء من الحازمية عند سفح الجبل وقال إن المعركة وقعت في عين دارة، قبل ظهر البيدر، وقعت في المرج، على حافة طريق دمشق. الدروز والموارنة اشتبكوا بالكلمات ثم بالخناجر ثم بالبواريد. والآن يغزو خطار بك العماد قرى المتن بدروزه. يحرق القرى. والنصارى يهربون. الله يستر، قال الحاج سليم.

عبد الرحيم البارودي يخاف أن يكون ابنه حسين في تلك الجهة. يخاف ويشعر كأن السماء وقعت على رأسه. مع أن هذه ليست عاداته. عائشة كثيرة الخوف. هل نقلت إليه هذا المرض؟

الوساوس تتكاثر عليه، كأن غيمة سوداء تتعلق فوق رأسه. يشعر بالظلمة ترافق خطواته من الحارة إلى الخان، من الخان إلى حانوت التبغ، من حانوت التبغ إلى البازركان، من البازركان إلى معمل الألاجة... غيمة سوداء ترسم دائرة سوداء حول جسمه. هذا لم يبدأ الآن. بدأ قبل أيام، في عزّ القزّ، وبيوت بيروت تقطف عن الوزال الشرانق. الغيمة السوداء تعلقت فوق رأسه عندما جاء إليه صهره نصر الله الصايغ في «محطة الشام» وقال واقفاً عند مناقل الشواء إن الشركة غيّرت طريقها المستقيم، لن تدخل الطريق إلى الميناء من هذه الجهة، من الشرق، ستدخل من خان أنطون بك، من الأرصفة الغربية.

عبد الرحيم البارودي أحسّ سلسلة ظهره تنقطع وهو يسمع كلمات الخواجه نصر الله. لهذا اشتروا أرض عبد الخالق الشلفون إذاً! لهذا يشترون أرضاً جنب «ساحة عالسور»! ولهذا اشتروا جلول الرمان تحت تلّة القشلاق على طول السور الغربي خارج باب إدريس. الخواجه نصر الله سمع الخبر من أنطون بك شخصياً. أنطون بك المصري صاحب الخان الكبير على المرفأ قال إنه عرف هذا من مهندسي المساجيري العاملين بإمرة الكونت دي برتوي. الكونت لم يتمكن من الحصول على الأراضي التي يريدها محطةً لعربات الشركة وخيولها. لم يتمكن من شراء الأراضي في جوار المقابر المقفلة خارج باب الدباغة وخارج باب السراي. لم يتمكن من شراء خان عائلة البارودي. فقرر أن ينعطف بالطريق غرباً: ينعطف عند زاوية أبي النصر ويدور حول سور البلد القديم الجنوبي منحدراً إلى الميناء بمحاذاة الأسوار الغربية لا الشرقية. اشترى أراضي خارج باب يعقوب. واشترى أرضاً بين خان أنطون بك

ومقبرة السنطية. الكونت برتوي قال إن هذا الحل عملي: هنا المكان أوسع، ولا يضطر لطلب الإذن من الحكومة لتوسيع الطرقات الطالعة من الميناء إلى باب الدباغة. تلك الطرقات ضيقة، حتى الحمير تجدها ضيقة، فكيف تعبرها عربات الديلجانس؟ قرر الكونت برتوي أن يربط الميناء بطريق الشركة عبر الجهة الغربية للميناء، حيث الزحمة أقل والعنابر أقل والبيوت أقل. عبد الرحيم البارودي سقط وجهه.

في تلك الفترة الحرجة اندلعت حوادث الستين. لم يكن أحد يعلم عندئذٍ أنها ستتحول حرباً شاملة وخاطفة تُفضي إلى تهجير نصارى جبل لبنان من قراهم وبلداتهم. الكارثة لن تنتهي هنا. ستتكرر في دمشق أيضاً. الحرب بدأت بمعركة عين دارة في الأيام الأخيرة من أيار (مايو) 1860. الهاربون بجلودهم إلى بيروت افترشوا الأرض تحت الأشجار ورووا ما جرى. يوم الأحد 27 أيار اشتبك الدروز (يقودهم صاحب العرقوب خطار بك العماد) بفرقة مسيحية مسلحة من أبناء زحلة. المعركة وقعت في خراج عين دارة. الشيخ عزّت بيضون مدبر خان التوتة سمع من جرمانوس حداد تفاصيل المعركة: جرمانوس حداد البيطري صاحب اللحية البيضاء قال إنه رأى المعركة كاملة من سطح بيته. بيته يجاور كنيسة عين دارة؛ عند قرع الجرس يهتز إبريق الفخار على حافة شباكه. بيته حد الكنيسة، ومن السطح العالي رأى المعركة. قال إن الجيش الزحلاوي كان كبيراً، ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل، لكن نصفهم بلا بواريد، نصفهم يحملون المناجل كأنهم خرجوا لحصاد القمح. دروز العرقوب جاؤوا على أحصنة. كانوا أقل من ألف. على رؤوسهم طاقيات بيضاء. والشمس تلمع على بواريدهم وبلطاتهم.

جيش زحلة اصطف على طريق دمشق، نصفه اختفى في الخنادق. الطريق لم تكتمل بعد. هنا ضيقة. هناك واسعة. هنا شوك وقندول. هناك صخور. كوم التراب تتوزع الطريق والغبار يرتفع من تحت الأقدام والحوافر. جرمانوس حداد ابن عين دارة رأى المعركة من سطح بيته. قال فيما بعد إنه خاف عندما رأى منظر العساكر الآتية من زحلة. منذ أيام ونصارى العرقوب يهجرون قراهم نازحين إلى زحلة. زحلة كبيرة حصينة. خرجوا من الباروك وكفرنبرخ وبتلون وقطعوا غابات الصنوبر وبساتين عين زحلتا إلى عين دارة. ثم قطعوا سهل البقاع إلى زحلة. هو سألهم لماذا يتركون بيوتهم. والنازحون قالوا إن الدروز في العرقوب تسلحوا، جميع دروز الشوف تسلحوا، والجو ينذر بالشرّ. منذ أيام يراهم على الطرقات، يحملون ثياباً وزنابيل وصناديق. الحمير محملة. والنساء والأولاد أمام الحمير. ووراء الحمير. يراهم ولا يفهم كيف يتركون بيوتهم والموسم موسم قزّ وحرير. في الجبل موسم القزّ يتأخر أياماً عن موسم الساحل. طقس الجبل أبرد. يبدأ الموسم بعد الساحل. وينتهي بعد الساحل. القزّ لا يفقس من بزره إلا بارتفاع حرارة الجو.

جرمانوس حداد خاف عندما رأى العساكر آتية من زحلة. عرف أنها تقصد العرقوب. وعرف أن لحظة الشرّ اقتربت. خاف على العساكر. كانوا تحت الجوزات يُصلِّبون على صدورهم. سمعوا قرع الأجراس فصلَّبوا. قال فيما بعد إنه رآهم قليلي الكلام صفر الوجوه بليدي الحركة منطرحين تحت الجوز خاملين خامدين توقظ الواحد منهم فلا يستيقظ. رآهم على هذه الحال فلم يفهم كيف يخرجون إلى حربٍ ولم يفهم كيف قطعوا السهل من زحلة إلى هنا في هذا الحرّ. كان الحرّ شديداً في ذلك الأحد، وظهر الدروز. الهاربون من قرى

المتن إلى بيروت نزلوا تحت أشجار التوت في «سهلات البرج».
محمد الفاخوري رآهم من نافذة بيته جنب زاوية أبي النصر. البخار يرتفع من قدور الفوّالين. وهو يرى ـ وراء البخار ـ النازحين ينحدرون من طريق الكراوية ورأس النبع، ينحدرون على الطريق التي اتسعت في الأسابيع الأخيرة، والأولاد يتحلقون حولهم ويتراكضون. فيليبوس أرقش الحلبي أنزل في بيته في الناصرة عائلة من بعبدا. الشيخ عزّت بيضون فتح ـ بتوجيه من الحاج عبد الرحيم ـ عنبراً من عنابر الخان لإيواء عائلات من عبيه وبتاتر. وزّع عليهم خبزاً وماء. المرسلون الأميركان جاؤوا للاعتناء بالجرحى والمرضى. عندهم مركز في عبيه. وهم طلبوا من الحاج البارودي إيواء النازحين المساكين. محمد الفاخوري خرج من بيته يطوي القميص على ذراعه المقطوعة ويشبك القميص بدبوس. قطع بين الأشجار ودخل خان التوتة من الباب الورّاني الصغير المطلي بالأزرق. اصطدم ولد بساقيه. سمع خوار ثيران وخيّل إليه أنه عاش هذه اللحظة من قبل. وجد باحة الخان مملوءة بالحمير والغبار والسلال والناس. زحمة شديدة. وفي الزاوية (حيث أجران الماء تبرق عليها الشمس) رأى الشيخ عزّت بيضون يستمع إلى حديث رجل كبير السن أبيض اللحية.

جرمانوس حداد ارتعشت لحيته الثلجية في نسائم الربيع البيروتي وهو يرفع يديه ويُصور المشاهد التي رآها. الدروز هجموا من جهة الجلول العالية، أحصنتهم خفيفة تقفز الجلول قفزاً. قال إنه رأى الأحصنة تطير فوق الأحصنة، والدروز في الثياب السود والطاقيات البيض والبلطات المشهرة يطيرون فوق الأحصنة كالعفاريت، ويصرخون صرخاتهم. قال إنه خاف من الصرخات قبل أن يرى

اللون الأحمر ينفجر على الطريق، بين الأشجار، ويرتفع بخاره وترتفع الرائحة. نزل من السطح عندما سمع الخردق يخبط جرس الكنيسة. طنّ الخردق على النحاس. طقطق وطرطق. نزل عن السطح فرأى أكف الدم على الحائط ورأى رجلين يقعان عند البئر بين الكنيسة وبيته. البئر يستقي منها. ويستقي الخوري وخادم الكنيسة. الرجلان الجريحان وقعا عند فوهة البئر. في البدء ظنّ أن أحدهما يساعد الآخر على الوقوف. كانت رائحة فظيعة تخرج من الاثنين مع الدم الذي يفور ويجري على الأرض. لم يستوعب كيف يخرج كل هذا الدم من هذين الجسمين الملتحمين. أحدهما ينزف من رقبته. الآخر ينزف من بطنه ومن كتفه. ثم أدرك أن أحدهما يحاول خنق الآخر. في تلك اللحظة سمع حركة وراء ظهره. من وراء البيت، من الزاوية حيث جلول الفاكهة المغمورة بضوء الشمس، ظهر رجل يطارد ثلاثة رجال. قوَّص بالبارودة، ثم أخرج غدّارة من زناره وقوَّص أيضاً. سقط رجلان. الثالث قفز واختفى في الجلول المنحدرة، يظهر بين التوتات ثم يختفي ثم يظهر.

جرمانوس حداد تراجع بلا صوت إلى داخل بيته. عندما ابتعدت الدعسات خرج إلى الباب فرأى دماً كثيراً ولم يرَ أحداً يتحرك. الذبان، قال إن الذبان وصل في لحظة، وطنّ على الأجسام المطروحة وعلى برك الدم الأسود. من أين جاء كل ذلك الذبان، لا يعلم. نفض يديه كأنه ينفض الذبان وسكت.

خطار بك العماد قاد رجاله في هجمات متوالية ودحر جيش الزحالنة وقطع طريق الشام إلى قرى المتن المحاذية وأحرقها. أحرق بيوت النصارى وأحرق مخازن القزّ. النصارى هربوا من القرى قبل وصول الدروز. خورشيد باشا صعد من القشلاق إلى بعبدا لفرض

الامن. أهل بيروت رأوه خارجاً على رأس المشاة والخيالة. الجنود النظاميون والباشي بظق انحدروا من تلّة القشلاق إلى ساحة السور إلى سهلات البرج. تراصفوا بين أشجار التوت. ثم تحركوا في صفوف منتظمة على الطريق التي اتسعت قبل أسابيع فقط صاعدين صوب الكراوية والناصرة ورأس النبع. الهاربون من المتن إلى بيروت نظروا إلى العساكر والمدافع بوجوه مريضة: منذ أيام، منذ يومين أو ثلاثة، ينامون في العراء. نظروا إلى الجنود ساكتين. نظروا إلى خورشيد باشا بين فرسانه ولم يتكلموا. وقفوا في ظلال التوتات ممزقي الثياب منكوشي الشعر ونظروا إلى الجنود في اللباس النظامي ولم يتكلموا. الأولاد الجائعون بكوا بلا صوت. الحاج عبد الرحيم البارودي رأى هذه المناظر وقال الله يستر، أين أنت يا ابني يا حسين؟

خورشيد باشا ضرب الخيم في سهل الحازمية على تخوم هضبة بعبدا. وصل جيش من كسروان يقوده طانيوس شاهين لمواجهة الدروز. فطلب منه الباشا العثماني أن يتراجع. مُعاصر تلك الحوادث إسكندر يعقوب أبكاريوس كتب أن خورشيد باشا طلب من الأمراء الشهابيين المقيمين في بعبدا دعوة طانيوس شاهين إلى الرجوع بعسكره إلى كسروان، وهو يتولى حمايتهم. مخطوط «نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان سنة 1860» محفوظ في مكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت.

الجيش الكسرواني خرج من دار الأمير قيس شهاب في بعبدا قاطعاً القرى إلى كسروان. على الطريق اشتبك مع دروز العبادية. في هذه الأثناء هجم دروز بتاتر والجرد على بعبدا. «تدانت الرجال من الرجل. اشتبك القتال. وأخذت نيران الحرب في الاشتعال». هكذا

كتب اسكندر يعقوب أبكاريوس قاعداً في بيت أبيه في زقاق البلاط في بيروت.

بين 28 أيار (مايو) و20 حزيران (يونيو) 1860 تغطى جبل لبنان بالدخان الكثيف. الجنود الأتراك لن يحموا أحداً. دروز يقتلون نصارى، ونصارى يقتلون دروزاً. مخازن القزّ كانت مملوءة فيالج جديدة، فاحترقت. رائحة الحرير المحروق ملأت القرى المحروقة. عندما نذكر «حرب الستين» اليوم نحسب أنها دامت سنة. «حرب الستين» في جبل لبنان دامت ثلاثة أسابيع. في ثلاثة أسابيع (من معركة عين دارة إلى مذبحة دير القمر) كسر الدروز النصارى. كانوا أقل عدداً. لكن حسن تنظيمهم ـ كما كتب الكولونيل الإنكليزي شرشل ـ أعطاهم الغلبة. في ثلاثة أسابيع احترقت القرى. في ثلاثة أسابيع «قُتل من نصارى لبنان أحد عشر ألفاً، وهلك من الجوع أربعة آلاف، وتشرّد مئة ألف». الجنود الأتراك لن يحموا أحداً. في مذبحة حاصبيا (10 حزيران) فتحوا باب السرايا للمهاجمين الدروز وتركوا المسيحيين المحاصرين لقمة سائغة. في راشيا (11 حزيران) أيضاً. خورشيد باشا لن يجرب منع الدروز من اقتحام زحلة (18 حزيران). لن يمنع مذبحة دير القمر (20 حزيران). في ثلاثة أسابيع اكتسح الدروز جميع قرى الجبل. أحرقوا زحلة المنيعة. أحرقوا جزين. قطعان الهاربين من المذابح تدفقت إلى صيدا (حامية صيدا سدّت أبواب البلد في وجه النازحين)، تدفقت إلى شط البحر، تدفقت إلى بيروت. التفّ الدخان الأسود حول جبل لبنان. عبد الرحيم البارودي رأى قطعان النازحين تتدفق إلى سهلات البرج. ثيابهم ممزقة، أقدامهم حافية. النساء باكيات، والأولاد يبكون. مشى بين جرحى ومرضى وجياع باحثاً بين الوجوه المتربة عن وجه بِكره الحبيب.

أين اختفى حسين البارودي؟ انتبه الحاج عبد الرحيم إلى غياب ابنه في اليوم الأول أو الثاني من حزيران (يونيو)، بعد أن نزل أبناء المتن إلى بيروت. في تلك الأيام صعد القناصل من بيروت إلى الحازمية. التقوا خورشيد باشا في خيمته وطلبوا منه أن يتدخل لوقف القتال. خورشيد باشا وعد أن يتدخل لكنه اشترط أن يكفّ القنصل الفرنساوي عن استيرادِ البواريد. هذا الكلام سمعه الحاج أبو حسين من لسان عبد المجيد الفاخوري. اخبره قريبه وشريكه في متجر البازركان أن الباشا غاضب على الفرنسيس لأنهم سلّحوا الموارنة بالبواريد الطويلة القساطل. «الموارنة كبرت رؤوسهم. ولازم يتربوا»، قال عبد المجيد. الحاج عبد الرحيم قال إن حسين لم يرجع بعد من الصيد. ذهب إلى عبد الله في باب إدريس وسأله عنه. عبد الله الفاخوري قال يكون صعد لصيد الغزلان في وادي رشميا، وادي نهر عميق. هذا موسم الغزلان، وهو دلّ حسين إلى الوادي، أخذه معه مرة، لا بد أنه يختفي في الأحراج تحت دير القمر وينتظر حتى تسكت فرقعة البواريد.

متى انتبه الحاج عبد الرحيم إلى غياب ابنه؟ انتبه بعد تكاثر النازحين حول «خان التوتة» أم انتبه قبل أن يتكاثروا؟ هذا لا يبدل شيئاً في قصتنا. بينما دخان كثيف أسود يلفّ الجبل ويلفّ سهل البقاع ويلفّ وادي التيم، بينما الصراخ يعلو ويصم الآذان مع فرقعة البارود، امتلأ الحاج أبو حسين قلقاً على ابنه الكبير.

القنصل مور أرسل سفناً من بيروت إلى صيدا. رجعت السفن محملة نازحين: هؤلاء أهالي جزين. هذا جرى في الأسبوع الثاني من حزيران. النازحون ملأوا عنابر المرفأ. زعيقهم بلغ «حارة البارودي»، اجتاح الشبابيك، ملأ عائشة خوفاً. أم حسين حملت

طفلتها ووقفت في الباب تبكي. منذ أيام ترى حسين في المنام مصاباً في ساقيه، يعرج ويزحف ويقوم.

سليم بكاسيني من جزين نزل مع زوجته وولديه في بيت جرجي تامر. قال إن جزين كلّها تشتعل. أبناء عمومته سكان بكاسين جنب جزين قُتلوا جميعاً وهم يهربون إلى صيدا. جلس سليم بكاسيني على حافة «الطريق البيضاء»، جلس على مقعد قش بلا ظهر وشرب كوب الزهورات راجف اليدين. قال إنه كان في الحقل. كل سكان البلدة كانوا في الحقول عندما هجم الدروز من جهة باتر والمختارة وعماطور. أبو سمراء البكاسيني تصدى للهجوم مع مئتي خيال. دار الاشتباك في مكان يقال له الغباطية. لكن الدروز جاءتهم الإمدادات من مزرعة الشوف وبعقلين. دفعوا حجارة أمامهم، دحرجوا الحجارة على المدافعين، وأطلقوا زخات خردق وراء زخات خردق. قال سليم بكاسيني إن زخات الخردق قصّت الشتلات أمام البيوت. أحرقوا بيوت بكاسين ونهبوا الغنم والبقر ثم تقدموا إلى جزين. هو جمع ثيابه وما أمكن حمله، جرّ البغل من الحبل وصرخ لزوجته وولديه. خرجوا من البلدة قبل أن يقتحمها المهاجمون. رأى النار تقع على البيوت. والبيوت تشتعل وراء ظهره. لم يعرف لماذا تشتعل النار هذا الاشتعال السريع. ثم شمّ رائحة الفيالج، شرانق الحرير. الشرانق سريعة الاشتعال. والوزال سريع الاشتعال. يفرقع ويتطاير وينقل النار من بيت إلى بيت. البيوت متقاربة، والزرائب ملآنة تبناً وشعيراً. احترقت جزين. لا أحد يعلم كم من أهلها نجا. قُتل أكثر من مئتين. الهاربون إلى صيدا هاجمهم رعاع خارج المعمرية وسرقوهم. الهاربون صوب عاصمة سهل البقاع زحلة هجم عليهم المتاولة كالذئاب في بلاد الشقيف. سلبوا ثيابهم وسلاحهم

وأثخنوهم ضرباً. دير المخلص احترق. نُهب ثم أُشعلت فيه النيران. كُسرت جرار النبيذ. سال الدم كالمطر. «صارت حجارة الأرض كالعقيق الأحمر». أهل بكاسين خنقهم دخان الصنوبر. الصنوبر سريع الاحتراق. وبكاسين يُسوّرها الصنوبر. سقوف البيوت جسورها صنوبر «لقش».

سليم بكاسيني نظر إلى شجرة التوت في الجانب الآخر من «الطريق البيضاء»، وبلع ريقه. منذ نزل هنا وهو يحكي. ما جرى لهم منذ خروجهم يبدو له خيالاً. كيف حدث كل هذا؟ لكنه ليس خيالاً. أصابعه ترتجف وهو يحمل كوب الزهورات. أنفاسه تهرب من صدره. الدم يتراكض في رقبته. كأنه ليس هو. كأنه فقد نفسه. أين هو؟ أين سليم بكاسيني القديم؟ الليلة الماضية عندما تمدد على فرشة واحدة مع زوجته وولديه في بيت لم يدخل إليه من قبل، الليلة الماضية صلّى قبل أن يأخذه النوم إلى أرض النسيان، صلّى أن يرجع إلى بيته. هل يرجع إلى بيته؟ جزين كلّها احترقت. الدروز تركوها قاعاً صفصفاً. أهل بكاسين هربوا إلى قيتولي وعازور، هربوا إلى البساتين والحقول، هربوا صوب روم. لحقوا بهم على الأحصنة. الحصان سريع. والخردق سريع. والبلطة سريعة. سليم بكاسيني ترك البغلة وحمل كل ولد تحت إبط وقال لزوجته «اركضي اركضي أو يقتلونا». شكر ربّه أنه هرب ـ أنه ترك الحقل وترك البيت ـ ما إن سمع الزعيق وفرقعة الصنوبر والبواريد. لو تردد، لو تأخر، لو تمهل، كانوا سفكوا دمه. التفت وهو هارب ورأى ملحم المعوشي وظاهر المعوشي يركضان وهما يجران بغلين ثقيلي الأحمال. هتف لهما أن يتركا البغال. لم يتركا البغال. لم يعرف ماذا جرى لهما، رأى أحدهما يتعثر ويقع بين الشوكات، ورأى الآخر يختفي بين

جبوب الوزال ثم يختفي ثم يظهر من جديد. طالت المسافة، تأخرا خلفه، ولم يعد يلتفت. صار يركض ويلهث ويقفز على صخور الوعر ولا ينظر إلى وراء. الغريب أن زوجته أخذت تركض أسرع منه، صارت تسبقه. وهو لم يستوعب كيف صارت سريعة هكذا. دخان الحرائق حجب السماء. عندما لاحت له بيوت جباع الحلاوة، عندما لاحت له السنديانة على مشارف القرية، فكر أنه قد ينجو. الولدان كانا يبكيان. عصرهما تحت ذراعيه وهو يركض.

سليم لوقا بكاسيني روى بعد نزوله في بيروت قصة نزوحه من جزين إلى جباع الحلاوة إلى بساتين صيدا إلى بيروت. قال إن بساتين صيدا امتلأت بنصارى جزين. كل من نجا من الموت في إقليم جزين نزل في البساتين حول مدينة صيدا. الذين هربوا صوب سهل البقاع أغار عليهم دروز نيحا. نيحا عالية مشرفة. آل فرحات أحصنتهم سريعة. إبراهيم أبو هدير هاجم قافلة جزينية مسلحة مع إخوته السبعة. القافلة فيها عشرون فارساً. لكن إبراهيم أبو هدير يحارب كالأسود. بعثروا القافلة وغنموا الأحصنة. سليمان أبو شقرا من عماطور طارد الجزينيين إلى مشارف صيدا. قُتل حصانه. كان يقوص على الرجال ولا يقوص على النساء ولا يقوص على الشيوخ. هذه قصة لا يعرفها سليم بكاسيني. ما يعرفه سليم بكاسيني يكفيه: تحت أشجار البرتقال في صيدا رأى ألوف الوجوه المذعورة. رأى الأجسام مطروحة على التراب، مبلولة بالعرق، ممزقة الأثواب والسراويل. رأى الغبار يغطي الجفون. رأى الدم يجف على القماش، رأى الدم ينزف من الأظافر، من أصابع الأقدام، من العيون. خمسة آلاف جزيني نزلوا في بساتين صيدا، يشربون الماء ولا يأكلون. أرادوا خبزاً. لكن حامية صيدا سدّت الأبواب في وجه

النازحين. أكلوا الأعشاب وورق الأشجار والجذور. سليم بكاسيني لم ينتظر وصول البوارج الأوروبية من بيروت. في ضوء القمر حمل عائلته وقطع الرمال، يسير بمحاذاة البحر، من صيدا إلى الدامور إلى الأوزاعي إلى بيروت. قال إنه قطع الطريق الطويلة بقوة الروح القدس. زوجته سقطت في نصف الطريق. حملها مع الولدين حتى ارتاحت فأنزلها. لم يتوقف عن السير. قال في سرّه «إذا قعدت أموت».

في رمل الأوزاعي، بين الكثبان البيضاء، التقى نازحين من الشوف ونازحين من مجدليون. أبناء مجدليون أخبروه أن مزارعهم احترقت. مزارع كثيرة في عين الدلب والمية ومية احترقت. المواشي نُهبت لكن الناس هربوا. قالوا احترق دير مشموشة. قالوا احترق دير بحنين. قالوا الرهبان قُتلوا. الموارنة قُتلوا والكاثوليك قُتلوا وكذلك الروم الأرثوذكس. الهاربون من دير القمر في الشوف قالوا إن الدروز يحاصرون البلدة من ثلاث جهات. فرّوا من الجهة الرابعة، والآن تكون هذه الجهة سُدّت أيضاً. قالوا إن البواشق تنقضّ على الجثث في غابات الصنوبر فوق ملتقى النهرين. قالوا إن الجثث تطفو على الماء وتعلق بقناطر جسر القاضي. قالوا إن قرى درزية كثيرة تحترق أيضاً. ولا أحد يدري من يربح الحرب. سليم بكاسيني سمع ولم يفهم ماذا يسمع. منذ زمن لم يأكل. منذ زمن يسير ويسير ويسير. غاص في الرمل وخرج من الرمل. البحر يهدر ويخبط الصخور. البواشق تحلّق في ضوء القمر الغريب. هذه بواشق أم وطاويط؟ حمل الرجل عائلته وقطع شط الأوزاعي قاصداً بيروت.

عائشة الفاخوري البارودي رأت الرجل النصراني الجزيني قاعداً في عباءة زرقاء فضفاضة أمام بيت جرجي تامر يحكي كأنه يهذي

والناس يصغون. صوته الحزين اختلط بالضجة الآتية مع هواء البحر من عنابر المرفأ. أم زهرة قالت إن أرصفة الميناء غطتها البطانيات والفرشات. القناصل أنزلوا النازحين في العنابر بانتظار نقلهم إلى خيم تُنصب في «سهلات البرج» وفي بساتين الغلغول والشلفون. أم زهرة تصل الأخبار إلى بيتها: ياسمينة الصايغ جاءت تزورها أمس وطلبت منها المساعدة في العجن والخبز في «مدرسة مسز سميث». المدرسة تحولت فرناً ومطبخاً لأعمال الإغاثة. زهرة قامت من مرضها ـ هذا مرض يذهب ويجيء ـ عندما سمعت العبارة المسحورة: «مدرسة مسز سميث». تلك كانت أجمل أيام حياتها. عندما كانت صغيرة تدرس الحساب واللغة الإنكليزية في مدرسة الأميركان.

عائشة البارودي لا يهمها كل هؤلاء البشر. لا يهمها الجبل ولا تهمها قرى البقاع ولا يهمها مرقس والياس ومارون. لا يهمها في هذا الوقت الأسود أحد. شخص واحد فقط يهمها: حسين، ابنها الكبير. «حرقت قلبي يا حسين، الله يردك إليّ، أين أنت يا حبيبي؟» تستيقظ في نصف الليل كالمخبوطة على رأسها. تستيقظ غير عالمة بما جرى لها وهي نائمة: كأن يداً خفية صفعتها على رقبتها، شدّتها من ذراعها شدّاً وأخرجتها من النوم. انتبهت وهي تُرضع سليمة أنها تبكي بلا صوت.

تساقطت الدمعات من عينيها. رأت الدمعات تقع حبّات على وجه الطفلة. انتبهت أنها تبكي من دون أن تنتبه. «أموت إذا مات ابني يا ربّي، أموت». دخلت صفية تحمل دلو حليب. سألتها عن حوراء. سألتها ولم تسمع جوابها. الكلمات تصل إليها ولا تصل. كل الأصوات في هذه الأيام غامضة. كل الوقت تسمع ضجة

في رأسها. ضجة كهدير البحر. ضجة كالبكاء والزعيق. ضجة مكتومة وغير مكتومة. لا تدري من أين يأتي الصوت. من عنابر المرفأ وسهلات البرج أم من أعماقها. «رُدّ إليّ حسين يا ربّي، ردّ حسين إلى أمه وأبيه». تركت الطفلة تنام بعد أن رضعت كفايتها. ألقت بطانية على كتفيها وخرجت إلى باب البيت. البطانية للسترة. الحارة فيها غرباء. الجو صار صيفاً والشمس تحرق. البطانية ترد العيون. «لو أن جرجي تامر، لو أن الخواجه أنزلهم في بيت خارج سور الحارة». قالت هذا أمام الحاج، قالت هذا أمام زوجها، فظلّ ساكتاً. لم يقل شيئاً. في الفجر، عندما كررت عباراتها، ردّ بكلمات غامضة:

ـ الله يساعد الناس.

عائشة البارودي ليست على بعضها. تقف تحت شجرة الجوز وتنظر إلى بيوت عائلة تامر وتشعر بالظلمة تخترق عينيها. لا تعرف ما بها لكنها تصلي من أجل حسين. تصلي أن يرجع حسين. تخاف ألا يرجع حسين. الحاج عبد الرحيم البارودي قال إن شاء الله يرجع بعد يوم أو يومين، حسين ليس ولداً، عقله في رأسه، يخفي نفسه عن أهل السوء ثم يرجع إلى البلد، حسين ليس ولداً. قال كلماته على مهل لكنها سمعت رجفة في صوته. سمعته قبل يومين يقول لعبد الغني أشياء عن القصف الإنكليزي: كان يروي خبر قصف البوارج للبلد سنة خروج المصريين. أخبره أن القنابل كانت تُرى وهي تطير في السماء، كرات الحديد لونها أسود. كان يتكلم ويضحك. ورأت عبد الفتاح يضحك. رأت الولدين يضحكان فسّدت الدموع زلعومها: أين الولد الثالث؟ أين البكر؟ أين الكبير؟

حسين البارودي لا يعرف أين هو. أضاع طريقه في هذا الليل.

القمر أصفر مدوّر. بدر كامل يعلو فوق قمم الأشجار أصفر اللون. كان يطارد قطيع غزلان، يتسلق تلالاً، ينحدر إلى أودية، يتسلق تلالاً، جبال الشوف بلا نهاية، كان يطارد الغزلان ثم سمع الصراخ وراء ظهره، في البعيد، ورأى الحرائق. لم يدرك في البدء أنها حرائق. رأى أخيلة، تموجاً في الهواء، ما يشبه ضباباً أو أسراب هوام. ظنّ أنها حشرات، رأى برقة النار فعرف أنه ينظر إلى غابة تحترق. عندما أطال النظر أيقن أنها قرية. ليست غابة. هذه قرية. لم يعرف أي قرية هي. لا يعرف أسماء هذه القرى. يعرف بعضها. لا يعرفها كلّها. عمّه شاهين طالما صادق دروزاً ونام في بيوتهم. لكنه ليس عمه شاهين. رأى الحرائق قبل أن يسمع فرقعة البواريد. تلك الليلة، وهو يقطع الأودية تحت قرية رشميا، سمع البواريد. خاف من اللعلعة المتواصلة. هذا ليس صيداً. هذا ليس صيداً. خاف من هدير البواريد وأدرك أن شيئاً سيئاً يحدث عند القمم. احتار أين يذهب. أراد أن يرجع إلى الساحل لكن الحرائق التي يراها (في الليل بدت الحرائق أكبر، رأى أنها تتمدد، رأى أنها تتنقل كقطيع حيوانات متوحشة من جهة إلى جهة)، كل هذه الحرائق بدت مثل حيطان تسدّ الدروب في وجهه. تمنعه عن بيروت. نام الليلة جنب الماء. أشعل ناراً تُبعد الحيوانات المفترسة ونام جنب النهر. خرير الماء أبعد عنه ضجة البواريد. صوت الماء هدهده. نام على الخرير. أكل خبزاً وزيتوناً من صرّته ثم غرق في نوم عميق.

أيقظه ضوء القمر. بان القمر بين مظلات الأشجار وسقط مشعاً في عينيه. فتح عينيه فرأى القمر معكوساً في مياه النهر. رأى المياه تترقرق بالفضة والذهب. ورأى سمكاً يرعى سرير النهر. لم يسمع فرقعة بواريد. الليل ساكت والقمر أبيض. تغير لونه من أصفر إلى

أبيض. أول الليل، عند طلوعه من وراء جبل صنين، كان أصفر كحبّ الخردل. وهو نائم أبيضَ. والآن يكبر في السماء الصافية. غسل وجهه بمياه النهر. الماء بارد كالثلج. أيقظه سريعاً. لسعه كصدمة. عندئذٍ فقط سمع العويل.

القمر أيقظه أم هذا العويل؟ ألم يكن يسمع وهو نائم ـ أعمق من سقسقة الماء ـ هذا النشيج البعيد؟ من يبكي في هذا الليل؟ ليس صوتاً واحداً. هذا البكاء كالتراتيل والصلاة والأناشيد. أصوات لا تعد تزعق وتبكي معاً، بعيداً في الليل الأبيض اللانهائي. ما هذا القمر الغريب؟ شعر أن العويل يقترب. ارتجفت عضلة أذنه اليمنى. شعر أن أذنيه تكبران في الظلام. يده امتدت وحدها إلى البارودة، إلى كيس البارود، إلى مكيال الخردق، إلى شيش الدك. حشوة البارود في القسطل ثم شيش الدك. خبطة، ثم أخرى، ثم ثالثة. ضغط البارود ضغطاً قوياً ثم كال الخردق. ومرة أخرى غرز شيش الدك في قسطل البارودة الطويل. غرزه مرة واحدة وأخرجه. جمرات الحطب ـ النار التي أوقدها حالت جمراً ـ جمرات الحطب سرقت نظرته. عيناه معلقتان بالحطب المجمر. وأذنان تلتقطان الصوت الذي يقترب. سمع خشخشة في الدغل ثم رأى طيوراً تترك جب القصب. حتى النمل خرج من الأرض، فرّ من أوكاره. رائحة الدخان تملأ الجو. أشجار خضراء تحترق. عشب أخضر يحترق. دخان الأخضر غير دخان اليابس. العويل البشري البعيد اختلط بعواء ذئاب. ومرة أخرى يسمع فرقعة بواريد.

أخذ البارودة وقطع جسر صنوبر إلى الجانب الآخر من النهر وعبر جلول زيتون وأشرف على قعر الوادي. النهر ينحدر خفياً بين أشجار بطم وسنديان وسماق إلى تحت، إلى كعب الوادي. نور

القمر لا يبلغ تلك الأرض الواطئة. أشجار السنديان الثابتة على السفح تسقف الوادي، تحجب نور القمر. مع هذا رأى حسين البارودي بعين الصياد المدربة، رأى أخيلة تتحرك في كعب الوادي. في البدء لم يكن متأكداً. بان خيط النهر عبر ظلمة السنديان الأسود، بان متعرجاً فضياً، مثل نهر معمول من الحليب، يظهر في الظلام ثم يختفي كأنه يغور في بطن الأرض. سمع حسين البارودي معدته تقرقر. ورأى في الأسفل على ضفة النهر شبه الخفي، أخيلة، قافلة ناس، رأى صفاً طويلاً من أجسام متحركة.

بدا صفاً غريباً، كأنهم ليسوا ناساً، كأنهم فزاعات حقول. كان ينظر من نقطة عالية، عند حافة جلول الزيتون، وكان القمر يخدعه، والمسافة تخدعه، والنوم القليل يخدعه. ثم انتبه أنه جائع أيضاً. ركض كثيراً أمس وقفز كثيراً. تسلق الجبل ركضاً وصاد عند الظهيرة أرنباً برّياً. سلخه. نظفه والحرارة فيه. شواه وأكله. لكنه بعد ذلك لم يأكل. وقبل النوم أكل خبزاً وزيتوناً على عجل ونام مرهقاً توجعه عضلات ساقيه. ثم أيقظه هذا البكاء، هذه الأصوات الكئيبة. نظر حسين البارودي إلى الأخيلة الغامضة تختفي في ظلمات الوادي وأيقن أن البكاء والتنهدات ترتفع من تحت. امتلأ الفضاء بهذه الضجة الخافتة وامتلأ حسين البارودي جوعاً. عليه أن يأكل.

كان يفكر في هذا ـ في الأكل ـ عندما سمع حركة وراء ظهره. استدار فرأى ـ بين شجرتي زيتون كبيرتين قديمتين ـ امرأة تلبس الأبيض ووجهها مكشوف. بانت المرأة لحظة بين الزيتونتين ثم اختفت ثم ظهرت من جديد. كأن شجرة الزيتون القديمة المجوفة الجذع انشقت إلى نصفين، ومن بطنها خرجت المرأة. هل كانت المرأة تخفي نفسها في بطن الزيتونة؟ رآها أمامه فجأة، انفتح خشب

الزيتونة وبان وجه المرأة مغطى بشامة عملاقة قاتمة اللون. خاف وتراجع إلى وراء. تقدمت خطوة وهي ترفع يدها أمامها كالعمياء فتضاعف خوفه وتراجع خطوة أخرى. ركعت على التراب وورق الزيتون، قالت «جوعانة». عندما سمع صوتها ذهب خوفه.

صاد سمكاً من النهر ونظف السمك. شواه على جمرات الحطب وأطعمها وأكل. بينما يصيد السمك واقفاً في مياه النهر، والخنجر بين أصابعه يرسل قوة غامضة في زنده، نظر إليها بطرف عينه. رآها قاعدة عند النار تكسر خبزاً وتنظر إليه. الشامة السوداء تغطي جانب وجهها. عيناها كبيرتان. قالت إن قريتها كلها احترقت. هربت مع أختها وأولاد أختها. في الطريق إلى الوادي هجم عليها رجال. رجال بلا أحصنة. رجال بلا وجوه. كل نسوان القرية، كل الأولاد والعجائز، القرية كلها كانت نازلة في طريق الوادي. لم يبق في القرية غير الرجال ومن يحمل سلاحاً. قالت إن النار كانت تحرق المزارع، النار تطارد النار، وهن يركضن على الطريق الضيقة المنحدرة بين الأشواك والصخور. هي لا تعرف هذه الطريق. لا تنزل إلى الوادي. تستقي الماء من رأس العين فوق القرية. على الطريق رأت جثثاً ونسوراً تأكل الجثث، تنقر عيونها وتفتح بطونها بالمناقير المعقوفة الشنيعة المنظر، وتلتقط الأحشاء والمصارين. بعد غارة الرجال ـ هؤلاء لصوص ـ بعد الغارة أضاعت أختها وعائلة أختها. رأت نساء تعرفهن ونساء لا تعرفهن يهربن تائهات في الأحراج، يرتطمن بالأشجار، حافيات ملطخات بالدم والتراب. بنات لا تعرف أين أمهاتها. وأمهات لا تعرف أين بناتها. امرأة تقرع صدرها، تلطم خداً مبتلاً بالدموع. كانت المرأة جاثية بين أشجار سماق فاقتربت منها، أرادت أن تساعدها. المرأة ظلت تزعق، لم

تقبل أن تساعدها. نظرت إليها لحظة، كفّت عن القرع واللطم لحظة، ثم رجعت إلى النواح. تركتها تلطم بين السماقات وركضت. نادت على أختها، نادت الأسماء، نادت على أختها وبنات أختها وأبناء أختها. نادت الأسماء اسماً اسماً. خُيل إليها أنها سمعت رداً. سمعت اسمها يرجع إليها بين جذوع الأشجار. نادت لكن النداء اختلط بالضجة التي تملأ الغابة. أخيلة تعبر الجذوع، فساتين سوداء، أثواب ملونة، أردية بيضاء، الكلّ يركض ويزعق، ضاع اسمها بين الأشجار، تكررت الوجوه أمام عينيها وشعرت أنها تفقد بصرها. كان الدمع يملأ عينيها، تعثرت بأجسام على الأرض. ملأ الملح عينيها وصار اللون الأبيض يغطي الأرض. ويغطي الأحراج. ويغطي الفراغات بين الأغصان. ثم رأت هذه الجمار. رأت الضوء الأحمر البعيد فمشت إلى الضوء.

راقبها تلتهم السمكة المشوية. أسنانها بيضاء قوية. وأصابعها قوية. القمر حجبته غيمة عملاقة قطنية البياض. حواف الغيمة تلونت بالأبيض لكن بطنها امتلأ ظلاماً. رمى حطباً إلى النار. عيدان يابسة جمعها من جلول الزيتون. فاحت رائحة الزيتون الطيبة. كسر خبزاً وأخذ يقضم رأس سمكة. السمك النهري كثير الحسك. علقت حسكة بين أضراسه. وبينما يخرجها رأى جسمها يرتج. ظن أنها تضحك. سمع صوتاً غريباً يخرج من جوفها. ثم رأى أنها تبكي. تبكي بلا دموع. كانت تهتز وهي تأكل ما بقي من سمكتها، تهتز ولا تتوقف عن لوك اللحم الأبيض ـ الزهري، تهتز ولا تقول شيئاً، ومن بطنها يخرج الصوت المحطم الغريب. لم يعرف ماذا يفعل. ظلّ ثابتاً في موضعه. تراءى له أنها ستتفكك أمام عينيه مثل فزاعة. وهو يشوي السمكتين قبل قليل سألته عن اسم قريته، سألته خائفة

الصوت، وهو قال لها إنه ليس من الجبل. قال إنه من بيروت. قال إنه يصيد الغزلان. وسألها ماذا يحدث، أي قرية تحترق، أي قرى يحرقون، ولماذا؟ أدرك أنها تحاول أن تعرف من هو، من يكون، من أهله وقومه. أدرك سبب خوفها.

حسين البارودي نظر إلى المرأة تحمل عظمات السمكة وتبكي بلا صوت وقال «بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله الرحمن الرحيم». قال الكلمات همساً. لم يعرف هل خرجت الكلمات من فمه. ولم يعرف هل بلغت الكلمات المرأة الباكية. كانت قصيرة القامة مبرومة الجسم ملآنة. وعندما لفظ كلماته رفعت وجهها إليه كأنها تتأمل فمه. انتبه أن عينيها اتسعتا بعد الطعام وامتلأتا شرراً. رأى ظلالاً تعبر البؤبؤين العسليين. الغيمة سبحت في السماء والظل سبح على رأسها. بان القمر من جديد وتحركت أغصان الشجر. اقتربت منه جاثية على ركبتيها. دنت منه ولفّت ذراعيها حول رقبته. لم يفهم ماذا تفعل. ثم أحسّ بدنها يهتز على صدره. أحسّ بصدرها يخفق خفقاً قوياً. شمَّ رائحة جسمها. كانت رائحة حيوان ركض أياماً. غمرته رائحتها. غطت الغيوم القمر وانتشر الظلام.

تركها تفك زناره. ساعدها في حركتها وهي تلوي جسمها إلى هنا ثم إلى هناك. كانت ملآنة لكنه رفعها بيسرٍ. وعندما أمرته أن ينام فوقها حاذر لئلا يمعسها بجسمه الورمان.

لم يتوقف جسمها عن الارتجاف. طوال الوقت ترتجف كأنها غطست في النهر بلا ثياب. كأننا في عزّ الشتاء. لم يفهم لماذا ترتجف هكذا. كانت حارة كرغيف خارج من الفرن. وظلّت ترتجف برداً. رفع وجهه ونظر إليها فندم على نظرته. رأى بياض عينيها ورأى الشامة المخيفة السوداء. نزل بوجهه إلى نحرها مرة أخرى

وتابع الصعود والهبوط. كانت تقوده بيديها. مغمض العينين ظلّ يرى شفتها السفلى، زرقاء كحجر النيلة، راجفة، مثلجة.

خرير النهر ابتعد. كأنهما يتحركان إلى مكان آخر. أنين المرأة ملأ أذنيه. لم يعرف امرأة من قبل. سمع عن هذا. لم يعرفه من قبل. فتح عينيه ولم يرفع وجهه. عندما تباطأت حركته شدّته إلى أعماقها مرة أخرى. ساقاها قويتان. رفع جسمه قليلاً ثم غاص فيها عميقاً. ملأ الدفء جسمه وسمع خرير الماء من جديد. العرق جرى على رقبة المرأة غزيراً لكنها ظلّت ترتجف.

نام لحظة وهو داخل فيها. في نومه شعر بها تقلبه عنها ثم تلتصق بجنبه. في نومه شعر بلحمها على لحمه. مدّ يداً تعرف أين هي الأشياء وجذب حطبة من وراء كيسه وألقاها إلى النار. فتح عينيه نصف فتحة ورأى الحطبة تستقر في النار ورأى الشرر يشرقط أصفر وأحمر ويرتفع في ظلمة ما قبل الفجر. كانت تلتصق به. وغرق في نوم عميق.

لا يذكر أنه في حياته نام مثل هذا النوم الثقيل. فتح عينيه والنور يشقشق. عرف أنها قامت. وأراد أن يقوم لكنه عجز عن النهوض. بقي راقداً. بين النوم واليقظة سمعها تخوض في مياه النهر. ظنَّ أنها تغتسل. سمع (قبل ذلك أم بعد ذلك؟) خشخشة عند رأسه. كأنها تعبث بجرابه. جاعت من جديد؟ أكل أقراص التين اليابس صباح أمس أو أول من أمس. لعلها تجد خبزاً. ماذا يفعل أبوه الآن؟ يصلي صلاة الفجر في الجامع العمري؟

أراد أن يفتح عينيه لكنه هبط إلى بئر النوم من جديد. البئر السوداء امتصته إلى قعرها. هبط ثقيلاً كأنه حُشي رصاصاً واستقر في قعر البئر. لن يستيقظ إلا والشمس تغمر رأسه، حامية على وجهه،

حامية على جفنيه. استيقظ والأشجار تهدر بزقزقة الطيور. متى اجتمعت هذه الطيور كلّها في جلول الزيتون؟ رأى طيوراً تشبه الشحارير تتقافز على صخور النهر. رأى طيراً كحلي الرقبة أسود الجناحين بطنه أبيض وعلى ريش ذيله خطوط دموية الحمرة. طار الطير الحلو الألوان فوق صفحة النهر، كأنه ينزلق على الماء، ثم اختفى بين الأشجار المتدرجة إلى كعب الوادي. أين ذهبت؟ بحث عنها بنظرات قلقة. لم يجدها. متى ذهبت؟

تخلص من ثيابه وغاص تحت الماء. اغتسل طويلاً وفرك فخذيه ثم خرج من النهر. لبس ثيابه وجلس على صخرة تحت الشمس. وجد في جرابه نصف رغيف. قطعت الرغيف وأخذت نصفه؟ أكل الخبز قاعداً على الصخرة. وشرب ماء من النهر. ما زالت فرقعة البواريد تُسمع من جهة الجنوب. تُسمع من الشرق. وتُسمع من الغرب. أين يذهب؟ متى يذهب؟ هل يبقى هنا إلى المساء؟ يصيد في الجوار ويرجع إلى هنا؟ هل ترجع؟ انتبه أنه جائع. وتمنى لو يقفز عن هذه الصخرة فيجد نفسه في «حارة البارودي».

لم يكن يعلم أن «حارة البارودي» مقلوبة رأساً على عقب هذا الصباح. عائشة البارودي استيقظت قبل آذان الفجر مذعورة. رأت في المنام حسين ابنها مطروحاً على الشوك والقنافذ تتسلق جسمه. كان عارياً! قامت مذعورة. ورأت من النافذة المفتوحة القمر يتربع في كبد السماء. الحاج أبو حسين لا ينام إلا والنافذة مفتوحة. هذه النافذة القبلية تطلّ على مئذنة الجامع العمري الكبير. يفتح عينيه إذا أذَّن المؤذن فيراه في ظلمة الفجر على شرفة المئذنة المستطيلة. يرى عمامته البيضاء. ويرى كمّي عباءته البيضاء إذا رفع كفيه إلى أذنيه. من الفراش يراه. لا يقفل النافذة إلا شتاء. تسكت العواصف فيفتحها.

الحاج عبد الرحيم جلس في فراشه يتلو الصمدية. عائشة روّت منامها فأمرها أن تشرب ماء وأن ترش على وجهها ماء. عبر النافذة أتت أصوات. بيروت ليست على بعضها. متى كان يُسمع مثل هذا الضجيج في قلب الليل؟ هذا لم يحدث إلا في زمن الإنكليز الأول، زمن السكارى بحارة الدارعة بافوس. لكن الضجة التي تُسمع اليوم ليست ضجة سكارى. هذه ضجة منكوبين. منذ أيام يتدفقون حفاة جياعاً إلى بيروت. «سهلات البرج» مثل ساحة الحشر. مناظر تكسر القلب. خرج الحاج البارودي إلى الجامع العمري للصلاة. على «الطريق البيضاء» سمع لغطاً غامضاً في بيوت آل تامر. انتبه أيضاً إلى نور قنديل يتلامع وراء الدرف الموصدة في بيت الصياد الدرزي ابن عائلة نجّار. لم يتوقع ما سيحدث. لم يخطر الأمر في باله. العراك سيقع وهو خارج الحارة.

أحد أبناء جرجي تامر (اسمه زيدان، تزوج قبل سنتين، رُزق صبياً سماه جرجي على اسم جده) تعارك مع ولد من أولاد الصيّاد. تبادلا الشتائم من شباك إلى شباك ثم انتقل الخلاف إلى قطعة الأرض الفاصلة بين البيتين. سعدية الحصّ البارودي جاءت راكضة عندما سمعت الزعيق والصراخ. ظنت في البدء أن موجة من الغرباء قد اجتاحت سور الحارة. الغرباء اكتسحوا طرقات البلد. ضرّتها أم زهرة أخبرتها أنهم ينامون تحت قناطر الجامع العمري، ينامون في كنيسة مار جرجس الروم، ينامون على الطريق في «العطارين» وفي دهاليز البوابجية والبازركان. الوالي أرسل العسكر لإخراجهم من الأسواق. ممنوع إقفال طريق الناس بالفرشات. الحكومة تنصب (بمساعدة القناصل الأجانب والمرسلين الأميركان والمرسلين اليسوعيين وراهبات المحبة اللعازاريات الفرنسيات) خيماً في

سهلات البرج شرق السور القديم وفي بساتين الغلغول جنوب السور. أم زهرة قالت إن معمل عبد الرحيم وشريكه الحلبي خارج باب الدركاه امتلأ بالنازحين. أبعدوا المغازل إلى جانب. وسمحوا للغرباء النازلين من المتن والشوف بالنوم في معمل الألاجة. أم زهرة قالت إن الحكومة والقناصل استأجروا الكرخانة التي يملكها الشيخ جبيلي وأنزلوا فيها ناساً من بعبدا وبيت مري. أم زهرة تخرج إلى «مدرسة الأميركان للبنات» قبالة القشلاق كل صباح فلا ترجع مع ابنتها زهرة إلى البيت إلا ساعة المساء.

سعدية الحصّ البارودي ركضت من بيتها إلى الحقل الضيق بين بيت جرجي تامر وبيت أم سليمان. رأت أولاداً يركضون ورأت دجاجاً يفرفر ورأت جرجي تامر بالطربوش على رأسه يصرخ على رجلين تشابكا على التراب. الأحباش أتوا راكضين من الكوخ الخشب وراء بيت المرحومة. التمّ أهل الحارة على الرجلين. أبعدوا الدرزي بشق النفس. كان الدم يسيل من وجهه. زيدان تامر أنشب أظافره في وجه جاره الذي صار عدوه؛ علامات الأظافر ستبقى أياماً طويلة على وجهه ورقبته. أبو سليمان لم يكن في الحارة. يخرج إلى البحر في عتمة الليل. أم سليمان ظهرت بالمنديل الأبيض ملفوفاً على رأسها وصاحت بابنها أن يترك ابن تامر وصاحت بابن تامر أن يترك ابنها. الأحباش ضخام الجثث، دخلوا بين الاثنين وفكّوا الأطراف المتشابكة. قميص زيدان تامر تمزق ظهره. وقف يلهث عند الحائط وذراعه اليمنى ترتجف. سعدية الحصّ البارودي رأت رجفة اليد. رأت فوران الدم في العيون. رأت الوجه الذي يتغير إلى وجه آخر. كانت تظن أن الغرباء اقتحموا الحارة فرأت أن أهل الحارة تحولوا إلى غرباء. تلك الليلة قالت لعائشة أن الحق معها،

ابن تامر أخطأ عندما أنزل غرباء في بيته. قالت هذا مع أن سليم بكاسيني تدخل لإنهاء العراك.

الوالي كلَّف السادة الأفاضل عبد القادر الطرابلسي ومحي الدين الفاخوري الاسطمبولي وإبراهيم سرسق تنظيم أعمال الإغاثة. الحاج الاسطمبولي استعان بأخيه الحاج خالد الفاخوري العائد قبل وقت قصير من عاصمة السلطنة والقاعد بلا شغل في «دار البرتقال». عُيِّن خالد الفاخوري مسؤولاً عن عملية نقل النازحين من منطقة المرفأ إلى الخيم في سهلات البرج وإلى بيوت مخصصة دبَّرها الخواجات السراسقة وآل بسترس وفياض وطراد في الصيفي والرميل. إبراهيم سرسق فتح قصره للنازحين. لم يفتح القصر. فتح الأقبية تحت القصر. في تلك الفترة وصلت إلى الحاج عبد الرحيم البارودي أخبار جديدة عن أخيه عمر. جاءت الأخبار مع مكارٍ من شتورة. الرجل كان في حلب ويعرف عمر البارودي. ينقل بضائع بين حلب وشتورة ويعرف آل الحلو ويعرف أهل المرأة التي تزوجها ابن البارودي. قال إن المرأة انتفخ بطنها، وأنها ما زالت نصرانية على دين أهلها. ابن البارودي تركها حرّة ترسم على وجهها إشارة الصليب ولا يتدخل. عبد الرحيم البارودي ظنّ أن المكار يحمل إليه خبراً عن حسين. رآه آتياً صوبه وعيناه تلمعان. ظنّه يحمل خبراً حلواً عن ابنه فإذا بالخبر عن أخيه.

الحاج عبد الرحيم قصد خاله الحاج خالد الفاخوري في موقعه الجديد في الميناء وطلب منه أن يسأل عن حسين. كل يوم يرى نازحين من الجبل، لعلهم رأوا حسين على الطريق. الحاج الفاخوري نظر إلى ابن المرحومة أخته صفية وفكر أن هذا العبد الرحيم مسكين، سمع صوته وفكر أنه مسكين. تذكر عبد الجواد

وقال حسين في عيني، إن شاء الله نراه قريباً.

من يسأل عن حسين؟ هؤلاء المرضى الذين يزعقون جوعاً؟ ينزلون من السفن إلى الأرصفة ويقعدون راجفي الركب على الأرض ولا يتحركون. هدّهم الرعب وهدّهم الجوع. عليه إفراغ العنابر وعليه إفراغ خان أنطون بك. هذه الفترة من السنة ذروة أعمال التحميل. السفن الآتية من أوروبا لنقل الحرير لا تجيء فارغة. تجيء معبأة بضائع. بلا عنابر أين تنام البضائع؟ البواخر تصطف في عرض البحر. لا تجيء فارغة. المساجيري إذا أرسلت بواخرها فارغة من مرسيليا تخسر وتنكسر. الإنكليز إذا أرسلوا البواخر فارغة من ليفربول يخرب عرشهم. في أسوأ وقت من السنة تقع هذه الحوادث. أسوأ وقت. وفي الوقت الصعب رجعت يا خالد الفاخوري من اسطمبول. الحاج الاسطمبولي (أخوه الكبير) قال له «مصائب قوم عند قوم فوائد». وهو هزّ رأسه. وقَبِل التكليف. نظر إلى عبد الرحيم يستدير ويذهب وهو يُصلح عمامته ويرتب شاله وفكر أن البأس يقطع عن جيل. «بأس عبد الجواد قطع عن جيل أولاده إلى أحفاده»، فكر الحاج خالد الفاخوري متذكراً رؤيته حسين البارودي في بداية هذا الفصل.

هل أصاب الحاج الفاخوري في حكمه؟ نتركه في زحمة المرفأ ونتبع عبد الرحيم. ها هو في درب الدباغة يتكلم مع معارف ثم يخرج من العقد إلى سهلات البرج. لا يعبر هذا العقد إلا ويفكر في ابن أخته زهرة. يقول له دائماً تعال إلى عندي واشتغل عندي في الخان. شغل المدبغة يقتل. لكن الصبي عنيد. هذا العناد! مثل حسين! أين أنت يا حسين! أين أنت يا ابني؟ تحت الأشجار، عن جانبي طريق القوافل، خيم متباعدة. أطلال بيوت الطاعون تُسكن من

جديد. أين «سنة السهلات»، سنة ولادة ابنته صفية، من هذه السنة؟ والحبل لم ينقطع بعد. المكارون قالوا إن قطعان الناس تملأ البراري وراء حرج الصنوبر. وكل القطعان تتجه إلى هنا، إلى بيروت. حتى من بلدات لم تحترق يأتون. يخافون أن تحترق. الجبل كلّه مذعور. السهل مذعور. وادي التيم مذعور. جزين لم يبقَ فيها نصراني. منذ أيام تُنهب. الماشية نهبت. الأثاث نُهب. المغازل نُهبت. والمطامير نُهبت. ينهبون المزارع والدساكر والقرى ثم يضرمون فيها النار. أحرقوا موسم القزّ. أحرقوا الحقول. أين أنت يا ابني. عمر في حلب. وزرع بذرته. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا ربّ يا كريم. رُدَّ ابني إلى أمه.

رأى رجلاً بذراع واحدة مقبلاً من وراء الخان. التقيا في قنطرة المدخل. هذا محمد الفاخوري. قبّل أحدهما كتف الآخر وتبادلا نظرة تكفي ليعرف محمد الفاخوري أن حسين لم يرجع بعد، وليعرف عبد الرحيم أن محمد الفاخوري ما زال يعاني من ألم رقبته. هذا الألم استحكم عليه قبل سنوات. أثناء الربيع يقوى. المفروض أن يقوى في الشتاء، زمن البرد. الغريب أنه يقوى إلى أقصى درجة خلال الربيع. الصيف يدنو لكن الألم لم يتراجع بعد. أول من أمس كان الطقس حاراً ومع هذا استمر الألم. مثل الحريق في الرقبة ودودة الظهر وأصل الكتف. أبو مصطفى ليس شكاء. لا يتذمر من ألم رقبته. لكنك ترى وجهه مقبوضاً وتعرف أنه موجوع. الألم ملأه شفقة على البشر. الشيخ عزّت بيضون رآه يوزع الخبز على أهل الخيم خارج باب أبي النصر.

قال الشيخ عزّت بيضون للحاج عبد الرحيم إن أهل الخير ليسوا قلة في البلد. أهل السوء كُثر، هذا صحيح، لكن الأخيار كثر أيضاً.

الحاج عبد الرحيم هزّ رأسه وصعد إلى سطح الخان. نظر مفطور القلب إلى ناس ممزقي الثياب يقتربون على الطريق تظللهم غيوم الغبار. نظر إلى المهجرين الفارين من النار والدم تحرق أنوفهم وآذانهم أشعة الشمس. وسأل نفسه أين أخطأ. وسأل نفسه متى بدأ الخطأ. عمر غادر البيت إلى القُرم. وعندما رجع من القُرم لم يرجع. وها هو في حلب. يزرع بذرته هناك ولا يرضى أن يرجع. لن يراه في بيروت مرة أخرى. إذا أراد رؤيته عليه أن يسافر مع القوافل إلى حلب. القوافل لا تسافر هذه الأيام. اللصوص قطعوا الطرق. النار قطعت الطرق. الخردق قطع الطرق. وحتى لو بلغ عمر وجالسه وكلّمه لن يرجع معه عمر. إذا قال له «بيروت بلدك» يردّ «حلب بلدي». لن يرجع. سيقول له إن حلب أفضل، حلب بعيدة من البحر، وهو صار لا يطيق البحر منذ نزوله على شط القُرم. هل يقول هذا؟ وإذا قال له «أهلك في بيروت»، يردّ «أهلي هنا أيضاً، عندي زوجة الآن وأهلها أهلي، يكفي أنهم قبلوا بي صهراً وهم على غير ديننا، هم أيضاً أهلي الآن، كيف أذهب وأترك حلب؟». لن يرجع عمر. لكن أين أخطأ معه؟ من البداية يقول لن أغلط معه. من البداية أرخى له الحبل. ومع حسين أيضاً لم يغلط. طالما فكر عبد الرحيم أن شاهين قتل أهله قتلاً بطيئاً برحيله عن البلد. قتل أم شاهين. ثم قتل المعلم عبد الجواد. وطالما اعتبر عبد الرحيم أن أباه أخطأ. هو لم يغلط مع حسين. أرخى له الحبل وقال «في الوقت المناسب أجذب الحبل من جديد». هل ارتكب عندئذٍ غلطة عمره؟ حتى عائشة الطيبة، عائشة التي لا ترفع صوتاً، حتى عائشة قالت بعظمة لسانها: «لماذا تركته يذهب؟» سألته ولم تكن تسأل. قالت نصف ما في فمها. وحبست ما بقي من كلمات. أقفلت أسنانها على أسنانها

وحبست كلمات تغلي في بطنها. هي أيضاً تلومه. هي أيضاً تظن أن الخطأ منه. هل كان عليه أن يحبس حسين في الحارة؟ أن يحبسه في الخان؟ وكيف يحبسه؟ الشيخ بيضون قال «فورة شباب ثم يركد». وهو قال في سرّه «هذا صحيح». هل أخطأ؟ أين أخطأ؟ وما هذا العقاب الرهيب؟ أين أخطأ حتى يغيب حسين هذا الغياب الطويل ولا يعرف عنه خبراً؟ الأيام تعقب الأيام، القمر تناقص وكاد يختفي، وحسين لم يرجع بعد. متى يرجع؟ يقولون لم تبقَ قرية في الجبل لم تحترق. قرى الجبل مختلطة، فيها النصارى والدروز. تبادلوا الهجمات، البيوت تجاور البيوت، الباب على الباب. تبادلوا الهجمات. والبيوت كلّها احترقت. من يربح؟ الدروز يحاصرون بلدات الموارنة منذ أيام. لكن الموارنة عندهم سلاح. أرسلوا النساء والبنات إلى الساحل وحفروا خنادق. الرجال لن يتركوا القرى والكنائس والبيوت. يرابطون وراء الشبابيك، وراء فخارات الحبق والمردكوش، ويقوصون. أين أخطأ؟ طالما فكر أنه يسلك الصراط المستقيم.

أبوه أهلكه الغضب. هو روّض الغضب، روَّضه كما يُروض حيوان مفترس. العصا تُعلم الدب الرقص. أين أخطأ؟ عمر في حلب. وحسين لا يدري أين هو. أين أخطأ؟ وقف الحاج عبد الرحيم على سطح «خان التوتة»، رأى الحمائم الباقية تحوم فوق الخيم، وبلع ريقه. نزل الريق مالحاً في زلعومه. أوجعته حنجرته.

هذا الفصل ينتهي قبل أن نعرف ما جرى لحسين. بالنسبة إلى عمر لم يُصِبْ حدس عبد الرحيم. عمر لن يبقى في حلب. بعد وقت تمرض زوجته. انتفخت بطنها وصارت ثقيلة الحركة. ثقل البطن لا يقتل. كانت حبلى. فَرِح وجهها. عمر البارودي فرح أيضاً. صار

يرجع من الحقل باكراً. يرجع عرقان قبل غياب الشمس ويقعد معها. ما زال قليل الكلام. لكنه إذا جلس قبالة زوجته، وصحن الكشك بينهما، بدا مرتاحاً. يقطع رغيف المرقوق نصفين ويقول «على بركة الله ورسوله» ثم يغرف نصف الصحن بلقمته الكبيرة.

دخلت الحمى المالطية إلى حلب مع تجار من بيت المقدس. كيف وصلت الحمى إلى بيت الحلو لا نعلم. مرضت الأخت الكبرى لزوجته ثم مرضت الأخت الصغرى. بيوت العائلة تتجاور. بيته أبعد قليلاً. لكن الزيارات تُقرب المسافة. مرضت المرأة المنفوخة البطن التي لن يدخل اسمها هذا الكتاب. بنت من آل الحلو، مسيحية من حلب، تزوجها فأعطته ما طلبه دائماً ولم يُعطَ له. كان يغرق فيها إذا هبط الليل، يغوص في بياضها وينسى بيروت وينسى القُرم وينسى حياته. الحمى استبدَّت بها. في أربعة أيام تحولت هيكلاً عظمياً. في اليوم السادس أو السابع زفرت روحها.

دفنها ورجع إلى بيروت.

قبضوا على حسين البارودي وأعدموه. قالوا إنه من رجال أحمد باشا. أُعدِم في قشلة دمشق أواخر آب (أغسطس) 1860. من الأربعاء 9 تموز (يوليو) 1860 إلى الأربعاء 16 تموز شهدت دمشق مذبحة. رعاع هجموا على حيّ النصارى، قتلوا الرجال، استباحوا البيوت، هتكوا الأعراض، ونهبوا الغالي والرخيص. طوال سبعة أيام استمرت المذبحة. أحمد باشا (متسلم المدينة من قبل الباب العالي) ترك الغوغاء يقتلون ويسرقون ويحرقون. فؤاد باشا القادم على رأس جيشٍ عثماني جرّار قبض على أحمد باشا، حاكمه مع أعيان البلد، وأعدمه بالرصاص. قيل إن أحمد باشا كان خادماً عند فؤاد باشا. قيل إن الباب العالي أراد المذبحة. قيل إن العقوبات الشديدة التي أنزلها فؤاد باشا بالقادة والأعيان في دمشق ووادي التيم وجبل لبنان كانت بضغط من قناصل أوروبا وللجم تدخّل القناصل. قيل إن فؤاد باشا خاف أن يُضحى به هو أيضاً على مذبح العلاقات العثمانية ـ الأوروبية. عقوبات فؤاد باشا نُفذت بينما البوارج الفرنساوية تصل إلى ميناء بيروت محمّلة بالمدافع والجنود. لا الحاج عبد الرحيم ولا غير الحاج عبد الرحيم كان يعلم عندئذٍ أن حسين يتلقى النار واقفاً بين رعاعٍ وأعيان في باحة القشلة في دمشق. أحمد

باشا الصائم سجد وصلّى ركعتين. آمر فصيل الإعدام سأله هل يريد شربة ماء قبل تنفيذ الحكم؟ أحمد باشا ردّ بأنفه الكبير وأسنانه الصفراء: «لا أفطر إلا في الجنة». ربطوه وتراجعوا. حسين البارودي سمع اصطكاك أسنانه. سمع صوتاً خارج حائط القشلة. سمع صيحة ديك. وسمع دوياً هادراً. ثم لم يعد يسمع شيئاً.

ماذا رأى وهو ينظر إلى فوهات البواريد المظلمة؟ هل تذكّر الرحلة الطويلة من ضفة ذلك النهر إلى جهنم القرى المحروقة إلى الحبس إلى هذه الباحة المرصوصة الأرض؟ كان خائفاً يرجف في ثيابه الوسخة. ماذا فكر قبل أن يقع؟ مَن تذكّر؟ أراد أن يلفظ الشهادتين. سمع آخرين يلفظون الآيات الكريمة ثم دوَّت البواريد.

في ذلك الصباح البعيد، بعد اختفاء المرأة، ظلّ قاعداً على الصخرة لا يتحرك. الشمس ارتفعت إلى كبد السماء. وهو لم يترك مكانه. لماذا ذهبت؟ هل ترجع؟ كان يسأل نفسه هذين السؤالين عندما انتبه ـ مرة أخرى ـ إلى جوعه. حمل بارودته وجرابه وسار في جلول الزيتون. بينما يقفز من جلٍ إلى جل رأى ريش قنافذ على الأرض. حمل ريشة مدببة الرأس ونظر حواليه. تفحص الأرض فوجد أثراً. هذا «نيص»، هذا قنفذ كبير، وها هو أثره. يحدل الأرض حدلاً. من هنا عَبَرَ، أعناق العشب انطوت، ومن هنا صعد. تبع الأثر فخرج من جلول الزيتون وتسلق هضبة إلى كتلة من الصخور القاتمة. تحت الصخور رأى فراغاً، كهفاً نصفه مستور وراء جبوب شوك وقندول وزال. شمّ الرائحة. وعرف أن النيص في قلب الكهف. النيص شهي اللحم. لا يأكل إلا أطرى الطعام. يقشر ظروف اللوبياء، «يُفقي» الظرف ويأكل الحبّات الطرية في جوفه. لا يأكل الظروف. أطيب الطعام عنده الزيتون: إذا سقطت الشتوة

الأولى في الخريف ووقعت حبّات الزيتون ـ سوداء ناضجة مملوءة زيتاً ـ على التراب رعاها. يرعى حقل زيتون كاملاً في ليلة بلا ضوء قمر ويخرب بيت الفلاح. لا يترك غير البذور تحت الشجر. حيوان شديد الجشع. ولحمه شهي. حسين البارودي صاد النيص وسلخه. أشعل ناراً وشواه على نار الحطب. طوال الوقت ظلّ يتلفت. لعلها ترى الدخان. لعلها تشمّ رائحة الشواء وترجع. لكن المرأة لم ترجع. هل يراها مرة أخرى؟ أين مضت؟ لحقت بأختها وعائلة أختها؟

انحدر على طريق الوادي. بعد الوادي هضبة. ثم يقطع وادياً وينحدر بين أشجار الصنوبر إلى شط البحر. من هناك الطريق سهلة إلى بيروت. سلك هذه الدرب من قبل. لكنه هذه المرة خائف من السكوت. لحظة تتناهى إليه ضجة بعيدة متقطعة ولحظة يسكت الكون كأن البشر زالوا من الوجود. في الغابات لا يسمع غير تغريد الطيور. يسمع حركة الحيوانات. يسمع حفيف الورق. لكنه في هذه الظهيرة لا يسمع تلك الأصوات الأليفة. أين حيوانات الغابة؟ أين الطيور؟ هبّ الهواء فامتلأت الغابة رائحة غريبة: رائحة مثل الشواء. لكنها غريبة.

هبّ الهواء من جديد فدخل الدخان إلى الغابة ولفحت رموشه حرارة. بعد قليل عرف السبب: رأى قرية تحترق. نصفها يحترق. ونصفها انطفأ. الدخان يطلع من شبابيك، ويطلع من أشجار تفحمت. خاف أن يتابع طريقه. لا يريد المرور بمحاذاة القرية المحروقة. يعرف اسمها. دخلها من قبل. عَبَرَ حقولها. وعلى حافة بيدر مزروع قمحاً أكل لقمة لبن وبصل. دعاه فلاح كبير السنّ. ما زال يذكر الرجل بوجهه الأسمر المملوء تجاعيد. الشمس تُكثّر

التجاعيد في وجه الإنسان. وشمس الجبل أقرب إلى الأرض من شمس الساحل. غيَّر حسين البارودي طريقه. قطع تلّة لم يقطعها من قبل ثم انحدر بين صخور بيضاء مفلطحة وأشجار سنديان صغيرة. دار حول حرج ملتف الشجر متوقعاً أن يطل على البحر ـ ولو من بعيد ـ فوجد نفسه أمام جبل. ضاع بين الأحراج والأودية. وكلما خُيل إليه أنه الآن سيرى البحر يمتد بعيداً وشاسعاً مثل سهلٍ أزرق لا نهائي، انتصب أمام وجهه جبلٌ جديد. قطع بين جلول فاكهة مزهرة (أشجار امتلأت بالزهر الأبيض). فأزكمت أنفه الرائحة العطرة. كانت الشمس تغيب. تألقت الأشعة البرتقالية على الزهور البيضاء وعلى العشب الأخضر وملأت عينيه. فجأة باغته حزنٌ مخيفٌ. أوشك أن يبكي. لكنه تماسك. وتابع المشي.

بعد غابة صنوبر خضراء، رأى قرية أخرى تحترق. إما يرجع من حيث أتى أو يقطع هذه القرية المحروقة ويتابع السير. سكن هواء الغروب لحظة فتراجعت الحرارة التي تلفحه وتراجع الدخان. كان المكان صامتاً. ورأى نسراً يقطع السماء العالية. درس حركة النسر محاولاً أن يكتشف شيئاً. تسلق صنوبرة شاهقة العلو فرأى البحر بعيداً بعيداً وراء قرية النار والدخان. قاس المسافة من مكانه إلى البحر فأدرك أنه كان يدور في دوائر تتسع كلما ابتعدت عن المركز. أدرك أنه ضلّ الطريق. لم يقترب من الشط ولعله ابتعد عنه. المسافة بعيدة. لن يقطعها قبل نصف الليل. وإذا أراد أن يصل إلى الشط عليه أن يخترق هذه القرية من جهة إلى أخرى. تصاعد دخان أسود من البيوت السوداء وغطى الغروب.

وقف حسين متردداً تحت الصنوبرة. كان ظهره يؤلمه. هذا ألم لم يعرفه من قبل. ألم في الوركين وألم في الظهر وألم في الكليتين.

ألم غريب. مرة أخرى تذكر المرأة وتذكر الليل وتذكر الحرارة المنبعثة من بطنها. لماذا ذهبت وحدها وهو نائم؟ أين أختفت؟ هل التقت عائلة أختها؟ هل ضاعت مثله في الأحراج والأودية؟ رأى ضبعاً يقطع بين الأشجار ثم يختفي. نسائم الغروب هبت من جديد وبعثرت أعمدة الدخان يميناً ويساراً. أعمدة الدخان تعالت واتصلت بالغيوم البيضاء والغيوم البرتقالية. لم يعد يعرف أين يبدأ الدخان وأين ينتهي. لعلّ هذه الغيوم كلها، هذه الغيوم التي تسقف الجبل، لعلّها كلها من دخان الحرائق. كان يقف هكذا تحت الصنوبرة عندما رأى العقبان تصعد من بين البيوت المحترقة وترتفع مع الدخان ثم تختفي عن بصره. بدت العقبان صغيرة الحجم. كأنها غربان. البيوت أيضاً تبدو ضئيلة من هنا. كان محتاراً لا يدري ماذا يفعل عندما تحرك جسمه وحده، بلا إرادة منه. تحرك جسمه وحده وأخذه إلى جهنم.

الجو مملوء رماداً. رقائق محروقة تتطاير كندف الثلج في الهواء. أمام باب بيت رأى رجلاً مطروحاً على جنبه في بركة دم قاتمة السواد. من هذه اللحظة لن يكون حسين البارودي الذي نعرفه. من هذه اللحظة لا يعود هو.

هل هذا ممكن؟ هل يبلغ الواحد نقطة في حياته فيتغير؟ ماذا كان حسين البارودي؟ ومن كان؟ أي حظ حمله من بيروت إلى الجبل في ذلك الربيع الملعون؟ أي حظ نقله بين هضاب وأودية وأحراج حتى ألقاه في تلك القرية المسكونة بالجثث؟ نظر إلى الجسم الأبيض ينطرح عارياً في بركة سوداء كعكر الزيت. نظر إلى الجسم المذبوح الرقبة ولم يستوعب ما يراه. هذا إنسان. ليس عجلاً! بقي جامداً كتمثال ملح.

ما الذي حمل حسين البارودي إلى هذا الباب؟ لماذا جاء إلى هنا؟ يوسف جابر ـ يوسف الإنكليزي ـ خطَّ شعره البياض عندما رأى عائلة أخيه الكبير مدفونة تحت حجارة وجليد وثلج. حسين البارودي لم يخطّ الأبيض شعره عابراً قرية الجثث والدماء. بيوت مشرعة الأبواب، مكسرة الأبواب. بيوت مشرعة النوافذ، محطمة النوافذ. وكل ما في جوفها تشبَّع بالدم. رأى رجالاً بلا رؤوس. رأى جثثاً بلا سيقان. رأى سجادة تنضح دماً تحت أشجار لوز بيضاء الزهور. أحدهم جرّ السجادة إلى هنا ثم تركها. عند طرف القرية، حيث يرتفع مستوى الأرض، رأى بيتاً لم يحترق. الطريق تغطيها طبقة سميكة من الرماد. غاصت قدماه في ما يشبه الوحل. هذا رماد؟ أشجار اللوز بدت كالأشباح في بحر الغروب. أشباح تلبس ملاءات بيضاء وتتمايل في النسيم. البيت الذي لم يحترق تحوطه نصف دائرة من أشجار اللوز. الزهور تملأ الأشجار، ترتعش أول المساء، ترسل رائحة عطرية. رائحة زهور اللوز فاحت لحظة ثم انطفأت. رائحة الموتى طغت. رائحة زنخ فظيعة تخرج من هذه البرك المتباعدة الغامقة اللون. برقت أشعة الشمس المتلاشية على برك الدم ثم اضمحلت الألوان. أغمض عينيه ثم فتحهما. مرة تلو مرة تلو مرة. ألمٌ غادرٌ عصف بساقيه، عصف بالركبتين. سقط على الأرض يرى الأشجار البيضاء تمطر زهوراً بيضاء ولا يراها. يرى الرماد ولا يراه. في أحد البيوت نار ما زالت تشتعل. رأى اللهب أسود اللون، أسود يتمايل في بياض، يتأجج ويرتفع ثم ينخفض. ملأ الظلام الأرض الساخنة وملأ عينيه.

أخذته الظلمة إلى ظلمة وأخذته الأحراج إلى أحراج. الدروب تلتف على الدروب وهو يضيع. كم يوماً ضاع هكذا في جهنم القرى

المحروقة والأغنام الشاردة تثغو بين الصخور والطرقات المسدودة بالجيف. . . تعثر ببقرة ضخمة الجثة لم يبق منها غير الرأس وجبل العظام. لماذا تركت الذئاب وبنات آوى هذا الرأس؟ أكل توتاً برياً. البارودة ما زالت معلقة إلى رقبته. جرابه أيضاً. وذخيرة البارود والخردق. لكنه لا يرفع البارودة إلى كتفه ولا يقوص. عَبَرَ قرى كأنه يسير في منام. نام على الأرض بين الأشواك. ثيابه تمزقت. وجد قميصاً في أحد البيوت فلبسه. وجد مداساً سميك النعل فأخذه. في إحدى القرى المتفحمة لم يجد جثثاً. أهل القرية هجروها قبل هجوم النار. لا رائحة شنيعة هنا. لا رائحة فطيس هنا ولا رائحة دم ولا رائحة شواء. فقط رائحة الخشب المحترق. القرية تتدرج. الأرض منحدرة. على تلة عالية وجد بيتاً صغيراً لم يحترق. أحسّ أنه عاش هذه اللحظة من قبل. أحسّ أنه يبلغ بيتاً بلغه من قبل على رأس تلّة تسلقها من قبل. كان بيتاً قائماً في العراء. وعلى مسافة منه شجرة جوز عملاقة وارفة الظلال. جذور الشجرة خرجت من التراب. جذع الشجرة أبيض كالعظم. داخل البيت وجد جورة وكومة تراب. عند حافة الجورة رأى جراراً محطمة وكسور فخّار على طاولة. رأى جرّة سليمة. انحنى عليها بوجهه. كانت بلا غطاء. ظنَّ أنها مملوءة طحيناً. ثم شمّ الرائحة الطيبة. هذه رائحة يعرفها. ليس طحيناً. هذا كشك. يذكر أنه يحب الكشك. أمه تعمل له الكشك مطبوخاً بالبصل والقورمة والثوم. تعمله مرات مجبولاً بماء وعلى وجهه زيت الزيتون. يحبّ الكشك. مزيج البرغل واللبنة واللبن. مدّ يده وأخرج حفنة. ذاق الكشك برأس لسانه. الطعم الحامض الشهيّ ملأ عينيه المظلمتين ماء. أحسّ أنه مراقب. استدار ونظر عبر الباب المفتوح. في الخارج اهتزت أشجار مزهرة. رأى الزهر الأبيض ورأى الزهر

الأصفر يتطاير فاتناً في نور الغروب. لا أحد هنا. نظر إلى جوف الجرة من جديد فرأى أن سطح الكشك يرتج. رأى أن الطبقة الفوقانية تتحرك. زحفت الذرات على الذرات ومن تحت الكشك الناعم ظهر جسم أحمر وأسود. كان جرذاً. خرج الجرذ الحليق الجسم من جرّة الكشك، وزحف خارجاً من الباب المفتوح.

تقيأ معدته على جذور شجرة الجوز. جلس على التراب وأسند ظهره العرقان إلى الجذع الكبير. كان الماء يكرج على وجهه. دموعه امتزجت بالسائل المنحدر من فتحتي أنفه. سال جسمه تحت الجوزة. لطخ ثيابه. الطعم الشنيع لم يترك فمه. تقيأ مرة أخرى. هبّ الهواء وجفّف العرق عن وجهه. كان يرتجف. وظلّ يرتجف بينما يجمع حطباً ويشعل ناراً بين الجذور. جاء بلبل أصفر الريش أخضر الرقبة وحطّ بين الأوراق العالية العريضة وغنى. غناء البلبل ملأ المساء. انقشع الدخان مع هبوب الريح وانقشعت الغيوم. بانت السماء صافية، كحلية، عالية، مرصعة بعددٍ لا يُحصى من النجوم. حسين البارودي لم يرَ السماء ولا نجومها. حدّق إلى النار حتى نام. بعد أيام أو أسابيع سمع رجالاً يقطعون غابة. كان عند حافة الغابة.

سمع الأحصنة تهمدر. وسمع الأغصان تتكسر تحت الحوافر. وسمع حديث الرجال. سمع كلمة «بيروت» تتكرر. كانوا يتحدثون عن بلده. دخل بين الأشجار وطارد أصواتهم. تعقبهم من بعيد يصغي إلى حديثهم. كانت هذه خطته: فهم أنهم في الطريق إلى بيروت؛ عليه أن يتبعهم من بعيد؛ هكذا يصل. وحده لن يصل. لا يعرف هذه الأقاليم. سوف يتبعهم. كان يخفي جسمه وراء الجذوع. صمغ الأشجار التصق بيديه، التصق بقميصه، التصق بأنفه. ثم سمعهم يقولون شيئاً جعل قلبه يسقط. قالوا إن بيروت احترقت.

توقف عن الركض والمشي. كفّ عن الحركة. أزّت حشرات فوق رأسه. حطّت ذبابة على أذنه ثم طارت. رأى دوداً على ورقة على غصن شجرة. الورقة خضراء. الدودة بيضاء، وعلى جسمها الأبيض حلقات خضر بلون الورقة. الحلقات خضراء لكنها منقطة بالأبيض. حدّق في النقط البيضاء فتجمدت الدودة مكانها، لم تعد تزحف. ظلّ يحدق إلى النقط المنتظمة البيضاء حتى هبط الليل.

أيقظته أشعة الشمس. وقع النور حامياً على جفنيه فقام عن التراب. «حلب». تذكر مدينة اسمها حلب. هناك بلد وراء الجبال. بلد اسمه حلب. هناك عنده عم. عمه عمر. بيروت احترقت. سيذهب إلى عمه في حلب. حمل جسمه ومشى في الإتجاه المعاكس للبحر. أكل حبوباً عن الأرض. أكل ورقاً عن الشجر. البارودة معلقة إلى رقبته.

في إحدى الليالي المظلمة عصفت ريح باردة. كان يقطع بساتين خضراء عند سفح جبل تُغطي الثلوج قمته. هذا الربيع أو الصيف، لكن الثلوج ما زالت بيضاء على قمة هذا الجبل. هذا الربيع أو الصيف، لكن الريح باردة في هذه البطاح. بعيداً بانت قلعة غارقة في الظلام. سعى إليها فلما بلغها رأى أنها أطلال قلعة. البوابة محطمة مخلوعة. ولا حراس على الأبراج. دخل الدهاليز، عثر على غرفة لا تدخلها الرياح، انبطح على الأرض الحجرية ونام. عندما استيقظ في الصباح وخرج إلى الغرف المجاورة وجد جثثاً تغطي الأرض. على بلاط الباحة رأى جثثاً مطروحة كالحطب. الدم صبغ البلاط بلونه القاني وصبغ الجثث. صعد الأدراج الحجر إلى الطابق العلوي فوجد جثثاً متراكمة إلى علو 5 أو 6 أقدام. على السطح أيضاً وجد

جثثاً لم تُدفن فشوهتها الجوارح بالمخالب والمناقير. جنب فوهة بئر خارج باب القلعة رأى جثة عملاق، زرقاء منتفخة البطن، بعضو منتفخ. الجلد أوشك أن يتفلع؛ نتأت من قشرته شبكة الشرايين المحتقنة الخضراء.

أين كان؟ في سراي حاصبيا أم في قلعة راشيا؟ ركض عبر بساتين، ركض عبر كروم تين وعنب، ركض عبر صحراء زيتون. كلما رأى جماعة من البشر تجنبهم. يختفي تحت حيطان الجلول، يختفي بين أشجار الملول، يختفي في ظل الجلاميد، وعندما تبتعد الأصوات والأهازيج والدعسات، يركض. انحنى ظهره من الركض محني الظهر. انحنى ظهره وباتت أنفاسه مكتومة كأنه يشهق الهواء ذاته الذي يزفره، يُخرجه ويسترده، يُخرجه ويسترده، خوفاً من أن ينتبه عابرون إلى أنفاسه. صار ينام النهار ويسري الليل. وجد الكهوف ملاذاً. تسلق جبلاً واخترق غابة أرز. أشجار الأرز العملاقة ملأت عينيه المظلمتين ماء. نام تحت سقوف الأرز. عثر على فطر صالح للأكل. أكل فطراً وشرب ماء يخرج من بطن الصخر. «أرز الربّ» يسمّون هذا الأرز. لم يعرف أين هو. في جبل المعاصر أم في جبل الباروك أم في جبل الكنيسة؟ لم يبلغ هذه الأراضي العالية من قبل. لعله بلغ سفوحها مرة، لكنه لم يرتقِ الصخور إلى هذه القمم. الهواء كالثلج في الليل. وفي المنخفضات تتكوم «مناسف الثلج». إذا زلّت قدمه وهو يعبر هذه الشعاب الضيقة، إذا زلّت قدمه وسقط في «منسف» يغوص في الثلج ويدفنه الثلج. ذات ظهيرة نام تحت أشعة الشمس فلما استيقظ رأى أربعة أو خمسة أرانب سمينة تنظر إليه. حرّك يده ففرت قافزة. قفزاتها طويلة، وترتفع عالياً. قفزت واختفت بين عشب أخضر ضارب إلى صفرة.

العشب هنا لا يشبه العشب. لونه مخملي ذهبي عجيب. عشب المناطق العالية، المناطق القريبة من السماء والشمس والغيوم.

من قمة جبل رأى القرى تحته. ورأى أعمدة الدخان. الأعمدة أوشكت أن تتبدد. تابع الصعود، ارتقى جبلاً أعلى. وأطلّ من قمته على الجانب الآخر. رأى الأرض تنحدر انحداراً مخيفاً. وفي الأسفل رأى سهلاً عريضاً يمتد ويمتد ويمتد. في قلب السهل رأى مدينة مربعة تحترق. كانت النيران تتأجج فيها كأنها كومة عملاقة من حطب. ما هذه المدينة؟ حيطانها حجر أم خشب؟ رأى نهراً أزرق المياه يجري كأنه لا يجري بين مساكب خضرٍ وصفرٍ وحمر. رأى بقراً يرعى الحقول. رأى غنماً. ورأى حوراً وصفصافاً يشتعل. كانت الأشجار تشرقط دفعة واحدة. يسمع فرقعتها كانفجار البارود، ثم يرى الشعلة مقذوفة إلى أعلى، إلى السماء. كم ليلة أقام في الجبل؟ أكل فطراً وجذوراً وتوتاً وزعروراً وتيناً. وجد شجرة «قبريش»، صنف من الزعرور، لونه أصفر لا أحمر، ثمرته بحجم حبّة التين، سكري الطعم عطري النكهة. أكل ثمار الشجرة طوال أربعة أيام. كانت كبيرة محمّلة بالثمر أنضجته شمس القمم. السكر ردّ الروح إلى بدنه. ردّ نوراً إلى عينيه. شرب ماء مثلجاً ينبع من أعماق الصخر. ارتقى القمة من جديد: رأى النار انطفأت في قلب السهل. دكّ البارودة. صاد أرنباً أحمر العينين. سلخه. نظفه وهو حار الجسم. شواه على الحطب. أكل منه قطعة صغيرة ثم تركه. حفر حفرة. دفن الشواء. وذهب يبحث عن فاكهة أو نبات يؤكل.

استرجع قوّته قافزاً كالوعول على صخور الجبل. قرر أن ينحدر إلى السهل. عليه أن يكمل طريقه. عنده عم في حلب.

بينما ينحدر بوجه قشرته الشمس قافزاً على صخور صقلتها

الثلوج (ثلوج تتراكم ثم تذوب ثم تتراكم)، بينما هواء الصيف يملأ رئتيه باللون الأخضر، انتبه أنه اشتاق إلى وجوه البشر وأصوات البشر. تلك الليلة نام في زريبة تُجاور خاناً. وبعد أيام قطع مضيقاً ثم نهراً ثم أرضاً خضراء، عارمة الخضرة، فوجد نفسه في قرية خارج دمشق. حسين بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي جلس في بستان مشمش مع صاحب البستان وأكل عدساً مطبوخاً وخبز قمح خُبز في التنور وبصلاً أبيض. أكل رغيف خبز ثم رغيفاً آخر وشكر الشيخ الكريم. بينما يقطع طريق العجلات التي تشقها الشركة الفرنساوية ـ العثمانية لقطه العسكر من الطريق وأخذوه إلى الزندان. حبسوه لأنه يحمل بارودة. حبسوه لأن فؤاد باشا يريد الزندان مملوءاً بالمحابيس: وصل قبل يومين وأعلن أن الحكومة ستعاقب القتلة واللصوص وكل من تقاعس عن أداء مهامه. لن ترحم الحكومة لا كبيراً ولا صغيراً.

ضربوه على رأسه وألبسوه قيود الحديد وحملوه إلى الحبس. على الطريق رأى عجائز ورجالاً ونساء وأولاداً يحملون طناجر وبطانيات وسلالاً وصناديق ودجاجاً. كانوا يتحركون في قافلة واحدة طويلة، عيونهم شبه مطفأة، وحركتهم حركة النيام. كانوا يخرجون من دمشق؛ رآهم بينما يدخل المدينة مغلولاً.

في سجن دمشق، في قبو القشلة العثمانية، اكتشف حسين البارودي أن بيروت لم تحترق. دمشق هاجت فيها النيران. أحرقت أحياء كاملة يسكنها النصارى. لكن بيروت لم تحترق. لم تقع مذبحة في بيروت. ولم تهجم على بيوتها نيران. حسين البارودي سمع كلام المحابيس. سأل أسئلة تدور في رأسه مذ كان بين أرزات الجبل. سمع أجوبة. ونام على الأرض. بيروت لم تحترق. وحلب لم

تحترق. لكن زحلة احترقت. والمسلمون في دمشق هجموا على حيّ النصارى لأن النصارى جاوزوا الحدّ. هكذا قال له أحمد خلايلي. ربطوا قدمه إلى قدم الشيخ خلايلي لأن قيود الحديد قليلة. الشيخ خلايلي قال فؤاد باشا رحيم القلب، باشاوات غيره كانوا قتلوا نصف المحابيس إذا قلّت القيود الحديد، فؤاد باشا يخاف الله.

أحمد خلايلي قال إن النصارى جاوزوا الحدّ ولهذا نُكبوا. قناصل الفرنجة لعبوا بعقولهم. الطمع أفسدهم. استغلوا الامتيازات وعبأوا المطامير ذهباً وسرقوا المسلمين. صاروا يلبسون الثياب الخضراء. ويركبون الأحصنة. وإذا صادفتهم في الطريق لا يتنحون جانباً. هذا لم يُسمع بمثله من قبل. قال أحمد خلايلي إنه مع هذا لم يقتل ولم ينهبْ. قال إنه كان مريضاً في بطنه طوال أيام المذبحة السبعة. خمسة آلاف مسيحي قُتلوا وهو في البيت. أصابه إسهالٌ شديد وظلّ طريح الفراش، لا يترك الفراش إلا لقضاء حاجته، حتى انتهت الحوادث.

الشيخ خلايلي قال إن لا علاقة له بالحوادث وقال إن فؤاد باشا يحكم بالعدل وإن شاء الله يخرج إلى بيته وأهله في القريب القريب. حسين البارودي أخبره أنه كان ذاهباً إلى عمه في حلب عندما لقطوه من الطريق وأخذوا بارودته. الشيخ خلايلي قال إن كل من يحمل بارودة قبضوا عليه، حتى على آمر العساكر متسلم البلد أحمد باشا قبضوا. نزعوا سيفه ونيشانه ورسموا عليه. نصف الضباط صاروا تحت الترسيم. وأعيان دمشق في السجن. سعل الشيخ خلايلي. وتلا آيات من سورة البقرة. وقال إن شاء الله يظهر الحق ويزهق الباطل ونخرج من هذه الزريبة إلى نور الشمس.

خرجوا إلى باحة مرصوصة التراب. صفّوهم وربطوهم إلى

أوتاد مدقوقة في الأرض. كانت السماء زرقاء صافية تضرب إلى بياض. الشمس أول طلوعها. والديكة تصيح. من خارج حيطان القشلة تناهت أصوات. أحمد باشا كان صائماً. سجد وصلّى ركعتين. آمر فصيل الإعدام (رجل خدم تحت يده سنوات وأكل بقايا طعامه) سأله هل يريد شربة ماء؟ قال أحمد باشا: «لا أفطر إلا في الجنة». ربطوه وتراجعوا. اتخذوا الوضعية اللازمة. رفعوا البواريد. حسين البارودي أراد أن يلفظ الشهادتين. جاءت إليه في تلك اللحظة أمه: رآها أمامه، واضحة كرؤيا، شعرها مصبوغ بالحنّة، وعيناها تشربان وجهه. رفعت يديها وغطّت عينيه. دوّت البواريد عندئذٍ وملأت الباحة بالهدير والأصداء.

نصف الرجال سقط. والنصف الآخر بقي واقفاً. قسم لم يقع بسبب القيود والأوتاد والحبال. وقسم لم يلمسه أذى. البواريد قديمة. استعدت دفعة ثانية من العساكر. صاح الديك مرة ثانية. فرقعت البواريد. هذه المرة سقط حسين البارودي. الشيخ احمد باشا سقط في المرة الأولى. نيران بواريد كثيرة صبّت حممها عليه. الشيخ خلايلي تشبّع جسمه بالخردق. عندما حملوه كان الدم ينوفر منه ويطرطش في الهواء. في جانب آخر من القشلة نُفذت أحكام الإعدام شنقاً.

الجثث نُقلت في طنابر إلى مدفن جماعي. بعض الجثث ظلّ يتحرك بينما يُقلب مع الجثث الساكنة إلى الحفرة العميقة. فؤاد باشا أمر بإخراج الجرحى من الجورة. لن يدفن أحياء مع موتى. كانوا ثلاثة أو أربعة. أُخذوا إلى المستشفى العسكري.

في هذه الأثناء نزلت العساكر الفرنساوية على الأرصفة أمام خان أنطون بك. منذ فترة والبوارج تسدّ ميناء بيروت. جيش فؤاد

باشا وصل إلى بيروت في 17 تموز (يوليو). الجيش جاء بالبحر قادماً من جزيرة كريت. فؤاد باشا حملته السفينة «طائف» العثمانية ذات المدافع العشرين. نزل في بيروت عشرة أيام ثم غادرها يوم الخميس 27 تموز إلى دمشق. أعلم الأعيان أنه عائد بعد تنفيذ الأحكام. يشنق المذنبين في دمشق أولاً ثم يتفرغ لوادي التيم وجبل لبنان.

في تلك الفترة استردت الأرملة زهرة البارودي نقوزي جمالها الأسطوري. كانت تقف تحت شجرة الرمان أمام «مدرسة مسز سميث» وقد أنهت توزيع حصص الطعام على النساء والأولاد، وتمسح بمنديل حرير عرقاً عن جبهتها. كانت تقف بثوب أخضر وأحمر منتصبة القامة عالية النهدين عندما رأت الجنود الفرنسيس الصاعدين من الميناء وباب إدريس يتوقفون عن السير في «ساحة عالسور»، تحتها، ويلتفتون إليها بعيونهم الملونة وشعورهم الصفر الظاهرة من تحت البرانيط العسكرية. جنود لا تعرف عددهم التفتوا ونظروا إليها تحت شجرة الرمان المورقة المملوءة حياة وورقاً بارقاً أملس. زهرة البارودي نقوزي رأت أولاداً يركضون إلى الجنود ويضحكون لهم. ورأت الجنود يُخرجون من ثيابهم حبّات شوكولا لم ترَ في مثل أشكالها الغريبة من قبل. شوكولا مرّ. وشوكولا حلو. الجنود وزعوا الحلوى على الأولاد ومضوا من ساحة عالسور إلى زاوية أبي النصر.

هذه الطريق المستقيمة ستتحول إلى علامة فارقة في منامات زهرة (أم خالد). استرد جسمها شباباً ظنَّت أنها خسرته إلى الأبد. ترى الجنود يعبرون الطريق خارج باب يعقوب وترى كيف ينظرون إليها. النظرات الملونة سقت جسمها وسقت روحها. المسافة من

«مدرسة مسز سميث» إلى معمل الألاجة خارج باب الدركاه (معمل أخيها عبد الرحيم الذي تحوّل مركزاً للنازحين) تقطعها في خمس دقائق إذا كانت الدرب فارغة. هذه الأيام لا تقطعها في عشرين دقيقة. أعداد كبيرة من الجنود تدفقت إلى البلد. في البدء وصل جيش تركي. بعد ذلك وصل جيش فرنساوي. كل جيش خمسة آلاف رجل. والباب العالي يواصل إرسال الفرق والبوارج. كلّما جاءت باخرة فرنساوية تبعتها باخرة عثمانية. فؤاد باشا يخشى الجنرال بوفور. أختها ياسمينة قالت لها إن البلد ما عاد يُطاق. صارت الحياة تخنق في بيروت. كل هؤلاء الجنود! والأسوأ: كل هؤلاء النازحين!

زهرة استغربت كلام أختها. تفهم أن تقول سعدية الحصّ مثل هذا الكلام. تفهم أن تقول عائشة الفاخوري هذا الكلام. لكن هي ياسمينة المتزوجة من آل الصايغ أصحاب خان الصايغ تجار الفحم الحجري وقوالب السكر الأميركاني، هي ياسمينة التي تدق البيانو وتصلّي الصلاة الإنكليزية تتذمر من رائحة النازحين! هي ياسمينة تقول إنها لم تعد تذهب وتتنزه جهة «السهلات»! استغربت زهرة في البدء حديث ياسمينة. أليست هي من جاءت إلى الحارة ودعتها ودعت أمها إلى المساعدة في العجن والخبز وتوزيع حصص الطعام على المهجرين؟

أم زهرة لم تلبث أن تعبت وكفَّت عن مغادرة الحارة. زهرة في المقابل ملأها نشاط عجيب. كأن الطاقة الفوّارة خرجت من جسم أمها البضّ وتسربت إلى جسمها. نظرت زهرة إلى نساء وعجائز ورجال وأولاد يأخذون طعاماً من يدها فشعرت أنها تعلو عن الأرض. خرجت إلى أمام الباب ووقفت في ظلّ الرمانة. مسحت عرقها فرأت جنوداً أمام القشلاق يتوقفون عن شرب الزهورات

وينظرون إليها. أحسّت بالنظرات وارتفعت عن الأرض. نسيت أخواتها وأحاديث أخواتها وكلام صهرها الخواجه بطرس عن الإسكندرية وجو الإسكندرية. نسيت قلق أخيها على بكره الغائب حسين. نسيت حتى أولادها وبناتها. أمها تتولى أمور الأولاد. وبكرها خالد صار رجلاً، لا تخاف عليه. نسيت ابنها ونسيت صيدا الملعونة البعيدة ونسيت المرحوم زوجها. العيون تحدّق إليها والجنود الفرنسيون يرفعون البرانيط عن رؤوسهم إذا مرّوا أمامها. نظرت إلى مرآة قبل يومين فلم تعرف وجهها. كيف تدوَّر من جديد هكذا، كيف اختفت التجعيدة عند طرف العين، كيف برق البؤبؤ، وكيف امتلأت شفتاها! نظرت إلى وجهها فرقص قلبها. المرحوم الساطورجي الذي افترشها زمناً طويلاً ثم مات بالهواء الأصفر كفّ عن المجيء إلى «حارة البارودي». كان يجيء وهي مريضة فيقعد تحت النافذة وينظر إليها وينظر إلى شروق الشمس. أحبّ منظر الشمس تشرق من وراء جبل صنين فيقع نورها على قبب جامع السراي الأصفر وعلى بيوت البلد. أحبّ هذه النافذة وأحبّ الدرج الملاصق للبيت وأحبّ القنطرة الحجر العالية. أحبّ «الطريق البيضاء» وشعر بحنينٍ إلى الحياة وتمنى لو يستطيع أن يفترش زوجته مرة أخرى. ذهب المرض من جسمها واستردت جمالها الأول. عندما رأى الجنود يحدّقون إليها، عندما رأى الحمرة تسري في خديها ورقبتها، كفّ عن الظهور في بيروت. تلاشت مادته القليلة الباقية فاضمحل.

اختفت الحمائم التي ربّاها عمر البارودي وكثّرها. صادها الفقراء ساكنو الخيم في السهلات. نتفوا ريش الطيور وطبخوها. الحكومة قالت والقناصل قالوا إن المساعدات آتية بالبواخر من وراء

البحر. المرسلون الأميركان والمرسلون اليسوعيون ولجنة الإغاثة التي شكّلها أعيان بيروت، هؤلاء جميعاً يحاولون تأمين الطعام للمهجرين. لكن الكارثة أن قطعان المهجرين لا تكفّ عن الورود. دامت الحرب في جبل لبنان ووادي التيم ثلاثة أسابيع؛ من نهاية أيار إلى 20 حزيران دامت. مذبحة دير القمر طوت حرب الجبل. لكن النزوح إلى بيروت لم يتوقف.

خلال تموز تعاظم النزوح. هذه المرة لا تأتي القطعان البشرية من الجبل ووادي التيم والبقاع فقط. هذه المرة يأتون من دمشق وقرى الداخل السوري. بعد مذبحة دمشق في منتصف تموز تحولت القطعان إلى سيول. سيستمر النزوح طوال آب (أغسطس) وطوال أيلول (سبتمبر). أمطار الخريف ستتساقط والنزوح مستمر. الحرائق انطفأت، هذا صحيح. القتل والنهب انتهى، هذا صحيح، لكن الخوف لم ينتهِ. الناس قرروا. فؤاد باشا أعطاهم بيوتاً في حي الآغوات في دمشق بدل البيوت المحروقة. لم يرضوا. كيف يبقون في البلد بعد الذي جرى؟ الخوف غاص عميقاً في النفوس. منع النوم عن الجفون. تدفقوا على طريق الشام التي لم تكتمل بعد وحدلوا الطريق. في شهرٍ واحد وصل من نصارى دمشق 12 ألفاً. في يومٍ صافٍ مطلع شهر أيلول وصلت سلسلة حمير وبغال وإبل. قافلة عائلات جاءت محملة، مثقلة بالأحمال. وصلت البغال الأولى إلى سهلات البرج بينما ذيل القافلة يثير غباراً في رأس النبع. لجنة الإغاثة عملت إحصاءً سريعاً فوجدت أن القافلة تضم ثلاثة آلاف شخص. كانت هذه أضخم قافلة تصل إلى بيروت: جيش من النازحين.

عجّت «سهلات البرج» بالبشر. «خان التوتة» تحول قفير نحل.

تحول ساحة حشر. باحة الخان لم تعد باحة خان. صارت مخيماً. حتى سطح الخان صار مسكوناً. من قبل كان عمر البارودي يسكن وحده الغرفة على السطح. الآن تسكن السطح عائلة من دمشق. رجل وزوجته وأولاده. عبد الرحيم البارودي نظر إلى الأسواق فلم يعرفها. الأسواق مقلوبة والسهلات مقلوبة وحارة البارودي مقلوبة. عائشة اصفرّت وصارت كيس عظم. حسين لا يُسمع عنه خبر. أخواله آل الفاخوري إذا التقوه في «العطارين» أو تحت قناطر الجامع طأطأوا رؤوسهم. يعلم ماذا يظنون: يظنون الولد مات. يظنونه قُتل وهو في الجبل. لكن عبد الرحيم لا يقنط من رحمة ربّه. يصلي الصلوات الخمس ويقول إن شاء الله سيرجع. ينظر إلى عبد الغني وينظر إلى عبد الفتاح ويقول سبحانه رحمن رحيم، لا تقنط يا عبد الغني، لا تقنط يا عبد الفتاح، حسين عائد بإذن الله. لا يكلمهما بمقدار ما يكلم نفسه. اكتشف في تلك الأيام معدن ابنته الكبرى صفية. كانت تخدمه بدلاً من أمها. تخدمه وتخدم أخواتها. بلا صوت تخدم الكلّ وتغمر البيت بحنانها. جفّ حليب عائشة. باتت صفية تغلي للصغيرة حليباً. أو تمزج سكراً بماء. أو تسلق خضراً وتهرسها هرساً ناعماً وتطعم سليمة.

جفَّ حليب أم حسين وقلَّ كلامها. لم تعد تضحك. لا تضحك لحوراء. لا تضحك لزاهرة. البنتان ضحوكتان، ماهرتان في الطبخ مثل أختهما الكبرى. لكنهما تميلان إلى كسلٍ. صفية، في المقابل، كتلة طاقة. الشيخ مصطفى غندور الفاخوري قال عندما وُلدت أن لها نظرة جدها عبد الجواد. الحاج عبد الرحيم أبو حسين البارودي يتذكر هذه الأيام أباه منتظراً شاهين التائه مع الثوّار في حوران. يتذكر أباه ناظراً إلى فقراء السهلات يسلقون بقايا السمك ويحزن.

الشيخ عزّت بيضون استلم دفة الخان ومنعه من الغرق في بحر النازحين. صحيح أن العنابر امتلأت بالبشر بدل البضاعة. وصحيح أن الاصطبلات لم تعد اصطبلات. لكن الشيخ بيضون يدير باله على الخان، يمنع تكسير الأبواب والنوافذ، ينتبه للنظافة، يدير الصبيان بيدٍ ماهرة، ويحرص على تقديم جردة حساب آخر كل نهار إلى لجنة الإغاثة. اللجنة تدفع تعويضات لأصحاب الأملاك التي ينزل فيها مهجرون. يدفعون للحاج البارودي تعويضين: تعويض الخان وتعويض المعمل. الشيخ عزّت بيضون زاد عمله في هذه الفترة على عكس ما يتوقعه أهله ومعارفه. زاد عمله وزادت همومه. مطاردة الصبيان تُتعب. يتركون المكانس ويهربون إلى السهلات. لا يرفعون الوسخ ولا يهتمون. وجود العساكر في البلد خرب البلد. صبيان الخان ذهبوا يبيعون كعكاً وحلوى وبزوراً للجنود في حرج الصنوبر. وجود المهجرات يُخرب عقول الصبيان أيضاً. الشيخ بيضون لاحظ أمراً غريباً: قلّة الرجال والشباب بين قطعان البشر المتدفقة إلى بيروت.

الحاج عبد الرحيم أجرّ بيتين داخل سور الحارة لعائلتين من دير القمر. صاحبه الخواجة مشاقة جاء وتوسط عنده. قال إن هؤلاء أقاربه، وبيته امتلأ. حتى في علية القرميد أنزل السيد مشاقة ديريين. بيته امتلأ ومنذ يومين يدور على بيوت البلد ولا يجد غرفة فارغة. حتى الزرائب امتلأت بشراً. الكل قالوا له اذهب إلى الحاج عبد الرحيم، عنده بيوت فارغة داخل السور، ولن يردّ طلبك، ألست صاحبه؟

الحاج عبد الرحيم لم يرد ميخائيل مشاقة خائباً. قَبِلَ أن يؤجر البيتين لا حبّاً بالخواجه ولا حبّاً بالمال ولا حبّاً بالوجاهة. خانه

يعطيه الوجاهة. ومعمل الألاجة يعطيه. كم عائلة تنام تحت سقوفه؟ الحاج عبد الرحيم فتح «حارة البارودي» أمام أقارب الخواجه الديري طمعاً بما لم يحسب الخواجه حسابه. أم حسين لم تقل هذه المرة إنها لا تريد غرباء في الحارة. عائشة تعرف عبد الرحيم. أبو حسين طامع في رحمة ربّه. فتح الخان للمهجرين ـ وفتح البيوت على حافة «طريق عبد الجواد» لأقارب الخواجة مشاقة ـ طمعاً بالرحمة: أن يرحمه سبحانه فيردّ إليه بكره حسين.

عبد الغني صار يلازم متجر البازركان. عبد المجيد الفاخوري يُدربه على التجارة. عبد المجيد تحركت في بطنه سوسة السياحة والجولان من جديد. قال لعبد الرحيم إن كثرة الغرباء في البلد تذكره أن العالم واسع فسيح.

بيروتيون كُثر فكروا في الخروج بعد «حرب الستين». الحرب فتحت بحر بيروت على الإسكندرية. عبد الفتاح البارودي كان يلعب تحت تعريشة العنب في دار آل الصايغ وسمع كلمة «الإسكندرية» تتردد وتطير من فم إلى فم. حين تلفظ خالته سوسن هذه الكلمة يُخيل إليه أنها تأكل «نمورة». عبد الفتاح مولع بالنمورة. يحبّها بالقطر. يعتبرها أطيب حلوى. عماته سوسن وياسمينة ونرجس ورثن عن أمهن المهارة في خبز الحلويات. عمته سوسن أخبرته أن نرجس كانت في البداية تضع ملحاً بدل السكر في النمورة وفي الصفوف وفي المهلبية. انقلب على ظهره من الضحك وصار يرفس برجليه الهواء.

«حرب الستين» شَرَعَت بحر بيروت على الإسكندرية. زيدان تامر ابن جرجي تامر ركب البحر مع عائلته الصغيرة. بعده يلحقه أخوه. ثم يرحل الأب أيضاً عن حارة البارودي. إبراهيم الصايغ لن يلبث أن يفترق عن أخيه نصر الله. وبعده يلحقه أخوه بطرس.

السراسقة سبقوا الجميع. ما إن بدأت أمواج النازحين تغمر البلد حتى ركبوا السفن السريعة وقطعوا السهل الأزرق العريض. نصف تجارتهم في الإسكندرية أصلاً. موسى سرسق يدير أموال الخديوي. اسكندر سرسق عنده ثلاثة قصور في الإسكندرية. الكونت طرازي أرسل عائلته إلى روما. وبقي في بيروت. قال للحاج خالد الفاخوري أنه لا يقدر أن يترك البلد. عندما ترك حلب إلى بيروت قبل سنين طويلة قال أموت في بيروت ولا أتركها. الحاج خالد الفاخوري هزّ رأسه وقال إن شاء الله تتحسن الأحوال. عندما أعطاه الكونت القصير ظهره ابتسم: لا يصدق الكونت. إذا وجد الكونت من يشتري كرخاناته يهاجر غداً إلى أرض الطليان.

«محطة الشام» لم تعد تشوي لحماً. مرض يوسف منيمنة فأقفل الحاج أبو حسين حانوت الشواء بانتظار شفاء يوسف. الأمراض تتكاثر. البلد غير معد لاستقبال هذه الأمواج البشرية. الهواء صار قليلاً في منطقة المرفأ. المنطقة هنا ضيقة الأزقة. والمسلخ تضاعفت أشغاله. الجيوش تحب اللحم. بقايا الذبائح ترسل روائح فظيعة. ما يزيد الطين بلّة أن البقايا غير الصالحة لم تعد تُطمر. كلّما طمروها جاء فقراء «السهلات» ونبشوها. الجوع كافر. يسلقون لحم الجيف. الطبيب فاندايك عالج حالات تسمم لا تُعد. فيما بعد سيكتب عن هذا تقريراً.

الوالي الجديد أمر أن تُدفن بقايا الذبائح بعيداً عن البلد، بعيداً عن السهلات. أمر أن تُدفن على ضفة نهر بيروت. هذا لم يغير شيئاً. النازحون النازلون في الكرنتينا(الحجر الصحي) استدلوا على الموقع الجديد ونبشوا الجيف. العظم غير الصالح يعملون منه الأمشاط ويبيعونها في «الفشخة». صار شغيلة المسلخ يتركون بقايا

الذبائح أمام المدبغة. الأولاد يركضون إليها ويتنازعون العظام. خالد نقوزي ترك الشغل في المدبغة. هذا شغل فظيع: طوال النهار يرفع الجلود من النقيع ويرصفها فوق بعضها بعضاً على حافة الجرن الطويل. يرصفها من هنا فتزلق من هناك. يرفعها من القناة بالقضيب المعقوف ويبسطها من جديد. ثقيلة هذه الجلود. لزجة. ورائحتها فتّاكة. يدوخ من رائحة الجلود وماء القناة. ما إن يرصف الجلود حتى تزلق من جديد. ومرات يدخل الأولاد الحفاة شبه العراة ويسرقونها. يظنونها تصلح طعاماً.

خالد نقوزي ترك المدبغة واشتغل بتموين السفن مياه شرب. السقاؤون كثر في بيروت، ومع وفود النازحين تضاعفت أعدادهم. لكن ناظر المرفأ لا يسمح لسقاءٍ عادي بحمل الماء إلى سفينة. الحاج عبد الرحيم ساعده. توسط له عند ناظر المرفأ. أراده أن يشتغل عنده في الخان لكن ماذا يصنع الآن في الخان والخان تحول إلى «جزين صغيرة». نصف النازلين في الخان هربوا من حرائق بكاسين وقيتولي وجزين. إحدى هذه العائلات، عائلة طنوس خويري، لن تلبث أن تنتقل من خان التوتة إلى بيت لآل تامر على حافة «الطريق البيضاء». مريم خويري (ابنة طنوس خويري الوحيدة) مذكورة في رسائل جوزفين بسترس بنت الكونت. جدّة جوزفين لأبيها سلطانة البارودي بسترس تعرضت لحادثة غريبة في طفولتها: وقعت في البركة وراء «بيوت العبيد» وكادت أن تغرق. أبوها (عبد الغني البارودي) سمع صرخاتها وهو قاعد في الصالون في حارة القرميد يشرب عصير البرتقال على المقعد الاسطمبولي ويقرأ العدد الجديد من مجلة «المقتطف». هرع من الصالون إلى البهو إلى الباب إلى الدرجات الثلاث إلى «طريق عبد الجواد». مريم خويري سبقته

إلى البركة. خرجت من بيتها وحبّة الكوسى في يدٍ ونقّارة الكوسى في اليد الأخرى. قطعت الطريق في قفزتين وانحنت على حافة البركة. لقطت البنت سلطانة من شعرها الطويل وأنقذتها.

لولا مريم خويري بنت طنوس خويري الناجي بعائلته من حرب 1860 كانت سلطانة بنت عبد الغني البارودي غرقت في البركة حيث لعب شاهين البارودي ابن عبد الجواد. لولا مريم خويري كانت سلطانة تغرق طفلة ولا تكبر ولا تعزف على البيانو في حارة جدها عبد الرحيم ولا تتعرف إلى راهبات المحبة اللعازاريات ولا تسافر إلى بروكسيل وإلى باريز. لولا مريم خويري كانت سلطانة البارودي تموت طفلة ولا تلتقي النصراني ابن عائلة بسترس وراء البحر. لولا مريم خويري وقفزتها السريعة من مطبخ بيتها إلى بركة الماء في الجانب الآخر من طريق الكلس كانت طريق آل البارودي لا تقطع طريق آل بسترس. كيف يُحصي الواحد الصدف التي حركت حياة عائلات كاملة فأفضت إلى ولادة شخص؟ الكونت سليمان بسترس مات قبل سنوات. لولا ذكرياته عن «حارة البارودي» كانت الحارة ضاعت وحكاية عبد الجواد ضاعت وحكاية أولاده وأحفاده ضاعت وهذا الكتاب ضاع. كيف نُميز بين عالم وُجد ثم تلاشى بلا أثر، وعالمٍ لم يظهر أصلاً؟

فتح الحاج عبد الرحيم عينيه وقال «بسم الله الرحمن الرحيم». لفظ الشهادتين ناظراً إلى نور الفجر الأخضر يتحلق حول مئذنة العمري المستطيلة. «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». أم حسين غارقة في النوم. طوال الليل وهي تتقلب وتهذي في نومها كالمحمومة. لا تهذي لكن كأنها تهذي. أنفاسها تتقطع

والحرارة تخرج من رقبتها. عندما استغرقت في النوم أخيراً تنهد. بعد التنهيدة غرق في النوم هو أيضاً. أتى إليه هذا المنام: رأى رجلاً يدنو من بعيد على بغلة عالية بيضاء. كانت البغلة تقترب ثم تحولت إلى حمار. بعد ذلك اختفت. رأى في مكانها، على الأرض، طفلاً ملفوفاً بقماط أبيض. اقترب من الطفل الملفوف فسمع ضجة وراء ظهره. استدار ليرى سبب الضجة. في تلك اللحظة فتح عينيه. قال «بسم الله الرحمن الرحيم». شرب ماء وشعر أن ابنه عائد إليه. عبد الرحيم يؤمن بحدسه. قبل عشرين سنة، بينما السفن تنقل جرحى بحرصاف إلى ميناء بيروت، حدس أن أخاه شاهين لن يرجع مع الراجعين. حدس أن شاهين قُتل في معركة بحرصاف. عبد الرحيم يؤمن بحدسه. قلبه يحدثه أن ابنه عائد إليه. صلى الفجر في الجامع العمري. كان الندى يغطي «الطريق البيضاء» ويبرق على العشب تحت التوتة وتحت الجميزة. تذكر أنه رأى ندى في المنام أيضاً. كان الطفل ملقى في لفافته على عشب أصفر تبرق عليه قطرات الندى. «سبحان الله. ماذا يعني هذا؟»

قضى نهاره في حانوت التبغ. دخن أرجيلة تلو أرجيلة ناظراً إلى الزحمة في باب الحانوت وإلى عبد الودود الحص يلبي الطلبات ويبتسم للزبائن. كل الأعمال تعثرت (الخان والمعمل والمطعم) إلا هذا الحانوت: العساكر أهل تبغ، كل جندي مشحرة وهذا العبد الودود لا يكلّ، مثل العاصفة، وكله أمانة وصدق. رآه يبتسم للزبائن فتذكر حسين مرة أخرى وتذكر ضحكة حسين. شعر بضغط في صدره. شرب ما بقي من قهوة في الفنجان ثم قطع الساحة المكتظة وعبر تحت قناطر كنيسة مار جرجس الروم ودخل في أزقة النورية المفضية إلى «حيّ الخوتان» وراء كنيسة الموسكوب؟ ماذا سمّى

حسين هذا الحيّ؟ صحيح، «حيّ العميان». سار عبد الرحيم بين رجال ونساء وحمير وبضائع حتى بلغ زاوية أبي النصر. أراد أن يقعد ساعة مع محمد الفاخوري. أخرج مسبحته الـ 99 حبّة وسبّح بحبّاتها واقفاً عند السروات ينظر إلى قافلة جديدة تنحدر على طريق الكراوية. جنب الطريق تجمع أولاد حفاة وبعض الجنود. الفرنسيون عسكروا في ساحة عالسور ليلة واحدة ثم طلب الوالي من الجنرال بوفور نقل المعسكر. خاف أن يشتبكوا مع الأهالي أو حتى مع حرّاس القشلاق. الجنرال بوفور قطع الطريق أمام معمل الألاجة إلى سهلات البرج. وجد المكان مكتظاً بالخيم والمهجرين. على حصانه صعد في طريق رأس النبع. ظلّ الحصان يخبّ حتى بلغ حرج الصنوبر. وجد الغابة حلوة خضراء، والهواء طيباً عطراً. أمر ضباطه أن يرسموا حدوداً للمعسكر. ونصب خيمة القيادة في قلب الحرج. طبيب الجيش الكولونيل مكسيم اعتبر قرار الجنرال حكيماً: ساحة عالسور تبعد خطوات عن سوق المومسات. حرج الصنوبر بعيد عن البلد. هكذا يأمن الجيش الفرنساوي شرّ السفلس.

الطبيب لن يأمن شرّ السفلس. بعد رجوع فؤاد باشا من دمشق ونزوله في القشلاق فوق ساحة عالسور ضايقته الضجة الليلية. الجنود الأتراك والضباط الشركس يسهرون في سوق المومسات حتى صلاة الفجر. في البداية لم يفهم فؤاد باشا سبب الضجة الآتية من الطريق. سأل أحد ضباطه فشرح الضابط المسألة. فؤاد باشا نفذ بعبارة واحدة ما عجز عن تنفيذه ولاة كثر وأعيان كثر.

«خذوا الشراميط إلى وراء السهلات»، أمر بالتركية.

وضع مخيم النازحين الكبير بينه وبين الضجة. منذ ذلك الحين خرج السوق العمومي إلى وراء ساحة البرج. ظلّ هناك حتى هُدم في

ثمانينات القرن العشرين. سوق المومسات القديم بين باب يعقوب وباب الدركاه تحول ثكنات للعسكر العثماني. عندما اكتشف الكولونيل مكسيم أن جنود فرنسا (جنود نابليون) استدلوا إلى سوق جديد لبائعات الهوى شرق مخيم النازحين ذهب بنفسه لتأنيبهم. علق قلبه بسودانية صقيلة البشرة باردة النظرة. عذبه السفلس سنة كاملة ثم دمر جهازه العصبي وقتله.

الحاج عبد الرحيم البارودي يعدّ حبّات مسبحته العاج الصقيلة. يعدّها حبّتين حبّتين حتى يصل إلى الحبّة المفردة الأخيرة. الهواء ساكت والسروات تلقي على الأرض ثلاثة ظلال نحيلة. هبّ نسيمٌ فتحركت ثلاثة ظلال نحيلة. القافلة تدنو مع غيمة غبار. خرج من القافلة حصان أبيض خُضب ذيله بالحنّة يحمل رجلاً ضخم الجثة. انفصل عن القافلة واقترب من عبد الرحيم. الحاج أبو حسين رفع وجهه ناظراً إلى العملاق المقترب. لم يصدق. كان هذا عمر البارودي.

تعانق الأخوان على حافة طريق الشام. عمر البارودي استغرب أن يرى دموعاً تكرج على وجه أخيه. لم يكن يعلم أن بكره حسين خرج إلى الجبل قبل الحوادث ثم اختفى. عندما أخبره عبد الرحيم بدا حزيناً. عمر اعتبر الولد ميتاً. من يرحم ولداً يحمل بارودة في حربٍ تحصد الرؤوس حصداً؟ لو كان حيّاً كان رجع إلى بيته أو أرسل خبراً عن مكانه. يكون قُتل ودُفن مع آلاف القتلى. من يعرفه؟ حرام حسين. يكون قُتل وتُرك بلا دفن والضباع أكلت لحمه وعظمه. حرام حسين. نظر عمر البارودي إلى أخيه عبد الرحيم ولم يقل شيئاً. أراد أن يلفظ كلاماً حلواً، أراد أن يقول شيئاً طيباً. لم يجد في بطنه كلمات. ماتت الكلمات وهو يدفن زوجته المملوءة البطن.

ماتت أشياء لا تُعدّ في جوفه مذ خرج من بيت أبيه عبد الجواد. نظر إلى عبد الرحيم واستغرب كيف غيَّره القلق على حسين. هذا عبد الرحيم؟ صار لا يشبه نفسه. نظر إلى أخيه وسمع امرأة تدمدم خارج الشباك: «السلام عليك يا مريم. يا ممتلئة نعمة. الربّ معك. مباركة أنت في النساء. مباركة ثمرة بطنك. سيدنا يسوع المسيح. يا قديسة مريم. يا والدة الله. صلي لأجلنا نحن الخطأة. ومن أجل خلاصنا الآن وفي ساعة موتنا وإلى الأبد. آمين». سمع الصلاة ولم يسمعها. أحسَّ رجفة في كتفيه. كأن هواء القُرم يهبّ من جديد. هذه رائحة البحر. هذه رائحة الملح والرطوبة. ولعلها هذه المناظر: كل هذه الخيم المنصوبة بجوار البحر. لكن هذا البحر يعجّ بالسفن ولا يغطيه دخان ولا تطفو على وجهه جثث. أحسّ برداً في ظهره. ابتعدت المرأة وتبعثرت صلاتها. «مباركة ثمرة بطنك». عبد الرحيم قال شيئاً عن سطح الخان. عمر لم يسمعه. سمع ولم يسمع. كانا يجلسان في غرفة مستطيلة على الطبقة الثانية من الخان جعلها الحاج أبو حسين مقره. باب الغرفة قدامه شرفة حجر طويلة تشرف على باحة الخان. جنب الباب شبّاك. فوق الشبّاك عُلق قنديل. نساء ورجال وأولاد يعبرون ولا يلقون التحية. الأخوان يجلسان في عمق الغرفة؛ هنا المكان تغطيه عتمة وظلال. يريان العابرين في الخارج. ويريان النور يتغير من أصفر إلى برتقالي إلى رمادي. الشمس تغيب وهما ساكتان. الشمس تغيب لكن أصوات الخان لا تخمد. عدد كبير من البشر ينزل بين هذه الحيطان. عبد الرحيم قال لأخيه: «قمْ معي إلى البيت يا عمر». وعمر البارودي لم يجادل أخاه هذه المرة. قام ومشى جنبه من خان التوتة إلى باب السراي إلى سوق الفشخة إلى حارة البارودي ذات الأسوار.

«لو أن أسوار البلد لم تقع». هذا ما يفكر فيه الخيّاط حمادة المصري هذه الأيام. لو أن البلد ما زالت مسوّرة عالية السور! هؤلاء الغرباء أفسدوا عيشه. يكون قاعداً عند حائط الجامع فيدوسون سجادته ويدوسون المقص والصابونة ويدوسون يديه. لو يرتفع السور حول بيروت من جديد ونُقفل الأبواب الخمسة ونمنع هؤلاء! مذ سقط السور بدأت الكوارث تقع على رؤوسنا. مذ سقط السور تغيرت الألوان والروائح والأيام. الوجوه تغيرت. والناس تغيروا. لو يستطيع أن يردّ السور وأن يرجع بالزمن إلى وراء. كانت الحياة طيبة، تسير على مهل من صباح إلى ظهيرة إلى مساء. الحياة كانت طيبة. وصحن الرزّ والطبيخ من يد ابنته، طيب، حار. أين ضاع ذلك الزمن الأول؟ الكوارث بدأت عندما وقعت الأسوار.

«البلد بلا أسوار أحسن»، قال عبد الله بن محمد الفاخوري لزوجته وهو يأخذ من يدها فنجان القهوة الملآن. شرع المشربية ونظر إلى البحر يترامى شاسعاً ولا يحجبه خان أنطون بك. هذا البيت خارج باب إدريس مشرع على الهواء ونور الشمس.

عبد الله قال لحسين قبل أن تبدأ الحوادث إنه يريد أن يبني بيتاً جنب معمل الفخار على شط شوران. حسين ضحك وقال «تسكن مع الواوية؟». شرب عبد الله الفاخوري قهوة الصباح. وسأل نفسه أين حسين الآن؟ مات أم نجا؟ قتلوه أم أفلت من الحرب؟ زوجته زينب تملأ ليله بهجة. أسنانه تترك علامات على زنديها. لا يشبع منها. كان يوم سعده عندما قال له الحاج أبو حسين «خذْ الكبيرة، خذْ زينب، هذه زوجة تخدمك وتسعدك وتربي أولادك». كان يوم سعده. الله يُوجه الخير إلى دربك يا «حج بو حسين». قبل أيام رآه في سوق الفشخة. رآه من بعيد يعبر بين باعة وزبائن. يعبر بين حمير

محمّلة أكياس طحين وسكر وملح. رآه ماشياً ووجهه في الأرض، وخلفه يمشي حبشيان، كل حبشي بطول نخلة. رآه وأراد أن ينده له ويسلم عليه. فتح فمه لكنه لم ينده. ماذا يقول له؟ أقفل فمه. الله يساعدك يا حج بو حسين.

عبد الله الفاخوري مسرور هذه الأيام. بلى، حَزِن لفقدان صاحبه حسين. لكن الزوجة شغلته والبيت شغله ومعمل الفخار يشغله. ما عاد يخرج إلى صيد. المعمل يزدهر ازدهاراً لم يعرفه من قبل. الطلب على الفخار أكثر من أي وقت مضى. العساكر ملأت الأرض. يطلبون الجرار والأباريق، الخوابي والمقالي. لا يلحق على عجن وخبز. شعر صدره أحرقه الفرن. رموشه اشقرَّت. بشرته احمرَّت حمرة الشمندر. كأنه يشوي نفسه قبالة جورة الفخار. لا وقت للحزن. أين يجد وقتاً؟ الصلوات الخمس اختزلها إلى صلاة واحدة. يصلّي الفجر في جامع النوفرة ثم يقطع وادي أبو جميل وبرّية رأس بيروت إلى شط شوران. يرى صيادي عين المريسة على المراكب يخرجون إلى البحر أو يرجعون من البحر. يرى مكارين آتين من «الرملة البيضاء» وبغالهم محملة رملاً وبحصاً وحجارة. شغله يزدهر. وشغلهم يزدهر. وشغل معلمي الفخار يزدهر. بيوت لا تُعد تبنى في «السهلات» وفي الصيفي والرميل هذه الأيام. لا وقت للحزن. لا وقت لغير صلاة الفجر. يُصلّي الظهر وهو يبرم عجينة الطين على الآلة. يُصلّي العصر وهو يحمل الأباريق ويصفها على المصطبة. يصلّي العشاء وهو يأمر الصبيان أن ينتبهوا وهو يحملون الجرار من المصطبة إلى حميرٍ تنتظر أمام الصبيرات. لا وقت للحزن.

جده الحاج الاسطمبولي، جده محي الدين، دبَّر له أثرى زبون

وأكبر زبون وأهم زبون بالبلد: الحكومة. كل المقالي والأباريق والجرار والخوابي في مطابخ القشلاق عجنتها أصابع عبد الله الفاخوري وخبزتها «جورته». لا يلحق على عجن وخبز. أخوه الكبير مصطفى أرسل إليه قبل أيام يطلب فخاراً لدكانه، فاستحى كيف يقول له إنه لا يستطيع أن يلبيه. الطلب كثير والفرنسيس ضاعفوا الطلب. كل جندي فرنساوي يريد مقلاة فخاراً له وحده. لا وقت للحزن. يهلك من الشغل وحين يبلغ البيت عند هبوط الظلام يجد زينب في انتظاره وقد سخّنت الماء وأعدّت العشاء وبسطت ملاءة نظيفة على الفرشة. هذه الزينب قديرة عزيزة. حظه طيب أنهم أعطوه زينب وأرسلوا سعدى إلى بيت بيهُم. هذه الزينب نعمة النعم. نَفَسُها في الطبخ لا يُعلى عليه. رائحة جسمها عسل ولبن. شحمها ثري، يغرق بين طياتٍ بيضاء بياض الحليب، يغوص فيها بعد العشاء فكأنه بلغ الجنّة. في العيد اشترطت عليه أن يمر بالبيت بعد صلاة الفجر وألا يذهب مستقيماً إلى «الجورة». سمَّت معمل الفخار «الجورة». صلّى الفجر في النوفرة مع عمومته (أبوه محمد لا يصلّي في «النوفرة» كما عشيرة الفاخوري جميعاً. صاحب اليد الواحدة يقيم في الجانب الآخر من البلد: يصلّي في «أبي النصر») ثم انحدر من الجامع إلى البيت فوجد زينب أعدت الكنافة. قبل يومين نقعت الجبنة. هذا سرُّ الكنافة النابلسية. والسمنة سرُّها. والبرم على النار سرُّها. والقطر المعقود سرُّها. واليد الطيبة والنفس الطيب سرُّها. أكل كنافة بجبن حتى شعر الطعام يبلغ أذنيه. قال لها ضاحكاً «الكنافة ستخرج من عينيّ يا زينب». شرب ماء بارداً من إبريق فخار متفتح المسام، إبريق صنعه بيديه، ثم ردَّ المشربية وطرحها على الفراش ونزل فيها. هي استحت في النور الذي بدأ يملأ البيت،

استحت من نور الصباح وأغمضت عينيها. نظر إلى جفنين مكحلين وقال «الله يُوجه لك الخير يا حج بو حسين».

لا وقت لحزنٍ. لكنه وهو ينظر إلى العميان يربطون أكياس الجنفيص ويقفزون إلى بركة الطين يتذكر ضحكات حسين. هو دلّه إلى الوادي حيث تُرى الغزلان. وقت الربيع تعبر الغزلان وادي رشميا. هو دلّه إلى المكان. لن ينسى أنه هو دلّه إلى المكان. وقبل أيام ـ وهو يرى رجالاً على تلّة شوران يحملون الفؤوس والبلطات والمعاول ـ أحسّ بضيق. هؤلاء الرجال يبنون برجاً على رأس التلّة. لم يفهم في البدء ماذا يبنون. ثم سمع أنهم يبنون منارة. يبنون منارة للسفن: برج في قمته مصابيح كبيرة تشتعل ليلاً فتدلّ السفن إلى برّ الأمان. الحاج أبو سليم ـ الحاج خالد الفاخوري ـ رأى منارات مثل هذه في عاصمة السلطنة. قال إنهم يضعون حول المصباح المُنار قوارير كبيرة معمولة من زجاج ومملوءة ماء. هذا سرّ من أسرار الفرنجة. يكبر النور، يقوى ويسطع، خارجاً من قوارير الماء. تراه السفن الشاردة وهي في عرض البحر. لماذا تضايق وهو يرى الرجال يُقصّبون الحجارة؟ لماذا تضايق وهو يسمع المطرقة على الإزميل، ورأس الإزميل يقطع الحجر؟ لماذا تذكّر حسين؟ لا يعلم عبد الله الفاخوري لماذا تضايق. لعله فكر أن حسين لن يرى هذا البرج، هذه المنارة. اعتاد حسين أن يصيد الثعالب هناك. الثعالب تكثر بين الصبّيرات على تلك التلة. تحت التلّة يتكاثر شجر العفص منحدراً بين الصخور حتى شط البحر. غابة العفص كثيفة الشجر؛ من البحر تبدو جلّاً معلقاً في الفضاء. عبد الله الفاخوري يسمع ضجة الشغيلة على التلّ فوق «جلّ البحر»، ويخطط لبناء بيتٍ هنا، على شط شوران. يريد بيتاً يجاور «الجورة». يريد زينب هنا، على بعد ذراع.

يمدّ يده ويأخذها. لا يريدها في باب إدريس، وراء الصخور ووراء عين المريسة.

سألته عن أطيب الطعام عنده؟ قال لا أدري، الطعام الطيب طيب. صارت كل يوم تطبخ له طبخة. عندما طبخت «شيخ المحشي» لم يتركها لحظة طوال الليل. مع أنه أكل كثيراً وكرشه انتفخت، لم يتركها لحظة. تعجبت من قدرته وسألته ماذا يريدها أن تطبخ له غداً؟ قال «شيخ المحشي». قالت الآن عرفنا أطيب الطعام عندك. لكنها بعد أيام طبخت له ملوخية بالدجاج فافترشها بعد العشاء حتى أهلكها. البيت الصغير خارج باب إدريس امتلأ روائح حارة شهية. من ثقوب المشربية ترى وهي تُنقّي البقدونس أو تفرم بصلاً، جنوداً بالزي النظامي الفرنجي يصعدون من الميناء والشمس تلمع على أزرارهم الكبيرة. تراهم وتنتظر أن تبرم الشمس برمتها. قبل أن يأخذها عبد الله الفاخوري لم تكن تنتبه إلى الشمس ودورتها.

أم زهرة تحتضر. لا ندري ماذا ألمَّ بها. أكلت لحماً فاسداً؟ شربت ماء مسموماً؟ أم زهرة تحتضر. دارت الشمس دورتها ووقعت. كانت تغتسل في الغرفة البيضاء العالية. مذ كفَّت عن الخروج مع ابنتها إلى «مدرسة مسز سميث» حيث تنام عائلات من الباروك وكفرنبرخ وبيت الدين، مذ كفَّت عن مغادرة الحارة المسوّرة، كفَّت أيضاً عن استقبال الجارات. لا تزور ولا تُزار. لا تتحرك إلا قليلاً. تطعم أحفادها وحفيداتها وتقعد. حتى هذا لا تضطر إلى فعله. الصغار كبروا. وحفيداتها ذكيات. تلزم الغرفة فوق السطح. تجلس بين حيطان أربعة وتنظر إلى جسور السقف. جسور

صنوبر سوّدها الوقت وسوّدها دخان الفحم. تنظر إلى جسور السقف فتخطر في بالها كلفدان الشركسية. ماذا يجلب الجارية إلى رأسها في هذه الساعة؟ قامت من النوم، ذات أصيلٍ، عرقانة الجسم. لا تدري كيف نامت. لم تكن تريد النوم. قامت عرقانة ورقبتها حارة والشعر يلتصق برقبتها. خرجت وجلبت ماء ثم ردّت الدرفة وردّت الباب ونزعت ملابسها. نظرت إلى زنديها البيضاوين بياض اللبنة. نظرت إلى أصابعها. كانت تكيل ماء عندما شعرت بوهنٍ في ظهرها. جلست على الحصيرة، مالت على جنبها، نامت عارية مبلولة. مواء القطط عند المساء جعل زهرة تصعد إليها. فتحت الباب فرأت المرأة البيضاء الكبيرة (من بطن هذه المرأة خرجت) مطروحة جنب الماء والقطط السوداء تموء على حافة الشباك.

خافت زهرة. وقفت في الباب ولم تتقدم. الظلمة تغشى الحارة المسوّرة باكراً. ظنّت أن المرأة ماتت. ثم انتبهت: القطط لم تقرب أمها. ورائحة الغرفة طيبة، فاترة. تذكر رائحة الموت. ليست هذه الرائحة. قبل سنين طويلة نجت من مدينة مخبوطة بالهواء الأصفر. فتحت زهرة فمها. حرّكت لسانها. خبطت بيدها على خشب الباب. سعلت ونادت أمها. سهيلة النابلسي البارودي فتحت عندئذٍ عينيها.

لم تخرج من الغرفة العالية بعد ذلك. طال احتضارها أربعة أيام بلياليها. في اليوم الخامس رأت نور الشمس يدخل من شقوق الشباك. رأت غباراً يتطاير في نور الشمس. ثم أغمضت عينيها. الروح خرجت من فمها. ظلّ فمها نصف مفتوح وأسنانها الأمامية ظاهرة، سليمة، بيضاء، كأسنان بنت صغيرة.

من الجانب الآخر لطريق عبد الجواد جاءت سعدية الحصّ البارودي لتساعد في غسل الميتة وتكفينها. جاءت قدماً إلى أمام

وقدماً إلى وراء. تكره هذا البيت وتكره هذا الدرج الحجري وتكره هذه السنديانة وتكره هذه الغرفة العالية. ما زالت ترى حيّات في كوابيسها. صعدت الدرجات متوجسة. عندما أطلّت على فرشة المرحومة رأت فراشة خضراء بحجم الكفّ تحطّ على وجهها. دخلت أم هند فطارت الفراشة.

غسلت ضرّتها مع أم خالد. بينما تقلبان الجثة الثقيلة على بطنها، ثم على ظهرها، رأت علامات زرقاً على خصرها. ليَّفتاها بالماء والصابون. ثم طيّبتاها بالمسك العدني. الكفن الأبيض كالثلج جلبته عائشة. صعدت أم حسين الدرجات بخطى بطيئة جليلة. بدت أكبر من سنّها. الحزن غيّر لون بشرتها. دخلت إلى عتمة الغرفة فظهر لون الكفن أصفر كالكوربا. سعدية الحصّ البارودي رأت أم حسين واقفة في النور الضعيف، حاملة الكفن كأنها تحمل طفلاً، فعلقت غصة في حلقها.

لم تأتِ زينب زوجة عبد الله الفاخوري لرؤية الميتة. زوجها نبَّه عليها. يمنعها أن تدعس العتبة. خروجها معصية. حبيسة البيت الصغير خارج باب إدريس تقضي زينب نهارها في انتظار المغيب. إذا أذَّن المؤذن العصر قامت تضع لمسات أخيرة على طبيخها. تملّ في بعض الأيام لكنها في جميع الأيام تحمد ربّها. تغسل قدميّ زوجها وتنتظر كلامه. أخبرها أنه يعدّ لبناء بيت على شط شوران جنب «الجورة». يريد أن يلازمها ليلاً نهاراً. لا يقول إلا نصف الكلام. الرجل ليس امرأة. تكمل كلامه في بطنها.

من ثقوب المشربية رأت أمها زهرة ورأت أخواتها عائدات من مقبرة السنطية. سهيلة النابلسي البارودي دُفنت في السنطية. لم تُدفن في الخارجة ولا في المصلى. المقابر القديمة خارج باب الدباغة

أُقفلت قبل سنوات. أهل البلد ما زالوا يزورونها في الأعياد. لكن الوالي منع الدفن فيها.

الحاج عبد الرحيم البارودي أخرجه موت خالته زوجة أبيه من الدائرة السوداء التي عَلِق فيها. هذا ما جرى: بينما يقرر أين سيدفنها، بينما يختار بين مقبرة الباشورة ومقبرة السنطية (الأولى جنوب البلد وراء معل الألاجة؛ الثانية غرب البلد تجاور خان أنطون بك)، بينما يسأل إمام الجامع العمري المشورة، بينما يقرر أين سيرقد موتى آل البارودي منذ اليوم، تذكر الحاج أبو حسين يوم حجَّ إلى مكة. تذكر رملاً يمتد إلى ما لا نهاية وتذكر واحة نخيل وتذكر عظماً ملقى على الرمل صقلته الشمس والأعوام فرقَّ وشفَّ وصار زجاجاً. بينما يحتار بين مقبرة الباشورة ومقبرة السنطية تذكر الحاج عبد الرحيم ربّه. تذكر المكتوب واللوح المحفوظ. تذكر النار والجنّة. تذكر أنه عبدٌ فقيرٌ. وتذكر رحمة الله اللامتناهية. دفن خالته أم زهرة لابساً قميصاً لم يلبسه من قبل. ذلك المساء، عندما رأته أم حسين عائداً إلى البيت منفرج الأسارير قفز قلبها. سألته هل سمع شيئاً، سألته هل عرف أين حسين؟ الحاج عبد الرحيم ربّت على كتفها. اقترب منها وقال: «صلاتك مستجابة يا أم حسين، أنا انتظرت أخي عمر مرتين، وفي المرتين رجع. الآن ننتظر حسين. صلاتك مستجابة، صلاتك صلاة الأم. والله كبير. لا تقنطي من رحمة الخالق، لا تقنطي».

أم حسين ملأ الدمع عينيها. من زمنٍ بعيد لم تسمع هذه الحرارة في صوت زوجها. من زمنٍ بعيد لم يلمسها هذا الإيمان العميق لمسته الشافية. كأن اصبعاً تمرّ على قلبها. القلب ورمان والإصبع

تلمس الورم لمساً حلواً خفيفاً. بكت عائشة الفاخوري البارودي وشهقت. اختضّت بالبكاء حتى خرج الماء من أنفها. بكت ولم تكفر. بكت وصلَّت من أعماق بكائها أن يرحمها سبحانه وتعالى فترى وجه حسين مرة أخرى.

ابنتها الصغيرة سُرَّت عندما رأتها تأكل خبزاً ولبناً. سُرَّت عندما رأتها تحمل الصغيرة سليمة وتضحك لها. آمنت عائشة أنها هكذا ترضي ربّها: إذا ابتسمت لأولادها ترضيه. إذا منعت الموت عن جسمها ترضيه. إذا كفّت عن البكاء ترضيه. عقدت اتفاقاً مع ربّها: ترجع إلى الحياة فيردّ لها ابنها الكبير.

عمر البارودي العائد بلا زوجة وبلا ولد ساعدها. من دون أن يفعل شيئاً، بجلوسه تحت شجرة الجوز سحابة النهار، يشرب زهورات ويعمل صنانير صيد، ساعدها الرجل الذي يبدو عجوزاً. اكتشف هذه الصنعة الجديدة صدفة. الصياد الدرزي أبو سليمان نجّار استعار منه صنارته. يدخل بقاربه إلى عمق البحر ويطرح خمس صنارات أو أكثر وينتظر. مرة تلو أخرى رأى ابن البارودي «المقروم» عائداً من البحر بسلٍ مملوء سمكاً، وصنارته على كتفه. قال «هذه الصنارة عليها بركة». استعارها من الرجل. قبل زمن بعيد علّم هذا الرجل كيف يصيد سمكاً.

أبو سليمان صاد سمكاً ملأ بطن القارب. كادت الشختورة أن تغرق بصيدها. جاء إلى الرجل المشروم الأذن وسأله من أين أتى بهذه الصنارة. عمر البارودي ابتسم للصياد الدرزي وسأله:

ـ أنت من أين تأتي بصناراتك؟

قال الصياد:

ـ أنا أعملها.

ردَّ الرجل:

ـ خذها، سأعمل غيرها.

صار يعمل صنانير. هل وجد في دقة هذا العمل البسيط سلوى تُنسيه أحزانه؟ أصابعه ضخمة لكن ضخامتها لا تعوق صناعته. ليس أخرق. تراه عائشة يقيس خيط الحرير على قصبة. تراه يقطع فليناً بسكين. تراه يُعلق سنّ الصنارة بالخيط. تراقبه فتعجب كيف يجد هذا العملاق الجوّال راحته تحت هذه الجوزة. أبو حسين أخبرها عن زوجة نصرانية ماتت في حلب. ماتت بالحمى. كانت حبلى. ماتت فدفنها وباع البيت ورجع إلى الحارة. أبو حسين أخبرها عما جرى لعمر وراء البحر في جزيرة الجليد التي يسمّونها «القرم»، أخبرها أشياء أضعفت قلبها. شعرت بقلبها يتعب وهو يحكي عن أخيه. كأن قلبها يركض ويركض ويركض في صدرها.

ماذا ردَّ هذا الرجل الغريب من أطراف الأرض إلى ظلّ الجوزة قدّام بيتها؟ تنظر إليه يشرب الزهورات ويُعلّم عبد الفتاح الصغير كيف يربط زناره فتقول «الله يرعانا، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». لا تلفظ الكلمات لفظاً. كيانها كلّه يتحول إلى هذه الكلمات. إذا رأيتها أرى نوراً يلهو كالفراشات حول جسمها. شمس الظهيرة تقع عمودية على حارة البارودي، وعائشة نصفها في الشمس ونصفها في الظلّ، تنظر إلى الرجل والولد تحت الجوزة الخضراء وترفع صلاتها.

فرقعت البواريد مرتين وقميص حسين البارودي تمزق. صاح ديكٌ خارج أسوار القشلة. دوى هدير. هجمت على عينيه ظلمة. كان يرى أمه عائشة ترفع أصابعها وتغمر وجهه. ثم غمرته هذه

الظلمة. سمع ـ سابحاً في الظلام ـ رجالاً يتشهدون. أراد أن يلفظ الشهادتين هو أيضاً. عجز عن تحريك لسانه. فكّه صار ثقيلاً. أحسَّ سائلاً حاراً يجري على رقبته، يبلّ قميصه وسرواله. ثم تلاشى إدراكه.

بعد أيام، عندما فتح عينيه في المستشفى العسكري في دمشق، رأى حمامة على حافة الشباك تحدق إليه بعين سوداء مستديرة. في قلب الحلقة السوداء لمعت حلقة برتقالية صغيرة. نظر إلى العين الجامدة ولم يفهم كيف لم يقتله الخردق.

أعطوه شوربة بلا طعم. أعطوه كعكاً مبلولاً بماء وسكرٍ. في غضون أيام صار يأكل طعاماً جامداً ويقوم لقضاء حاجته. عندما رآه الطبيب العسكري ماشياً يعرج بين أسرّة الجرحى أشار إليه وقال «هذا استردّ صحته». الحراس كبّلوه بالحديد عندئذٍ وطرحوه في الحبس. لن يخرج قبل سقوط المطر.

المطرة الأولى تساقطت في 16 أيلول (سبتمبر). طيور الوروار عبرت سماء بيروت قبل أن تعبر سماء دمشق. «طيور عيد الصليب»، هكذا يُسميها النصارى أهل الجبل. لكن النصارى ليسوا في الجبل. كلّهم هربوا. والآن يرجعون رويداً رويداً: الجيش العثماني والجيش الفرنساوي يفتحان أمامهم الطريق. وجدوا البيوت محروقة والأشجار مقطوعة. وجدوا الآبار مطمورة. وجدوا الرماد يغطي الأرض. ماذا يفعلون في هذا الخراب؟ داروا ونزلوا إلى بيروت. البعض لم ينزل. البعض نزل. قالوا «جاء الشتاء ونطلع في الربيع ونصلح البيوت». سليم بكاسيني واحد من هؤلاء. قال لزوجته «أحسن أن نبقى في بيروت موسم الأمطار، هكذا تبرد الخواطر». الناس يخافون. كيف يرجعون إلى قراهم التي احترقت أمس؟ لو يتأكدون أن النار لن تندلع

غداً من جديد، يطلعون الآن. لكن كيف يتأكدون؟ قرر سليم بكاسيني أن ينتظر إلى بعد المطر.

أمطار غزيرة تساقطت على سهلات البرج فأغرقت الخيم في بحرٍ من وحل. الحاج عبد الرحيم البارودي فتح الخان بكامل عنابره وغرفه وطبقاته للنازحين. الشيخ عزّت بيضون لاحظ التبدل الجديد الذي طرأ على «حج بو حسين». لم يفهم السبب. ثم قال لعل رجوع أخيه أرسل فيه الأمل. نظر الشيخ بيضون إلى السيد عبد الرحيم وقد استرد بسمته يأكل فولاً وحمصاً وقال في سرّه «تهون، إن شاء الله خير». الشيخ بيضون ـ مثل آل الفاخوري ومثل عمر البارودي العائد أخيراً ـ يظن أن الولد مات. قُتل تائهاً بين أودية الجبل، هذا الولد الضخم كرجل، هذا الولد الطيب القلب. الشيخ بيضون قرر ألا يُظهر حزنه «للحج بو حسين». لماذا يُظهر حزنه؟ هذا كفر. الله يُدبرها. قال «إن شاء الله خير» ولم يعرف كيف سيأتي الخير وحسين البارودي ضاع في دخان الحرب وانقطعت أخباره. انتبه بعد أن غاب الولد الضخم من أمام عينيه كم كان يحبّه. كان ينظر إليه فيرى طيبة وقوة ونباهة. أحبّ القوة فيه. أحبّ هذا البأس الذي لا يتحول بطشاً. مع أنه بَطَشَ بالسمسار الذي يُسمي نفسه «جان» مثل الفرنجة. اسمه «حنا» ويُسمي نفسه «جان». مع انه بطش بالمسكين وأسال دمه، يظلّ طيباً. الشيخ بيضون عند بنت دخلت سنّ الزواج. ويعرف أن السيد عبد الرحيم كان يفكر في طلب البنت لبِكره. أين بِكرك الآن يا «حج بو حسين»؟ ينظر إليه مقبلاً ورائحة الزعفران تسبقه، يرى الأحباش أصحاب القامات الممشوقة قبل أن يراه. الرؤوس السوداء تسبح فوق بحر الناس. الخان يعجّ بالبشر. الأمطار كفّت عن التساقط والشمس بانت بين الغيوم. أبكر الشتاء هذه السنة. في

برقة عين مرَّ الخريف. حرام ناس الخيم. الوحول بيتهم. ينامون على وحل ويقومون على وحل. المساعدات تأتي من وراء البحر بليدة. ومع هذه العواصف لم تعد السفن تبلغ المرفأ. حرام ناس الخيم. غداً يأكلون وحلاً.

ناس الخيم جاعوا في السهلات لكنهم لم يأكلوا وحلاً. سكان البلد تبرعوا بالطحين، تبرعوا بالزيت، تبرعوا بالشعير، تبرعوا بما استطاعوا. الحكومة اشترت حبوباً من حوران والقافلة وصلت على الطريق، وخلفها وصل نازحون جدد. النزوح من دمشق لا يتوقف مع أن الحرب انتهت. المذبحة دامت سبعة أيام بلياليها لكن كأنها لم تنتهِ. لماذا يأتون ويأتون ويأتون؟ فؤاد باشا أعطاها بيوتاً في «القنوات» وباب توما بدل البيوت المحروقة. فتح لهم قصور الآغوات، حتى الجوامع فتحها من أجل أن يبيتوا! لكنهم يأتون. الناس سلسلة تمتد بطول 112 كيلومتراً من دمشق إلى بيروت. يكرّون إلى شط البحر تحت رذاذ المطر. يعطسون ويقعون تحت أشجار التوت الباقية. حتى في المقابر نصبوا خيماً. من يُطعمهم؟ الحاج عبد الرحيم قال للحاج رفاعة قرنفل إن الحال لا بد أن تتحسن بعد الشتاء. جزء كبير من النازحين يملك مالاً وممتلكات. الحكومة ستعوض عليهم أيضاً. وهناك نازحون نزلوا من الآن في الرميل والصيفي والأشرفية وباشروا بناء البيوت. الحال ستتحسن. لكن المصيبة الآن المرض: الفقراء الشوام الباقون في خيم السهلات انتشرت بينهم الحمى. إذا تحوّلت هذه الحمى وباء الله يساعدنا. البلد كلّها محاصرة. السهلات مسكونة. بساتين الغلغول والشلفون مسكونة. وحدها جهة باب إدريس ووادي أبو جميل لم يسكنها بعد النازحون. جهة البحر أيضاً. لكن حتى جهة باب إدريس ـ وحتى

جهة البحر ـ لن تبقى آمنة إذا انتشرت المالطية اللعينة. مقبرة السنطية هناك، غرب البلد. إذا بدأت الجثث تُنقل إلى هناك تنتشر العدوى. الحاج عبد الرحيم قال كلامه بلا خوف. استرد في الفترة الأخيرة طبعاً قديماً. لا يعرف من أين تنبع هذه القوى في أعماقه. لا يعرف. ويُصلّي أن تدوم.

رجع إلى الشغل والركض ومصاحبة الخلان وملازمة الجماعة. يصلّي في الجامع العمري منفرج الأسارير. ويزور «دار البرتقال». ويزور أصهاره في «خان الصايغ» وفي «دار الصايغ». جاء صهره الإسكافي ابن عائلة قدورة زوج هند ابنة أم هند، جاء صهره وزاره في الحارة بعد موت خالته أم زهرة. رآه في المأتم ورآه في الدفن. ميّزه من رقبته المحنية ومن حركته البطيئة. مع أنه لم يكبر في السنّ بعد. جاء وزاره في الحارة وبينما يكلمه في شؤون عادية انتبه الحاج عبد الرحيم أنه رجل حلو المعشر نقي السريرة. وجده آدمياً وقرر أن يزوره. هذه الأيام يزور ناساً كثراً. عنده بعض الوقت. مع انه يخطط أن يفتح حانوتاً ثانياً للتبغ في سوق الفرنج. تلك الجهة من البلد تزدهر. السبب العساكر الفرنساوية التي جعلتها طريقاً من الميناء إلى ساحة عالسور إلى السهلات إلى المعسكر في حرج الصنوبر وراء قرية رأس النبع. البوارج الفرنساوية تُنزل العساكر والمدافع على أرصفة المرفأ الغربية، أمام خان أنطون بك. لا تنزل عساكرها في هذه الجهة، جهة باب الدباغة ومطعم عبد الرحيم.

المطعم فُتح من جديد. يوسف الصقعان منيمنة خرج من المرض وعاد يُشعل فحماً ويشوي لحماً. زوجته وضعت صبياً أسود الشعر عسلي العينين كثير البكاء. أهداه عبد الرحيم قماشاً وأهدى الزوجة أيضاً. أرسل إليه كيساً من النقولات الفاخرة (لوزاً وجوزاً

وفستقاً حلبياً) انتقاها بنفسه من السوق. يوسف منيمنة فتح مطعم الشواء والمطعم يشتغل لكن ليس الشغل القديم. نصف الزبائن ذهبوا إلى الجهة الأخرى من المرفأ. كأنك بين ليلة وضحاها أقفلت باباً هنا وفتحت باباً هناك. البحارة والتجار والضباط غيّروا طريقهم. إذا غادروا الأرصفة إلى البلد اعتمدوا تلك الطريق، في الجانب الآخر. من أمام خان أنطون بك يطلعون في سوق الفرنج أو في الطريق التي اتسعت أمام بيت الشيخ يوسف الجميّل. الشيخ فتح دكاكين تحت بيته. من قبل كانت الطبقة تحت بيته مخزن تبن. أخرج التبن وفصل الطبقة التحتانية إلى دكاكين وملأ الدكاكين أراجيل وفخاراً وحبوباً وحاجيات مختلفة. والآن يبني دكاناً آخر، وبدأ يشتري من البازركان صناديق وسلالاً وأقمشة. الحوانيت تتكاثر جهة باب إدريس. على طول الطريق من خان أنطون بك إلى «ساحة عالسور» تظهر دكاكين جديدة. الخواجه بولس عيساوي النازح من دمشق اشترى دكاناً وبيتاً خارج باب إدريس قبل أن يسقي حصانه. نزل عن الحصان في «ساحة عالسور» وقطع الطريق أمام «رمانات طبارة» ثم دخل أول دكان صادفه وسأل الرجل ـ القاعد يُدخن أرجيلة ويأكل ترمساً ـ هل يبيع الدكان؟ الرجل قال «بيتي هنا»، ورفع إصبعاً، وقال «فوق». الخواجه بولس عيساوي أخرج من زناره كيساً يخشخش بالعثمليات وقال «أريد البيت مع الدكان وأدفع لك ذهباً». اشترى الدكان والبيت. وعائلته وصلت بعده.

السيد برباري ترجمان القنصلاتو الفرنساوي فتح دكاناً لابنه وراء «رمانات طبّارة» التي صاروا يسمّونها «رمانات برتوي» لأن الشركة الفرنساوية ـ العثمانية اشترتها بتراب المصاري. الشيخ طبّارة يعضّ أصابعه ندماً الآن. لو انتظر قليلاً في البيع كان سعر أرضه

تضاعف عشر مرات، عشرين مرة. الشيخ زين الدين القوتلي ذهب يحجّ قبل عيدين وطال رجوعه. نزل زمناً في حمص عند أقارب. رجع قبل أيام إلى بيروت وكان المطر يتساقط. بيته يُجاور «دار البرتقال». لم يجد مدخل بيته. لم يجد الباب ولم يجد البيت من كثرة الدكاكين التي حاصرت بيته. عندما وجده مستدلاً ببرج البازركان كان المطر قد بلّله حتى عظامه. قال في جامع النوفرة إن بلوغ الكعبة كان أسهل عليه من بلوغ فراشه.

الحاج عبد الرحيم البارودي قرر أن يفتح حانوتاً للتبغ في رأس سوق الفرنج. سيترك ابن سلامة في الحانوت عند ساحة العصافير ويأخذ ابن الحصّ إلى الحانوت الجديد. هذه خطته الآن. وعنده خطة أخرى: أن يشتري معمل الألاجة. شريكه الحلبي تضايق من تعطل الأشغال بسبب النازحين. تضايق وعقله يقول له أن يقطع البحر إلى الاسكندرية. عنده أقارب هناك سبقوه. سأله هل يشتري حصته؟ الحاج أبو حسين قال «أمهلني يومين للتفكير». ذهب مباشرة إلى الخان وقال للشيخ بيضون إنه سيشتري المعمل من شريكه، سيشتري حصة شريكه. الشيخ لم يعرف ماذا يردّ: لماذا يشتري الحج بو حسين معملاً يسكنه مهجرون؟ في هذا الوقت يشتري؟ الحاج عبد الرحيم قال لشريكه «أمهلني يومين للتفكير». لكنه لا يحتاج إلى يومين. في رمشة عين ـ بينما ابن توتونجي يسأل سؤاله ـ وصل إلى قراره. سيشتري المعمل. قال أعطني يومين لينزل الشريك بالسعر قليلاً. سيشتري المعمل. وسينتظر خروج المهجرين. الأراضي في هذه الجهة سترتفع أسعارها. الطريق تمرّ من هنا. تبدأ في خان أنطون بك البحري فتطلع إلى ساحة عالسور ثم تنعطف في زاوية قائمة وتمرّ خارج باب يعقوب وخارج باب الدركاه ذاهبة في خط

مستقيم إلى طرف السهلات. تمرّ تحت شبابيك معمل الألاجة. سيشتري حصة شريكه. لا يخاف المهجرين ولا يخاف راهبات المحبة.

الأخت جيلاس الآتية مع الجيش الفرنساوي أخذت أرضاً من الحكومة في حقل الغلغول. أخذت أرضاً جنب معمل الألاجة وبَنَت بيتاً غريب الشكل، بيتاً شكله مثل الصليب. رواق طويل يقطعه عرضياً رواق طويل. بَنَت بيتاً على شكل صليب وملأت البيت أسرّة وجلبت من وراء البحر راهبات البيزنسون. راهبات ممرضات يعتنين بالمرضى، تفوح منهن رائحة كحول. لا يخاف مهجرين ولا راهبات شقراوات الوجوه، الكبيرة بينهن تشبه الصغيرة، والواحد لا يعرف أعمارهن أبداً. لماذا يخاف؟ سيأخذ معمل الألاجة والأرض سيرتفع سعرها. لا يخاف الشركة الفرنساوية. قبل أيام تذكّر ما قاله ـ قبل هذه الكوارث ـ خاله الحاج الاسطمبولي: «بعد اليوم لن تقترب الشركة من خانك يا عبد الرحيم». ألم يقل هذا؟ بلى، قال. هل كان يعلم أن الشركة ستُغيّر طريقها ولن تدخل المرفأ من الأرصفة الشرقية، جهة خان التوتة وباب الدباغة؟ أكان يعلم وأخفى ما يعرفه؟ معقول؟ الحاج عبد الرحيم قرر ألا يفكر في هذه المسألة. لماذا يخوض في هذا المستنقع؟ لن يخوض فيه. الحاج الاسطمبولي ليس خاله فقط. هذا أبو عائشة. هذا جد أولاده.

طرد الوسواس. خطته الآن أن يفتح تجارة في الجهة المزدهرة من البلد. مرّ على مخزن البازركان فوجد ابنه عبد الغني وحده قاعداً يلعب الداما مع زكريا (هذا اليتيم الذي أنقذه قبل سنوات بعيدة، هو وأخته دحنون. دحنون تزوجت أحد المرسلين الاميركان وتعيش مع زوجها في قبرص. زكريا أنشأه المرسلون. تعلم القراءة والكتابة

بثلاث لغات. يشتغل معهم في المطبعة وفي المدرسة. يمرّ عليه في الخان بين حينٍ وآخر. ومرات يلتقيه في جوار «دار البرتقال» ماشياً مع الطبيب المشهور كرنيليوس فانديك). أحد الأحباش ـ هذا مونس، يلزم البازركان ـ ذهب وجلب قهوة من «قهوة النوفرة». عبد الرحيم تأمل دور الداما ناظراً إلى الرقعة الجلد بمربعاتها البيضاء والسوداء.

الرقعة مشدودة على لوح خشب، حوافها تلمع بدبابيس. لا يذكر من جلب هذه الداما إلى الدكان. يذكرها في الدكان مذ كان ولداً صغيراً. يذكر أباه قاعداً مع أصحابه على الكراسي خارج الدكان ويذكر احد الأحباش أو أحد الصبية يُخرج لوح الداما وصندوق الأحجار من داخل الدكان. هذه صورة محفوظة في رأسه. زكريا يخبره عن الحروف الزنك الجديدة، وعن قوالب الحروف التي جلبها الأميركان من إزمير للمطبعة. كان يقول إنها قوالب مصنوعة خصيصاً للحرف العربي، وعبد الرحيم شرد يتذكر أشياء قديمة. أراد أن يسأل ابنه أين الحاج عبد المجيد؟ ثم قرر ألا يسأل وتابع شرب القهوة وتأمل الداما. أحدهم ناوله نربيج الأرجيلة فأخذ الإبزيم إلى فمه وسحب نفساً. يده أخذت النربيج وحدها وطوّته مرة إلى أسفل كأنها تنفضه ثم رفعت الإبزيم العاج (هذا عاج أم خشب؟) إلى فمه. سمع قرقرة الماء في الأرجيلة وشعر بالهواء البحري على رقبته. بكَّرَ الشتاء في المجيء. تصحو بين يوم وآخر. لكنها إذا أمطرت أمطرت سيلاً. ومع هذا يبنون. كلّما تباعدت الغيوم ظهرت البغال والحمير آتية من المقالع. الإبل تحمل عتبات الحجر. والشغيلة يركضون. في هذه الجهة الهواء رائحته أطيب. مع أن هواء البازركان عطن. معه حق عبد الله الفاخوري. هذه رائحة رأس بيروت. يأتي الهواء من

هناك محملاً بروائح الزهور. قال عبد الغني شيئاً فضحك زكريا. لم يكن يعلم أن ابنه ماهر في لعب الداما. المفروض أن عبد المجيد يُعلّمه المهنة لا الداما. لا بأس. الداما جيدة أيضاً. يتعلم الولد التركيز. ويتعلم أن يحسب. الداما أحسن من الزهر. أحسن من الورق. أحسن من الصيد الملعون. قال زكريا شيئاً عن الطليان لكنه لم يسمع كلماته. سحب من الأرجيلة نفساً ونظر إلى حجر أبيض يقفز فوق حجارة سود. أكل الحجر أربعة أحجار أو خمسة ثم استقر في خانة الزاوية. عبد الغني قال «يا الله».

عبد الرحيم التفت بلا سبب في تلك اللحظة فرأى صبيّة كالغزالة يعرفها ولا يعرفها تقطع أمام المتاجر والرجال والأراجيل ولا تبالي بأحد. كانت طويلة القامة ملآنة الجسم، تلتف بملاءة خضراء اللون، وتغطي شعرها بمنديل أحمر القماشة. عرفها لأنها نظرت إليه. هذه ابنة جرجس نوّار. لم تبتسم هذه المرة كما ابتسمت على درج الدركاه. لكنه لمح حرارة في نظرتها. حرارة تكفي لتُقلق راحته. قال زكريا ناظراً إلى الغزالة التي يُحدّق إليها الرجال بينما ينفخون دخاناً:

ـ بربارة نوّار.

دارت سنة عليه وها هو عبد الرحيم يسمع للمرة الأولى اسمها. زكريا لفظ الاسم وسكت. رائحة عطرية تعلقت في الفضاء وراء الغزالة العابرة. ليست مسكاً. أطيب من مسك. أحسّ عبد الرحيم الرائحة تضغط على صدره. أذّن المؤذن فقام وانحدر إلى الجامع العمري. تبعه عبد الغني بخطى واسعة. عند فسقية الجامع، بينما يتوضأ وينظر إلى ابنه عبد الغني يتوضأ، رجع إليه قلقٌ وقنوط. ضحكة عبد الغني وهو يلعب الداما وضعت حسين أمام عينيه.

سبحان الخالق. الضحكة ذاتها. «أين أنت يا ابني؟ ماذا حدث لك؟» توضأ طارداً صورة الغزالة من رأسه. ما هذه البنت؟ صاحبه رفاعة قرنفل أخبره قبل أيام أن الإخوة نوّار الثلاثة (اسبيرو وجرجس ومتى) نُكبوا. القاضي ألقاهم في الزندان. يبدو أن اسبيرو كان يسرق من «السوقيات». يقطع حصة لنفسه من مشتريات القشلاق ويبيعها لأخيه جرجس ويبيعها لأخيه متّى. القاضي رمى الثلاثة في الحبس. لكن ها هي بنت المحبوس تقطع البازركان مرفوعة الرأس والخلخال يزقزق في كاحلها؟ ما هذه البنت؟ عالية الردفين عالية النهدين تقطع الأسواق غير مبالية بالعيون تأكل استدارات لحمها أكلاً! ما هذه البنت؟ بيت نوّار تحاصره ثكنات العسكر، من قبل حاصرته بيوت العوالم. كيف تدخل البنت بيتها وكيف تخرج من البيت وعيون الجنود مسلطة عليها؟ لا ينسى الرقبة الملفوفة، بيضاء كالعاج. ولا ينسى النظرة الحارة. رمى عبد الغني الكيلة في البركة. سمع صوت الماء، سمع لطمة الماء وأحسّ بفزعٍ غامض. نظر إلى الشعر على ذراع عبد الغني، نظر إلى الشعر المبلول على لحم الذراع وتذكر حسين مرة أخرى. «أين أنت يا حسين؟» المصلون يتوافدون والمكان يزدحم. مسح وراء أذنيه. مسح رقبته. أحدهم يتمخط وراء ظهره. أزعجه الصوت. ضايق قلبه. أنهى الوضوء وسار مع ابنه حافياً إلى سجاجيد الجامع. سار على حصائر قش ناظراً إلى ألوان الحصائر. ما هذه الألوان ؟ امتزجت الألوان في عينيه، تمازجت الحصائر. «أين أنت يا بني؟» ركع وصلى. يركع مع المصلين ويقوم معهم. عبد الغني جنبه. يركعان ويقومان. بعد الصلاة، وهو ينتعل مداسه، شعر بألمٍ في ذراعه. ألمٍ غريب، مثل نار تنبعث في زنده. شعر بالنار تلتفّ على الكوع، تتسلق ذراعه، تحرق أسفل رقبته. شعر بالنمل

يتحرك على أصابعه. عبد الغني رأى أباه يستند إلى حائط الجامع عاجزاً عن انتعال مداسه. لم يعرف ماذا يجري. نظر إلى وجه أبيه فرأى عضلات الوجه تتقلص. رأى خده يرجف. حركة مخيفة لم يرَها من قبل أبداً. وجه أبيه تغيّر أمام عينيه. الوجه يرتعش ويُظلم والرموش ترفّ وبؤبؤ العين يتقلص ويتقلص. عبد الرحيم البارودي سقط على الأرض لابساً فردةً واحدة من مداسه.

عندما فتحوا قميصه وبلّلوا رقبته بالماء بان ثديه الأيسر منكمشاً متجعداً. أمين العطّار دلّك صدره بالزيت حتى ذهبت التجاعيد وانبسطت الحلمة المتقلصة. أوشك الحاج أبو حسين أن يموت وهو خارج من الصلاة مع ابنه عبد الغني. أوشك أن يموت تحت قناطر الجامع العمري لكن سبحانه تعالى رحمه. رحمه فلم تقتله الذبحة. عضلة القلب أوشكت أن تهمد. لم تهمد. حزنه على بكره كاد يقضي عليه. رحمه ربّنا. لن يموت اليوم. سيعيش. سيعيش ويرى حسين.

حملوه إلى الحارة حملاً. بينما يقطعون سوق الفشخة إلى باب الحارة - وعبد الغني يركض قدامهم خائفاً على أمه أكثر من خوفه على أبيه - برقت السماء وأرعدت. في الأيام الآتية ، بينما الحاج يتعافى في فراشه، تشتد العواصف ويغمر الطوفان البلد. تساقطت الأمطار غزيرة وأغرقت خيم السهلات. أهل الخيم نقلتهم الحكومة إلى كرخانات وعنابر ومستودعات. صادرت أقبية ومخازن ودكاكين وأنزلت المهجرين فيها. عندما تراجعت العواصف والأمطار أصدر الوزير فؤاد باشا أمراً بترحيل نصارى دمشق إلى بلدهم من جديد. استأجر300 دابة لنقل المهجرين من بيروت إلى دمشق. القناصل تدخلوا وطلبوا من الوزير أن يترك الخيار للرعية. لم يتراجع الوزير عن قراره. لكنه في المقابل لم يأمر العسكر بطرد الناس من بيوت

استأجرتها أو ابتنتها. فعل أمر الترحيل فعله. النازحون ذُعروا ثم بدأوا يُدبّرون أمورهم. البعض عاد إلى دمشق راكباً دواب الحكومة فباع ما يملك هناك وحمل الذهبيات ورجع إلى بيروت. البعض بقي هنا. آخرون قطعوا البحر إلى مدن بعيدة. وبين النازحين من عاد إلى دمشق وظلّ فيها.

وقعت جريمة. نازح قتل تاجراً عنده دكان حبوب في سوق أبي النصر. لم يقصد قتله. تعاركا فضربه بمكيال حديد على صدغه. ارتج رأس الرجل، نزف ومات. أخذوا النازح إلى حبس القشلاق بانتظار شنقه. وجد الحبس يعجّ بالزعماء الدروز والأعيان الشوام. فؤاد باشا أنزل المحكومين هنا بانتظار نفيهم إلى قبرص ورودس وطرابلس الغرب. خمسون منهم أرسلهم قبل ذلك إلى بلغراد على تخوم الإمبراطورية. النازح الذي ينتظر حبل المشنقة تعرَّف في الحبس على سعيد بك جنبلاط. الزعيم الكبير كان مصاباً بالسلّ يسعل فيبصق دماً. النازح الشامي غلى له نعناعاً أخضر وقطّر في النعناع الأخضر عصارة من بزر الليمون الحامض. دقَّ بزر الليمون حتى خرج منه سائل. حفنة البزر تخرج منها دمعة أو دمعتان. قطر هذا السائل في مغلي النعناع وقال للشيخ المشهور اشربْ هذا. شرب الشيخ من الدواء فكفّ عن السعال. سعل مرة واحدة، سعل سعالاً قوياً، ثم سكت سعاله. لم يعد «يتف» دماً. أرسل وراء رجل من خاصته ودفع ديّة الرجل القتيل. قال للوزير فؤاد باشا «لا تشنق هذا النصراني». حسين غضبان أبو شقرا (ابن عماطور الذي عاصر حوادث الستين) أخبر نسيبه يوسف خطار أبو شقرا بعد سنوات طويلة أن الشيخ سعيد بك جنبلاط جرب منع الدروز من اقتحام دير القمر. قيل إن المذبحة ارتكبها رجال خرجوا عن طاعته. قيل إنهم كانوا

عائدين من اقتحام زحلة والدم يفور في أجسامهم ويغلي، فلم يتمكنوا من حبس الحماسة. قيل إن الخطأ خطأ إسماعيل الأطرش وفرسانه الحوارنة. قيل الخطأ خطأ الشيخ العماد والشيخ الدويك. قيل الشيخ العماد أيضاً كان ضد المذبحة. قيلت أشياء كثيرة. لا أحد أراد كل هذا الدم على يديه. اسكندر يعقوب أبكاريوس كتب أن المهاجمين «كلّت أيديهم من تكسير الجماجم وتقطيع الأجساد. ومنهم من يبس الدم على يده فلم ينتزع السلاح منها إلا بالماء الحار. ومنهم من صبغت ثيابه الدماء فصارت كزهر الجلنار». سعيد بك جنبلاط لن يقرأ كلمات أبكاريوس. ولن يعرف ماذا جرى للنصراني. بعد ثلاث ليالٍ، بينما المطر يتساقط رذاذاً، باغتته نوبة سعال فاختنق بالدم في حنجرته واختنق بالدم في رئتيه. الدروز بكوا عليه في الجبل.

استمر سقوط المطر حتى ارتفعت مياه نهر بيروت وغاصت بساتين برج حمود تحت الماء. بينما سعيد بك جنبلاط يُدفن وصلت أخبار عن إعدامات جديدة في دمشق. شنقوا ثلاثة آغوات بتهمة إهمال الواجب ودفنوهم تحت جنح الظلام. في الوقت نفسه أُخرج من زندان السراي العسكري محابيس حُبسوا اعتباطاً. كانوا على الطريق فألقى الجنود عليهم القبض.

المحابيس بعضهم من أرياف الشام وبعضهم من مدن وقرى بعيدة. ساروا جماعات تحت المطر الأسود ثم تفرقوا. عبروا متاهة شوارع لا يعرفونها. عبروا حيّ القيمرية وحي القنوات (هنا كان يحيا الشيخ محمد أبو السعود الحسيبي، أحد أعيان دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ ترك مخطوطة محفوظة في المكتبة الظاهرية (دمشق)؛ مذكرات شاهد عيان يصف الهجوم على حي

النصارى ومذبحة الأيام السبعة). المحابيس الذين خرجوا من ظلمة أقبية السراي إلى ظلمة الشتاء الماطر عبروا بيوتاً في باب توما والشاغور وباب مصلى، بيوتاً فارغة من الناس وفارغة من الأثاث، غارقة في العتمة، تثير في النفوس فزعاً. هذه ليست بيوت نصارى، هذه بيوت مسلمين، فلماذا هجرها أهلها؟ سمعوا أن الحكومة صادرت هذه البيوت من مسلمين مذنبين، صادرتها لإسكان النصارى لكن النصارى خرجوا من دمشق.

مشوا عبر شوارع تفضي إلى شوارع، شوارع ضيقة، أزقة مبلطة زلقة كالصابون، ومطر يتساقط ولا يكفّ عن التساقط. لماذا أخرجوهم في هذا الليل الماطر الأسود؟ لكن الليل الماطر الأسود أحسن من الزندان. أحسن من القبو المظلم والرائحة الثقيلة والقيد الحديد الذي يقطع اللحم. عبروا أمام قصور نفى فؤاد باشا أصحابها إلى جزيرة رودس. الشيخ عبد الله الحلبي نُفي مؤبداً مع كامل عائلته وأقربائه. محمد بك العظم نفوه 15 سنة. عمر أفندي قاضي نفوه عشر سنوات. عبد الحق أفندي نُفي ثلاث سنوات وأمواله تحت الترسيم. ألف أُرسلوا مغلولين بالحديد إلى بيروت ومن هناك إلى القسطنطينية. 112 مسلماً أُعدموا رمياً بالرصاص. 56 شُنقوا. حُكم بالأشغال الشاقة على 286: استُخدموا في إنشاء الطرقات وتنظيف المجارير. «فؤاد باشا أنذر سكان المدينة بإعادة النساء والأولاد الباقين عندهم وكل من خالف عُدَّ مُجرماً ومستحقاً للإعدام. وأذن لجميع النصارى الذين أسلموا وهم 500 بالرجوع إلى دينهم». في الحبس قال أحد المحابيس أن ابن عمه خطف امرأة نصرانية وحبسها في القبو تحت البيت. عندما خاف أن يلقطه العسكر نزل إليها للمرة الأخيرة . عند الفجر، قبل طلوع الشمس، خنقها ورمى جثتها في البئر.

رجل يعرج تحت المطر، يسير بمعدة منكمشة كجوزة في أزقة تتلوى كالثعابين. يرى ناراً فيسير صوب النار. هذا فرن. الرجل تعبان. على وجهه أثر جرح. وجهه حلو، ملامحه حلوة، لكن الجرح شوّه الوجه. هل الجرح ملتهب؟ يشبه بثرة حمراء تحت العين اليسرى، أعلى عظمة الخد. هل الجرح مفتوح؟ لا قمر أصفر ينير هذا الظلام. المطر يهطل والرجل مبلول. يعرج ويدنو من باب الفرن. رائحة الخبز وضوء النار. يعرج على ساق كسرها وهو صغير. عندما يبلغ باب الفرن يلتفت صوبه رجل مظلم الوجه، عاري الجذع، يحمل أرغفة عجين. الأرغفة على لوح خشب يغطيها نثار طحين. والرجل أسود الوجه. الأعرج تراجع. مع أنه ضخم الجثة تراجع. لكن الفرّان لم يزعق في وجهه، لم ينهره. بل العكس: رأى أنه خائف، رأى أنه يعرج ورأى أن وجهه مجروح. سأله هل يريد خبزاً: «جوعان؟» الأعرج اقترب من باب الفرن.

التنور يحتل العقد. جلس في باب العقد. جلس في القنطرة وأكل الخبز الخارج من الفرن. المطر يقطر من عظامه وهو يلوك الخبز الحار الشهي ويبلع. رائحة الخميرة. رائحة الخبز. طعم الخبز. وهذا الفرّان الذي يعطيه ظهره ويُدخل أرغفة العجين إلى جوف التنور. الحطب يتأجج، المكان دافئ، المطر يسيل في الزقاق، والدموع تسيل على وجه حسين البارودي.

الحاج أبو حسين قام من فراشه وشرّع النافذة ونظر إلى المطر يُطوّح حباله على مئذنة الجامع العمري. «الطريق البيضاء» غارقة في الماء. وعصافير مبلولة الريش تنطّ على العشب تحت الجوزة وتحت شجرة التوت. رفع وجهه إلى السماء فرأى شجرة البرق زرقاء، تلمع خاطفة ثم تتبدد. أيقظه منام. منذ أيام ينام عصراً. والآن أيقظه

منام. رأى أباه يكسر كوز صنوبر ويُخرج الحبّات، يكسر خشب الحبّات ويلتهم اللبّ الطري. كان أبوه جالساً على حافة قناة قديمة تشبه قناة البازركان. لكن هذه قناة لا تقطعها حمير. هذه قناة مملوءة حشرات خضراء تتقافز، أطرافها طويلة ولها أجنحة كالجراد. مشى على طول القناة فرأى ناساً يخرجون من جامع أصفر الحيطان على سطحه قبب مثل قبب جامع السراي. قبة كبيرة في الوسط وأربع قبب تتحلق حول القبة الكبيرة. رأى الناس يتحركون حركة شخص واحد، ثم انتبه إلى رجلٍ يخفي وجهه ويمشي على حدة، في يده عصا وفي رأس العصا منجل. رآه يرفع عصاه فوق الحشد ويقطع رأساً. بان وجه الرجل: كان محروقاً! أفزعه اللحم المحروق. «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». بينما ينظر إلى خيوط المطر تغزل شبكة ماء على المئذنة المستطيلة استقر قلبه. لا رياح تهبّ. هذا المطر المنتظم ينذر بانتهاء العاصفة. البرد أيضاً ليس قاسياً. من سوق الحدادين المجاور تتناهى طرقات الحديد على الحديد.

كان واقفاً هكذا عندما جاءت عائشة من وراء ظهره ووضعت دثاراً على كتفيه. وقفت جنبه تنظر إلى المطر. باب الحارة في نهاية طريق الكلس تحرك عندئذٍ. انفتح الباب ودخل رجل طويل القامة بليد الخطوة. تقدم على «طريق عبد الجواد» يجرّ ساقاً على الأرض. لا عبد الرحيم ولا عائشة عرفا من يكون. عندما خرج من ظلال الجميزة قبضت عائشة بأصابعها على ذراع عبد الرحيم. دخل تحت ظلّ التوتة ثم خرج إلى نور المطر. عندئذٍ فقط تبيّنت ملامحه. قبل أن تفتح فمها سمعت صرخة الصغير عبد الفتاح:

ـ حسين!

رجع حسين البارودي إلى بيت أبيه. رجع مشوه الوجه يعرج على ساقٍ كسرها وهو صغير. أخرجوا خردقاً كثيراً من لحم الساق. لكنهم عجزوا عن انتزاع الخردق الذي غاص واستقر في العظم. تفتت جزء من عظم الكاحل. الخردق حفر علامات على جذع الرجل ورقبته. علامات تشبه علامات الجدري في وجه أبيه.

رجع قليل الكلام. عند انتهاء الشتاء وخروج المهجرين من «خان التوتة» التحق بالشيخ عزّت بيضون. الحاج عبد الرحيم البارودي انشغل بالحانوت الجديد خارج باب إدريس. وانشغل بمعمل الألاجة. النازحون خرجوا من المعمل وشريكه القديم صار وراء البحر. غادر بيروت إلى الاسكندرية ولن يعود.

عبد الغني يدير متجر البازركان وحده. أبوه يعاونه. وعبد الودود الحصّ أيضاً. عبد المجيد الفاخوري سافر إلى اسطنبول. يوسف منيمنة يتعب في حانوت الشواء. من جديد يزدهر العمل. صحيح أن ثقل المرفأ انتقل من الشرق إلى الغرب. لكن، في المقابل، عدد الناس في البلد تضاعف. الذين نزلوا في بيروت بعد حرب الستين أكثر من سكانها الأصليين. بين ليلة وضحاها انقلبت المدينة ساحة حشر. سهلات البرج قُطع معظم شجرها؛ تكاثرت فيها بيوت.

الأخت جيلاس استخدمت الخواجه مشاقة وسيطاً بينها وبين الحاج البارودي صاحب معمل الألاجة. عرضت شراء المعمل بمغازله وأدواته. الحاج البارودي ردَّ أن المعمل ليس للبيع. الأخت جيلاس قالت إنها مستعدة أن تستأجره إذاً.

الحاج البارودي لم يرضخ مع أن وضع المعمل صعب. السبب هجرة الناسجات الحلبيات إلى معامل أخرى. الياس جهشان أنشأ شراكة مع موسى سرسق معملاً للحرائر في الأشرفية. المعمل قائم

بين أشجار الجميز، عند سفح جبل غني بالتراب الأسود. المكارون يتسلون الآن على الطريق من بيروت إلى الأشرفية، من الأشرفية إلى بيروت. شبابيك المعمل الجديد واسعة، عالية، يرون العاملات المتنيات والحلبيات والدمشقيات في الداخل. يرون المغازل ويرون الناظر حدّاد يدور بخيزرانته بين المغازل. ناقلو التراب من الأشرفية إلى بيروت يعرفون أن الحاج البارودي يعاني هذه الأيام. بلا الحلبيات كيف يفتح المعمل؟ وجد الحاج أبو حسين الحلّ في قلب حارة البارودي. عائلات دير القمر النازلة في بيوت آل تامر مدّت له صلات باليد العاملة المطلوبة. الديريات ماهرات في الغزل والنسج والحبك. الشاميات أيضاً. اشتغل معمل الألاجة. اشتغل لكن ليس كالمطلوب. الأخت جيلاس عرضت استئجار المعمل مرة أخرى. تلبس الصوف على الصوف. تقول «في باريس تنزل درجة الحرارة إلى تحت الصفر لكننا لا نبرد كما نبرد في هذه المدينة الصغيرة». تقول إن هواء هذا البحر شمالي قاتل. تلبس صوفاً على صوف وتستطيع أن تقف في الطريق وتجادلك ساعة من دون أن يجفّ ريقها. صليب فضة يتعلق من سلسلة فضة على صدرها. ترفع الصليب إلى فمها المزموم وتبوس الصليب. ظلّت تطارد الحاج البارودي. قال لن أبيع أبداً. ردّت على عناده بابتسامة. سيأتي يومٌ ويرضخ الحاج المسلم. سيبيعها هذا المعمل الأصفر الحجارة. ستبني أبنية جنبه، والمعمل سيتصل بالمستشفى. هذه الأبنية الموصولة ستصير «دير اللعازارية».

هوفلين اليسوعي كتب في إحدى رسائله أن اسم الأخت جيلاس انتشر على كل شفة ولسان في بيروت بعد حرب 1860. الراهبة كانت تسير بين أسرّة المرضى حاملة الإنجيل بيد وإبريق ماء

بالأخرى. قبيل المساء، بينما الشمس تغرب والطيور تؤوب إلى أوكارها واللون البرتقالي يتسرب من النوافذ والكوى منتشراً كالماء فوق البطانيات، تدور الأخت جيلاس على الحالات المستعصية حاملةً إنجيلاً وشمعة. راهبة قصيرة القامة تسير أمامها وهي تحمل مبخرة وبخوراً. الدخان يتعالى عَطِراً والأخت جيلاس تظهر من غيمة البخور مع شمعة. لا تغادر الرواق الطويل قبل أن تلقي تحية المساء على المرضى واحداً واحداً.

الوزير فؤاد باشا أرسل إليها مبخرة مصبوبة من الذهب الخالص. خادمتها ظلّت تشعل البخور في المبخرة النحاس القديمة. اشتهرت الأخت جيلاس برحمتها وزهدها. اشتهرت أيضاً بطعامها: ولعها شديد ببيض الطيور.

الحاج البارودي قاوم عروضها. واجه في تلك الفترة مشكلة جديدة. عدد من العاملات الديريات تركن المعمل خوفاً من الديزنطاريا والتيفوس. قال لهن إن الديزنطاريا لا تنتقل بالعدوى. سمع الجواب المنتظر: «والتيفوس؟» مستشفى الراهبات اللعازاريات يبعد عنه خطوات. سعال المرضى فيه يطغى على طنين المغازل. لعن الحاج البارودي ساعة نزول الأخت جيلاس في بيروت.

الأخت جيلاس في المقابل تابعت الصلاة ناظرة إلى العوالم خارجات من البيوت القديمة في بطن البلد إلى السوق العمومي الجديد شرق سهلات البرج. نظرت إلى خروجهن الفاحش ورسمت إشارة الصليب. ظهرت أسراب حمام في تلك اللحظة، ثلاثة أسراب ظهرت دفعة واحدة ورسمت ثلاثة أقواس في سماء بيروت.

عمر البارودي كفَّ عن تربية الحمام لكنه لا يشبع من النظر إليها. يقضي نهاره تحت شجرة الجوز. ينتقل أحياناً إلى ظلّ جدار.

أو يقطع الطريق البيضاء ويخرج من الحارة المسوّرة ويتجول في الأسواق ساعة ثم يعود. عائشة تراه قاعداً تحت الأغصان الوارفة يقطع خيط حرير أو يكبس قطعة رصاص بين أسنانه. يبرد مرّات فيأتي ببطانية صوف ويطرحها على ظهره أو على ساقيه. يعمل صنانير صيد ويُدخن تبغه. تخفق على الأرض ظلال فيرفع وجهه إلى السماء. يرى الحمائم تدور في قوسٍ فسيح وظلّها يموج على حائط الجامع. تصفو نظرته. وتسترد عيناه اللون الأخضر. ينظر إلى الطيور تقطع القبّة الزرقاء وينسى حياته. هل ينسى حياته؟ لعله لا ينسى. يبدو هادئاً كصفحة ماء وهو يتأمل أسراب الحمام. من يرَه قاعداً هكذا مثل عجوز طيب لا يصدق أن هذا الرجل حارب الروس بالبواريد والسيوف والفؤوس في جزر البحر الأسود.

أطلّ الربيع. زهور البابونج نمت بين عشب السطوح. أسراب السنونو تزاحم الحمائم على سماء بيروت. تراجعت الحمائم إلى السطوح والزوايا. تركت السنونوات تجنّ في الفضاء. هديل الحمائم امتزج بسقسقة السنونوات. الآن تنزل أسراب البطّ فوق مستنقعات برج حمود. عمر البارودي يذكر أسراب البط، يسمع صياحها في السماء العالية ولا يعرف أهو صياحها الآن أم صياح يخرج من أعماق سحيقة. حسين البارودي طالما صاد أوزاً وبطّاً في برج حمود. الآن لا يذهب إلى هناك. يلزم «خان التوتة». من البيت إلى الخان. من الخان إلى البيت.

سعدية الحصّ البارودي رجعت تطبخ المحاشي واليخاني لمطعم عبد الرحيم. يوسف منيمنة يرسل إليها كل يوم صبياً يجرّ حماراً محملاً بكل ما تحتاجه. يدخل الحمار باب الحارة وهو ينهق نهيقاً قوياً يُفزع عصافير الدوري في الجميزة. يوسف منيمنة نبّه على

الصبي ألا يقسو على الحمار. الصبي لا يقعد على هذا الحمار القبرصي. لكن الحمار حمار. يخاف أن يدخل بين العقدين في مدخل الحارة ويخاف من البوابة الخشب المرصعة بالحدائد. كل مرة يُعذبه قبل أن يدخل. صار عمر البارودي يترك قعدته تحت الشجرة التي امتلأت ورقاً أخضر ويجيء من نهاية الطريق ويساعد الولد على إدخال الحمار. يربت على رأس الحمار ويتكلم في أذنه الكبيرة فيكفّ الحمار عن لبط الهواء ويتبعه.

الحمير القبرصية ملأت بيروت في تلك الفترة. فؤاد باشا طلب بواخر محملة بالحمير من الجزيرة التي تبعد عن بيروت يوماً بالبحر. طلب الحمير والبغال للعساكر. طلب إبلاً من جبل حوران أيضاً. هذا الحمار الذي اقتناه يوسف منيمنة لنقل الطبيخ من الحارة إلى المطعم ولنقل الخضر واللحوم من السوق إلى الحارة، هذا الحمار عليل، يسعل فتظهر عظامه. القشلاق لا يبيع بالمزاد غير الحمير العليلة. الحمار القوي الصحة يأخذه الجيش.

الجيش العثماني يطلب الحمير. والجيش الفرنساوي يطلبها. خيم الفرنسيس ملأت حرج الصنوبر، تراها من بعيد بعدد نجوم السماء، كثيرة كرمل البحر. جاء الجنرال بوفور ليعاقب الدروز فوجد فؤاد باشا سبقه إلى حبس زعمائهم. ماذا يفعل الآن؟ الجيش المتبطل ليس جيشاً. شاور القنصلاتو الفرنساوي، شاور الوالي العثماني الجديد، شاور أعيان البلد، شاور حنا البحري وإبراهيم سرسق وسليم بسترس، عقد اجتماعات في القشلة وفي خيمته وفي كنيسة مار الياس، ثم بدأ العمل: أمر جنوده أن يساعدوا شركة الطريق في أشغالها. لم يعقد اجتماعاً مع الكونت ده برتوي. لا حاجة لاجتماع مع الكونت. الكونت صديقه. يتعشيان معاً كل ليلة.

الجيش الفرنساوي اشتغل مع الشركة واشتغل مع مجلس بيروت. المساجيري جلبت معاول مختومة من باريز.

أهالي بيروت نظروا إلى الجيش الفرنساوي يحفر الآبار ويبني الأفران في حرج الصنوبر وقالوا: «سكنوا». النصارى لم يتضايقوا. المسلمون لعنوا الفرنسيس وساعتهم. بيروت تغيرت. حرب 1860 غيَّرتها. المسلمون كانوا من قبل أكثر من المسيحيين. الآن صار المسيحيون أكثر. موجات النازحين غيّرت المدينة. عدد سكانها اقترب من سبعين ألفاً. عبد الرحيم البارودي أحسَّ بالضياع عابراً الأسواق الضيقة المزدحمة بين كنيسة الموسكوب وكنيسة مار جرجس. في شتاء واحد، بينما المطر ينهمر على البلد، تضاعف عدد البشر.

رجوع حسين ردّ إليه التوازن. نظر الحاج عبد الرحيم إلى ولدٍ أبيض الوجه يلعب أمام خان التوتة فلم يحزن لرؤية عظام صدره ظاهرة. نادى عليه، سأله عن اسمه، وسأله هل يريد أن يشتغل عنده في نقل التبن من المخزن إلى المعالف. الولد باس يده. ضحك وجهه. الفقراء كثر. هذه يد عاملة لا تكلف كثيراً. شغَّل في الخان مهجرين من بلاد أجداده. وطلب من ابنه حسين ألا يقسو عليهم. الشيخ عزّت بيضون ابتسم ابتسامة حزينة.

الشيخ عزّت بيضون سمع حسين البارودي يتكلم مع صبيان الخان فلم يعرف صوته. انكسر صوت الفتى. مع أنه يبدو الآن رجلاً. لكنه رجل مكسور. ماذا جرى له في الجبل؟ ماذا جرى له في سجن دمشق؟ ينظر إلى العلامات على وجهه ورقبته، ينظر إليه يجرّ ساقه طالعاً الدرجات أو نازلاً الدرجات، ويحزن. يراه يحمل ساقه العرجاء بين يديه وهو يطلع الدرجات إلى السطح. العائلة التي

سكنت الغرفة فوق الخان انتقلت إلى بطن البلد. خلت الغرفة. مرات ينام فيها حسين البارودي. الحاج أبو حسين جرب أن يجلب أخاه عمر للشغل في الخان. عمر قال لا، أصنع صنانير صيد، الخان كثير الوجوه، لا طاقة لي يا أخي.

اخضرَّت بساتين التوت وفقَّس بزرّ القزّ. موسم السنة الماضية كان عجيباً: مربو الحرير في بيروت جنوا ثروة. احتراق موسم الحرير في جبل لبنان ضاعف أسعار الشرانق ثلاث مرات. هذه السنة استوردوا من ليون والصين واليابان عدداً مضاعفاً من علب البزر. لعل الحظ يصيبهم هذه السنة أيضاً. العائلة الديرية النازلة في بيت المرحومة أم شاهين اشترت بزراً. ربّ العائلة سليمان البستاني ضمن من الحاج البارودي أشجار التوت حول بيت المرحومة أم زهرة. ابنتها زهرة لن تربي قزّاً. لا تفهم بالقزّ. أرملة اللحام الصيداوي مشغولة بمدرسة الست سميث. تكاد لا تُرى في الحارة.

في هذا الربيع تزوجت فاطمة البارودي. ابن الداعوق تكلم مع أخيها الحاج عبد الرحيم وهما يخرجان من صلاة الجمعة. الحاج البارودي ابتهج بهذه المصاهرة. الداعوقيون كرام الحسب والنسب. يُشاع أن يدهم مقبوضة. لكن عبد الرحيم لا يتوقف عند هذا. إذا قال عنهم خاله خالد الفاخوري: «بخلاء»، ابتسم وقال «ليسوا مبذرين».

عبد الله الفاخوري رُزق ـ بينما الشرانق البيضاوية تُقطف عن الوزال ـ طفلاً ذكراً سمّاه محي الدين. زينب أتعبتها الولادة. الداية قدرية الجمل قالت وهي تُبعد كرسي الولادة المثقوبة من أمام وجهها أنها لم تعد تقدر على هذه المصلحة. مسحت عرقاً يتصبب من وجهها فخيّل إلى الجارات المحتشدات في البيت الصغير خارج باب إدريس أن الداية جاوزت المئة سنة. (إحدى الجارات قالت إن الداية

ولّدت أم هذه البنت، ولّدت الأرملة زهرة نقوزي. جارة أخرى تذكرت حكاية مشهورة في تاريخ بيروت: كانت قدرية الجمل في عزّ قوّتها عندما أنقذت من الموت زوجة الأمير منصور أرسلان التركمانية. الطفل مات ولم يخرج من بطن التركمانية. نزفت نزفاً غزيراً وابيضّ وجهها بياض العاج. كانت تموت. أخذت الداية قدرية الجمل نصلاً في كفّها. أولجت كفّها في رحم التركمانية. قطعت الطفل إرباً وأخرجته.) التقليد في بلدنا أن تُقدم كاسات المغلي للضيوف عند الولادة. في بيت عبد الله الفاخوري قُدمت ضيافة المغلي مع ضيافة أخرى: مشروب قمر الدين. هذا الشراب المصنوع من المشمش المجفف ينتشر في البيوت أثناء قطاف الحرير. الأولاد يخطفون عجينة المشمش المجفف قبل تذويبها في الماء ومزجها. يمصّونها راكضين في الطرقات ويضحكون. الأولاد تكاثروا في طرقات البلد. «وقعت حوادث مؤسفة»، كتب السيد غراهام.

وضع السيد سيريل غراهام ـ مبعوث الإنكليز ضمن اللجنة الدولية التي زارت بلادنا بعد «حرب الستين» ـ تقارير كثيرة عن جبل لبنان ووادي التيم. وصف القرى والبلدات والسرايات التي زارها بعد المذابح وقبل دفن الموتى. هذه التقارير ظهرت في الصحف الإنكليزية أثناء القرن التاسع عشر. سنة 1874 نُشرت مذكراته في مجلدين. المجلد الثاني يحوي رسائل كتبها من بيروت إلى أخيه جوناثان غراهام في دار «بل أند بالدي» (Bell and Baldy) في فليت ستريت (لندن). دار النشر المذكورة نشرت سنة 1862 كتاباً لكاهن انكليزي زار صربيا ورأى في قبو «القلعة البيضاء» 360 سجيناً درزياً. الرقم الذي يسجله الكاهن الإنكليزي (Rev. W. Denton) يُثير الاستغراب. الرقم مذكور بوضوح في النص الإنكليزي:

> ... in a low irregular building in the main square are, at this moment, confined three hundred and sixty Druse prisoners.

يقول الكاهن إن نور الشمس لا يصل إليهم. يصف قلعة بلغراد البيضاء وصفاً مفصلاً ويقول إن أعداد السجناء الدروز تتقلص بسبب الوفيات. الغريب في الرقم (360 سجيناً) أنه يتجاوز الرقم المتعارف عليه في المخطوطات الدرزية. كتاب الكاهن دنتون غير معروف بين مؤرخي «حرب الستين». حسين غضبان أبو شقرا روى أن النفي إلى بلغراد جرى بالقرعة وأن «فؤاد باشا عمل بنفسه قرعة على من يُنفى ومن لا يُنفى فكتب اسم كل من الموقوفين على وريقة صغيرة ولفها على شكل صليب ووضع الصلاليب كلها في كيس وخلطها وخضخض الكيس ثم مدّ يده...». أبو شقرا قال: «نُفي إلى بلغراد سبعون رجلاً». الكاهن دنتون أعطى رقماً أكبر (360) لكنه لم يُسجل أسماء السجناء. أبو شقرا سمّى مشايخ من نواحي حاصبيا وعماطور والجرد والمختارة، بينهم حسين تلحوق ويوسف بك عبد الملك وحمد نوفل وعلي زويهد وقاسم الحلبي وعلم الدين عماشة وبشير عبد الصمد وعلي أسعد ومحمود محمد وقاسم بك نكد. حسين غضبان أبو شقرا لم يذكر الشيخ نور الدين جابر الذي فقد بصره في المنفى. ولم يذكر الشيخ منذر عساف الذي رجع من سجن بلغراد فنزل في بيروت وتزوج بنتاً من آل قباني.

ماذا يتذكر الإنسان وماذا ينسى؟ السيد سيريل غراهام حفظ من النسيان خبر ولد من عائلة عيتاني (Itani) لطمته حوافر حصان وهو يلهو مع أقرانه في أسواق بيروت. رأس الولد انفتحت كبطيخة على الطريق. لم يسجل السيد غراهام اسم الولد كاملاً. هذا كل ما بقي من حياة الصغير: الرأس المفتوحة كبطيخة على الأرض.

عبد الغني لم تتغير حياته برجوع أخيه الكبير. لعله الوحيد بين سكان حارة البارودي الذي لم تؤثر فيه عودة حسين. لازم عبد الغني متجر البازركان. يسمع أخبار التجار والعابرين. يبيع الزبائن طنافس مزركشة وعباءات مقصبة وصناديق مطعمة بالصدف. يلعب الداما ويطلب فولاً مدمساً وفتة بحمص ولبن من قهوة النوفرة. أو يأتيه صحن الطبيخ ساخناً من الحارة. أو يرسل إليه يوسف منيمنة شواء من «محطة الشام». عبد الغني يأكل في البازركان. يفرش غطاء على الصناديق الدمشقية ويأكل مع مونس الكوشي أو صاحبه زكريا أو أحمد قرنفل ابن الحاج رفاعة. زكريا يكبره لكنه يجالسه ويحدثه ويروي أشياء غريبة عن العالم. يعرف العربية والإنكليزية والإيطالية، يقرأها ويكتبها، والآن يتعلم لغة جديدة. المرسلون لقّنوه باللاتينية أسماء النباتات والمعادن والحيوانات.

الحاج عبد الرحيم أراد أن يوصي الخيّاط حمادة على قمصان جديدة لأولاده. طوال أيام ظلّ يمر على دكانه بعد صلاة الظهر فيرى الدكان مقفلاً ولا أثر لطراحة الخيّاط في الخارج. الأخبار الغريبة التي سمعها هذه السنة لا تُعدّ، لكنه يسمع الآن أغرب خبر: الخيّاط الختيار حمادة المصري تزوج امرأة صغيرة ولم يعد يخرج من بيته.

واقفاً تحت قناطر كنيسة مار جرجس بالجبّة الكهنوتية واللحية المربعة البيضاء قال الشمّاس الياس دبّاس ضاحكاً إن صاحبنا المصري خُبل في هذه الشيخوخة السوداء. قال «خُبل وفارق عقله»، بينما يمضغ نبتة خضراء.

تكلم مع الحاج البارودي ابن عبد الجواد رافعاً يده المثقلة بالخواتم موزعاً بركاته على عابرين وعابرات. قال إن المرأة جاءت إلى البلد مع أهالي حاصبيا المساكين، ليست منهم لكنها جاءت

معهم، قريتها عند أطراف وادي التيم، قرية لا يُحفظ اسمها، كفرتين أو كفرحنين، لا يعرف اسمها، الله يساعدها، المرأة هربت من النار إلى سراي حاصبيا، وحده الربّ يسوع المسيح يعلم كيف نجت بعد ذلك من مذبحة السراي.

جاوز الشمّاس دبّاس السبعين لكنه ما زال على جبروته. إذا وقف بباب الكنيسة سدّ الباب. مع هذا يرجف صوته ويتعب صدره العريض حين يسترسل في الكلام: تتمكن منه سعلة ويرتفع الدم إلى وجهه ويصبغ خديه. لحيته تمنحه جلالاً. أسنانه وقع نصفها، واصفرّ الباقي، لكنه يأكل لحماً مشوياً مثل ابن العشرين. ما زال يهوى النبيذ. يقول «النبيذ ماء الحياة». ويضحك ضحكة جبلية مدوية تتردد في أرجاء المكان. أخبر الحاج عبد الرحيم عن الخيّاط حمادة. وأخبره عن امرأة من راشيا قيل إنها ترى الأرواح.

المرأة جاءت إلى بيروت بعد مذبحة القلعة، انطرحت بين الموتى ونجت، لعلها جُنَّت وهي ترى الدم يسقي التراب والجماجم تتدحرج على الأدراج. الله يساعدنا. قالت إنها ترى الأرواح. رأت الأرواح تخرج من القتلى. قالت إن الأرواح صغيرة الحجم، وكلما كان الواحد ضخم الجثة مثلي (قال الشمّاس) تكون روحه أصغر! قالت إنها رأت روحاً أصغر من حبّة عدس وروحاً بحجم حبّة حمص. وقال إنها رأت روحاً كبيرة، أكبر من بطيخة. قالت إن أرواح الأطفال في حجم الشمام الماوردي. قالت إن أرواح الأولاد في حجم الإجاص والتفاح. مخبولة. والعجائز ـ وحتى غير العجائز ـ يذهبون ويزورونها في القبو حيث سكنت في زقاق البلاط. يذهبون إليها وتخبرهم ماذا تقول الأرواح. قالت المرأة إنها رأت الأرواح تخرج من قتلى القلعة وتتحول إلى غيمة كثيفة فوق جلول الزيتون.

قالت إن الروح مثل غيمة صغيرة، مثل كتلة بخار، ولونها لون اللبن القديم، أبيض ضارب إلى صفرة. قالت إنها تستطيع أن ترى روح الواحد وهو قاعد قبالتها يحكي معها أو يحكي مع غيرها. قالت إن الرؤية تكون أوضح وأصفى إذا سكت الواحد. الكلام يُعكّر عليها الرؤيا. إذا جلست قدّامها ساكتاً ترى روحك كثيفة ترتعش تحت القلب، في قفص الأضلاع. ضحك الشمّاس دبّاس وقال إنه ذهب إلى المرأة وتكلم معها. المرأة خافت منه بسبب الجبّة. خافت وباست يده وقالت «اتركني أعيش يا سيدنا، اتركني أعيش».

البلد ملآن حكايات هذه الأيام. كل مهجر عنده قصة. وفوق المهجرين جاءت العساكر بالبحر. الحاج عبد الرحيم يمضي نهاره وهو يكشّ الأخبار من أمام وجهه كأنه يكشّ الذبان. يركض بين أشغاله. ومرّات تشغله الأعمال عن الصلاة. يفرش سجادته ويصلي في الخان أو على سطح الخان. وقبل أيام قليلة ندم على طلوعه إلى السطح. أراد أن ينتهي من الحديث مع تجارٍ أنزلوا حبوباً في عنابره، أراد أن ينتهي من الحديث معهم ليلحق صلاة الظهر في الجامع العمري. لكن التجار أخّروه. الشيخ عزّت بيضون لم يكن موجوداً ولا ابنه حسين. حسين أصلاً لا يُكلم التجار. يشرف على الصبيان ويشرف على الاصطبلات. لكن بلا نفس. تغير حسين. كأنه ليس هو. ومع هذا نحمد الله. نحمد الله أنه عاد. وها هو الصيف أقبل، وخضر الصيف تملأ السوق وتلون الزوايا بأحمر البندورة والفجل وبأخضر البقدونس والخيار. الحاج عبد الرحيم مسرور، الخان رجع يشتغل، وعبد الغني في البازركان، والحانوت الجديد يدبّره عبد الودود، وعائشة وجهها يضحك كلّما عاد إلى البيت. التجار أخّروه فسمع المؤذن، وأخّروه أكثر فعرف أنه لن يلحق على الصلاة. ذهبوا

أخيراً فأخذ سجادته الدمشقية الملفوفة وتسلق الأدراج إلى السطح. كان يفرش السجادة عندما سمع الصوت الغريب آتياً من الغرفة حيث أقام أخوه من قبل. انقبض قلبه عندما فهم سرّ الحمرة في عينيّ حسين. كلما رآه أحمر العينين استغرب. على السطح، بينما يفرش سجادة الصلاة، حزن الحاج عبد الرحيم سامعاً البكاء.

لكن الحال تبدلت أواخر الصيف. تبدلت الحال وكفّ حسين البارودي عن الطلوع إلى السطح. لم يعد أبوه يرى عينيه محمرتين. تلاحقت الصُدف فرفعت حسين البارودي من بؤسه. نزهة إلى الحقول أنقذته، ووجه رآه في الحقول أنقذه. حدث الأمر هكذا: الشيخ عزّت بيضون يملك رباعات صبيّر في رأس بيروت. أيلول ينتصف، وروار عيد الصليب عَبَرَ، وثمار الصبّار نضجت وقطرت عسلاً. البلد كلها مبتهجة بهذا اللون البرتقالي. في السوق يطرحها الباعة على البسطات، يُقشّرونها للمارة، يغسلونها بالماء، ويبيعونها بالحبّة أو بالسلّة. البلد تلوَّنت ببرتقالي الصبيّر وحسين البارودي قَبِل دعوة الشيخ عزّت وذهب معه إلى القطاف. كانوا يتنقّلون بين أدغال الصبّار، كان حسين يتنقل بين الشجر الشائك بورقه الشائك المؤذي العريض ككفوف العمالقة، عندما ظهر له وجه يذكره ولا يذكره: هذه بنت الشيخ عزّت، طالما رأى عينيها السوداوين. الآن يراها مكشوفة الوجه. تفاجأت به ورفعت المنديل على فمها وحجبت شعرها. لم تنظر إلى جرح وجهه. نظرت إليه كما كانت من قبل تنظر إليه. نظرت إليه ثم غضّت بصرها.

أول الشتاء، قبل أن يعلو موج البحر، تزوج حسين البارودي.

استغلت زهرة المناسبة السعيدة فخلعت رداء الحداد وأمرت بناتها بلبس الأحمر والزهري والأخضر. «حارة البارودي» المبتهجة بزواج حسين البارودي امتلأت بالشربات والحلويات. قرر أحمد نقوزي ـ بعد موافقة أخيه الكبير خالد، وبمباركة من الحاج عبد الرحيم ـ أن يُصلح الغرفة على السطح ويُعدها للإيجار. عندما أخرجوا فرشة المرحومة فاحت رائحة أم زهرة وعبقت. طرشوا الحيطان بالأبيض. خلعوا الباب القديم الذي أفسدت خشبه الرطوبة وركّبوا في مكانه باباً أوصوا عليه أنطون جروة في سوق النجارين. فردوس الصغيرة علَّقت ستارة من القطن الأبيض مُطرزة بالزهور الزرق على النافذة. الأخ الأكبر خالد رآها بعينيه العسليتين الصافيتين تقف على رؤوس قدميها وقال في نفسه إنها هي أيضاً لم تعد صغيرة. قبل أيام سأله الحاج عبد الرحيم متى سيكمل دينه ويتزوج، وهو ردّ أنه لن يفعل ذلك قبل أن يُدبّر أخواته.

الحاج البارودي أعلم السيد سليمان البستاني النازل في بيت عبد الجواد الأول (بيت المرحومة أم شاهين) أنه في حاجة إلى البيت لبكره الذي كتب كتابه على بنت الشيخ عزّت بيضون. سليمان البستاني ارتبك ولم يعرف ماذا يقول. كانا قاعدين تحت الجميزة،

هواء الخريف يتلاعب بالأوراق ، وهما يشربان قهوة مرّة من فناجين الشفّة الخزف. نظر السيد البستاني إلى الفنجان الأبيض بالزهور الزرق وقال «أمهلني الشتاء يا حج، أمهلني الشتاء». بدا مضطرب الصوت، مضطرب العاطفة. الحاج البارودي تذكر أن الرجل تهجّر بعائلته قبل شتاء من قريته في الجبل. تذكر مصيبة الرجل التي لم تعتق بعد فرقّ قلبه وندم لأنه فاتحه بالموضوع. سليمان البستاني، في المقابل، استعاد رباطة جأشه مستوعباً الضرورة التي طرأت، فقال بصوت هادئ:

ـ أول الربيع، قبل تفقيس القزّ، يكون البيت فارغاً نظيفاً. إبنك كأنه إبني يا حج، الله يوفقه.

حلّ شتاء 1861-1862 عاصفاً فانحبس الناس في البيوت. قرّر عبد الغني أن يعلّم أخواته القراءة والكتابة تزجية للوقت. تهربت صفية من الدروس منصرفة إلى شؤون البيت والمطبخ. أما زاهرة وحوراء فأظهرتا ميلاً فطرياً للدراسة. سرعان ما جاوزتا الفاتحة وحفظتا سورة البقرة. صارت حوراء تكتب اسمها وتتفنن في برم الحاء. ووجدت زاهرة في الكلمات عالماً عجيباً وصارت تفتح كتب عبد الغني الثلاثة كلّما أدار ظهره وتبدأ القراءة من الصفحات الأخيرة. أما سليمة، وبعد أن كبرت قليلاً وباتت أصابعها قادرة على التقاط الريشة وتغميسها في دواة الحبر، فبرعت بعد سنوات في الخط والرسم حتى أدهشت أهل البيت جميعاً: كانت ترسم بحراً قليل الموج وبيوتاً بقرميد. وترسم «الطريق البيضاء» التي نعرفها. وترسم شجرة الجوز وشجرة التوت والجميزة عند البيت حيث سكن أخوها الكبير حسين مع زوجته الساكتة الحلوة نسب بيضون البارودي. كانت ترسم بيوت الحارة المتكاثرة وترسم السور حول

البيوت والأشجار وترسم مئذنة الجامع العمري المستطيلة وهي تطّل عالية فوق باب الحارة المرصع بالحدائد. رسمت غيوماً تتباعد كالأغنام في السماء. ورسمت أسراب الحمام التي يحبّها عمها الأبيض الشعر صانع الصنانير. ورسمت في الزاوية العالية اليسرى شمساً شارقة مدوّرة كوجه أمها عائشة وقد سالت منها خيوط الحبر المصنوع من جوزة العفص تماماً كما تسيل الأشعة الشمسية.

مرض عبد الفتاح. عائشة تُحصن البيت ضد الانفلونزا بكوانين الجمر والشوربة الساخنة ومغلي الزهورات واليانسون والكينا. تمنع فتح الباب إلا مواربة خوفاً من رياح الشتاء. تُدثر الأولاد بالصوف. ومع هذا مرض عبد الفتاح. دام مرضه ثلاثة أيام ثم شفي. شكرت عائشة ربّها. أثناء الشتاء الفائت، عندما كان الحاج طريح الفراش وبكرها الغائب عن البلد يملأ شعرها شيباً، أثناء شتاء 1860-1861 عصفت الانفلونزا ببيروت، هزّت القشلاق على الهضبة، وملأت خيم الفرنسيس في حرج الصنوبر سعالاً. الفرنسيون قطعوا الصنوبرات حطباً. ماذا يحمي بيروت من الرمل ونصف الحرج قُطع حطباً؟ حظنا حلو أن أبناء باريز الملاعين فكوا خيمهم وضبّوا أغراضهم ورحلوا. نزلوا سنة في البلد، وفي سنة واحدة قطعوا نصف حرج الصنوبر. لو أقاموا شتاء ثانياً بيننا كنا اليوم بلا صنوبر. الحاج خالد الفاخوري يشن هجماته اللفظية على الفرنسيس وهو يلفّ تبغاً. إذا انتهى من ترتيب لفافته انتظر قليلاً قبل أن يُشعلها. بعد سنوات طويلة، في 1876 أو 1877، وعقب هجوم مشابه على الفرنسيس، أشعل لفافة تبغ وأخذ منها نفساً واحداً ثم مات بالسكتة القلبية.

عبد الفتاح خرج من المرض إلى بيت عمته زهرة. موسى

نقوزي، ابن عمته الصغير، رفيق أيامه. لا يفترقان إلا لضرورة. عبد الفتاح لا يهوى القراءة والكتابة. ولا يهوى الدروس. ولا يهوى القعود في حارة القرميد. كان من قبل يقضي أوقاته في «دار الصايغ»، يلعب مع أولاد عماته. لكن الدار باتت شبه مهجورة.

سرقت الإسكندرية من الخواجه نصر الله الصايغ أخويه. سرقت إبراهيم وسرقت بطرس. الخواجه نصر الله يلعن الساعة التي أرسل فيها أخاه إبراهيم إلى عمومته في مصر. كانت الخطة أن يضاعف تجارته فإذا بنصف تجارته يغادر إلى الإسكندرية! لعن الخواجه نصر الله الإسكندرية وساعتها. ولعن نرجس البارودي. قال لزوجته ياسمينة إن المصيبة كلّها من رأس أختها الحيّة. سمّاها «الحيّة» وياسمينة اخضرَّ لونها وارتعشت أناملها. خافت منه عندما رأت رجفة فكّه. الأسنان ارتجفت في فم الخواجه نصر الله عندما أعلمه أخوه إبراهيم أنه مسافر بعائلته إلى الإسكندرية بلا رجعة. وكأن هذه المصيبة لا تكفيه ها هو بطرس يأخذ سوسن ويأخذ أيوب ـ دعامة خان الصايغ ـ ويركب البحر أيضاً. ومن بقي لك يا خواجه نصر الله؟ الصبي البكر مات صغيراً. وابنك اسطفان نصف أبله. وبناتك ليسوا رجالاً. من بقي لك؟

كان ينتظر المساء ومائدة العشاء وكأس النبيذ والبهو المعجوق بالأصوات والضحكات. ياسمينة تدق على البيانو الإنكليزي وسوسن تغني والأولاد يرتلون. كان ينتظر المساء والطعام تسكبه سوسن في الأطباق الزجاج الواسعة الفرنسية. ينظر الآن إلى طقوم البورسلين والفضة، ينظر إلى المرايا المبروزة والكنبات المخمل، فيحزن. لماذا ذهب بطرس ولماذا ذهب إبراهيم؟ قال في نفسه مرة تلو أخرى

لن يذهبا. قال أبي من قبلهما، الرب يرحم أبي، من قبلهما أراد أن يقطع البحر إلى الإسكندرية، وأمي صلّت من أجل أن يبقى، وأبي لم يذهب. قال لن يذهبا. أخطأ.

سمعان الصايغ لم يذهب إلى الإسكندرية. زوجته صلّت أمام أيقونة السيدة العذراء فجاء إليه في متجره في البازركان شريكان أحدهما عبد الجواد أحمد البارودي. في ذلك الزمن البعيد كان عبد الرحيم طفلاً يرضع ثدي أمه صفية. كيف تعبر الأعوام على المدن والبشر؟ الخواجه نصر الله الصايغ لن تكسر ظهره هذه المصيبة. أعطى أخويه حصتهما من الخان. أخرج الذهب من القرعات المدفونة تحت التخت الكبير حيث يفترش ياسمينة كل ليلة، ووزع العثمليات بالتساوي على بطرس وإبراهيم. سوسن وقفت في الباب دامعة العين وهو نظر بطرف العين إليها. لا يعرف على فراق من يحزن أكثر، على فراق أخويه أم على فراق أم أيوب. إذا تكلم أكملت سوسن جملته. وهو قاعد في الخان يشتاق إلى ضحكتها. أيوب، ساعده الأيمن، يحكي مثلها. ذكي، سريع الفهم، صاحب دعابة. ياسمينة قالت له مرةً ـ في لحظة غضب أسود ـ كان عليك أن تتزوجها. سكت. لم يردّ عليها. والآن راحت سوسن . حزموا ثيابهم وركبوا البحر. كل الحق على الحيّة. كل الحق على نرجس، تلعب بعقل إبراهيم لعباً. جعلته يبني بيتاً وراء الدار. وعندما رأت أن هذا لن يفصله عن العائلة أخذته إلى وراء البحر. البحر سيفصله عن خان الصايغ. البحر سيفصله عن الدار الزاهرة.

صارت الدار كأنها مهجورة. كل هذا الصخب يفور في سوق الفرنج، كل هذه المتاجر والبيوت تتكاثر، ودار الصايغ انقلبت قبراً! كأن الدار لم تعد بيته. يتأخر في الخان. ويهبط الليل فلا يرجع.

تهدَّل شاربه. حتى صوته تغير. ياسمينة لا تملأ عليه هذه الدار الكبيرة. ولا البنات. ولا اسطفان ، هذا الولد نصف أبله.

سوق الفرنج امتلأ بتجار دمشق. تشعب السوق وخرجت منه أسواق جديدة. الخواجه نصر الله يعجز عن عدّ هذه الدكاكين التي تفرخ كالأرانب. كلما عاد عند المساء إلى بيته وجد ورشة جديدة. دكاكين يوسف الجميّل أحاطتها دكاكين العائلات الدمشقية. من خان أنطون بك إلى باب ادريس تتراصف الدكاكين مثل صف العسكر. متى خرجت هذه الدكاكين من بطن الأرض؟ البلد تزدهر وبطرس يأخذ عائلته إلى وراء البحر وإبراهيم أيضاً يرحل! معقول؟ لا يفهم كيف لعبت نرجس بعقل إبراهيم. ولا يستوعب كيف قبلت سوسن قرار بطرس. ماذا يصنع الآن وحده؟ يذكر موت أبيه ويذكر موت أمه. أبوه مات مطعوناً في أورشليم، أحرقوه هناك، أحرقه غرباء، لم تُدفن عظامه. أمه ماتت على فرشتها. لم تمت بالطاعون. ماتت وهي نائمة. يذكر عندما مات أبوه. يذكر أنهم جلسوا في البيت وأغلقوا الشبابيك. يذكر بكاء إبراهيم ويذكر بكاء بطرس. شال العائلة على ظهره. حمل الحمل الثقيل ولم ينكسر ظهره. ماذا يصنع الآن وحده؟ ينظر إلى عائلات تبني متاجر، تبني بيوتاً، ولا يدري ماذا يفعل. بولس عيساوي لحق به ثلاثة إخوة. بنوا متاجر جنب المتجر الذي اشتراه. وبنوا بيوتاً في سهلات البرج. بولس عيساوي كبيرهم. قال لهم ابنوا في السهلات، هنا زحمة وضجة. وغداً ستزيد الزحمة. وغداً ستزيد الضجة. الأخ الكبير قال كلمته، والأخوة فعلوا كما تكلم. نصر الله الصايغ نظر إلى متاجر تتكاثر في سوق الفرنج وسوق الجميّل فشعر بضبابٍ رطبٍ يغمر عينيه ويغمر وجهه. كانت الدكاكين تنفصل كالخيوط عن بعضها، ثم تجتمع، ثم

تنفصل مرة أخرى. تساقط مطرٌ غزيرٌ ثم هبّت الريح وأبعدت حبال المطر. انقشعت الغيوم. وبانت الشمس. وبان قوس قزح، بطرفٍ غارق في البحر وطرف يلمس سطوح البلد. نصر الله الصايغ لن تكسر ظهره هذه المصيبة. زوَّج ابنته الكبرى (هيلانة) لجرجس دبّانة ابن قسطنطين دبّانة وجعله شريكاً في «خان الصايغ». ليس شريكاً تماماً. لكنه يلازمه. وغداً قد يصبح شريكاً. جرجس دبّانة النازح مع أهله من حي النصارى في دمشق لن يصمد في بيروت طويلاً. لكن نصر الله الصايغ لا يقرأ المستقبل ولا يعرف ماذا تخفي الأعوام له، لزوجته، لأولاده، ولأصهاره. جرجس دبّانة صهر أول. خليل باسيليوس هو الصهر الثاني. قصته آتية بعد فصل.

هذه عائلات نزحت من دمشق إلى بيروت بعد مذبحة الأيام السبعة: نقّاش، أورفللي، عيساوي، قساطلي، شامي، حوراني، كسّاب، خوري، كحلا، لوقا، رزق الله، نحّاس، فرح، قصيري، دبّانة، عبود، صوصة، أيوب، رباط، جبرائيل، عبد الأحد، مرشاق، صابات، حموي، أحوش، اسطفان، دبّاس، بولاد، شنيارة، بهيت، زنانيري، طهبوب، توما، طاسو، حلبي، أنسطاسي، آغيا.

آل باسيليوس نزحوا إلى بيروت من دير القمر. بنوا بيوتاً في الصيفي والسهلات. آل مشاقة بنوا لصقهم. آل تابت وباز أيضاً. هذه العائلات الديرية بنت بين الصيفي والسهلات سوقاً كاملة ببيوت تعلو المتاجر، سوقاً تكرر سوقاً محروقة مهجورة في البلدة الأم في الجبل. فؤاد باشا والجنرال بوفور أجبرا الدروز على دفع تعويضات. جبرائيل مشاقة فتح بالتعويض دكاناً صغيراً في بيروت. لن يرجع إلى دير القمر. أبوه احترق بيته سنة الـ 45 ورجع وبنى بيته. هو لن

يرجع. وحده الحمار يسير على الطريق الغلط مرتين. لن يرجع. سيبقى في بيروت، قال.

محمد الفاخوري رأى من نافذة بيته بساتين التوت حول «خان التوتة» تُقطع وتندثر. النازحون ليسوا كلهم فقراء. بينهم تجار يُثقل زنانيرهم الذهب. طنوس صوصه غرق في الزبداني. قالوا غرق في النهر لأنه نزل من دون أن يفك الزنار ويرفعه فوق رأسه. ليسوا فقراء كلّهم. اشتروا بالذهب هذه البساتين وقطعوا شجرها وبدأوا يبنون. هذه حمّى تعمير. لا سنة الـ 40 كانت حقاً حمّى، ولا «سنة السهلات». هذه حمّى تعمير. الغبار يملأ النافذة والحمير تحمل الأشجار المقطوعة إلى طرف السهلات حيث يقطعها ابن حنينة حطباً. من هنا ـ من نافذة البيت جنب زاوية أبي النصر ـ يرى محمد الفاخوري العرق يلمع على عضلات ابن حنينة. يرى برقة الشمس على فأسه. يرى الأشجار تتكسر. يرى كومة الحطب ترتفع، أعلى فأعلى. وراء أكوام الحطب، وراء أهرام التوت، يرى ورشة أخرى. صبّيرات طراد أزالتها معاول الشركة الفرنساوية. سيبنون هناك اصطبلات لخيولهم. أبوه أخبره. تلك ورشة بعيدة الضجة لا تضايقه. والصبّير صبّير. لكنه يأسف لضياع هذه التوتات. يذكر السهلات وهو صغير، قبل أن يُبنى خان عبد الرحيم، قبل أن يأتي أهالي حلب والدير، يذكر السهلات في زمن الطفولة. كان يلعب هنا مع أبناء أعمامه، وشاهين ابن خالته كان يسبق الجميع إلى أعلى التوتة. كم ركضوا بين هذه الأشجار، وكم تسلقوها. ها هي تتساقط! سهلات عريضة كثيرة الأشجار تمتد من البحر حتى تلّة الكراوية ورأس النبع. يذكرها في زمن الطفولة، تعجّ بقاطفات الورق في موسم القزّ. يذكر حين تسلق مع شاهين سور البلد. وقفا على

برج الحراسة ونظرا إلى بحر التوت الأخضر يترامى تحت السور حتى يبلغ سروات الصيفي التي لا تُعد. السروات احترقت بالقصف الانكليزي. والتوتات يقطعون اليوم ما بقي منها. كيف مضى الوقت؟ قبل سنوات، عندما بدأت آلام رقبته وظهره، لاحظ أمراً غريباً: لاحظ أن توت السهلات ينحني في اتجاه واحدٍ، ينحني صوب الجنوب، صوب الكراوية ورأس النبع. لم ينتبه إلى انحناء التوتات إلا عندما بدأت رقبته توجعه. هواء الشمال (هواء البحر) يُرسل هذا الألم في جسمه، يطوي هذه التوتات. وحدها الأشجار التي يحجب عنها «خان التوتة» هواء الشمال، وحدها هذه التوتات التي تُقطع الآن، لم تكن محنية. احتطبوها بالفؤوس، تساقطت أمام عينيه، والورق الأخضر تطاير منها وملأ فضاء الربيع الأزرق. ردَّ النافذة وتراجع إلى أعماق البيت. داخل البيت صفعه البرد وصفعته الرطوبة. الغرفة الجوّانية فظيعة الرطوبة. حيطان البيت متداخلة بأطلال السور. كان من قبل ينام في الغرفة الجوّانية. ثم جرّ فراشه إلى الغرفة البرّانية حيث يستقبل الأقارب والزوار وصار ينام فيها. عائشة هانم أم أولاده لا ترضى أن تنام في الغرفة البرّانية. إذا طلبها يدخل الغرفة القائمة في بطن السور. مع أنها باردة. حرارة الشمس لا تخترق الحيطان السميكة. الحائط سماكته متران أو ثلاثة. أبوه قال هذه الحيطان المزدوجة بناها أحمد باشا الجزّار، بناها ليصدّ هجمات الأمير يوسف شهاب عن بيروت، ما كان الجزار يدري أنه يبني غرفة نوم لعائشة هانم. الحاج محي الدين الاسطمبولي يذكر عائشة هانم بنتاً صغيرة، هو زوّج ابنه هذه الهانم الاسطمبولية. في «دار السعادة» زوَّجه، في «تخت السلطنة». أبناء محمد الفاخوري يمنعون عنه أحزانه وآلامه. والصلاة تمنع أحزانه وآلامه. رمى الجبّة

على كتفيه ونزل الدرجات من فوق أطلال السور إلى الجامع. الفوّال القاعد أمام الموقد تحت الدرج قام واقفاً وألقى عليه السلام. كان يقشر بصلاً. فاحت رائحة الفول المسلوق وغمرت الشيخ محمد الفاخوري بالحرارة. نسي التوتات التي تتساقط وأكل صحن الفول واقفاً. الخبز ساخن. البخار يتصاعد كثيفاً من جوانب الغطاء الذي يهتز فوق القدر المسودة. الرجل يقطع الخبز من أجله وهو يغرف اللقمات الكبيرة مغمسة بالزيت. يأكل بيده الواحدة ويشكر ربّه على النعمة.

ابنه مصطفى رُزِق ابناً سمّاه محمد وبنتاً سمّاها زهية. ابنه عبد الله رُزِق ابناً سمّاه محي الدين. الحاج عبد الرحيم قال له «صرت جداً وصاحب قبيلة». فعلاً صرتُ جدّاً، فكر محمد الفاخوري. وضحك وجهه.

مشى تحت أشعة الشمس فنزلت الحرارة في كتفيه وتلاشت إبر البرد. انطفأت آلامه. سار صوب الجامع ناظراً إلى دكاكين وبضائع وناس. مشى بين صبية يتراكضون، مشى غارقاً في صلاته. بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

بينما يتلو الفاتحة في قلبه، بينما شفتاه تتحركان بلا صوت، نظر محمد الفاخوري إلى زحمة الأسواق ولم يرَ الزحمة. كأن جسمه يتحرك في مكان بعيد. كأنه ليس هنا. بائع السحلب ألقى عليه السلام متهلل الوجه. وهو ردَّ التحية من دون أن يقطع صلاته. هذا موسوي (يهودي) دمشقي جاء البلد قبل الشتاء. اسمه يعقوب ديشي، يعمل السحلب طيباً، شديد الحلاوة، ويبيع مع السحلب كعكاً شامياً

لم يذق مثله من قبل. أخبروه أن آل ديشي حواة ثعابين مهرة. أحدهم يُدعى إسحاق يجمع الثعابين في بيته وراء حارة النصارى ولا أحد يزوره. إذا جاع فتح باب بيته وترك الثعابين تتسرب إلى بيوت جيرانه. عندئذٍ يدفعون له ذهباً لإخراج الثعابين من البيوت. يعقوب ديشي بائع السحلب يخاف من الثعابين. وهو صغير عضّته حيّة في زنده وأوشك أن يموت. لكنه نجا. قال إنه هرب من دمشق بسبب أقاربه. لم يهرب من أعداء. هرب من أقارب. إبراهيم كسّاب قال ان يعقوب ديشي آدمي. أثناء مذبحة الأيام السبعة خبأ نساء آل كسّاب مع الأولاد في بيته. يعقوب ديشي خبأ نصارى لكن أقاربه سرقوا بيوتهم. هذا عجيب. يعقوب آدمي. وسعيد آغا النوري آدمي. هذا الشيخ المسلم صاحب البيت بالقناطر في حي الميدان خبّأ في القبو أكثر من ثلاثين عائلة. عمر العابد ـ شيخ الصالحية ـ أنقذ آل صابات. ألبس النساء النصرانيات ثياب المسلمات، وأخرجهن تحت جنح الظلام من داره إلى دار الأمير عبد القادر إلى سراي دمشق. نظلة صابات ستظل تروي لأحفادها وحفيداتها أخبار تلك الليلة السوداء وكيف أخذهن التقي عمر العابد عبر الحرائق وجهنم الوجوه والأصوات والفؤوس والجثث، من حارة النصارى إلى برّ الأمان. نظلة صابات ابنة العشر سنوات نجت من «مذبحة الستين» وماتت ميتة ربّها في بيتٍ يطلّ على ساحة الشوام في الاسكندرية بعد سبعين عاماً.

إبراهيم كسّاب استأجر بيتاً يجاور بيت محمد الفاخوري وفتح دكاناً لبيع الأصواف والحرائر. اشتهر في سوق أبي النصر بلسانه الدافئ وابتسامته الصادقة. كان ينظر إلى الناس فيرى فيهم أفضل خصالهم ويبعد الخصال الباقية من أمام وجهه كمن يزيح دخاناً. لم

يصدق وهو على الطريق هارباً من دمشق إلى بيروت أنه نجا. لم ينجُ وحده. نجا بزوجته وأولاده الثلاثة. والقسم الأكبر من أهله نجا أيضاً. هذه النجاة ضاعفت إيمانه. إبراهيم كسّاب لن يقول لأحد أنه من قبل لم يكن حقاً مؤمناً. بلى، كان يذهب إلى القدّاس، وفي الفصح يشعل شمعة تحت أيقونة السيدة. كلّما صلّى أشعل شمعة. لكن بلا إيمان. أمه علّمته. وكان يُقلدها. لكنه لم يؤمن إلا على طريق الشام ناجياً من المذبحة.

هرب من نافذة البيت الذي يحترق، ونجا. كيف حفظه الربّ؟ الشيخ سعيد آغا النوري آدمي، بلى، يشهد له، لكنه رأى أقارب الشيخ، رأى جاره في السوق، رأى الشيخ حسن النوري يقود رجالاً ويشعل حرائق ويقوص على ناس يهربون من الحرائق. بعينيه رأى الشيخ حسن يلقط ولداً عن الطريق، أمام سبيل الماء، ويقذفه في القناة. هرب لابساً ثوب امرأة، يلف وجهه بشال صوف، ويقفز من ظل حائط إلى ظل قنطرة. كيف حفظه الربّ؟ القمر كان ينير البلد. والنار كانت تنير البلد. لماذا القمر في هذه الليلة؟ لماذا هذه العين الصفراء الساهرة؟ لو غطّت الغيوم القمر في تلك الليلة، لو حجبت الضوء عن الناس الهاربين في الأزقة! كيف حفظه الربّ؟ مرّ أمام رعاع ولم يستطع أن يختفي من أمامهم. باغتوه وهو يقطع زقاقاً مظلماً. خرجوا فجأة من وراء زاوية ولولا أنه تجمد حيث هو كانوا ارتطموا به وأسقطوه. نظروا إليه. رأى العيون المحتقنة تنظر إليه. رأى الأسنان السوداء. رأى السيوف تقطر دماً. رأى الأحمر على قمصانهم. نظروا إليه لابساً كالنساء والشال سقط عن رأسه وعن وجهه. نظروا إليه ثم تابعوا الركض. لم يروه. كان أمامهم، يبعد عنهم خطوة وأنفاسهم الفظيعة تلفح وجهه. نظروا إليه ولم يروه.

كيف حفظه الربّ؟ كيف أحاطه بالعتمة وأخرجه من فم الموت؟ إبراهيم كسّاب وجد زوجته وأولاده ينتظرونه في القبو تحت بيت جاره. دار دورة واسعة قبل أن يبلغ بيت جاره. الطريق القصيرة سدّتها الشفرات والجثث. رأى بين القتلى جرحى يزحفون على الأرض ويصرخون طالبين الرحمة. في الطريق من دمشق إلى بيروت صلّى صلاة حارةً للمرة الأولى في حياته. صلّى طالباً من الربّ يسوع المسيح أن يمحو من قلبه كل تلك الصور السوداء. صلى من أجل النسيان. لن يرجع أبداً إلى بيته القديم ودكانه القديم. لن يتكلم بالسوء على أحد في المقابل. الربّ حفظه. أقام إبراهيم كسّاب في بيروت ولم يندم. ابنه متى الملقب بالنعسان اشتغل بالصيرفة ومسك الدفاتر عند آل بسترس.

الحاج البارودي انكبَّ على دفاتر الخان واقعاً في حيرة. ليست الأرقام ما يحيره. أمس زاره الحاج عبد الله بيهُم وطلب يد ابنته صفية. طلبها لولده عثمان تاجر الجلود المدبوغة. الحاج عبد الله صيته عطر. لكن عثمان صيته ليس عطراً. الحاج عبد الرحيم البارودي ينظر إلى الأرقام، ينظر إلى الخطوط وعلامات الجمع والطرح ولا يعرف ماذا يفعل. صفية أعز بناته على قلبه. كيف يعطيها لعثمان بيهُم؟ الكارثة أن الطالب هو الحاج عبد الله. نصف قوافل الشام التي تأتي إلى «خان التوتة» صاحبها الحاج عبد الله. كيف يهرب من هذا الطلب الثقيل؟ كيف ينجو؟ صفية قطعة من جسمه، كيف يُعطيها لعثمان بيهُم؟

ترك الخان مظلم العينين وقطع الطريق إلى باب السراي. طارده متسول من باب السراي إلى تقاطع العطارين مع سوق الفشخة.

أعطاه ما في جيبه من قروش ودخل إلى الجامع العمري. جلس عند المحراب. جلس تحت النافذة، مجلس أبيه القديم، ونظر إلى الرسوم على السجادة. كيف ينجو من هذه الورطة؟ قام إلى البركة وتوضأ وعاد إلى السجادة ذاتها. سجادة مربعة حمراء اللون عليها رسوم أوراق بالأخضر. يعرف كيف يخيطون هذا السجاد. طالما تأملهم يخيطون سجاداً. الخيط الأحمر والخيط الأخضر ولُحمة الخيطين الخفية والورقة التي تخرج من ورقة. نظر إلى السجادة. وانتظر حتى يهدأ الدم في جسمه. ثم قام وصلّى. سجد ركعتين ونظر إلى جهة الباب ونظر إلى جهة النافذة. رأى ناساً يعبرون تحت قناطر العطارين ورأى شجرة الرمان تلمع بالورق الأخضر في إطار النافذة. رأى الناس ولم يرَ الناس. رأى شجرة الرمان ولم يرَها. كان يضيع بين ضوء وظلمة. تضايق أنه يصلي مضطرب الخواطر هكذا. انتظر فلم يتراجع جيشان العاطفة. كيف يُعطي صفية لعثمان بيهُم؟ بعد الصلاة بحث بعينيه عن إمام الجامع. مرة أخرى لا يعثر عليه. أراد أن يسأله عن صحته، عن حاله. لم يعثر عليه. كيف يُعطي صفية لهذا الرجل؟ لكن كيف يقول للحاج عبد الله أنه لن يُعطي البنت لابنه؟ ما هذه المصيبة؟ من يساعده في هذه الورطة؟

أخته زهرة أنقذته. لم يتوقع أن تنقذه هذه الأرملة من ورطة. خرج من الجامع أشد اضطراباً مما كان عليه قبل دخوله. قطع سوق الفشخة مبعداً المتسول نفسه من طريقه. ودفع باب الحارة. تقدم على «الطريق البيضاء» إلى عائشة. يعلم أن عائشة لن تنجده. لكنه مع هذا ذاهب إليها. سيقول لعائشة. لن يقول الآن لصفية. سيخبر عائشة. والله يساعده على عائشة. بعد ذلك سيخبر صفية. الله يساعده. كان ماشياً على «الطريق البيضاء» رِجلاً إلى قدام رِجلاً إلى

وراء عندما رأى أخته زهرة خارجة من تحت القنطرة البيضاء تحمل سلاً.

سألها عن أحوالها. اقتربت منه وحضنته وباست كتفه. ارتبك أمام هذه العاطفة. ثم سمعها تسأله ماذا جرى، لماذا وجهه مغتم هكذا؟

فاجأه أن ترى الهمّ في وجهه. وفاجأه سؤالها. تردّد تحت شجرة التوت، تردّد لا يدري ماذا يقول، ثم ـ بلا انتباه ـ تكلم. قال إنه متضايق لأن أحد أصحابه يريد صفية زوجة لابنه، صاحبه آدمي وابن صاحبه آدمي، لكن صفية العزيزة لا تريد أن تخرج من بيت أبيها، وهو واقع في الهمّ.

زهرة البارودي نقوزي سألته لماذا الهمّ، إذا كانت البنت تطلب البقاء وقتاً أطول في بيت أبيها، إذا كانت صفية متعلقة به وبأمها وبأخواتها فليس أسهل من أن يأتي هذا الرجل ويعيش هنا، داخل السور، تتزوجه وتبقى جنب أهلها.

عبد الرحيم هزّ رأسه ولم يقل شيئاً. أخته الأرملة نظرت إلى وجهه فأيقنت أنه يخبرها نصف الحكاية. سألته من صاحبه. سألته لماذا لا يقول لصاحبه أن البنت ليست تحت النصيب الآن. سألته لماذا لا يقول للرجل «لا» وينهي المسألة. البنت بنته وهو حرّ فيها.

قال عبد الرحيم إن القصة صعبة، ليست سهلة.

زهرة أصرّت عليه، سألته ثانية عن الرجل الذي يطلبها.

قال عثمان بيهُم ابن الحاج عبد الله.

زهرة نقلت السلّ الثقيل من يد إلى أخرى ثم لفظت كلماتها على مهل:

ـ قلْ له أن يأخذ ابنتي بهيجة.

بنى عثمان بيهُم على بهيجة نقوزي في ذلك الربيع و أنزلها في بيت يجاور البازركان. أواخر الشتاء، بينما الريح تُفرغ الدروب من البشر، وضعت بهيجة نقوزي بيهُم طفلاً ذكراً. الحاج عبد الرحيم تنفس عندئذٍ الصعداء. عثمان بيهُم طلَّق من قبل زوجتين. الزوجتان عجزتا عن منحه طفلاً.

في تلك الفترة ترك خالد نقوزي الشغل في المرفأ. إبراهيم سرسق احتكر تموين السفن بماء الشرب. ضيّق على خالد نقوزي فترك خالد المرفأ واشتغل بتجارة البعر على طريق الشركة. أخذ إذناً من الشركة الفرنسية وصار يجمع قاذورات الأحصنة والإبل والبغال ويبيعها للمزارعين في أكياس جنفيص. الشركة بحاجة إلى متعهد يُنظف الطريق. وخالد نقوزي التقط الفرصة: شغّل معه مهجرين وشغّل أخاه أحمد. أحمد لن يلبث أن يترك هذه المصلحة.

إبراهيم بك سرسق قال إنه يمنع فوضى الماء في المرفأ وينظمها لأن هؤلاء العفاريت الصبيان الذين نسميهم سقائين يعرقلون أعمال التجارة والتنزيل والتحميل، عدا أن قباطنة البوابير اشتكوا من يدهم الطويلة: يسرقون جيوب الخواجات ويسرقون أغراض البحارة. الحاج خالد الفاخوري سمع كلام ابن سرسق وظلّ ساكتاً منتظراً إلى أن رآه يُشغل الصبيان ذاتهم في نقل براميل الماء من الأرصفة إلى المراكب ومن المراكب إلى البوابير الراسية عند الصخور. عندئذٍ سأل الحاج الفاخوري إبراهيم بك على مسامع الخواجات التجار على رصيف خان أنطون بك ألا يعرقل هؤلاء الصبيان العفاريت أعمال التجارة والتنزيل والتحميل؟ إبراهيم سرسق لعب بحبّات المسبحة العنبر وقال «يا حرام، هؤلاء أبناء الفقراء المهجرين، علينا

إطعامهم». سُمي بعد ذلك «إبراهيم بك يا حرام».

خالد نقوزي ترك الميناء واشتغل بجمع البعر على طريق الشركة. أينما ترمي هذا الرجل الصغير يقع واقفاً على قدميه. أخوه أحمد اشتغل معه وقتاً قصيراً ثم كره القاذورات ورائحتها وغسل يديه من هذه المصلحة الوسخة. الأخ الأكبر خالد لم يُبدِ غضباً لكنه أنَّب أحمد بكلمات قليلة. أحمد قال أنه لن يقعد بلا شغل وذهب واشتغل في مخزن الحاج الاسطمبولي الجديد في ساحة عالسور (على السور).

الحاج الاسطمبولي خطط لبناء المخزن في هذه الأرض أسفل طلعة القشلاق وهو يدخن أرجيلة قاعداً مع ابن أبيلا على مصطبة بيته فوق باب يعقوب. عندما خطط لبناء المخزن كان الفرنسيس ينقلون خيمهم من هنا إلى حرج الصنوبر. بنى المخزن بعد تسعة شهور وهم يغادرون حرج الصنوبر عائدين إلى أوروبا. بنى المخزن على حافة الطريق الجديدة. وقال لحفيده عبد الله الفاخوري أن يرسل إليه ما يشويه: «كل ما تخبز من فخار أنا أبيعه لك، أرِنا نشاطك».

ازدهر الشغل على شط شوران. عبد الله الفاخوري يصل الليل بالنهار. لا يقطع البرّية عائداً إلى باب إدريس إلا ليلقي نظرة على الصغير وليأكل لقمة من يد زينب. إذا غشاها رأى بياض عينيها. يرفع جسمه فوقها فلا يؤذيها. بات كتلة من اللحم المتحجر، لونه محروق، وشعره يضرب إلى شقرة. حتى لون شعره احترق واقفاً على «الجورة». انتبه إلى لون أحمر ـ بنّي على كف زينب وهي تسكب في صحنه فاصوليا ورزّاً. سألها ما هذا اللون؟ قالت هذه حنّة. راقت له الفكرة وصار يجلب أباريق من الفرن إلى البيت وزينب ترسم عليها بالحنّة عروقاً.

أباريق عبد الله سميت «أباريق الأسطمبولي» لأنها تباع في مخازن جده في «ساحة عالسور». كثر ظنوا أن الحاج الكبير يستوردها من عاصمة السلطنة العثمانية. لم تكن من اسطمبول. صُنعت بين شط شوران وباب إدريس. الحاج عبد الرحيم البارودي أوصى قريبه عبد الله على أباريق وأطباق ونواعير وجرار. يطلب للخان ويطلب للبيت ويطلب للمطعم. يوسف منيمنة لا يلحق على الشواء. التجار الجدد الذين فتحوا وكالات في خان أنطون بك لا يطلبون شواء إلا من مطعم البارودي. مع أن المطعم في الجانب الآخر من المرفأ ومع أن حوانيت الشوائين اصطفت بين خان أنطون بك ومقبرة السنطية. هؤلاء التجار الجدد نصفهم من دمشق ودير القمر وجزين. يطلبون شواء من مطعم البارودي ردّاً للجميل. الحاج عبد الرحيم فتح «خان التوتة» لهم ولأهلهم عندما نزلوا البلد. جاؤوا مغبري الرؤوس - والدم ييبس على شعر الرأس - ففتح أمام وجوههم بوابة الخان الزرقاء الكبيرة. لن ينسوا جميله. لم يسدّ الباب. غيره سدّوا الباب. من باب الحشمة لا يطلبون الشواء إلا من مطعم البارودي. إذا أرادوا تبغاً اشتروا من عنده: الحاج يملك حانوتين لبيع التبغ. حانوت يجاور باب إدريس وحانوت يواجه كنيس اليهود.

ابن سلامة أصابه رمدٌ في عينيه. الأولاد يصابون بالرمد ويعمون. العميان كثر في بيروت. يشتغلون بصناعة السلال ويشتغلون بحياكة البسط والسجاجيد. سبحان الله. الرمد يُعمي العين لكن ربّنا سبحانه تعالى لا يترك فقيراً بلا حيلة. أصحاب الفواخير يُشغّلون العميان في «التخبيص». العميان كُثر في البلد، وبعضهم تراه يقرأ في المقابر أو تراه في الجوامع والكنائس قاعداً على الأرض يلقي الأدعية بيدٍ ممدودة. الرمد فظيع. أمراض العيون كثيرة. لكن ابن

سلامة ليس ولداً. مع هذا فقد بصره. والآن كيف يبيع تبغاً؟ ذهب ابن سلامة إلى بيته. وجاء حسين البارودي واستلم الدكان عند ساحة العصافير.

كبار السنّ ما زالوا يسمّون المكان «ساحة العصافير». عبد الغني البارودي سمع قاعداً في البازركان قصصاً كثيرة عن أحوال البلد القديم. كبار السنّ أخبروه عن أشجار كثيرة كانت تُعلق من أغصانها أقفاص الطيور قبالة قناطر مار جرجس. أخبروه أمراً عجيباً: قبل أن يُولد كانت للبلد أبواب تُقفل بالمفتاح ساعة المساء فيُمنع الخروج والدخول. وصفوا له مكاناً لم يُصدق أنه بيروت! قالوا بين دكان التبغ الذي يملكه أبوك جنب حارة اليهود وبين طلعة الدركاه كانت توجد غابة من أشجار التوت والمقسيس. قالوا كان السور بعلو سبعة أمتار يلفّ بيوت البلد كلّها كالإسوارة، وعند غروب الشمس وراء السور تسود الظلمة في الدروب ولا يعود الواحد يرى إصبعه أمام وجهه. قالوا لم يكن أحد يجرؤ أن يبني بيتاً خارج السور. قالوا عندما فتح جدك أبو شاهين حانوت الشواء في باب المرفأ لم يكن يوجد هناك دكاكين.

عبد الغني ملأته هذه الأخبار دهشة. أبوه عبد الرحيم فرح بفضوله. فرح بعينيه وكيف تتسعان عند سماع القصص. نظر إليه فتذكر نفسه. أخبره عن الطوفان الذي خرَّب المقابر وملأ طرقات البلد عظماً عندما هُدم السور. أخبره عن الزلزال الذي سبق قدوم المصريين. زلزال صدَّع حائط الجامع العمري فظهر في مكان الصدع الباب المطلّ على جامع السراي وعلى دهليز الحدادين القديم. أخبره عن سوق الفشخة قبل أن تُبلط وقبل أن تزدحم هكذا بالدكاكين. أخبره عن الوحول التي كانت تنحدر كالسيول في سوق القطن وتتدفق

فوق عتبات البيوت. أخبره عن الكرنتينا. «عمك شاهين الله يرحمه اشتغل في بناء الكرنتينا وبعد ذلك ملأت السفن المرفأ». أخبره عن الحارة قبل تسويرها. أخبره عن الحارة قبل أن تتكاثر البيوت على حافة «الطريق البيضاء». أخبره عن زمنٍ قديم. وشعر وهو يخبره عن الزمن القديم بالأعوام تتراكم في جسمه، وتذكر يوم ركب حصان أبيه وقطع التلال إلى بحرصاف كي يدفن أخاه.

عبد الفتاح لا يبالي بهذه الأخبار. ليس عبد الغني. هذا الصبي لا يقعد لحظة. إذا جاء الليل يرتمي على الفرشة وينام كالدبّ. كل النهار يركض ويقفز ويلعب. لا يُرى إلا مع موسى نقوزي ابن عمته زهرة. أدخله كتاب الشيخ الصافي ليتعلم القراءة والكتابة فأهلكه وهو يهرب من الكتاب. قال للشيخ «أدّبه، اللحم لك والعظم لي». تعلم القليل، وحفظ جدول الضرب. أخته حوراء علّمته أن يحفظ جدول الضرب وهو يقفز على الحبل. لا يقعد لحظة. ما زال قصيراً، طري الجلد، أملس الخدين. لم يكبر بعد. عائشة تحميه. الحاج عبد الرحيم أراد أن يأخذه إلى الخان. لكن عائشة رجته أن يتركه في البيت، ما زال صغيراً. تركه ولم يقل شيئاً. ماذا يقول؟ عبد الفتاح فعلاً ما زال صغيراً. يراه يأكل «اللزيقيات» بالعسل مع ابن زهرة فيموت ضحكاً. يتسابقان على الفطائر، والعسل يلصق بالأصابع ويلصق بالقميص. رآه على سطح الغرفة فوق البيت بالقنطرة الحجر فنبَّه عليه ألا يطلع إلى السطح. «أخوك حسين وهو ولد كسر رجله، وقع عن السطح». عبد الفتاح ظنَّ أن أباه يضحك عليه: حسين صار أعرج بعد رجوعه من الحرب. قبل الحرب ـ قبل أن يحبسه الجنود خطأً في دمشق ـ لم يكن يعرج.

سعدية الحصّ البارودي (أم هند) ترى خروج الرجال من الحارة كل صباح وترى رجوعهم إلى الحارة كل مساء. تنظر إلى حسين البارودي خارجاً من باب البيت عند شجرة الجميز فتتذكر المرحوم. لا تعرف لماذا تتذكر المرحوم عبد الجواد. إذا نظرت إلى عبد الرحيم لا يُذكرها بالمرحوم. مع أن الحاج الطيب الكريم ابنه من لحمه ودمه. عبد الرحيم لا يّذكرها بعبد الجواد. مع أنه يلبس مثله ويُصلي في الجامع العمري مثله ويدخن الأرجيلة والتبغ مثله، لا يُذكرها بأبيه. لكن هذا الحفيد، هذا الحسين الذي رجع إلى الحارة أكبر من سنواته، يُذكرها بعبد الجواد. لا تعرف السبب. ولعل السبب نزوله في البيت عند الجميزة. مع أنها جاءت إلى الحارة في سنوات المرحوم الأخيرة. ومع أنها رأت المرحوم يخرج من بيت أم زهرة عند التوتة أكثر مما رأته يخرج من بيت أولاده عند الجميزة. كانت تتضايق عندما يبيت المرحوم خارج فراشها. تتضايق وتتمنى لو تمرض المرأة الكبيرة البيضاء. كم مرة دعت عليها، وكم مرة سألت ربّها وهي ـ نصف نائمة نصف مستيقظة ـ أن يرسل حيّة رقطاء إلى ذلك البيت. لماذا تربط المرحوم ببيت الجميزة؟ حتى في مناماتها اعتادت قبل سنين أن تراه قاعداً تحت الجميزة يشرب الزهورات. مع أنها جاءت إلى الحارة بعد موت زوجته الأولى أم أولاده الذكور الثلاثة. أم شاهين وعبد الرحيم وعمر ماتت مسلولة. سمعت أنها كانت تبصق قطع لحم من فمها وهي تموت. تقطّع جسمها بالسلّ. لم تكن هنا عندما أخرجوا المرأة محمولة من بيت الجميزة إلى المقبرة. لم يكن المرحوم أخذها زوجة بعد.

كم كانت تخافه في البداية! لا تنسى أنها كانت تخاف منه. كان عظيم المقدرة، شديد النهم. ثم رأته يفقد شهيته ويفقد رغباته. وقع

أمام عينيها، ولم تستوعب ماذا حدث وكيف حدث ما حدث إلا عندما رأته مطروحاً تحت التوتة وذراعه الواحدة مطوية تحت بطنه والدجاج ينقر التراب عند عينيه.

كانت حبلى. وكانت ـ قبل أن يموت ـ تنام خائفة أن يجيء إليها في نصف الليل. تتضايق إذا بات خارج فراشها وتخاف إذا جاء إليها في الليل! عندما ماتت الجارية الشركسية وهي تلد توأمين ميتين بكت سعدية.

كم كانت تخافه في البداية! لا تنسى أنها كانت تخاف منه. مع أن سنوات كثيرة عبرت عليها وهو راقد تحت التراب. مات وهي حبلى. خافت أن يُبعدها أولاده عن البيت. لم يبعدها أحد. بل العكس. هذا الطيب عبد الرحيم عاملها كما لا تعامل زوجة أب أبداً. أكرمها، الله يكرمه. صحيح أنها لم تُقصّر معه. وصحيح أنها تخدمه بعينيها، ومنذ زمن بعيد تطبخ اليخاني والمحاشي لمطعمه، لكن فضله على رأسها. ولن تنسى فضله. يكفي أنه سترها ولم يُفرّط بأخواته. طال قعودهن في البيت ولم يقل كلمة واحدة. ثم بغتة، هجم النصيب. هند تزوجها سلمان قدورة، وفاطمة تزوجها رفعت الداعوق، وورد خرجت أخيراً من البيت إلى دار داعوقي أيضاً: هذا عبد القادر الداعوق قريب رفعت الداعوق وجاره. لم تفترق الأختان إلا وقتاً قصيراً. وها هي أم هند في البيت على حافة «طريق عبد الجواد» وحدها.

ترى خروج الرجال من الحارة كل صباح وترى رجوعهم إلى الحارة كل مساء. نومها ثقيل. لكنها تقوم قبل صياح الديكة. تقوم قبل الفجر وقبل أن يؤذن المؤذن. المؤذن القديم كان يقوم قبلها. كانت تسمعه يطقطق بالقبقاب الخشب على شرفة المئذنة العالية. قبل

أن يرفع الأذان بوقت تسمع طقطقة قبقابه. أذناها كبيرتان. أمها كانت تقول «مثل أذني الحمار». المرحوم نظر إليها مرة وهي تغرف يخنة اللوبياء من الطنجرة وتسكب في صحنه وقال شيئاً عن أذنها الكبيرة كالكفّ. لا تنسى تلك العبارة. وكلما طبخت يخنة اللوبياء تتذكر كلماته تلك ونبرة صوته. قال العبارة وابتسم. لم تره يبتسم كثيراً. مرّت السنوات عليها وما زالت تستغرب كيف ترجع إلى هذه الأشياء الصغيرة فتتذكرها كأنها حدثت قبل وقت قصير. تستغرب أن بناتها الثلاث كبرن وخرجن من الحارة وهي ما زالت عالقة في كلمات المرحوم عن أذنها الكبيرة كالكف! وقبل أيام كانت خارجة لتطوي غسيلاً منشوراً، ساعة الغروب، فتفاجأت بالرجل قاعداً تحت الجميزة يدخن أرجيلة وينظر إلى الأغصان. كأنه المرحوم. كما ترى المرحوم في مناماتها. لكن هذا حفيده. الله يفتحها في وجهه، قوّصوا عليه في دمشق، والآن يجرّ ساقه.

تراهم خارجين. وتراهم عائدين. وترى خروجاً بلا عودة. عائلة البستاني خرجت من الحارة. نزلت في الحارة زمناً قصيراً ثم خرجت. بيوت آل تامر فرغت من أهلها. تذكر عندما كان بيت جرجي تامر ينتصب وحده أبيض مربعاً بين الصبيرات. ثم قطعوا الصبّيرات وبنوا بيوتاً لأولاده. والآن ذهبوا. وفي بيوتهم نزلت عائلات تهجرت من بيوتها. لماذا يأتون إلى الحارة، هذا ما لا تعرفه. لكنهم يأتون. وابن النصولي ترك مخزن الفيالج يتداعى. يقولون أنه ورث المخزن عن أبيه وأنه لا يهتم بالمخزن ولا بالحرير. يقولون أنه صاحب أملاك في أماكن بعيدة. لا تدري ولا تهتم. لا يضايقها أن ينبت الوزّال والطيون في شبابيك المخزن القديم. ولا يضايقها وقوع حجارة من حيطانه. لكن تُضايقها قرقعة الحديد وراء

حائط الحارة. بيتها أقرب بيوت الحارة إلى سوق الحدادين. والحائط قصير هنا. ليس مرتفعاً كالحائط الذي يفصل الحارة عن سوق القطن. لو أن العكس هو الصحيح، فلا ضجة تجيء من سوق القطن! إذا تكلمت بهذه الشؤون أمام أحد، يحسبها عبيطة. أو يسألها لماذا أذنها كبيرة؟ سعدية الحصّ البارودي تقعد أمام بيتها، تنقر حبّات الكوسى والقرع والباذنجان وتُحدث نفسها. إذا لم تُحدث نفسها مع من تتحدث؟ إذا لم تتكلم مع نفسها يفقع قلبها. ضجة سوق الحدادين تؤنسها. غير صحيح أنها متضايقة. تشير إلى أحد الأولاد. الصغار يأتون إليها. تترك لهم جوزاً ولوزاً. دائماً عندها ما تُطعمهم. زبيب. تين ناشف. قطعة حلاوة.

هند ليست هنا. وورد ليست هنا. وفاطمة ليست هنا. مرّات يخطر في بالها أن تقطع طريق الكلس وأن تسير حتى الجوزة وتتكلم مع عمر. لكن ماذا تقول له؟ تراه يلف خيط الحرير على ذراعه وهو يرفع مرفقه ثم ينزل مرفقه، تراه يلّف الخيط ولا تعرف من يكون هذا الرجل. تعرف أنه عمر البارودي ابن المرحوم زوجها. تعرف أنه الإبن الثالث لصفية الفاخوري البارودي. تعرف أنه الفتى الضخم الجسم الذي طالما ضحك مع بناتها واقفاً هنا، في باب البيت، جنب جرن الماء. الجرن من الحجر المنحوت، ثابت هنا منذ نزلت في هذه الحارة. الجرن ضخم ثقيل كناووس لا أحد يجرّه. تذكر عمر قبل سنوات القُرم، واقفاً جنب الجرن ويده تلعب بالماء وبناتها يضحكن على شيء يحكيه. لا تعرف من جلب هذا الجرن إلى هنا. الجرن موجود قبل أن تجيء. وبعد أن تذهب، عندما تذهب، سيبقى هذا الجرن. لا يصلح لدقّ الكبّة هذا الجرن. جرن ضخم إذا سقط فيه طفل يغرق ويموت. كانت تخاف على فاطمة وهي صغيرة.

تغافلها وتزحف إلى خارج البيت. تقفز خلفها وهي تزعق بهند «أين أختك» فتراها هنا جنب الجرن، تحاول أن تتسلقه. أتعبتها فاطمة. البنات كبرن من دون أن تنتبه. كانت مشغولة بالطبخ والنفخ. كبرن وراء ظهرها وهي تذوق ملح الطبخة. والآن ترى هذا الرجل الأبيض الشعر قاعداً سحابة النهار تحت شجرة الجوز يُدخن لفافات تبغه كأنه يشعل غابة. تراه حاملاً القصبات التي قطعها متساوية الطول. وتراه يرصف القصبات على حائط الحارة. إذا دارت الشمس ينقل القصبات إلى حيث يقع نور الشمس. يُشمّس القصبات وأحياناً تراه يبرمها على نارٍ صغيرة. عنده سكاكين كثيرة. وتراه يشحذ السكين على حجر الجلخ. وترى شرراً يشرقط. لا تستوعب كيف يستطيع هذا الرجل أن يقضي نهاره كلّه تحت الجوزة. هي محبوسة هنا. هي ليست رجلاً. لكن هو من حبسه تحت هذه الجوزة؟

ترى الرجال يغادرون الحارة صباحاً. كانت هناك عائلة نزلت بعد المذابح في بيت سليم صعب وراء بيت الصياد الدرزي. عائلة كثيرة الأولاد، كثيرة النساء، لعلها أكثر من عائلة. كانوا ينامون في البيت، وخارج البيت، وعلى السطح أيضاً. البنات والنساء في الداخل، والصبيان والعجائز في الخارج. تذكر الصياد يعطيهم سمكاً. وتذكر امرأة تشكره. وتذكر امرأة تشيح بوجهها. كانوا إذا غسلوا الثياب ينشرونها وراء البيت فيتغطى حائط الحارة بالثياب الملونة. الحاج الطيب ابن المرحوم أرسل سنان الكوشي إليهم محملاً. عجنوا من طحين الحاج، وخبزوا على حطبه. الأولاد كانوا يزحمون «الطريق البيضاء» والدجاجات تفرفر والذيك يصيح والريش يعلو ويهبط في جرن المياه. ثم خرجوا. أين ذهبوا؟ ماذا حدث لهم؟ رجعوا إلى قراهم المحروقة؟ سكنوا وراء السور؟ قطعوا البحر؟

أين ذهبوا؟ ما زالوا أحياء؟ الواحد لا يعرف بأي أرض يموت. ضرّتها أم زهرة دفنوها في السنطية. أبوها من نابلس. مات قبل سنوات بعيدة. كان يسكن في بيتٍ طينٍ بجوار مقبرة السنطية. المرحوم جلبها من البيت الطين وبنى لها هذا البيت الأبيض المتين بالقنطرة الحجر. عاشت في البيت الحجر وأنجبت بناتها. ماتت ودفنوها في السنطية. رجعت من حيث أتت. ولا تدري نفس بأي أرض تموت. عند المساء ترى الرجال عائدين إلى الحارة. تكاثرت البيوت على حافة «الطريق البيضاء». وراء بيت سليم صعب ظهر بيت آخر، بيت محشور بين البيت الأول وحائط الحارة. قبل خروج تلك العائلة الكبيرة رأت الأولاد ذات صباح يصطفون شبه عراة ويبولون على جبوب الشوك. خافت من المنظر وتراجعت إلى داخل البيت وردّت الباب وردّت النافذة.

أين ذهبوا؟ تذكر عندما سرقوا البيض من قنّ الدجاج. قالت للحاج الطيب ابن المرحوم إنهم سطوا على القنّ وسرقوا بيض دجاجاتها. هزّ رأسه وقال لا تزعلي يا أم هند، الله يساعدهم. كم مرة في حياتها سمعته يلفظ هذه العبارة: «الله يساعد الناس». الحاج طيب. كانت تراهم قاعدين على حافة الحائط يمصون قصباً. وتفكر أنهم لم يأكلوا اليوم. «الله يساعد الفقراء، معه حق حج بو حسين». تذكر امرأة أتت وحدها وقرعت بابها وطلبت خميرة. تذكر وجهاً أصفر. وتذكر عينين ذليلتين. جلبت لها قطعة عجين فرأتها تبكي وأنفها يسيل على فمها. ليس عندها طحين، فماذا تنفعها الخميرة؟ أعطتها خبزاً. كان الحليب على النار، وخافت أن يغلي ويفور، فناولتها رغيف خبز ثم أقفلت بابها. لم ترَ تلك المرأة مرة أخرى. وما زالت إلى اليوم نادمة. كيف ردّت الباب في وجهها؟

أبناء سليمان البستاني الثلاثة لم يسرقوا بيضاً من قن سعدية الحصّ البارودي. العائلة المذكورة خرجت من الحارة المسوّرة إلى وراء «خان التوتة». سليمان البستاني استأجر من آل تيّان بيتاً صغيراً في الصيفي. سكن فيه سنة أو سنتين ثم بنى بيتاً . ابنه الكبير ناصيف اشتغل مع الآباء اللعازاريين. تعلم عندهم ثم درَّس العربية في مدرستهم في غزير. عندما فتحوا لاحقاً مدرسة في بيروت عينوا المعلم ناصيف مسؤولاً عن قسم الداخلي. الابن الصغير يوسف قطع البحر إلى الإسكندرية واشتغل مع حميد سكاكيني في تجفيف المستنقعات وزرع الرز. أقدار العائلة البستانية تتشابك على برّ مصر بأقدار آل الصايغ والسلالة البارودية. هذا يأتي مستقبلاً. نرجع الآن إلى الابن الأوسط في عائلة سليمان البستاني: اسمه خليل وتولى قيادة عربة دليجانس تجرّها أربعة جياد على طريق بيروت ـ شتورة.

«الشركة الفرنساوية ـ العثمانية» قسمت طريق الشام إلى نصفين. جعلت محطة شتورة النقطة الوسط بين دمشق وبيروت. عربة الدليجانس الطالعة من بيروت تُنزل ركابها في محطة شتورة في سهل البقاع. من هناك تأخذهم عربة أخرى إلى دمشق. نصف سائقي العربات بين بيروت وشتورة من بيروت ونصفهم من حمّانا (المتن). سائقو الشركة بين شتورة ودمشق نصفهم من دمشق ونصفهم من حمص.

خليل البستاني تزوج بنتاً من شتورة. البنت اسمها حنّة مسابكي. عندها أخت توأم تُدعى مريم. حكاية مريم مسابكي وخالد نقوزي اشتهرت في بيروت ذلك الزمان. الأختان يتيمتا الأب. أمهما بسيطة العقل عاشت حياتها تقطع اللبن لبنة وتعيش من بيع اللبنة. عندما طلبت حنّة أن تأخذ أختها معها إلى بيت زوجها في بيروت

قالت: «العذراء معكما». ذهبتا ولم ترجعا إلى شتورة إلا مرة واحدة في عيد الميلاد. الأم المتروكة بين أكياس اللبنة الشاش صمدت سنة ثم ماتت ذات صباح وهي تطوي الفرشة.

لا نعرف الكثير عن الأب. لكننا نعرف أن الجد هو نقولا مسابكي الذي صنع في عهد محمد علي باشا اسماً لنفسه: كان واحداً من 13 شاباً أرسلهم محمد علي لاكتساب العلوم في إيطاليا. تعلَّم في بلاد الطليان فنّ الطباعة. رجع إلى مصر وركّبَ «المطبعة الأميرية» المشهورة وفتح مدرسة الفنون والصنائع. لم يرجع إلى بلاد الشام. ونسي زوجته الأولى. ونسي الابن الذي لا نعرف من قصته غير زواجه بامرأة تقطع اللبن الرائب لبنة. تملأ كيس الشاش لبناً. تُعلق الكيس من غصن التينة. وتنتظر حتى يقطر الماء من الكيس. وحتى يصير اللبن لبنة. هذه حياتها. تزوجت رجلاً صغيراً فزرع فيها بيضة انقسمت إلى بيضتين. مات وهو يحفر جورة وراء البيت ليزرع كرمة. مات قبل أن يغرس في التربة فرعاً طرياً من عريشة عنب مقساسي أبيض طالما قال إنه أطيب عنب في العالم. وسَّعوا الجورة ودفنوا الرجل الصغير في الجورة. الطفلتان كبرتا بين فخارات الحليب واللبن. أخذتا من الحليب بياضاً يخلب الألباب. البشرة طرية كالسمنة، والرائحة رائحة الجبن البلدي. خليل البستاني ارتعش عندما رأى حنّة مسابكي تعبر أمام محطة العربات. ارتعش كأنه امرأة. كان يفك سيور الجياد ويخلص العربة المحملة بأكياس الفحم. السيور تعرق، الحصان يبلغ شتورة مبلولاً بالعرق. تعرق السيور، جلدها يتشبع بهذه الرطوبة، وحتى بعد أن يفكّ البكلات لا يتمكن من نزع اللجام والقيود إلا بقطع النفس. كان يشدّ الحزام، ويداري الحصان لئلا يرفسه، عندما رأى الملاك الأبيض في الثوب

الأزرق السماوي. خرج النَفَسُ من صدره فلم يرجع. لم تكن ملاكاً. اسمها حنّة مسابكي وسيأتي اليوم الذي يندم فيه على هذه الساعة.

هل ينفع الندم؟ الندم لا ينفع. جدّ هذه العائلة، السيد نقولا مسابكي، تولّع بطليانية من نابولي أنسته السفن وآلات الطباعة ودروسه، طوال ربيعٍ وصيفٍ. أوشك أن يُضيع مستقبله. أراد أن يتخذها زوجة وأن يبقى في نابولي. لو بقي في نابولي لما استقدم آلات الطباعة إلى برِّ مصر ولما أسّس مدرسة الفنون والصنائع. هل ندم نقولا مسابكي على قراره؟ هل ارتكب خطأ حياته عندما ترك نابولي إلى الأبد؟ هذه ليست قصة نقولا مسابكي. نتركه في حديقة بنوافير في نابولي، نتركه تحت أشجار الخريف الصفراء يقول للمرأة التي أحبّته إنه راجع إلى مصر، ونكمل قصة آل البارودي.

العمى الذي أصاب علي سلامة فتح حياة جديدة أمام حسين البارودي: ترك الخان وتولى شؤون حانوت التبغ المجاور لحارة اليهود. الحانوت لا يزدحم بالزبائن. هذا الشغل لا يتعب. يُقفل الحانوت قبل صلاة الظهر. يصلّي في الجامع العمري أو في جامع السراي. مرّات لا يصلي لكنه يقفل الحانوت ظهراً في كل الأحوال ويمضي إلى البيت ليأكل لقمة مع زوجته. حياته سهلة حسين البارودي. خالد نقوزي ابن عمته زهرة لا يُرى في الحارة. يخرج مع صلاة الفجر فلا يرجع إلا بعد صلاة العشاء. طوال النهار يشقى في الشمس على الطريق من طرف السهلات إلى رأس النبع إلى فرن الشباك إلى بعبدا. حياته على الطريق، يُطارد قاذورات البغال والحمير والأحصنة. يجمعها. ويبيعها. الشمس أحرقت رقبته.

حسين البارودي يمرّ على الحارة ظهراً. يأكل طبيخاً مع زوجته، داخل البيت، أو- في الطقس الرائق - تحت الجميزة. مرّات يُغيّر قميصه. من هنا، من مقعد القش جنب الجرن الحجر، تراهما سعدية الحصّ البارودي يأكلان ويكشان الذبان عن الطنجرة.

مذ تركت البنت الأخيرة البيت تشعر أن النهار طويل إلى ما لا نهاية والليل طويل إلى ما لا نهاية. كان يؤنسها - ولو لم تنتبه من قبل - الرجل بالشعر الأبيض يصنع صنانيره (التي لم يعد أحد يأتي ويشتريها) تحت الجوزة. كان يؤنسها بوجوده الدائم في المكان نفسه يتحرك الحركة نفسها. إذا برد خرج من ظلّ الجوزة إلى بقعة الشمس القوية. في الحالين يبقى في مرمى بصرها. أم حسين أو إحدى البنات (صفية معظم الأحيان) تأتيه بالطبق يرتفع منه البخار. يأكل بخبزٍ، دائماً يعمل لقمته كبيرة. لا يأكل إلا بالخبز. لم تره يوماً يأكل بالملعقة. عندما ينتهي يحمل الطبق الفارغ إلى البلاطة، أمام العتبة. يتركه هناك ويذهب إلى وراء البيت، ثم تراه عائداً وهو يُنشف يديه على ثيابه. يجلس على مقعده القش. يلف تبغاً. يدخن كثيراً. في بعض الصباحات، عندما يراها تخبز مرقوقاً على الصاج، أمام البيت، يذهب ويجلب لها حطباً. تراه عند غروب الشمس يُقشر بيضاً مسلوقاً. يأكل البيض مع خبز أو بلا خبز ويأكل معه زيتوناً وبصلاً. حفظت قيامه وقعوده. مع مرور الأيام لاحظت أنه لا يرش ملحاً على البيض. يؤنسها هذا الرجل الساكت، المشروم الأذن، الأبيض الشعر. لكنه منذ فترة لا يقعد تحت الجوزة. عندما غاب انتبهت أنها تحبّه.

الأرملة زهرة لم تسأل عن الرجل الرمادي الشعر. لاحظت أنه اختفى من تحت الجوزة ولم تهتم. كلما خرجت صباحاً حاملة سلّتها

إلى مدرسة الأميركان رأته بطرق عينها تحت الأغصان الخضر يشرب ماء من إبريق الفخار أو يقيس خيطاً على قصبة. تراه بطرف عينها ولا تربط أبداً بين هذا الرجل الساكت العجوز والصبي الأخضر العينين الذي ناداها «أختي» قبل سنين بعيدة. لكنها قبل أيام قليلة من اختفائه رأته مغمض العينين، يسند ظهره ورأسه إلى جذع الجوزة، وقدماه ممدودتان إلى حيث يقع ضوء الشمس. بدا كأنه نام الليل تحت الشجرة، في العراء. استبد بها في تلك اللحظة إحساسٌ غامض: رجعت في الزمن إلى أيام سبقت سنة القُرم ورأت عمر البارودي أسود الشعر ضاحك الوجه يلاعب أولادها ويرفع أحمد على كف واحدة وهو يقف على الدرجات الصاعدة إلى الغرفة البيضاء العالية.

الشمس ارتفعت فوق جبل صنين وزهرة عبرت الطريق البيضاء وهي تهز رأسها نافضة الصورة القديمة عنها كأنها تنفض آثار النوم. ألقت تحية الصباح على أم سليمان القاعدة على الدرجات تُكيل طحيناً للخبز ثم دفعت باب الحارة الثقيل وخرجت إلى سوق الفشخة. عند زاوية العطارين، بينما تخترق الزحمة، رأت الخياط حمادة المصري صاعداً نحو البازركان. ابتسمت من دون أن تنتبه. أخبروها أنه تزوج امرأة مهجرة من وادي التيم نزلت في قبوٍ تحت بيته. تزوجها فصعدت حافية من القبو إلى فراشه. لم تستغرب زهرة القصة، لسببٍ يخصّها وحدها: قبل سنة أو سنتين من الحوادث وتدفق المهجرين إلى بيروت، كانت تقطع أمام جامع السراي، ورأت من بعيد شيئاً غريباً. رأت الخياط حمادة على طراحته يرفع مقصاً عن الأرض في حركة سريعة ويقطع خيطاً أمسك طرفه بين أسنانه. من نقطتها البعيدة لم ترَ الخيط. رأت الحركة الخاطفة للمقص. أدهشتها سرعة اليد. التقطت اليد المقص عن الطراحة.

طارت إلى أعلى وقصت الخيط ثم أنزلت المقص إلى مكانه ورجعت إلى القماشة وقلبتها وتابعت الخياطة بالإبرة. الخيّاط الختيار تحركت يده حركة لا تصدقها العين، لا يستوعبها العقل. ترك المشهد في زهرة إحساساً مخيفاً بالعجز. أحسّت أنها ضئيلة، شديدة الضآلة. عندما أخبروها بعد وقت طويل أن الختيار كتب كتابه على مهجّرة في عمر حفيداته استرجعت حركة المقص وبرقة الشمس على المعدن الصقيل فلم تستغرب.

عندها أسبابها الأرملة زهرة. المقصد سبب واحد. السبب الآخر يُدعى عبد الله سلوم. رأت الرجل بعد رحيل الفرنسيس. الجنود أصحاب العيون الملونة ركبوا البحر عائدين إلى أوروبا. عندما تبددت غيمة الغبار من الطريق رأت الرجل واقفاً تحت شجرات الليمون الحامض ينظر إليها. تذكرت أنها رأته من قبل، هنا في المدرسة التي تحولت مستشفى وميتماً ومدرسة معاً، وعلى الدرج جنب المدرسة: الدرج الذي ينزل إلى مطبعة الأميركان. لم ترَ الآلات السوداء في المطبعة يوماً. لكنها تسمع صوتها وهي تعبر الممر المبلط إلى غرفة مسز شافرد. تسمع الطنين والطرطقة تحت الرخام. الرجل يعمل مع الياس فواز في المطبعة. مرة رأته يسرج حصان الدكتور سميث. زوجة عبد الله سلوم التقطت التيفوئيد وهي تحمل طعاماً إلى الميتم. حمَّت وماتت وتركته غصناً مقطوعاً من شجرة. زهرة البارودي نقوزي انحنت على الغصن الناشف والتقطته بالأنامل الممشوقة للنساء البارودیات.

أحبّت لونه الحنطي. أحبّت نظرته الحزينة. وأحبّت رائحة التبغ والصوف والغار التي تفوح من ثيابه. قالت للرجل الذي يصغرها بعامين أو ثلاثة: تعالَ واطلبني من أخي «حج بو حسين»، قلْ له كذا

وكذا، أما خالد وأحمد فأنا أدبرهما، وموسى الصغير يبقى معنا حتى يكبر.

لم تذكر الصغرى فردوس لأنها وجدت لها زوجاً. تزوجت فردوس نقوزي قبل أمها بأيام قليلة، وتركت «حارة البارودي» قبل أمها. الرجل الذي أخذ البنت الصغرى زوجةً يُدعى غضبان محمصاني. كان شاباً صغيراً في الجزء الأول، كبر في هذه الأثناء، وهذا زواجه الثاني. أنزل الزوجة الصغيرة في بيتٍ خارج باب إدريس، غير بعيدٍ من بيت أختها زينب زوجة أبو محي الدين عبد الله الفاخوري الذي باتت أباريقه تملأ البلد مياهاً باردة كالثلج.

زهرة نظرت إلى الأساور الذهب تغطي ذراعيّ ابنتها الصغيرة وقالت: «اقبلي كلمة زوجك يا فردوس، لا تكسري كلمته أبداً، لكن إذا أذاك تذكري أن أمك تحبك وتعالي عندي». دلَّتها إلى بيتها الجديد وراء مدرسة الأميركان ثم ودّعتها.

خالد اعترض على الزواجين وأحمد اعترض أيضاً. أحمد سكت بعد كلمات أمه الحازمة. خرج غاضباً من الحارة وقطع الطرقات إلى ساحة عالسور مظلم الوجه لا يردّ على أحد سلاماً. عندما ولج ظلمة المخزن الكبير، عندما وجد نفسه وحيداً بين رفوف الفخار والخزف والسيور وصناديق المسامير، خرج الغيظ من جسمه، وهدأ دمه. هدأ الدم الذي يفور في جسمه بينما ينظر إلى البضاعة على الرفوف، بينما ينظر إلى الطريق الباهرة الضوء في الخارج، بينما يرى باعة الكعك والبيض المسلوق وشراب السوس والجلاب قاعدين على صناديق مقلوبة في الساحة. سمع النداءات، والزبائن يساومون الباعة، سمع أصوات السوق الأليفة، فهدأ دمه. ليست كارثة. ولعل هذا أحسن للجميع. ليست كارثة.

أخوه الكبير خالد لم يرَ الأشياء مثله. غضب على الأم لأنها تريد أن تتزوج والبياض بدأ يخط شعرها (شعرها ليس أبيض، الولد يبالغ، ما زالت صغيرة أم خالد). غضب على أمه لأنها تريد أن تتزوج بعد كل هذه الأعوام. وغضب عليها لأنها تبيع أخته الصغيرة إلى رجل كبير دفع ثمنها ذهباً. هل كان غضبه صادقاً؟ أم خالد تركته يغلي ويبرطم بالكلام ويرفس بقدمه الأرض. تعرفه. رأته يحني رقبته وينظر إليها من تحت رموشه، يوشك أن يندفع صوبها وينطحها برأسه، ولم تقل شيئاً. تعرفه. نظرت إلى الدم يُفسد لون العسل في عينيه وظلّت ساكتة. لماذا يغضب خالد؟ أخواته الباقيات تزوجن بلا كل هذا الغضب. لماذا يغضب في الساعة الأخيرة قبل أن يفرغ البيت له، ولأخيه أحمد؟

تركته يغضب. عليها أن تنتظر. لا يفيد أن تقطع هذا الغضب. قالت ما عليها. والآن تنتظر. ماذا تقول أكثر؟ «كنتُ أصغر من فردوس عندما زوَّجني أبي الله يرحمه، وزوجّني رجلاً من خارج البلد، وأبوك الله يرحمه لم يدفع ربع المهر الذي دفعه السيد محمصاني، فلماذا تزعل؟» قالت ما عليها. هاجمها على زواجها فدافعت عن نفسها. سكت أمام دفاعها ثم هاجم زواج أخته الصغرى. دافعت عن السيد محمصاني فرجع إلى الهجوم عليها. أيقنت أنه لا يسمع ماذا تقول. أيقنت أنه تائه في فوران دمه. تركته يحكي وجلست على الأرض. «مرة واحدة أخيرة»، قالت في نفسها. ونظرت إلى ابنها الذي كبر وصار رجلاً يدور بين الحيطان مثل ثورٍ هائج وحزنت. حزنت عليه. في تلك اللحظة تذكرت الرجل الرمادي الشعر. ضايقتها الذكرى فقامت عن الأرض وقالت لخالد «اسكت». لم تلفظ إلا هذه الكلمة. سكت خالد.

الحاج عبد الرحيم صُعق عندما جاء إلى حارة القرميد السيد عبد الله سلوم، مع عجوز يعرفها من عائلة سلوم، ومع الشاب زكريا. زكريا باس الخاتم في يد الحاج على عادته والعجوز أخذت تتكلم بأشياء غير مفهومة. الحاج سمع الكلام الغامض وبدأ يستوعب رويداً رويداً ما يجري: الرجل الذي يشتغل مع المرسلين جاء يطلب القربى. يد من يطلب هذا الأرمل الحزين الوجه؟ ظنّ الحاج عبد الرحيم أنه سيطلب إحدى بنات الحارة. قبل أن يحدد البنت المطلوبة أخذ السيد سلوم دفة الكلام. العجوز سكتت عندئذٍ كأنها ارتاحت. باتت غير مرئية. زكريا سكن أيضاً. عندما تكلم عبد الله سلوم ملأ صوته الخافت الحارة. كان صوته منخفضاً بحيث أن الرؤوس تتقدم على الرقاب إلى الأمام حتى تسمع كلماته. وكان صوتاً عميقاً حلو الجرس. سمعه الحاج عبد الرحيم حتى نهاية كلامه ولم يقاطعه مرة واحدة.

دهشته تضاعفت عندما تكلم مع أخته زهرة في الصباح الباكر. كانت تنتظره خارج القنطرة الحجر. قال كلمات قليلة، أراد أن يشرح لها بعض الأمور، أراد أن يبدي ملاحظة واضحة وغير واضحة في رأسه، لكن أخته سحبت الكلمات من بين أسنانه كأنها تسحب خيطاً عالقاً في زلعومه. فاجأت الحاج عبد الرحيم ثقتها المخيفة بنفسها. تذكر عندما وقفت في هذه النقطة ذاتها وقالت له: «قلْ لابن بيهُم أن يأخذ بنتي بهيجة». تذكر صوتها في تلك الساعة وسأل نفسه أين عثرت أخته على هذه القوة كلّها. لم يفكر في أبيه عبد الجواد ولم يفكر في خالته سهيلة النابلسي البارودي. لكنه فكر في المرحوم شاهين واستغرب أن يفكر فيه هذه الساعة.

قال «على بركة الله». وترك أخته الأرملة تتزوج عبد الله سلوم

وتخرج من سور الحارة إلى طلعة الأميركان. ماذا يقول لها؟ إذا كان ابنها الكبير خالد طأطأ رأسه وقال «طيب»، فلماذا يقول هو لا؟

خروج الصغير موسى من الحارة نزل كالصاعقة على عبد الفتاح. صديقه الحبيب موسى بكى بينما أمه تجرّه من يده وتخرج من باب الحارة، تاركة هذا العالم المسوّر. عبد الفتاح ركض وراء عمته زهرة، ركض وراء ابن عمته، لكن باب الحارة انغلق في وجهه وفصل بينهما.

أم سليمان زوجة الصيّاد نادت عليه. يناديها «ستّي». نادت عليه فسار عبر ضبابة دموعه، يرى الطريق والبيوت والأشجار ولا يراها. مشى عبر غيمة صفراء وخضراء حتى بلغ المرأة التي تلفّ منديلاً أبيض على رأسها وتخرج ملبساً أحمر اللون من صدر ثوبها الأسود السميك. أعطته ملبساً وقالت لا تبكِ، عيب البكاء، أنت صبي، لست بنتاً.

قضم حبّات اللوز الملبسة بالسكر الملون وهو لا يسمع ماذا تحكي. لم يسمع لكنه ذاق الطعم الحلو على لسانه فكفّ عن البكاء. مع هذا استمر يمسح دموعه ويُخرج صوتاً متقطعاً إلى أن مدّت يدها داخل ثوبها مرة أخرى وأعطته حفنة أخرى من الحبّات الزرقاء والحمراء.

سعدية الحصّ البارودي رأت خروج الحمار المحمل. ورأت خروج الأرملة زهرة مع ابنها الصغير. ورأت عبد الفتاح ابن الحاج عبد الرحيم دامع العين يأخذ «ملبس اللوز» من يد الدرزية العجوز. رأت كل ذلك وفكرت أن هذه الأرملة (التي لم تعد أرملة لأنها تزوجت من جديد) تغيرت كثيراً في هذه السنوات الماضية. حين جاءت هاربة من الهواء الأصفر كانت معتلة الصحة خائفة الصوت

كثيرة الدموع. أولادها كانوا يجتمعون حولها كما تجتمع كتاكيت خائفة تحت جناحي دجاجة. جاءت من صيدا البعيدة في الجنوب، جاءت من وراء الرمل والتلال، وزوجها الميت يسير في أثرها. سعدية الحصّ البارودي رأت الطيف الباهت اللون بالربطة السوداء على رقبته يسير وراء الدجاجة والصيصان ثم يتوقف أول «طريق عبد الجواد» ناظراً إلى زوجته تركض إلى بيت أمها. عبد الفتاح يخطو متمهلاً على الطريق ذاتها وهو يقضم حبّة ملبس تلو حبّة ملبس. أم هند تنظر إليه وتفكر أنه لا يشبه ذكور آل البارودي.

لاحظت أم هند عبر السنوات أن ذكور العائلة سريعو النضوج. مثل أخيه حسين من قبله كبر عبد الغني بين ليلة وضحاها. نبتت شعرات ذقنه. واخشوشن صوته فصار كصوت الرجال. قبل زمنٍ بعيدٍ، أول نزولها في هذه الحارة، رأت عبد الرحيم صبياً يذهب إلى حانوت الشواء مع أبيه، بزغبٍ أشقر خفيف فوق شفته، فما مرّت أيام قليلة حتى رأته تحت الجميزة يغطي ذقنه برغوة الصابون ويحلق الشعرات السوداء بموس الحلاقة. لم ترَ اللحظة التي تحول فيها شاهين إلى عملاق لكنها رأت عمر البارودي يتضخم أمام عينيها وينقلب مارداً. كانت تسمعه يحكي لبناتها ـ قبل سنوات القُرم ـ عن البحر والعالم العجيب المسحور المخفي تحت صفحة الماء فتتعجب من حديثه ولا تفهم كيف يستطيع هذا الهيكل الملآن أن يخرج من البحر بعد أن يغطس. تخيلته مثل صخرٍ ضخم يغوص في البحر فيعلق تحت البحر بين أشجار ومرجان ولا يطلع بعد ذلك أبداً. لاحظت أن جميع بنات العائلة لهن الوجه الأبيض المدور ذاته والعيون السوداء الواسعة ذاتها وفكرت أن هذا غير مفهوم ثم قالت «سبحانه على كل شيء قدير» وصرفت الموضوع من ذهنها. كان عبد

الفتاح ينظر إلى قواقع بزاق تجمعت على حافة الطريق وفكرت مرة أخرى أن هذا الصغير لا يشبه ذكور آل البارودي.

الحاج عبد الرحيم قال أمام عائشة وأمام ابنته الكبرى صفية أن خالد ابن أخته زهرة كفّ عن تنظيف الطريق وبيع الزبل لأصحاب البساتين. قال الحاج إن خالد صار يسوق عربة دليجانس من بيروت إلى شتورة، ومن شتورة إلى بيروت. عائشة لمحت اللمعة الخفية في عينيّ الحاج وأيقنت أنه لا يذكر هذا أمام البنت صفية عرضاً. انتبهت إلى برقة العين بعد أن تبينت رجفة صوته. سعل قبل أن يتكلم كأنه يُنظف حنجرته. عائشة تعرف زوجها. صفية أيضاً تعرف أباها. عندما تُجهز له أرجيلة بعد العشاء تعرف من نظراته أين يأخذه التفكر. تعرف متى يفكر في الخان وتعرف متى يفكر في حانوت التبغ خارج باب إدريس وتعرف متى يفكر في البازركان وتعرف متى يفكر فيها وفي أخواتها. إذا فكر في حسين تعرف من انقباضة عضلة خده ـ حيث علامات الجدري ـ أنه يفكر في أخيها الأعرج الذي لم تبهج ضحكة الطفل بيته بعد. إذا فكر في عمها عمر عرفت من حزنٍ أسودٍ يغطي كالغيمة عينيه ماذا يفكر. إذا انبسط وجهه ورقص نورٌ على محياه رأت عبد الغني يدنو حاملاً مسبحة من حبوب العاج، مسبحة 66 حبّة بشرابة فضة وقروش أسدية مثقوبة، يُسبح بها كتجار السوق ثم يلقي السلام ويقعد متربعاً على الطراحة.

الحاج عبد الرحيم مسرور بعبد الغني ومسرور بابن أخته. طالما أراد خالد جنبه. ينظر إليه فيرى فيه أشياء يحبّها. يرى فيه أشياء طالما رآها في بكره. لكن حسين ليس حسين. لم يعد هو. الحاج عبد الرحيم لا يقول هذا لنفسه. كلام مثل هذا يقطعه نصفين. يصرف هذه الأفكار عنه إذا هجمت عليه. يحمد الله أن بكره رجع

من جهنم حيّاً. يعرف أين كان ابنه. سمع حكايات كثيرة، حكايات يشيب لها شعر الرأس. يحمد الله أن حسين عاد وأن عائشة تنفست من جديد وضحك وجهها. يحمد الله. وها هو حسين عنده زوجة، ويذهب إلى الحانوت القديم ويعود. يحمد الله. وعسى خيراً. عبد الغني يتاجر كأنه وُلد في البازركان. وعبد الودود يدير حانوت بيت إدريس كخاتم في إصبعه. يحمد الله. والخان امتلأت عنابره. شركة الطريق بنت اصطبلات ومحطة مكان صبّيرات طراد وبلاطة السراسقة. المحطة تبعد رمية حجر عن الخان. كل الوساوس كانت بلا معنى. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. لم يقع الخان. لم تبتعد الطريق عنه إلا قليلاً. وقوافل كثيرة ما زالت تسلك الدرب القديمة، درب باب الدباغة.

لماذا لا يشعر بالراحة إذاً؟ ماذا يُنغص عليه حياته؟ كان في باحة الخان قبل أيام ورأى إبلاً تبرك خارج البوابة. خرج من تحت القنطرة فرأى إبلاً بسنمين محملة بأجولة الطحين وغيمة الغبار الكثيف الأبيض تهبط على وجوه كثيرة متشابهة. هذا الحاج عبد القادر الأسطى، تاجر مشهور من باب الصالحية، دمشق تضرب به المثل: عنده قبيلة من الأبناء الذكور.

الحاج عبد القادر يقود قوافل حبوب وحنطة بين دمشق وبيروت منذ سنوات. كانوا من قبل يتكلمون عن قسوته: طالما رآه التجار يضرب أبناءه الكبار بالخيزرانة. مرة لطم ابناً من أبنائه الكثر فكسر أسنانه. بعد «حرب الستين» لم يعد أحد يذكر قسوته: الحاج عبد القادر أنقذ عدداً لا يُحصى من النصارى. حملهم على إبله وحميره وبغاله من دمشق إلى بيروت. سلّح أبناءه بالبواريد ودفع عن القافلة غارات البدو وغارات الدروز وغارات المتاولة. في وادي الحرير

أصابه الخردق في ظهره. في وادي القرن أصابه الخردق في صدره. في الحالين لا كان يهرب ولا كان يهجم. كان يتقدم على رأس القافلة ويصيح باسمه ويطلب حق المرور. الخردق ينزل عليه كبسات وهو لا يطوي جسمه. المهم أن يسمعوا اسمه. الرجل مشهور. عشيرته مشهورة. صاهر بزيجاته قبائل. وعنده أبناء يقهرون جيشاً. بعد «حرب الستين» تضاعفت شهرته. سبحانه أنعم عليه. نصارى دمشق الذين نزلوا في بيروت لم ينسوا جميله. قوافله تضاعف عددها. أخذ زوجة جديدة من قرية خارج زحلة. والآن ينتظر ابناً. قالوا في الشام أن سبحانه لم يُعطِ الرجل بنتاً واحدة! لا يُخلف إلا ذكوراً، الحاج عبد القادر.

رجل صاخب. إذا فرقعت ضحكته تطير الحمائم عن سطح خان التوتة. كلّما جاء إلى البلد يسأل الحاج عبد الرحيم هل تزوج؟ «هذا الخان الطويل العريض وتشبع من امرأة واحدة يا حج!»

«حج بو حسين» مضطرب الخاطر هذه الأيام. الشيخ عزّت بيضون يراه خارجاً إلى الجامع العمري أو عائداً إلى الخان ويعرف أن سوسة تبرم في دماغه. قبل أيام كان الشيخ بيضون خارجاً من صلاة الجمعة في جامع السراي ورأى الحاج واقفاً أمام دكان الخواجه طرازي يتكلمان ويضحكان. رأى الرجلين لمحاً ثم ذهب بين مساكب العطر وقطع أمام حوض الماء وعبر الطريق خارجاً إلى السهلات. لم يستوقفه ذلك إلا بعد وقت. الشيخ بيضون لا يجد وقتاً يفكر فيه. أشغال الخان كثيرة.

أشغال الخان كثيرة وضجته عالية. حنّة مسابكي التي صارت بزواجها حنّة البستاني ترى من شباك بيتها الصغير القوافل الداخلة

والقوافل الخارجة. هذه الضجة لا تدعها تنام. خليل البستاني يضحك وهو يوقظها صباحاً لتغلي له القهوة. مريم تسبقه وتسبقها وتشعل الفحم وتعدّ الكانون. لكنه يستحي أن تعمل مريم قهوته كل صباح. حنّة نؤوم الضحى تقوم وهي تتثاءب وتنهره لأنه يرفع صوته بينما يوقظها. قالت له إن أمها من آل بيساني وهذه عائلة مشهورة بالعظم الرقيق. قالت له: جدتي أم أمي عاشت حياتها كالملكة في بيتٍ كالقصر تقوم من النوم ساعة الظهر وتنام عند غروب الشمس، كانت رقيقة كالفراشة، دقّت عنقها وماتت وهي تقطع غصن ياسمين، لا ترفع صوتك عندما تكلمني، عظمي رقيق يا خليل.

مريم سمعت حديث أختها وكتمت الضحكة في صدرها. لا تعرف من أين تأتي حنّة بهذا الكلام. خليل سمع كلام حنّة جاحظ العينين مرفوع الحاجبين. حنّة رفعت حاجبها وقلدت دهشته وسألته ماذا بك؟ ماذا جرى لك؟ خليل ردّ: «أمك تبيع لبنة وأنت حفيدة ملوك؟» حنّة نظرت إليه ثم أشاحت بوجهها. رموشها السوداء الطويلة رفت رفة سريعة وهو ندم على كلماته. ضحك ليبعد السحابة وقام وهو يشكرها على القهوة ويشكر مريم وخرج من البيت. المداس خارج العتبة. لا يدخل بمداسه إلى البيت. انتعل المداس وأسرع إلى محطة العربات الدليجانس.

قطع تحت حائط «خان التوتة» مخلفاً وراء ظهره عربة يجرّها ثور محملة بأكياس الملح. ظلّ خوار الثور يلحق به حتى بلغ محطة العربات. هنا ترتفع ضجة أخرى: ناظر المحطة يتعارك مع السواقين؛ هؤلاء يتعاركون بين بعضهم بعضاً؛ الأولاد يركضون بين العربات والأحصنة؛ والعربات تكرّ مقرقعة: عربات مصنوعة من الخشب بمحاور حديد للدواليب، طرطقتها تُسمع أقوى وأعلى إذا

كانت فارغة ولم تُحمَّل بعد. هنا لا يُسمع خوار ثيران بل صهيل أحصنة.

العربات التي تجرها ثيران لا تعمل عند الشركة الفرنساوية. بين خان التوتة وشط البحر، في المنطقة الممتدة من السهلات إلى باب الدباغة إلى المدخل الشرقي القديم للمرفأ، تشتغل عربات الثيران. معظمها يحمل أكياس ملح وأكياس حبوب. تقطع الأرض التي تحولت إلى ساحة (يسمونها ساحة البرج)، تحدلها حدلاً، وتنقل البضائع بين عنابر المرفأ وخان التوتة.

في الأعياد يتكاثر الأولاد والأهالي في هذه الساحة ويتكاثرون في ساحة عالسور. تظهر بسطات المقالي والحلويات. يظهر بائعو الجلّاب وشراب الورد والعرقسوس. يظهر باعة القطايف بالقشطة والجوز والقطر. أسراب الحمام تملأ السماء. والنساء تزهو في أثواب ملونة. باعة الكعك والسحلب يرفعون النداء. وباعة القهوة المرّة يتوزعون زوايا الساحة. في جهة خان البارودي قرمة توت متفحمة لا أحد يعرف عمرها. الهواء والمطر والشمس، العناصر والأعوام، لم تنل من هذا الجذع المقطوع شبه المجوف. تشبه القرمة رجلاً راكعاً على الأرض. خشبها أملس صقيل، وتحت القشرة اللامعة يبرق لونٌ أزرق. أحد باعة القهوة يقعد عند القرمة ويطرطق بفناجين الشفّة، فنجان داخل فنجان. رائحة الهال والبن المحمص تملأ الجو.

إذا هبّت ريح الشتاء قرص برد الشمال بيروت. المدينة ارتفعت على رأس يتوغل في البحر. هواء بيروت الشتائي فظيع. العجائز يئنون تحت بطانيات الصوف. ساحة البرج يسوطها هواء الشمال،

يدور فيها كالدوامة، يرفع ترابها إلى الفضاء. خان التوتة صامد أمام الريح. من بعيد تراه يتمايل في غبار العاصفة. كأنه يسبح على ماء. الحصى والرمال تطرطق على بوابته، تطرطق على حيطانه، وترتد عنه. قَصَفَ الرعد. أضاءت البروق الساحة وأضاءت الخان والدكاكين والبيوت التي تجاوره، ثم قصف الرعد، وانهمرت سيول المطر. الآن لا نسمع غير نشيج المطر. القاعد في بيته يتمنى الرحمة للقاعد خارج البيت، بلا سقف فوق رأسه. أم حسين ـ التي انتفخ بطنها من جديد ـ فكرت في عمر البارودي وظلت ساكتة.

اختفى عمر البارودي من تحت الجوزة قبل موسم الأمطار. الحاج عبد الرحيم كان كثير الأشغال في تلك الفترة، لا يجد الوقت حتى يمشط شعره. قبل العواصف تغلي البلد وهي تستعد للشتاء. الثلوج تقطع الطريق بين بيروت والمرافئ البعيدة. عندما يذوب الثلج تظهر القوافل. أضخم القوافل تجيء من دمشق.

طريق الشام غيّرت بيروت. كنا نذهب إلى دمشق في ثلاثة أيام أو أربعة: الآن نبلغها في عربة الدليجانس خلال 12 ساعة أو 13. سائقو عربات الركاب (عربات الـ Omnibus) يتسابقون على الطريق من بيروت إلى شتورة: خليل البستاني مشهور بينهم. خالد نقوزي بات معروفاً أيضاً. اشتغل قبل شهرين أو ثلاثة، وفي هذا الوقت القصير ذاع صيته. يقود عربة كبيرة تشدها ستة جياد. يكلم جياده بأصوات تشبه سقسقة الصيادين للطيور والحجال. لا يستخدم السوط إلا للضرورة. يعلف أحصنته ويسقيها بنفسه. لا يقبل أن يدق البيطري حوافر أحصنته، إلا إذا كان على يمين الرجل. يده تمسح رقبة الحصان وفمه يختفي في شعر الأذن الراجفة. يهمس في أذن الحصان ويُخفف عنه. الحدوة تجرح الحافر، والمسامير الرفيعة

تجرح الحافر. المسمار لا يدخل في الجلد الميت فقط، يدخل اللحم الحيّ أيضاً. مرات ينزف الحافر. خالد نقوزي يدقّ الطيّون على حجر، ويطلي الحافر المجروح.

يجمع عن حافة الطريق نباتات انتبه أن الأحصنة تحب رائحتها وتحب طعمها. يطرحها في علف الأحصنة، فوق الشعير الرطب، فتأكل الأحصنة التبن القديم. التقارب بينه وبين هذه الحيوانات يسحر الركاب. متى تعلم أن يصادقها هكذا؟ وهو يجمع زبلها؟ يقطع الطريق على أربع، يدبّ مثلها، يجمع قاذوراتها التي نشفت ويبست في الهواء والشمس، وعندما يرفع رأسه عن التراب يبهره الضوء وتحدق إليه عين الحصان واسعة!

اشترى قميصاً من الخياط الشدياق. اشترى سروالاً وحزاماً عريضاً من الصوف الإنكليزي. اشترى مداساً من السختيان الأحمر. وبزيارة يتيمة إلى السوق العمومي شرق ساحة البرج تحول خالد نقوزي رجلاً.

طلبت منه الشركة في بداية الشتاء، قبل أن تتساقط الثلوج وتسد مضيق ظهر البيدر، أن يأخذ حمولة من الملابس الأوروبية كل الطريق إلى دمشق. الحمولة ثمينة، تأخر وصولها بالبحر والزبون أرسل يسأل عنها. كلّفوا خالد نقوزي بالمهمة. طار بجياده إلى الحازمية إلى عاليه إلى عين داره إلى ظهر البيدر إلى شتورة إلى دمشق. نفذ المهمة وعاد لابساً طربوشاً أحمر بشرابة مسترسلة زرقاء. ذهب معتمّاً وعاد لابساً الطربوش. لن يلبس عمامة بعد ذلك. طرح العمامة ولبس الطربوش. وصار يوصي على قمصان مزركشة الصدر عند الخياط الشدياق.

طريق الشام غيّرت خالد نقوزي. استقام ظهره وغطى الشحم

كليتيه. لم تختفِ عظام وجهه الظاهرة لكنه صار يضحك. تعطَّر بالمسك فخرجت من جلده رائحة المدبغة. صادقه خليل البستاني ودعاه إلى بيته. بعد الدعوة ندم. نشب في البيت الصغير جوٌّ غريب: كأن الكهرباء ملأت الشبابيك. كأنها تبرق وترعد، بلا ضوء وبلا صوت. خاف خليل البستاني ولم يفهم ماذا يحدث: رأى نظرات زوجته إلى الرجل اللامع البشرة، العسلي العينين، ورأى نظرات أختها. الأختان ـ حنّة ومريم ـ ظهرتا في تلك اللحظة إمرأة واحدة برأسين.

الحاج عبد الرحيم سمع عن غزوات خالد نقوزي للسوق العمومي فلم يصدق. معقول؟ هذا الرجل الصادق النشيط يغزو بيوت المومسات؟ لم يصدق كلام الناس. ثم صدق. رآه لابساً الطربوش يسير مع سوّاقين عُرفوا بقلة الحياء وطول الألسنة. رآه ساعة المساء، ذاهباً في طريق السوق السيئة السمعة، وصَدَقَ. حزن على التبدل الذي أصاب ابن أخته. لكنه بينما يقطع الطريق إلى الحارة نسي حزنه. كيف يحزن؟ ولماذا يحزن؟ كان يظنّ أن عائشة سُدَّ رحمها. كان يظن أنها لن تحبل من جديد. وها هي منفوخة البطن، وأمس طلبت تيناً ومشمشاً وخوخاً! دخلنا الشتاء وفي وحامها تطلب فاكهة الصيف. كيف يحزن؟ تدنو منه ضاحكة الوجه، ويدها على بطنها. اليد الأخرى تسند ظهرها. يضحك لضحكتها ومشيتها. لماذا يحزن؟ حتى على رحيل أخيه مرة ثانية لا يحزن. هذه المرة لم يذهب بعيداً.

اختفى عمر البارودي من الحارة فظهر على شط البحر عند صخور المدوّر. اكتشف الحاج عبد الرحيم لاحقاً أن الصُدفة قادته إلى البحر: كان نائماً تحت شجرة الجوز ذات فجر فسمع طرطقة الشيخ الصيّاد وهو يخرج من بيته حاملاً الزوّادة. فتح عمر البارودي

عينيه الخضراوين كورق التوت فرأى الشيخ الصيّاد يترنح ثم يقع عند الجميزة. نهض إليه وساعده على القيام. الصيّاد الدرزي تعثر بأغصان على «طريق عبد الجواد» فوقع. كان يتثاءب ناعساً وضحك عندما رأى العملاق المشروم الأذن يتثاءب هو أيضاً. سأله أين يذهب في هذا الفجر، المؤذن لم يؤذن بعد؟ العملاق ظلّ ساكتاً. قال له الصيّاد ـ الذي قبل سنوات بعيدة علّمه الصيد:

ـ البسْ مداسك وتعال ساعدني.

أخذه معه. كان الوقت ليلاً والمدينة نائمة. قطعا الدرب إلى باب السراي إلى ساحة البرج إلى صخور المدوّر. هنا الساحل صخري مرتفع وفيه كهوف صغيرة. الصيّاد دلّ عمر إلى كهف خبّأ فيه شختورة. عمر جرّ الشختورة إلى الشط بينما الصيّاد يفرد الشباك ثم يطويها ويحملها. شقشق نور الفجر من وراء صنين. ركبا الشختورة وجذفا إلى عرض البحر. رجعا قبيل الظهيرة. عمر البارودي جرّ الشختورة إلى الكهف ونام جنبها. الصيّاد حمل صيده إلى السوق.

نزل عمر البارودي ذات فجر إلى البحر ليساعد الصيّاد في رفع «الجاروفة» فبقي على الشط سنة كاملة. ماذا أبقاه سنةً على الشط الصخري الممتد بطول ثلاثة كيلومترات بين مرفأ بيروت وأبنية الكرنتينا (الحجر الصحي)؟ لم ينم جنب الشختورة نومة أهل الكهف. نام ساعة أو ساعتين تحت شمس الظهيرة ثم قام راجفاً بالبرد. ارتعش جسمه وهو ينظر إلى أشعة الشمس وقد انسحبت عن الشط وسقطت على المياه البعيدة. سطع الضوء وتلألأ على صفحة البحر. الشط ظلّ غارقاً في الظل. جذب عباءة من صوف الغنم، جذبها من بطن الشختورة الرطبة، ولفَّ نفسه. لم تذهب الرعدة. الموج يهدر في أذنيه مع أن مياه هذا الخليج هادئة. الزبد يفور

لطيفاً، أبيض وأصفر وأخضر، يفور مع أعشاب البحر، يفور على صخور يغطيها طحلب ناعم كالحرير. نظر إلى المياه وارتعد. الدنيا ملطومة. وصدره ملطوم. فقرات سلسلة ظهره تتفكك وتتساقط على الأرض. أين أنا؟ عبرت عليه لحظة سوداء: فتح عينيه فظنّ أنه في القُرم. هدير البحر ردّه إلى زمن مندثر. عندما سمع زعيق النوارس فوق الحصن البحري، عندما وقعت نظرته على الحصن البحري اطمأن قلبه: هذه ليست أسوار سيفاستوبول، هذه بيروت، وهذا الميناء، وهذه صخور المدّور. التفت بجسمه كلّه، كأنه صار بلا رقبة، ورأى الرايات ترفرف فوق أبنية الكرنتينا. الراية العثمانية. ورايات القناصل. استمرت ارتجافة كتفيه. وانتبه إلى البرد القابض على كاحليه. برد البحر لا يرحم. خصوصاً مع هذه الغيوم الزاحفة على وجه السماء. رغم هذا استمرت الشمس ترمي أشعتها على المياه البعيدة. لو تتحرك هذه الغيوم، لو تبتعد، فتبلغ الأشعة هذه البقعة. انحدر من مدخل الكهف إلى حافة الماء. لكن الشمس ظلّت بعيدة. ماذا يفعل هنا؟ ماذا يفعل على هذا الشط؟ نظر إلى نقط الضوء تبرق في عرض البحر، عدد لا نهائي من نقط الضوء، صفراء وفضّية. نظر إلى قطرات الضوء وضاع فيها. كانت تموج على وجه البحر، تهبط وترتفع، قطرات ضوء لا تشبه الضوء. ارتفعت القطرات وسبحت متهادية فوق الماء. تعلقت في الفضاء وملأت عينيه. تخلص من العباءة الرطبة. وتخلص من ثيابه.

هواء الخريف هبّ عليه لاسعاً. غطس في البحر. غاص إلى الأعماق ورأى شبكة الضوء، تتفرع، بعيدة بعيدة، إلى حيث يسبح. غاص تحت الماء. رأى صخوراً غارقة في ظلال الماء والغيوم. أغمض عينيه وسبح كما تسبح حيوانات البحر. تدفقت في جسمه

طاقة عجيبة. منذ دهور لم يسبح. منذ دهور لم يغطس إلى الأعماق. سبح حتى شعر بالدفء الغامض يغمر رقبته، يُركب فقرات ظهره من جديد. هذه اليد التي لا تُرى، يد معمولة من ماء فاتر الحرارة، ماء سخّنته شمس النهار. يد خفية الأنامل، هذه اليد الحلوة الدافئة. مرّت اليد على رقبته. مرّت على ظهره. كأنه يمسد رقبة قطة. فروة قطة قاعدة في الشمس. فتح عينيه لحظة ورأى نقط الضوء. من تحت الماء بدت زرقاء اللون. زرقاء وذهبية. كانت تبرق بالحرارة. نزلت الحرارة في عينيه. أطفأت البرد القاتل.

عندما خرج من الماء رأى ناراً كبيرة تشتعل على بلاطة المدوّر. هذه البلاطة يُسمّونها «منار المدوّر». عندما كان صغيراً يسبح مع علي الصغير ابن الخياط حمادة الأبيض كان علي يبصر النار وهو في قلب البحر، بعيداً في الجانب الآخر من المرفأ. يبصر النار ويصيح ويسبح صوبها. وجهه يغطيه نمش أحمر. ويسبح كالسمكة. غرق في تيارات عين المريسة. عمر لم يغرق.

ماذا أبقاه سنةً على الشطّ الصخري؟ النار أبقته. على هذا الشط الممتد من المرفأ إلى الكرنتينا مجموعتان من البيوت: مجموعة بيوت واطئة نصفها حُفر في الصخر ويسكنها صيادون (ليست مساكن حقاً. يتركون هنا القوارب وعدة الصيد وبعض أغراضهم. لا يلازمون هذه البيوت إلا صيفاً. في الشتاء يغمر البحر مداخلها.) ومجموعة بيوت مصنوعة من الطين وجذوع الأشجار ـ وبعضها بيوت حجر ـ قائمة في جوار الكرنتينا. هذه البيوت تخلو من الرجال. فيها عائلات، فيها نساء وأولاد، لكن الرجال هنا قلّة. بعد «حرب الستين» امتلأت أبنية الكرنتينا بعائلات نازحة. هجمت عليهم الأوبئة في المكان الضيق الأسود وحصدتهم. من نجا نزح بأمرٍ من الحكومة إلى خارج

الكرنتينا. سكنوا هنا. نساء مع بنات وصبيان. كن يغسلن ثياب المسافرين الذين ينزلون في الحجر الصحي أربعين يوماً بحسب القانون. حراس الكرنتينا يستدعونهن أحياناً لشؤون أخرى، بينها الطبخ. مع الوقت زاد عددهن. إثر خروج الجيش الفرنساوي من البلد التحقت بهن مجموعة جديدة: النساء الجديدات بينهن بربرية بائعة هوى أتت على بوابير الجيش الفرنساوي تحمل مظلة ملونة وتلبس عقوداً خرزاً وثوباً أخضر من الحرير المشجر. لم تصمد على الشط طويلاً. تراجعت مبتعدة عن البحر حتى بلغت السوق العمومي. وبقيت في السوق العمومي. النساء الجديدات الباقيات على الشط ـ مع أولاد بعيون زرقٍ وخضرٍ يغطي رؤوسهم الشعر الذهبي ـ صمدن. تعلَّمن من النساء القديمات غسيل الثياب. تعلمن طبخ الرزّ وطبخ البرغل وطبخ العدس. الصغار يحملون الثياب بين الكرنتينا وبيوت الغسيل.

عمر البارودي سكن بيتاً يجاور هذه البيوت. بُني عند بناء الكرنتينا، ويسكنه الرجل الذي يوقد المنار. الرجل عجوز، بات حمل الحطب ينهكه. كل غروب عليه أن يُكوم جبلاً من الحطب والعيدان اليابسة على البلاطة. طوال الليل عليه أن يحفظ النار لاهبة متأججة عالية. رموشه احترقت ولم ينتبه. أظافره احترقت ولم ينتبه. لكن حمل الحطب كسر ظهره. وجهه التصق بالأرض ولم يعد يقدر. الأولاد يساعدونه. يطلعون على صخور المدور إلى غابة الرميل إلى حرج الصيفي المحروق ويجلبون من هناك العيدان والأغصان، يجّرونها على المنحدر ويركضون. لكن هذه لا تكفي. والعمران زحف على الحوج المحروق. والنار لا تشبع. كل غروب يُكوم الحطب. وكل صباح يرى الرماد يغطي البلاطة. عندما رأى رجلاً

بطول مارد يقترب منه حاملاً جذعاً، ظنّ أنه يرى جنّياً. أسقط المارد الجذع في النار، رسم في الهواء إشارة بيده كأنه يلقي السلام، ثم جلس على البلاطة. جلس لحظة ثم قفز متراجعاً. البلاطة تحرق. الحجر كأنه خرج من بركان. جلس عند الحافة ينظر إلى النار ويده ممدودة على ركبته، يستقبل دفء النار في بطن كفّه. نظر العجوز إلى المارد الأبيض الشعر. نظر إلى المارد يرفع يدين حقيقيتين ويكبس رأسه بين يديه فيقطر الماء من أذنه المشرومة. يعرف هذا الرجل. «هيدا خيّ حج بو حسين». اسمه عمر البارودي.

ارتاح العجوز عندما تولى عمر البارودي مساعدته. ارتاح وصار يذهب إلى بيت ابنته في القبو تحت جامع السراي ويقعد عندها. عمر وجد في عمله الجديد راحة أيضاً. وجد راحة ووجد دفئاً. كان ينظر إلى النار ترتفع إلى القبّة المظلمة، كان ينظر إلى اللسان الأزرق يندفع وهاجاً إلى فوق لاحساً بطن السماء، فيشعر باليد الخفية على رقبته، على ظهره. زال عنه برد القُرم. عادت إليه قوة. ونسي حارة البارودي. الشيخ الدرزي الصيّاد جلب له بطانيات صوف وصنانير وسكاكين وطنجرة وبعض الأغراض من الحارة. أخوه «حج بو حسين» جاء وزاره وجلس عنده مع بكره حسين. الثلاثة جلسوا قبالة البلاطة والبحر المختض وشربوا قهوة غلاها عمر البارودي على جمار الليلة الماضية. يستطيع أن يشوي خروفاً على هذه الجمار. جلسوا قبالة البلاطة فهبّ هواء البحر ولفح وجوههم بموجات الحرارة. الحاج أبو حسين ضحك وقال: «كأنها الخماسين». عندما ابتعدوا قليلاً لفّهم البرد من جديد. حسين الذي يعرج ويحمل عصا سأل عمه عن البيوت تحت الكرنتينا، بيوت جيرانه. عمر قال إنه لا يعرفهم، الصغار يأتون إلى البلاطة أحياناً،

لكنه لم يرَ رجالاً. النساء غسّالات في المحجر، لا يعرفهن.

حنّة مسابكي البستاني سمعت أن البلد مملوءة مهجّرات غسَّالات فقالت لأختها مريم «لا تدعكي لا تدعكي، انظري يديك كيف تقشرت». طلبت من خليل أن يعثر على غسَّالة تساعدها في البيت. ضحك زوجها وقال «تساعد مريم؛ أنت ملكة».

بات يتجنب أن يضايقها. قال لأبيه أنه محظوظ، ليس في بيروت كلها واحد محظوظ مثله. الأب هزّ رأسه. وافقه الرأي وقال كان حظك اكتمل لو تزوجت أختها أصلاً.

الأب يحبّ مريم. لا يميل إلى حنّة. حنّة هي أيضاً تتكلم بالسوء على أهله. لسانها مذراة. وأكثر ما يستغربه فيها أسئلتها التي لا تنتهي عن الناس الذين يعبرون تحت شباكها. رأت حنّة تاجراً مسلماً مقصَّب العباءة أبيض العمامة يدخل الخان المجاور. خلفه يسير عبدان تلمع بشرتهما السوداء الصقيلة. عبدان كالبرجين. والسيد على كتفه شال من الكشمير الثمين. وفي يده مسبحة بحبّات ذهب. «من هذا» سألته حنّة. قال هذا صاحب الخان. سألته هل هو متزوج، هل عنده أولاد، وأين بيته، في الخان؟ ضحك (لماذا يضحك هذه الضحكة) وقال الحاج البارودي عنده ثلاثة أبناء وعنده بنات وعنده زوجة وعنده حارة قرميد في بطن البلد وعنده بيوت كثيرة يؤجرها ونحن أول نزولنا من الجبل استأجرنا عنده. حنّة سألته عن أبنائه الثلاثة، هل تزوجوا؟

حسين البارودي يُرى على الطريق بين حارة البارودي وحانوت التبغ المجاور لحارة اليهود. يُرىَ مرات عابراً ساحة البرج داخلاً خان أبيه. ومرات يخرج من الخان مع أبيه، يعرج ويضع يده الكبيرة على كتف الحاج كأنه يضمّه. لا يُرى في الجامع العمري إلا قليلاً.

الجمعة يقصد الجامع. يمر على أبيه في الخان ثم يمضي معه إلى صلاة الجمعة. عبد الغني يسبقهما وينتظرهما تحت القناطر. الطريق فشخة من البازركان إلى قناطر العمري. عبد الفتاح يجيء من الحارة أو من باب إدريس رِجلاً إلى أمام رِجلاً إلى وراء. عمر البارودي لا يُرى في الجامع. قالوا في بيروت: «يعبد النار عمر البارودي».

انتفخ بطن عائشة والحاج عبد الرحيم صلّى أن يرزقه ربّنا ابناً ذكراً. عنده حسين وعبد الغني وعبد الفتاح. إذا رُزق صبياً رابعاً يُسمّيه عبد الجواد. خطر في باله أن يُسميه «شاهين» ثم خاف واستقر على اسم أبيه. خاف على الصبي من الاسم. شاهين عاش حياة صعبة. عائشة تقول عندما تتمدد ساعة المساء: «هذا صبي، أعرف من حركته، الثلاثة أتعبوني بالحركة هكذا، البنت لا تُتعب كالصبي». سليمة (البنت الرابعة) دبّت على أربع ثم وقفت تستند إلى سيقان إخوتها ومشت. مشت وأكلت وتدوّر وجهها وتدوّر جسمها. ضحكتها تبهج القلب. تقول أشياء تضحك البيت وتملأ عائشة فرحاً. تتعلق بثوب صفية أينما ذهبت صفية. كأن صفية أمها.

كثر طلبوا يد صفية. وكثر خرجوا خائبين. لكن الحاج عبد الرحيم استسلم هذا الشتاء، بينما الأمطار تجري منحدرة في سوق الحدادين وسوق القطن إلى البحر. أعطى كبرى بناته لعبد الرحمن قرنفل نسيب صاحبه الشيخ رفاعة. عبد الرحمن قرنفل يتاجر بالحرائر والمنسوجات. عنده دكان قديم في سوق الفشخة (وَرِثه عن أبيه) ودكان جديد في سوق الفرنج. عائشة قالت لزوجها: اتركْ صفية تأخذ نصيبها، إذا لم تخرج من البيت تسدّ الباب على حوراء وزاهرة.

الحاج أبو حسين تضايق لخروج صفية. ثم رآها مسرورة في

بيتها الجديد بجوار جامع النوفرة فذهب عنه الضيق. أخذ لها هدايا وقال أمك اقترب وقتها وإن شاء الله عن قريب يكون لك أخ صغير. صفية التي تحولت امرأة بين ليلة وضحاها جلست على مسافة من أبيها. استمعت إليه يتكلم ويشرب قهوتها. خافت عليه وهو يحكي. للمرة الأولى في حياتها شعرت أنه ضعيف. ولم تستوعب من أين جاء هذا الشعور.

من تخاريم المشربية ترى صفية عشيرة آل الفاخوري داخلة جامع النوفرة وقت الصلاة. ترى جدها الحاج الإسطمبولي وترى أخوالها وأبناء أخوالها. تصلي. تعطي ظهرها للبحر كما علّمها أبوها وهي صغيرة. تعطي ظهرها للبحر وتستقبل القبلة (الجنوب) بوجهها وتركع. تبسط السجادة تحت المشربية وتصلي ركعتين.

من المشربية ترى بيت عبد الله الفاخوري. مرات تفتح زينب النافذة وتغسل الدرفة الخشب بالماء. تراها من هنا وترى كيف سمنت وانتفخ صدرها. جاءت وزارتها. كان المطر يتساقط رذاذاً. دخلت الباب وهي تنفض الماء عن حجابها وتضحك. جلبت معها مهلبية سكبتها في طبق عميق مدوّر عليه زخارف. أخبرتها أنها تساعد زوجها في نقش هذه الزخارف. رائحة الرزّ المطبوخ وماء الزهر فاحت وملأت البيت الصغير المتاخم لجامع النوفرة. صفية عملت زهورات على كانون الفحم. رحبت بزينب وملأت صحناً بالنقولات. قضمت زينب حبّة جوز طرية وقالت «لا أقدر أن أتأخر، تركت الصغير مع الجارة، وعلي بعد أن أمّر لحظة على أمي وأسلم عليها». صفية وضعت عسلاً في الكوب وسكبت الزهورات وسألتها عن «عمتي زهرة» كيف أحوالها؟ زينب قالت إن أمها رجعت بنتاً، مذ تزوجت رجعت بنتاً، عندما تزورها تفكر أنها تزور أختها لا

أمها، لن تصدقي، حتى طبخها تغير، كانوا من قبل يقولون ـ خصوصاً أحمد، أخوها أحمد لا يعجبه العجب ـ أن طبخها لا يؤكل، أنها لم ترِث عن «ستي سهيلة» النفس الطيب، لكن الآن تطبخ طعاماً ولا أشهى، المرسلون الدكاترة صاروا يزورون عبد الله سلوم ويأكلون عنده.

ضحكت زينب وهي تقضم حبّة جوز أخرى وقالت إن أمها ملأت البيت بعناقيد الفليفلة الحرّة. قالت إن الدكاترة الأميركان مثل الكوشيين يحبّون الأكل الحرّ. جلبوا من وراء البحر، من بلادهم البعيدة، بزور فليفلة تحرق اللسان حرقاً، القرن منها ينبت صغيراً مدبب الرأس، وأمها زهرة تسمّيها «صنوبرية». عندها شتلات مزروعة في الفخارات أمام النافذة. الشتلة خضراء صغيرة حلوة الأوراق تزهر في وقت القزّ. والقرون تنبت غزيرة على الفروع. ملساء لامعة الخضرة. إذا لمستها بإصبعك ثم فركت عينك تدمع عينك. الأميركان تعلموا من أمها زهرة أكلات كثيرة. وزكريا ـ أنت تعرفين زكريا ـ زكريا يذهب مع الياس فواز إلى شط المدوّر ويجلب من هناك سمكاً لا يُصاد إلا في ذلك الخليج. قالت زينب إن أمها تعمل هذه الأسماك ـ التي يصيدها «خالي عمر» ـ في التنور: تفتح السمكة الطويلة طول الذراع وتحشو جوفها بقرون الصنوبرية اليابسة الحمراء وبدوائر الليمون الحامض بقشره، ثم تدهنها بزيت الزيتون وتلفها في أوراق الموز العريضة وتتركها في جوف التنور حتى تفوح الرائحة. صفية اشتهت السمك في تلك الساعة.

عمر البارودي القاعد في بيته عندئذٍ، على بعد كيلومترين أو ثلاثة شرقاً، نظر إلى الجمار في الكوانين الموزعة حول فرشته وتثاءب. هذا وقت نومه. علّم نفسه أن ينام في ساعات الصباح

وساعات الظهيرة. ليلاً لا ينام. وحتى في ساعات النهار لا ينام نوماً عميقاً. تثاءب ناظراً إلى الكوانين المملوءة جمراً. كل «بيوت الغسيل» تأخذ نارها من البلاطة. الصغار أخبروه أن العجوز كان يمنعهم من التقاط الجمر في البداية. بعد أن صاروا يجلبون له العشب الجاف والعيدان اليابسة تركهم يأخذون ناراً. لم يسمح للنساء بالدنو من البلاطة. قبل سنوات جاءت إحدى النساء وجلست بجوار البلاطة ونامت. الحرارة أنعستها فنامت. النار لقطت طرف ثوبها وشبّت في القماش. لولا أن العجوز رآها تركض مشتعلة بالنار، لولا أنه ركض خلفها وأسقطها على الأرض (العبيطة لم تعرف أن النار تتقد أقوى إذا ركضت)، لولا أنه لفّها بالجبّة وأطفأها، كانت ماتت أمام عينيه. احترق لحم ساقها وجنبها وظلّت تعرج شتاء أو شتاءين ثم انفجرت حروقها وماتت. دهنوا الحروق بالزيت. لكن النار أكلت اللحم. والعظمة البيضاء بانت. لم تنجُ. والعجوز منع اقتراب النسوة من البلاطة.

الصغار يحفظون مسافة بينهم وبين النار. لا يلقطون جمراً لأمهاتهم إلا ساعة الصباح، عندما تهمد النار ويهبّ هواء الصباح ويملأ الشط رماداً ساخناً. عندئذٍ يقتربون بالملاقط الحديد ويأخذون جمراً. سمّوا الرجل الأبيض الشعر «عمي عمر». جلبوا له رزّاً مطبوخاً في قصعة عميقة. صاد حنكليساً فسلخه ونظفه وقطعه وعمل شوربة وأطعمهم عندما أكل. صاروا يجيئون إليه ساعة المساء. يقعدون أمام النار ويحدثونه. هو نادراً ما يفتح فمه.

أخبروه عن امرأة كانت تسكن بيت الطين جنب بيته. امرأة فرنساوية، يذكرونها تفتح باب بيتها عندما تغيب الشمس وتعلق فانوساً بزجاجة على الباب وتقعد على كرسي القش تحت الفانوس

وتغني بلغتها الغريبة أغنيات غريبة. هم لا يعرفون من أين جلبت الفانوس. يسمعون كلمات الأغنية ولا يفهمون غير كلمة أو كلمتين. هذه أسماء بلدان. ولا تتغير. تلفظ حروفها ناقصة. لكنهم يفهمون أن الأغنية عن بلدها والحياة في بلدها.

«عمي عمر» يسمع الصغار يحدثونه وهم يمصمصون الحسكات ويفكر أنهم ينقلون حديث أمهاتهم. قالوا أن المرأة كانت تبقى قاعدة تغني حتى يرغمها البرغش على الدخول. قالوا كانوا يرونها تغني وتعمل حركات بيديها فيظنون أنها ترقص ولم يعرفوا إلا بعد وقت أنها كانت تكشح البعوض؛ عرفوا عندما صاروا يذهبون إليها وتعطيهم زبيباً.

كان يأتي إليها جنود من المحجر. ومرات تذهب معهم إلى المحجر. يأتي واحد منهم قافزاً على صخور الشط ويأخذها وتبقى في المحجر ليلة أو ليلتين ثم تعود. ولا تحمل غسيلاً أبداً. مرضت وماتت وبيتها صار خربة.

«عمي عمر» لا يعرف لماذا يفكر في هذه المرأة وهو ينظر إلى الجمار سامعاً المطر يتساقط على السطح. من كانت تلك المرأة؟ لماذا بقيت هنا عندما ذهب الجيش الفرنسي؟ ولماذا تخطر في باله؟

كفّ المطر عن التساقط وسطعت الشمس. تباعدت الغيوم. خرج النمل الطيّار من أوكاره. ملأ أزيزه الفضاء. التفّ بعباءته وخرج إلى الخربة. هذه الحيطان الطين كانت بيتاً؟ السقف تساقط. سقف من الوزال والأغصان والتراب. لا بدّ أن الماعز أكلت وزّال السقف. رأى رعاة يعبرون فوق الصخور. الأغنام تتقافز وتثغو. ولعلّ الصغار أخذوا أغصان السقف إلى «البلاطة». على الأرض إبريق فخّار محطم. الحيطان الباقية تقع إذا لطمها. القش الممزوج

بالطين نبتت عليه طحالب. مرّات ينشر عباءته على هذا الحائط فيرى عليها حشرات بيضاء صغيرة تشبه النمل لكنها أصغر. أخبروه أنهم دفنوا المرأة في أحد الكهوف. العجوز جرّها إلى هناك. وهم ساعدوه في نبش التراب وحفر الجورة. هم أم أمهاتهم؟ لم يسأل. يرى النسوة خارجات في الصباح إلى الكرنتينا محملات بالسلال. السلال ثقيلة، كلها ثيّاب، وبعضها مبلول لم ينشف بعد. يراهن من بعيد. ولا يرفع يده. ولا يلقي سلاماً.

جاء الشتاء واختفى الصيادون. كان يراهم بين حين وآخر، مقبلين من جهة البلد. الواحد منهم يسير منكفئاً لانحنائه الطويل على المجدافين. يُخرجون القوارب من كهوفٍ سدّوا مداخلها بالطين والحجارة والأصداف وعملوا لها أبواباً يربطونها بالحبل.

الوقت قبيل الفجر. النجوم تملأ السماء. ويرى صياداً في الضوء الفضيّ يجرّ القارب إلى حافة الماء. إذا كانت النار عالية على البلاطة يقف الصيّاد منتصباً جنب قاربه وينظر إلى النار. ينظر إلى النار قبل أن يقعد في القارب ويجذف إلى قلب البحر. كان يرى الصياد واقفاً والمياه غمرت ركبتيه. ثم يراه يقفز إلى القارب وينحني ملتقطاً المجذافين. النار العالية تلقي نورها الرجراج على صفحة البحر. والقارب يخترق بقعة الضوء ثم يختفي في الظلام.

جاء عبد الكريم النصولي وزاره. جلسا قبالة البحر المعتكر. شربا زهورات. وأكلا حلاوة طحينية. صاحبه من أيام القُرم جلب الحلاوة ملفوفة في ورقة سمراء سميكة. الصغار أخذوا الورقة عندما رماها وصاروا يلحسونها. نادى «عمي عمر» عليهم فاقتربوا. على أفواههم أثر الزيت. قطع لهم من قالب الحلاوة وأعطاهم.

عندما كان نازلاً في الحارة على بعد فشخة من بيت النصولي،

لم يأتِ الرجل ويزوره. الآن، وهو قاعد خارج البلد، جاء إليه. كُثُرٌ يأتون. الصيادون يُكلمونه. قالوا ان ناره تُرى من آخر البحر. بعد أن صار يوزع صناراته على صخور الخليج كَثُرَ طالبو صيده: يعرف «منازل» لا يعرفها غيره. لا ضرورة أن يدخل إلى عرض البحر الأخضر. من هنا يصيد السلطان إبراهيم ويصيد اللقز الصخري. يعرف أين يطرح صنانيره. إذا غطس إلى الأعماق رأى أسراب السمك تسبح بين الحشائش. بيديه يلقطها لو شاء.

زرع أوتاداً في شقوق الصخر على بعد خطوات من البلاطة. دقّ الأوتاد وجلب جلوداً من المدبغة. جلود فظيعة الرائحة. نقعها في مياه البحر يومين ولم تذهب رائحتها. نشرها على الأوتاد. شدَّها. وربطها بخيوط متينة مجدولة من شعر الحصان. هذا شعر الذيل. بالأسنان لا تقطعه. الأولاد تقافزوا حوله. ينظرون إليه وهو ينصب خيمته. بينما يمسح العرق عن وجهه رأى السفن الراسية خارج مياه الكرنتينا. كفَّ عن الحركة. جلس على الأرض. الأولاد ابتعدوا عندما لاحظوا وجومه. مرّات يخافون من الرجل الأبيض الشعر. ينظر إليهم نظرة غريبة. فيركضون مبتعدين. كأنه في برقة عين تحول إلى غول. وجهه يتغير. يرون وجهه مقفلاً، قاتماً، يربد كسماء الشتاء، كصفحة البحر تحت الغيوم الداكنة. يهربون ولا يرجعون إلا بعد أيام.

كان الليل في نصفه، والظلام يطمس البحر، عندما جاءت للمرة الأولى. رآها قبل ذلك بساعات، أول المساء، وهي تطبخ أمام باب بيتها. رآها ورأى أولاداً يحومون حول القدر المسوّدة ويشيرون إليه، وإلى البلاطة وكومة الحطب التي لم يوقدها بعد. لاحظ أنها تحدق إلى هذه الجهة، مع أنهن عادة يتجنبن التحديق. وعندما قامت

والملعقة الطويلة في يدها ودخلت البيت ثم خرجت لاحظ أنها لم تكف عن النظر إليه.

كان قاعداً أمام النار، يستقبل بكفه الوهج القوي، ورائحة الطعام الطيب تصل إليه. عادة لا تطول السهرة. يهجعن عند هبوط الظلام. يرى القناديل على العتبات، قناديل فخار بدائية. أطباق فخار فيها زيت. وعلى وجه الزيت يطفو الفتيل. لا تشتعل إلا قليلاً. ثم تسود الظلمة البيوت. أحياناً يراهن خارج الأبواب، عند غبشة المساء، ينشرن غسيلاً أبيض. ثم يدخلن ويقفلن الأبواب. فتسود السكينة. يسمعهن أثناء نشر الغسيل أو غسل القدور والأطباق. يسمع لغواً متداخلاً وضحكات مقطوعة. يتحرك كأنه سيقوم ويترك البلاطة، ثم يعود إلى قعوده. عادة لا تطول السهرة. لكنهن في هذه الليلة طبخن هذا الطعام الفوّاح الرائحة. شمّ رائحة القمح المسلوَق، شمّ رائحة العظم واللحم، وقال هذه «هريسة». لا بد أنه عيد عندهن، فيطبخن «هريسة». لا يطبخن إلا رزّاً أو خضراً أو حبوباً. ظلّت الضجة تبلغه حتى بعد ارتفاع الشعلة فوق البلاطة. هذه ضجة الأولاد. سمع المغرفة تقرقع على قعر القدر العميقة مرة تلو أخرى. شغل نفسه بالنار. وبالتحديق إلى قناديل السفن في عرض البحر. وأكل سمكاً مشوياً. ابتكر طريقة جديدة في شي السمك. حفر تحت البلاطة جورة. إلى جهة خيمته. بطّن الجورة بالطين. فصارت تنوراً. يشوي السمك في الجورة الآن. ينضج على مهل. السمكة الصغيرة لا تحترق ولا تتفحم.

الضجة تقطعت ثم سكنت وماتت. مع هذا ظلّ هواء الليل يجلب إليه الرائحة ويبعثرها. الهواء قليل هذه الليلة. سمع نباح كلاب. سمع مواء قطط. فكر أن رائحة الطعام تجذبها. كان يفكر

في القطط والطعام وينعس أمام النار في مدخل خيمته عندما رآها. خيّل إليه أنها تخرج من ألسنة النار نفسها. كانت تحمل قدراً فخاراً بغطاءٍ فخارٍ. تبتسم مكشوفة الوجه. والمنديل الأخضر يلفّ شعرها ويخفي أذنيها.

عرفها من طول قامتها. عندما وقفت حاملة الملعقة وراء القدر ساعة الغروب لاحظ أنها طويلة. تجمدت على بعد خطوة، تحت سماء مظلمة، وانتظرته واقفة. شرر المنار تطاير فوق رأسها. تطاير حول جسمها. عمر البارودي قام واقفاً. لم يتكلم. مدّت القدر أمامها. لم تتكلم. رآها تفتح فمها، رأى أسنانها، رأى رأس لسانها، أرادت أن تقول شيئاً. لم تتكلم. الهواء ساكن. البحر رتيب الصوت، يعجّ على بعد خطوات عجيجاً منتظماً لا يتبدل. الموج يلطم الصخور ويرتد ثم يندفع ويلطمها مرة أخرى.

باتت تنحدر إلى خيمته كل ليلة. تنتظر حتى تكتمل السكينة. ثم تخرج على رؤوس أصابعها. عندها ثلاثة أولاد، صبي وبنتان. وصفتهم له. قال «أعرفهم». إذا غاص فيها يتقوس ظهرها وتتقوس رقبتها إلى خلف. كأنها ستنكسر تحته. الخيمة كالفرن. اللهب يرقص على الجلود المشدودة. قالت له إنها لم تفعل هذا أبداً. «والأولاد؟» سألها. فغمر الدم وجهها. كان يرى الدم يغطي وجهها. كان يرى الدم يغطي رقبتها البيضاء بياض الزبدة. يقبض على كتفيها المدوّرتين بيديه. يرفع جذعه لحظة. ويرى جسمها يتبقع باللون الأحمر.

قالت إن زوجها مات في القلعة. الصغير كان في بطنها، لم تكن قد وضعت بعد. حملت البنتين تحت إبطيها وركضت من وادي التيم إلى صيدا. قالت إنها لم تركض. قالت إنها مشت. ثم جاء

رجل ووضعها على دابة وحملها عبر بساتين مملوءة زهوراً بيضاء إلى صيدا. حملها هي والبنتين والطفل في بطنها. قالت إنها ركضت على صخور وأشواك والبنت سقطت منها. «بقيت علامة فوق عينها». زوجها مات جوعاً. قبل أن تبدأ المذبحة. قبل أن تُفتح أبواب القلعة ويظهر الرجال بالفؤوس. قالت إن الناس جاعوا في القلعة عشرين يوماً قبل أن تبدأ المذبحة. الناس جاعوا عشرة أيام، ربما تسعة أيام، لكن اليوم الواحد كان بطول دهر. حبسونا داخل السراي ومنعوا خروجنا لشراء الخبز وجلب الماء. رطل الحبوب ارتفع ثمنه إلى سبعين قرشاً، إلى تسعين قرشاً، إلى ليرة عثملية كاملة. ثم لم تعد تجد في القلعة كسرة خبز واحدة. الماء صارت رائحته تقتل. ومن يشرب منه يصاب بإسهال أو يتقيأ سائلاً كالعشب أخضر. كنّا نرى الحراس على الأبراج يأكلون كعكاً وجبنة «قريشة». كنا نعرف أنهم يأكلون «قريشة» لأننا نراهم يرشّون عليها سكراً. وعندما بدأ الأولاد يموتون جوعاً كفّ الحراس عن الظهور على الأبراج. الرجال حاولوا كسر البوابة. ثم رأوا أن ذلك لن ينفع. لم يروا. سمعوا الذين في الخارج يضربون البوابة، يطلبون كسرها. إذا انكسرت البوابة من يمنع الخردق والبارود والبلطات؟ تراجعوا إلى الزوايا. الرجال ماتوا جوعاً أيضاً. الأولاد والنساء جاعوا وماتوا. والرجال كذلك. أخوها كان يحمل بارودة. تمكن منه الجوع. صارت البارودة تقع من يده. لم ترَ كيف قُتل. رأته يطلع على الأدراج عندما دخلوا. رأته يطلع وسمعت فرقعة البواريد. ثم أضاعته في الدخان والأصوات والوجوه المذعورة.

قالت إن زوجها مات جوعاً قبل يوم من المذبحة. كان إذا عثر على كسرة خبز، أو على عشبة تؤكل، أطعَمها وأطعم البنتين، وحرم

نفسه. قال لها إن معدته انطبقت وأنه ما عاد يقدر أن يبلع طعاماً. كأن حجراً يسدّ باب معدتي، قال لها. لكنها عرفت أنه يكذب. رأته في الليل والقمر أصفر مدوّر يتعلق كالرغيف فوق القلعة، رأته يكشط تراباً عن الحائط ويبلع تراباً. كان يأكل التراب والديدان ليشبع جوعه ولا يخبر أحداً. كثيرون أكلوا التراب وماتوا. اخضرَّت وجوههم. خرجت ألسنتهم سوداء من بين أسنانهم. ماتوا وهو يعصرون بطونهم ويلبطون.

قالت إنها لم تصدق عندما زعق الطفل الخارج من بطنها. كيف بقيّ حيّاً؟ كيف لم يمت؟ قالت إنها وضعت الطفل في الكرنتينا. جلبونا على بابور من صيدا إلى الكرنتينا. راهبة من راهبات البيزنسون أخذت الطفل إلى إمرأة أرضعته. لأنها هي لم تستطع إرضاعه. الحليب خرج من صدرها ماصلاً، بصمغ أصفر اللون كالصمغ الذي يخرج من الأذنين. قالت إن برد البحر لا يرحم في الليل، لكنها في هذه الخيمة لا تشعر بالبرد. «هذه النار مثل نار جهنم».

قالت أول نزولنا في المحجر جمعونا في قبوٍ تحت الأرض، وكنا نسمع الموج ليلاً يضرب الأساسات، وكانت المياه تدخل من الحيط، ولم يسمحوا لنا بالخروج من المحجر. أخرجوها من القبو مع ابنتيها لأنها حبلى. قالت إن الآباء اليسوعيين أشعلوا ناراً في باحة المحجر وطبخوا للجميع حبوباً ولحماً. إحدى الراهبات كانت تقف أمام قدرٍ ضخمة وتحرك القدر بعصا فتفور منها رغوة بيضاء، والأولاد يقتربون من القدر ويملأون قصعاتهم بالرغوة السكرية. قالت إنها حتى الآن لا تدري كيف نجت من القلعة وكيف بلغت هذا الشط. قالت إنها كل صباح، بينما الشمس تطلع من وراء الجبل،

بينما تحمل الغسيل وتتسلق منحدر التربة السوداء إلى أبنية المحجر، تنظر إلى النبات الأخضر عند حافة الطريق الضيقة ولا تفهم كيف بلغت هذه النقطة. قالت إنها رأت الناس في السراي يدبّون على أربع. الجوع حوَّلهم إلى حيوانات. في الليلة التي سبقت المذبحة رأت رجلاً يشبه الهيكل العظمي يتسلق امرأة تشبه عظمة. قالت إنها سمعت العظم يقرقع على العظم. غيمة نحيلة سوداء عبرت وجه القمر الأصفر فرأت الظل الممشوق يقطع الهيكل العظمي الراكب على المرأة. لم تصدق عينيها. وظنّت أنها تحلم حتى سمعت الصوت الخارج من كومة العظم. كانت ترى العظام والأضلاع تحت الجلد. ولم تستطع أن تغمض عينيها. وظلّت تحدق.

عندما جرت الدماء ورأت الأجسام تزحف فوق الأجسام وتتلوى أدركت أنها ماتت. ماتت. ثم سمعت ابنتيها الصغيرتين تبكيان. سمعت البكاء وأحسّت بالأصابع الصغيرة تشدّها من ثوبها، فانتبهت.

قالت إن البنت الصغيرة لا ترى إلا الأخيلة. دخان كثير دخل في عينيها. وقعت على النار. وهج البارود أعماها. كانت البواريد والغدارات تفرقع على مسافة إصبعين من وجهها. قالت إن رجلاً من قريتها كان يقاتل بالسيف والترس. كان يقفز فوق الأدراج والحيطان والرؤوس المتدحرجة. قالت إنه تعثر. قالت قطعوا رأسه ورموه فوق السور.

قالت إنها حملت الطفلتين كأنها تحمل بطيختين، كل طفلة تحت إبط، والصغير يلبط في بطنها. مشت على قبر زوجها ـ حفروا الباحة وطمروا الموتى بلا غسل ـ قطعت فوق الأجسام وخرجت من البوابة. زلقت على الدم، الدم كالصابون، زلقت وسقطت وقامت.

الموتى على الأرض كانوا يلقطون كاحليها. أصيبت بالطرش والعمى لكنها ظلت ترى وتسمع. قالت إنها لم تفعل شيئاً. فقط مشت. كيف تركوها تمشي، لا تعلم. لكنهم تركوها. وليست هي وحدها. كثيرات غيرها خرجن بأطفالهن أيضاً. ليست وحدها لكن الرجال قُتلوا. قالت إنها وهي تركب البابور في صيدا رأت الناس تشير بالأيدي إلى السماء ورأت أسراب الجوارح تغطي وجه السماء. قالت إنها لم ترَ العقبان لكنها رأت دخاناً. الدخان غطى السماء وتحول إلى غيوم سوداء كثيفة. قالت إنها وهي تسير هاربة عبرت حقلاً يفوح برائحة الجثث المتحللة. العقبان أجفلت وطارت من بين الأشجار ثم رجعت. قالت إنها هربت خوفاً من الطيور وأنها ما زالت تسمع زعقات الطيور في كوابيسها. رأت جثة تتحرك. كانت قاعدة تحت زيتونة ورأت جثة تتحرك. ثم رأت الغربان تخرج من بطن الجثة. قالت إن إمرأة على البابور كانت تبكي وتلطم وتقول إنها تريد الرجوع إلى بيتها. السفينة امتلأت بالناس. البكاء صمّ الآذان يطغى على صوت البحر. ابنتها أصابها إسهالٌ فظيع، لا تأكل شيئاً إلا ويخرج منها بعد لحظة سائلاً أسودَ. قالت إن هذه كانت الكارثة الحقيقية على السفينة ثم في قبو الكرنتينا. الرهبان وزعوا عليهم الأناجيل. وإحدى الراهبات أعطتها مسبحة من الخرز الأسود. حفظت الإنجيل في ثوبها مع أنها لا تفك الحرف. ما زالت تضع رأسها عليه ساعة النوم. لكنها أضاعت المسبحة. قالت إن أسنانها تؤلمها. أسنانها لا تدعها تنام ليلاً. قالت إن البرد يُحرك ألم أسنانها.

مرَّت الليالي. وصارت تدعوه إلى بيتها. لم تبالِ بألسنة الجارات وعيون الجارات. رأت نظراتهن ولم تهتم. سمعت الهمس

وراء ظهرها. يأتي ويأكل معها ومع الأولاد. تطبخ رزّاً. ويجلب السمك الذي يشويه تحت الأرض. يحفر عند البلاطة الساخنة ويضع سمكة المسقار في الجورة ثم يطمر الجورة بالطين. عنده غطاء فخار ويسدّ الجورة بالغطاء قبل طمرها فلا يعلق الطين بالسمكة. يحملها ساخنة على كفيه ويطلع إلى بيتها. الأولاد يضحكون وهو يرمي السمكة الكبيرة من يد إلى يد لئلا يحترق. يقشرها ويفتحها فوق الرزّ. ينزع حسكها ورأسها وذيلها. يأكلون لحماً أبيض شهياً مع الرزّ المطبوخ فيشبعون. الرجل الأبيض الشعر أسكت الجارات وأبعد عين الحسد. أسكت الجارات بالسمك. يصيد على طول الشط. يعطي الصغار سمكاً ويتركهم يأخذون ناراً من البلاطة.

هذا الشتاء رحمة. قليل العواصف. وموج البحر لم يرتفع حتى عتبات البيوت. قليل العواصف. والبرد محمول. عمر البارودي يشعل المنار الشتوي إذا سقط المطر غزيراً. المنار الشتوي عبارة عن بناء من الطين بعرض متر وعلو مترين يبعد عن البلاطة نحو عشرين خطوة. المطر غزير يبلّ البلاطة. فلا يشتعل الحطب. المنار الشتوي مجوف البطن بفتحة تطلّ على البحر وسقف مائل يخرج من فتحته الدخان ولا يدخل المطر. يوقد الحطب فيه ثم يتراجع.

اللهب يرمي ظلّه طويلاً وراء ظهره، مثل سيف أسود يشق صفحة البحر المضاءة. المنار الشتوي يرتفع على صخرة سوداء. الصخرة يغطيها السخام. يضيء اللهب قطعة من البحر، قطعة ماء مستديرة. المطر يبقبق كأنه يغلي فوق الصفحة المستديرة. قطرات تبرق بضوء النار. عمر البارودي يرفع وجهه وينظر إلى خيوط المطر. ماذا قالت له؟ قالت إنها لا تعرف كيف وصلت إلى هذا الشط. يملأ الكانون جمراً ويتسلق المنحدر الخفيف. يجدها في انتظاره.

تساقط المطر خمسة أيام متعاقبة. لم تهبّ الريح. لم تنفجر رعود وتهزّ البيوت. لكن المطر وقع منتظماً خمسة أيام. وليس رذاذاً. المياه جرت في الطرقات المنحدرة إلى البحر. طريق الشام تباعدت عليها مستنقعات يغلي على سطوحها المطر. الأشجار تقطر بين البيوت في «حارة البارودي». «الطريق البيضاء» يغمرها الماء. والدجاج قابع في القن ينبت العفن على ريشه.

رأت عائشة الثقيلة البطن مناماً: رأت رجلاً يتدثر بغطاء صوف يبحث بين صخور الشط عن ديدان لصنارته. الرجل يشبه رجلاً تعرفه، يشبه رجلاً من العائلة. لكن وجهه محجوب بظلمة وأمطار. رأت جورة تكبر تحت أصابعه ورأت المطر يغمر الجورة. في منامها سمعت وشيش المطر على أوراق الجوزة وراء الحائط. الجوزة لم تفقد ورقها كله. عادة تكون عاريةً بيضاء الأغصان في هذا الوقت. لكن هذا الشتاء كثير الشمس. تمطر وقتاً ثم تصحو ويرجع الدفء إلى الأرض وزهور البابونج تظهر صفراء التاج ببتلات بيضاء فوق سطح أم هند. الزهور تظهر والعشب الأخضر الطري يظهر. ثم يقع المطر من جديد والشمس تتغطى بالغيم. الجليد لم يحرق أوراق الجوزة. سقط قسم من الورق. اصفرّ وتساقط. الأوراق الخضراء الباقية محروقة الحواف بالبرد، ترتجف تحت حبّات المطر. رأت حبّات المطر تقطر من حافة الورقة الخضراء المبقعة بالبنيّ والبرتقالي. رأت الرجل تحت شجرة الجوز يأكل خبزاً وعسلاً، ودثار الصوف على ظهره. كان حافياً. ورأت أن أصابع قدمه تحفر الرمل، لا تحفر تراباً، تحفر رملاً أصفر كالرمل على شط البحر. الجورة تكبر والمطر يملأ الجورة وهي تزلق في الجورة. لا تعرف كيف تضاءل جسمها في المنام ـ أو لعلها الجورة تكبر ـ ولا تشعر

إلا والماء غمر رقبتها وهي تتمسك بحواف الجورة وتحاول أن ترفع جسمها إلى خارج الماء. انتبهت أنها تتخبط في مياه البركة وراء بيت ابنها حسين. «بيت المرحومة أم شاهين». عندما انتبهت خفّ ذعرها. نادت على زوجة ابنها لتأتي وتساعدها على الخروج. هذه الزوجة الصغيرة (نسب) لم تحبل بعد. مرّ الربيع الأول ثم الربيع الثاني ثم الربيع الثالث. ولم تحبل. الناس يتفاءلون بالربيع، بموسم الحرير وزهر اللوز والبراعم تخضر على الشجر. لكن نسب لم تحبل. خبطت عائشة الماء بكفّها. استندت بأصابعها الخمسة على الماء، ووقفت. الماء يقطر من بطنها العالية كجبل. الماء يقطر من شعرها الذي انحلت جدائله. ذابت الحنّة كالوحل على رقبتها. كيف نسيت أن تغسل رأسها من الحنّة؟ هذا غريب. رأت على حافة البركة فخارة مكسورة. وفي قلب الفخارة رأت حبّات تين معقود بقطرٍ وجوزٍ ولوزٍ وسمسم. مشت في الماء وخرجت من البركة. أخذت الفخارة المكسورة وقرعت الباب. هذا الباب يشبه باب «دار البرتقال». خشبه منفوش بالمطر، تنبت طحالب في شقوقه. انفتح الباب فرأت امرأة لا تعرفها، تلف رأسها ووجهها بمنديل أبيض وتلبس ثوباً أسود كالفحم. «تفضلي، تفضلي، كنت أنتظرك»، قالت المرأة. عائشة استيقظت وقلبها في زلعومها. كان العرق يبلّ شعرها ورقبتها. قامت إلى النافذة ودفعت الدرفة فرأت خيوط المطر، تتألق كالفضة في قلب الظلام، وتنسج شبكة حول مئذنة العمري المستطيلة.

الفجر يشقشق والديكة تصيح. من بعيد، من برية رأس بيروت، يُسمع عواء بنات آوى. عائشة ضايقها المنام. الحاج عبد الرحيم طمأنها وقال «نمتِ ونفسك تطلب مربى التين». أزاح عنها السحابة

بضحكة وتربيتة على الظهر ثم خرج من الحارة. المطر تقطّع في هذا الصباح ويبدو أن «العيانة» انتهت. الغيوم تتباعد في الأفق. ومن النوافذ الشمالية ترى الأزرق يسطع فوق البحر. السفن الراسية وراء الصخور بدت لها في هذا الصباح بشارة. قبيل الظهيرة، بينما زاهرة وحوراء تساعدانها في طبخ الشيش برك، كفّ المطر عن التساقط. سمعت صيحات في الخارج ففتحت الباب.

رأت أولاداً يتقافزون على «الطريق البيضاء» والمياه تطرطش. بانت الشمس. انفجر بوقٌ بحري هادراً. أم هند أسرعت إلى القنّ وأطلقت دجاجاتها. قفز الديك على سطح القنّ وصاح. عرفه الأحمر اهتزّ بصياحه. نفش ريشه الأبيض ورفع عينيه صوب الشمس وكرر صياحه. أجابه صياح ديكة من سوق القطن ومن سوق الحدادين. كانت زاهرة تعدّ القلية وخرجت من البيت حاملة مقلى الفخار الحار والملعقة الخشب. فاحت رائحة البصل واللحم والبهار. حوراء خرجت هي الأخرى تُكور في يدها العجين مثل قرص الكبّة. سليمة جاءت تتقافز وتوشك أن تتعثر بالثوب الزهري الفضفاض. ظهرت ثلاثة رؤوس ماعز عند نهاية «الطريق البيضا»، جنب بيت الصيّاد. من سوق الفشخة، من وراء باب الحارة الموارب، جاءت أصوات جذلى. انفتحت درفات الشبابيك وأطلّت وجوه ضاحكة. الماء ظلّ يقطر من الجوزة، ومن التوتة، ومن الجميزة، حتى العصر.

أكملن الطبخة قاعدات في الشمس. قالت عائشة إنها اشتاقت إلى هذا الضوء الحلو الدافئ. بينما اللبن يسخن في القدر الكبيرة جاءت فراشة صفراء اللون وحطّت على العتبة. كانت بحجم الكفّ. وعلى جناحيها ما يشبه العيون السوداء. تفاءلت عائشة بالفراشة. مع

أنها ليست صغيرة كـ «الباشورة»، ولا ترفّ أمام الوجه مثلها. مع هذا تفاءلت بها. وعندما طارت عن العتبة وارتفعت أعلى فأعلى، وغابت فوق القرميد، ظلّ أثرها في عيني عائشة.

اللبن يسخن وهي تحركه لئلا يلصق بالقعر ولئلا ينفصل الماء عن الزبد. النشاء ذاب في اللبن. والبنتان انتهتا من حشو العجين بالتقلية. طلبت من زهرة ألا ترش سماقاً كثيراً فوق خلطة اللحم والبصل المقلي والصنوبر. وطلبت من حوراء ألا تُسمِّك العجين. حوراء ممشوقة الأصابع، لينة. البنتان تغيرتا بين ليلة وضحاها. صفية خرجت من باب البيت، وهما تغيرتا ما ان غابت وراء باب الحارة. كفَّتا عن اللهو. وفارقتا الكسل. سليمة الصغيرة تطاردهما، وهما تنهرانها.

أسقطت عائشة أقراص الشيش برك في اللبن ووجهها يضحك. نور الشمس حلو. خصوصاً بعد المطر. وأصوات بناتها حولها أبعدت عنها أضغاث المنام. كأن الأصوات واللمسات تطرد ذلك النداء الغامض: «تفضلي، تفضلي». من كانت تلك المرأة بالمنديل الأبيض في بيت ابنها حسين؟ قالت «تفضلي» وسمعتها تسعل سعلة المسلولين. من كانت ولماذا لم تخرج زوجة ابنها وترفعها من البركة؟

عبد الغني سيجيء من مخزن البازركان ليتناول الطعام مع أهله. الشيش برك أكلته المفضلة. عائشة أرسلت زاهرة كي تدعو حسين وزوجته. أرادت أن ترسل عبد الفتاح فلم تجده. أين عبد الفتاح؟ يظلّ يختفي. يكون هنا وفي لحظة يتلاشى. ولا يظهر من جديد إلا مع صلاة العشاء.

عبد الفتاح يتسلق شجرة الرمان وراء بيت أم هند ثم ينط على

سور الحارة وينزل في الجانب الآخر. يقطع أعقاد سوق الحدادين قافزاً فوق برك الماء. ويذهب إلى سوق الفرنج أو إلى باب إدريس. لا المطر يمنعه ولا البرد. يكون خارجاً من وراء دكان ويرى صاحبه موسى أمام وجهه. موسى مثله: يغافل أمه زهرة ويغافل أباه الجديد ويفرّ من البيت وينحدر من باب يعقوب إلى باب إدريس أو سوق الفرنج. عبد الودود الحصّ يراهما راكضين بين الناس والحمير فينادي على ابن معلمه، ينادي على عبد الفتاح ويعطيه فستقاً وقضامة. مرات يعطيه راحة الحلقوم. عبد الفتاح يعطي صاحبه موسى نصف ما يأخذ. لا يقعدان هنا، أمام حانوت التبغ، طويلاً. عبد الفتاح يخاف أن يأتي أبوه ويراه فالتاً في الطرقات. يتجنب هذه المواقف. المطر يتراجع. والصديقان اللذان افترقا وقتاً ثم عثر أحدهما على الآخر من جديد قررا الذهاب في مغامرة: قررا زيارة المنارة الجديدة في رأس بيروت.

بينما يقطعان حقول التوت الموحلة في وادي أبو جميل تعثر موسى نقوزي (الأميركان سمّوه موسى سلوم؛ القسّ دانيال بلس يذكره في «الرسائل»). تعثر بجلاميد التراب فاندفع إلى أمام لئلا يقع وحاول أن يتوازن لكنه بلغ حافة الجلّ وتعثر مرة أخرى وسقط في الجلّ التحتاني. عبد الفتاح كان يمازحه، دائماً يتدافعان وهما يركضان تحت الأشجار التي تقطر ماء. يتدافعان ويقفز أحدهما ويطرق غصناً بيده مُسقطاً الماء على رأس الآخر. عندما زعق موسى ألماً كفّ عبد الفتاح عن الضحك. قفز إليه وساعده على النهوض من الوحل. لكن موسى زعق مرة أخرى: «رِجلي، رِجلي». انكسرت رِجله.

عبد الفتاح حمل صديقه مثل كيس الزيتون. حمله صاعداً من

وادي أبو جميل إلى باب إدريس. عندما بلغ طريق العربات حيث تقطع بغالٌ محملة وحمير، كان وجهه أحمر كالدم وثيابه ملطخة وحلاً. صاح يطلب المساعدة. الأنفاس تتدافع في صدره. دموع صاحبه تسيل حارة على رقبته. وجسمه مبلول. أمه عائشة رفعت في تلك اللحظة القدر المسودة عن النار ففار لبنٌ قليل وانطفأ في وشيشٍ وبخارٍ على الحطبات المحترقة. «بسم الله الرحمن الرحيم»، قالت عائشة. رائحة طيبة ملأت صدرها. أحسّت أن الجنين الذي يرفسها ذكر.

الأميركان جبروا ساق موسى المكسورة. عبد الفتاح مُنع من رؤيته زمناً. في هذه الفترة الصعبة، بينما الشتاء ينتهي والربيع يجيء على أجنحة السنونو، وضعت عائشة بنتاً أخيرة خامسة.

رحم الربُّ عائشة فأخذها إلى جنّاته قبل أن تضرب الكوليرا بيروت. كان موتاً هادئاً بلا ألم. ماتت على السرير العالي محاطةً بوجوه أبنائها وبناتها كما مات زوجها عبد الرحيم بعدها بربع قرن. غسلوها بالماء والصابون. عطّروها بالمسك العدني. كفَّنوها. صلّوا عليها. ودفنوها في مقبرة السنطية. كان البلد يفوح برائحة التوت الأخضر ودود الحرير يطحن ورقاً مفروماً على الأطباق.

أيوب بطرس الصايغ العائد من الإسكندرية على البابور الخديوي قبل أسابيع حضر الجنازة. عمه نصر الله الصايغ حضر الجنازة مع ابنه الملوي الرقبة أسطفان. آل الفاخوري احتشدوا بعماماتهم مثل جيشٍ تحت أشجار السنط الخضراء. على رأسهم وقف أبو عائشة، الحاج محي الدين الفاخوري الإسطمبولي بلحيته البيضاء. الشيخ مصطفى غندور الفاخوري، الشيخ الأعمى المفلوج الباقي على قيد الحياة، طلب أن يؤخذ إلى دفن حفيدته محمولاً على كرسي. لولا نوبة سعال داهمته وهم ينقلونه من فراشه إلى الكرسي الخيزران كان حضر. عمر البارودي جاء من شط المدوّر بوجهٍ قاتم. فظيعة شمس البحر؛ في صيفٍ واحد ظهرت التجاعيد على وجهه وعلى رقبته. وقف بين الشواهد ساكتاً كعادته. محمد الفاخوري

تململ بذراعه المقطوعة على بعد خطوة من الحاج المنكوب. الحاج أبو حسين وقف بين أبنائه الثلاثة: حسين وضع يده على كتف أبيه. عبد الغني انتصب دامع العين أنيق الهندام. ينتعل صرماية حمراء. بين حينٍ وآخر ينفض غباراً خيالياً عن قفطانه. عبد الفتاح سال أنفه واقفاً عند كومة تراب بانت فوقها حصى مفلطحة غبراء. أعيان البلد معارف عبد الرحيم حضروا الجنازة. أصهاره أزواج بنات أم هند وأزواج بنات أم زهرة حضروا الجنازة. سلمان قدورة حضر. الداعوقيون حضروا. آل بيهُم حضروا. آل محمصاني حضروا. ابن أبيلا حضر. زكريا جاء مع الدكاترة الأميركان. عبد الله سلوم حضر الجنازة. الأب هوفلين اليسوعي حضر الجنازة. الشيخ قرنفل وقف مع نسيبه زوج صفية وراء الحاج عبد الرحيم. إمام الجامع العمري وقف على بعد خطوة يتحدث مع السادات بيهُم. الشيخ عزّت بيضون سار بين المصلّين بقميصٍ تفوح برائحة الصابون والغار. كان يحمل إبريقاً ويسقي الناس. صبيان كثر يحملون أباريق ويسقون الناس. وهو يحمل إبريقاً أيضاً. ديريون كثر وجزينيون كثر وشوام كثر حضروا الجنازة. الطريق فشخة من خان أنطون بك إلى مقبرة السنطية. قطعوا طريق العربات كمن يعبر نهراً. وانحنوا عابرين تحت أغصان السنط ووقفوا بين الشواهد. الخواجة بولس عيساوي حضر مع أخوته. وقفوا في العباءات المقصبة بالطرابيش المكوية على رؤوسهم يحملون المسابح العنبر. شغيلة الخان حضروا. سليم بكاسيني حضر. إبراهيم كسّاب حضر. خليل تامر أحد أنسباء المهاجر جرجي تامر، حضر الجنازة. كل تجار البازركان حضروا. أهل سوق الفشخة حضروا. منذ زمن بعيدٍ لم تُرَ في البلد جنازة مثل هذه الجنازة.

خالد نقوزي وأحمد نقوزي وخليل البستاني وبطرس الحمّاني وقفوا في باب المقبرة. أصحاب الدكاكين والبيوت على ساحة البرج حضروا. جيران «مخزن الإسطمبولي» في ساحة عالسور حضروا. فيليبوس أرقش حضر مع أولاده تاركاً صهره يحرسَ الزرع في سهل الناصرة. الشيخ عثمان دبوس حضر من مزرعته في المصيطبة وعلى نعله تراب أحمر اللون، أمغر. آل الحصّ حضروا. الحاج أحمد عيتاني حضر مع أبنائه القصار السبعة. محمود مُحب الذي سُحق أبوه لطف الله تحت الحجارة أيام بناء «خان التوتة»، حضر. المنجدون في سوق القطن حضروا. يعقوب ديشي بائع السحلب حضر. رَكَنَ اليهودي عربته خارج المقبرة ودخل بين الشواهد تسبقه رائحة حليب وكعك وقرفة. العميان في «حي الخوتان» حضروا. سلّموا على عبد الله الفاخوري (يسّمونه المعلم عبد الله) ثم وقفوا في صفٍ بالعكاكيز تطرطق على الأرض قدّام نعالهم. كانوا يدقون الأرض كأنهم يكسرون حبّات جوز لا يراها أحد. الشمّاس الياس دبّاس حضر بجبّته السوداء وحزامه الأبيض الذي يشبه حبلاً. يوسف «الصقعان» منيمنة حضر مع عددٍ من أقاربه. كانوا يقفون تحت الأشجار فيبتعد عنهم قليلاً لتقع الشمس على رأسه. لا يدفأ هذا الرجل. إبراهيم بك سرسق حضر باللباس الفرنجي والصباط الأبيض المعمول في باريز. كل لحظة يرفع الساعة الذهب المعلقة بسلسلة ذهب على بطنه. وينظر إلى العقربين. باله مشغول على الساعة. دخل فيها ماء. يرى الماء يترجرج تحت الزجاجة. الكونت طرازي حضر مع ابنيه. الخيّاط حمادة المصري حضر. العطّار أمين الحلبي حضر يلبس جبّة خضراء ثقيلة بقّعها العرق. الجبّة لم تتبقع. القميص تحتها تبقع. والعطّار استحى أن يخلع الجبّة فتظهر بقع قميصه.

محمد قاسم الداعوق الناجي من حرب القُرم حضر. موسى يعقوب مزارحي، صديق عبد الجواد أحمد البارودي القديم، حضر. وقف في زاوية المقبرة ينظر إلى الأحياء حزين العينين. وظلّ واقفاً تحت الشمس الحارقة حتى فرغت المقبرة. اسبيرو نوّار الخارج من الزندان حضر. كان يلقط كمّيه الطويلين بأصابعه لئلا تظهر علامات القيد الحديد المحفورة على معصمه. الأحباش مونس وسنان وموسى وأحمد ومصطفى حضروا. وقفوا بعيداً عن الأسياد، طوال القامة، تكاد رؤوسهم تعلق بين فروع السنط. الحاج رباح قدورة حضر. الحاج حليم إدريس حضر. سماحتو الشيخ رشيد عزت الولي حضر محني الظهر بلا عكاز يتبعه عدد لا يحصى من أبنائه وأحفاده. اصطفوا عند حدّ المقبرة فبان بينهم أزرق البحر. الشيخ علي العود ـ رفيق عبد الرحيم في رحلة بحرصاف قبل ربع قرن ـ حضر. السمسار الحايك حضر. حسين بربير حضر. تنظر إليه فتحسبه أباه عبد الرحمن بربير الله يرحمه. وَرِث عنه دكان النرابيج والأراكيل في سوق الفشخة. الخواجات باحوط وتابت وقنديل الذين ورثوا معامل المناديل عن آبائهم الخواجات باحوط وتابت وقنديل، حضروا. ثلاثة رجال لا يظهر أحدهم إلا في صحبة الآخرين كأنهم في خوفٍ دائم أن يسرق أحدهم الاثنين الباقيين. آل جروة حضروا. الشيخ الدرزي الصيّاد حضر مع أولاده. نقولا بك سرسق جاء راكباً عربته الكارو المجلوبة من وراء البحر، يحمل بين أصابعه الناصعة البياض مسبحة كهرمان. صاحب كرخانة الحرير السيد كبّابة حضر. الخواجه سليم فياض حضر. عزّوا الحاج الإسطمبولي (ذراع الوالي الأيمن) بابنته. وعزّوا الحاج البارودي (صاحب «خان التوتة») بزوجته. ثم هرعوا إلى دكاكينهم وأشغالهم.

بيروت تفور. الميت يذهب. الحيّ يبقى. وهذا فصل الربيع موسم الخضرة والحرير. الركض لا يتوقف. قوافل وعربات وبوابير. لكن الحاج عبد الرحيم ليس على بعضه. رآه المصلون قاعداً جنب المحراب في الجامع العمري الكبير، غارقاً في الصمت. ينظر شارداً إلى نقوش السجادة. عيناه معتمتان. ذقنه طويلة. التجاعيد ظاهرة على قميصه. «بسم الله الرحمن الرحيم. سبّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. له مُلك السموات والأرض يُحي ويميت وهو على كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن. وهو بكل شيء عليم. هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير. له مُلك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور.»

عبد الرحيم سجد جنب المحراب، في نور النافذة، حيث اعتاد أبوه المرحوم الجلوس قبل زمنٍ بعيد. مكث هكذا حتى أعتمت النافذة وأعتم فضاء الجامع وجاء صبيٌ من الصبيان حاملاً شعلة ينير السرج والشموع. المصلون الذين اقتربوا لتعزيته في ذلك المساء، بمصابه الذي يصيب الجميع، مترحمين على أم حسين التي أنجبت أولاده، رأوا في عينيه قنوطاً وموتاً. قالوا إن الرجل انقطع ظهره بموت رفيقة عمره أم أولاده.

عبد الرحيم البارودي تزوج بعد سنتين بربارة نوّار بنت جرجس نوّار الذي قضى مسلولاً في حبس السراي. عمّها إسبيرو نوّار خرج من الزندان فعمل البنت بربارة شغلته. كل يومين يأتيها بخاطبٍ وهي

تردّ «لا». ليست هينة بربارة نوّار. تُطرز بخيط الذهب في «معمل طراد». تطرز نباتاً وطيوراً وأصناف زهور. قطعة النسيج تخرج من تحت أصابعها أثمن من وزنها ذهباً. لا تجد مثل هذا التطريز في معامل البلد. كانت توجد مطرزة فرنساوية تعمل عند «الأرملة غيران وأولادها» لكنها مرضت وركبت البحر ورجعت إلى مرسيليا. بربارة نوّار تركت البيت القديم بين الدركاه ويعقوب هاربة من عيون الجنود وألسنة الجنود وأصابع الجنود. استأجرت بيتاً تسكنه مع أمها على ساحة البرج، غير بعيدٍ من بيت خليل البستاني الذي نعرفه. بيت نوّار صغير، غرفة واحدة وحسب، لكنه بيت. الشمس تدخل نافذته. والحصائر تغطي أرضه. عنيدة بربارة نوّار. ظلّت ترد عمها عنها عامين حتى جاء يقول إن الحاج الأرمل عبد الرحيم البارودي، التاجر المسلم المعروف صاحب الخان وحوانيت التبغ والشواء والحرائر، يطلب القُرب. قالت «أنا نصرانية يا عمّي». وإسبيرو نوّار ظلّ ساكتاً. لم يدخل معها في نقاش. هذه المرة لم تقل لا. أهم من الكلمات نبرة صوتها: هذه المرة تكلمت كلاماً لطيفاً، وقالت يا عمي! من قبل لم تلفظ هذه العبارة! تركها يوماً وعاد. كانت قاعدة تتعشى وأمها تُسخن ركوة القهوة. انتظر حتى خرجت الأم لتغسل الفناجين في الحوض وراء الباب. كفّ عن فرك سالفيه الأبيضين وتكلم.

قال: «تبقين على دينك يا بربارة. الحاج كريم. نحن من أهل الكتاب يقول، والشرع يضمن حقك في البقاء ذميّة نصرانية. يريدك زوجة. ماذا أقول؟»

مسحت بربارة نوّار فمها بمنديل وقالت:

ـ قلْ له أن يجيء حتى نقرأ الفاتحة.

هذا كلّه يجيء بعد عامين. لم نبلغ ذلك الوقت بعد. تركنا عبد الرحيم قاعداً جنب المحراب ينظر إلى وجوه يعرفها ولا يعرفها. عليه ـ بعد قليل ـ أن يقوم إلى الحارة. ماذا يصنع في بيت القرميد الكبير بلا عائشة؟ خرج بعد صلاة العشاء إلى سوق الفشخة فرأى الوجوه مثلثة شاحبة والقامات طويلة تبلغ رؤوس النخلات وقصيرة ملتصقة بالأرض. تشوَّه العالم في عينيه. أراد أن يتلو «سورة الناس» فتذكر عائشة. «قلْ أعوذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس». لفظ الكلمات همساً فأحسّ ثقلاً في لسانه. خاف من المذاق في فمه وخاف من رجفة قلبه وخاف من البرد على رقبته. خاف ولم يخف. ليس خائفاً. لكنه فارغ. تجوَّف وهو ينظر إلى النساء يُكفِّن عائشة بالكتّان الأسمر. يد غير مرئية اخترقت صدره وسحبت القلب وسحبت القصبة وسحبت الرئتين. دفع باب الحارة ودخل. وقف داخل السور. ولم يرّد الباب. «طريق عبد الجواد» تمتد أمامه بيضاء كلسية إلى نهاية الأرض. وهو جامد لا يتحرك. أين يمضي؟ ارتعشت أغصان الجميزة في نسيم أول الليل. خفقت وطاويط تحت التوتة. زناره مثقل بالمفاتيح. مفاتيح الحارة والخان والحوانيت والعنابر. ماذا تنفعه المفاتيح؟ وقف فارغ الجسم. ولم يتحرك. كأنه تمثال ملح.

عمر البارودي كان يغوص في البحر المظلم عندئذٍ. فتح عينيه بين أسراب السمك. السمك يكثر ليلاً. يدنو من الشط. رأى الأسماك ولم يرَها. كان يرى تموجاً خاطفاً يعبر اللون الأسود. السماء غائمة والنور قليل. ابتعد عن الدائرة المضيئة، نزل أعمق فأعمق إلى حيث ينبت عنب الماء. رأى دلفيناً ينقلب في المياه،

أبيض البطن، زعانفه رمادية ضاربة إلى الكحلي. رآه في ظلمة الماء وطارده. لن يلحق به. الدلفين سريع. صعب أن يلحق به. اخترق نور ضئيل صفحات الماء المكومة صفحة على صفحة. بلغ صخوراً يغطيها مرجان أحمر اللون. من كهفٍ غطّت فوهته أشنان فضيّة وأشنان خضراء خضرة الخزّ خرجت سلحفاة بحرية بحجم ضبع. رأسها سبح قدامها، رقبتها تمتد ثم تتراجع، تمتد ثم تتراجع. أنارها ضوء خفيف لحظة ثم اختفت في ظلمة الماء.

انقلب مرتين ثم ترك الماء يرفعه إلى أعلى، إلى حيث الهواء. هذه هوايته: أن ينتظر في الأعماق حتى تفرغ رئتاه من الهواء تماماً. يشعر بالرئتين تنكبسان، كأن الرئة تنطبق على نفسها، فارغة مثل كيس ماء فرغ من الماء. الرئة اليسرى تؤلمه قبل الرئة اليمنى. هل يكون جراب اليسرى أصغر من اليمنى؟ يشعر بالألم، يبدأ خفيفاً، ثم يشكّه شكّاً. ألم فظيع حاد. لا يكره هذا الألم. ينتظره. يشعر كأن روحه محبوسة في ماء العين، وما هي إلا لحظة حتى تفرّ الآن. كأن روحه خرجت من بطنه، خرجت مع هواء رئتيه، وفقاقيع الهواء، خرجت حتى بلغت قشرة العين. غمامة تغطي الأشياء. يرى حيوانات البحر تدوخ داخل الغمامة ويرى أشجار القعر تدوخ ويرى السلاحف تدوخ ويرى الأسماك تدوخ ويرى حيوان المرجان يلتصق بحيوان الإسفنج ويدوخان. تتداخل المشاهد ثم تنفصل. انتهى الهواء. إذا لم يترك الماء يرفعه إلى فوق الآن، إذا لم يخبط القعر بقدميه الحافيتين ويقذف نفسه كسهم يترك الوتر، إذا لم. . . الجسم يندفع مخترقاً أطنان المياه. يقفز الرأس الأبيض إلى الفضاء. الفم ينفتح والشهقة تُسمع في هدأة الليل. يأخذ جرعات كبيرة من الهواء فتزول الغمامة عن عينيه. مرات يمسح أذنيه، وهو يكبس رأسه،

فيرى على أصابعه أثر دم. يغسل أذنيه بالماء المالح. يغطس من جديد. الأيام تعبر. وهو يسبح.

عثر على صخور من الحديد الأسود التفّت عليها أعشاب وطحالب. حاول أن يرفعها. لم يستطع. ما هذا الحديد الأسود؟ لم يخطر في باله للحظة واحدة أنه ينظر إلى قنابل انكليزية رآها قبل ربع قرن تنطلق من بوارج وتكسر حيطان الكرنتينا. المياه تدفأ منذ ابتعدت رعود الشتاء. ما إن تكفّ السماء عن «الهمدرة»، ما إن تزول أشجار البرق الأزرق من سماء الليل، حتى يدفأ البحر. تغير لونه. كان أخضر مخضوضاً مثل حليب عتيق نُسي في إناء. الآن صفا. يرى تدرجات الأزرق تقوى كلّما أرسل نظره أبعد فأبعد حتى نهاية البحر.

يكون في عرض البحر ويستدير مرهق الذراعين لاهث الأنفاس ويرى البلد البعيد ويرى النقط تدور فوق البلد وترسم أقواسها. قبل سنوات كفّ عن تربية الحمائم. ومنذ وقتٍ قصير جاء عبد الغني ابن أخيه يزوره وجلب له ثلاث دجاجات مربوطة السيقان. «للبيض» قال. وضحك مع عمه. ضحك ثم سكت. نُكبوا بفقدان أم حسين. لا يضحكون مرة إلا ويندمون على ضحكتهم. عبد الفتاح الصغير جاء أيضاً. كان يقفز على الصخور محاذراً لئلا يقع. ويده على رأسه. عمامته نحيلة، من لفَّ على رأسه هذه العمامة؟ نبَّه عليه ألا يأتي هنا وحده مرة أخرى. قال «المكان بعيد وأولاد الحرام كثر». قال هذا ليمنعه من زيارته أم خوفاً عليه؟ الشط صخري زلق، وبين الصخور هُوى عميقة. يغرز في الماء قصبة أطول من ثلاثة رجال ولا تصل القصبة إلى قعر الهوّة. يعجز عن النزول في هذه الفجوات، جسمه ضخم، لكن الولد يسقط ولا يخرج. الصغار رموا هناك قطة،

لكن القطة سبحت وخرجت مذعورة وفرَّت، القطة لا تغرق. تعوم. وأحياناً تغرق.

الأيام تعبر. وهو يسبح. الشمس زاد شعاعها فيسبح على ظهره ويغمض عينيه. يتهادى على الصفحة الفاترة والشمس تنزل في مسامه والخلايا تكبر. يشعر بخلايا جسمه خلية خلية. كل قطرة شمس تقع في خلية. والخلية تنضج وتنتفخ. منذ زمنٍ بعيد، منذ الطفولة التي لم يعد يذكرها، لم يشعر بهذا الدفء الحلو. كأنه يشرب حليباً ساخناً قطراً. كأن النار تملأ جوفه، طيبة، حنونة.

امرأة وادي التيم سحبت البرد من جسمه. في لحمها حرارة. ترمي عليه ساقها في الليل فتلسعه الحرارة. يحبّ هذه اللسعة. كم بحث عنها؟ وكلّما وجدها ضاعت منه! تتسلل إلى بيته وأولادها نيام. كلّما سمعت حركة رفعت رأسها تتنصت. البنت الصغرى مريضة. وتخاف عندما تتركها. تشكو ألماً دائماً في البطن. خصوصاً بعد الأكل. عمر البارودي يضع صخرة عند الباب فلا يُشرعه هواء البحر ولا يدفعه الأولاد.

كان نائماً وسمع الباب يطرطق. فتح عينيه ـ كانت نائمةً، تشخر شخيراً مسموعاً، وأنفاسها على رقبته ـ فرأى الباب يتحرك ورأى شيئاً أبيض يظهر في الظلام. تحرك الباب وأطلّت من الشقّ امرأة يعرفها تغطي وجهها بمنديل. لم تكشف وجهها لكن رائحة الحنّة فاحت في الليل وغمرته من بعيد. يعرف هذه الرائحة. طالما رأى أمه تملأ قصعة الفخّار بالحنّة المطحونة وتمزجها بالماء والعشبة الحمراء. طالما رأى أصابع أمه تتلون بالأحمر وهي تمسح خصل شعرها خصلة خصلة بالوحل الطيب الرائحة. سمعها تسأله عن صحته. سمع الصوت فاستيقظ بعرقٍ يقطر من الشعر تحت إبطيه.

قام وغطى المرأة النائمة. أبعد الصخرة. فتح الباب وخرج إلى هواء الليل.

انحدر إلى البلاطة. رمى حطباً في النار. وشرب من إبريق الفخار. بينما المياه تكرّ في زلعومه انتبه إلى مذنّب يعبر السماء. كان اصفر اللون، يضرب إلى البرتقالي. اخترق السماء آتياً من جهة الشرق (من فوق صنين الذي يذوب الثلج عن قممه) ورسم خطّاً من الغبار الناري على القبّة المرصعة بالنجوم البيضاء. تابعه بعينين واسعتين حتى سقط في نهاية البحر. وقال في نفسه إنه عاش هذه الساعة من قبل. لكن متى وأين؟ لم يعرف. غسل وجهه بماء بارد من الإبريق ثم مشى على الشط.

عبد الرحيم البارودي لم يرَ المذنّب المذكور. كان نائماً في فراشه الكبير. سمع حركة بعيدة. طنين برغشة تحاول دخول الناموسية. أو حفيف غصن على القرميد. سمع الصوت البعيد، مثل نار انطفأت في الماء، سمع الوشيش ولم يفتح عينيه. عندما ازداد الصوت قوة فتح عينيه. البعوض فقس من بيوضه باكراً هذه السنة. طنَّ البرغش على الناموسية يبحث عن ثقب في النسيج. البرغش فظيع. إذا شمّ رائحة الدم البشري لا يكلّ عن الطنين. أيقظه البرغش وهو يرتطم بالناموسية فماذا يردّه إلى النوم الآن؟ صار النوم صعباً.

شرب ماء وفكر أنه لولا الأولاد كان يسكن الخان ولا يقرب الحارة.

خالته أم هند تولت العناية بالطفلة الرضيعة. تأخذها إلى المرضعة وتجلبها. تغسلها وتردّ عنها الحشرات. سمّوا الصغيرة زهية على اسم جدّة أمها زهية الفاخوري.

زهية البارودي غيّرت حياة سعدية الحصّ. تجار الفشخة

والعطارين يرونها تقطع السوق وهي تضم الطفلة ذاهبة إلى المرضعة سارية الجمل في «زاروب منيمنة» فيهزون رؤوسهم. «ستي سعدية» ـ كما تسميها سليمة بنت الخمسة أعوام ـ عادت إلى صباها. عادت أماً صغيرة بعد ربع قرن على ولادة صغرى بناتها. لا تستوعب أم هند كيف حدث ما حدث. كأن السماء ألقت لها الطفلة في سلٍ من نبات الحلفاء على صفحة جرن المياه خارج بابها.

بلغت بها الوحشة حداً في السنوات الأخيرة جعلها تلزم عتبة بابها ولا تقطع الجنينة أمام الباب إلا لتُنزل كيس خضرٍ أو مقطف عظم ولحم عن ظهر الحمار. كلامها الوحيد مع الصبي الذي يجيء من السوق محملاً بالخضر ولوازم الطبيخ للمطعم. وحتى مع الصبي بات حديثها بالإشارات وبأقل الكلام. صار يعرف الخضر الطازجة من غير الطازجة ويعرف أي لحم يشتري لأي طبيخ. يعرف متى يُكثر الدهن ومتى لا يُكثر. يعرف من أي امرأة يجلب ورق العنب ومن أي بستان يجلب الملفوف. صار يعرف وحده. وهي تظلّ ساكتة. لا تقرب «الطريق البيضاء» إلا ساعة الغروب عندما تجمع دجاجاتها وتحبسها في قنّ وراء البيت. كأنها ماتت وهي حيّة. وبناتها لا يأتين في زيارة. وهي لا تذهب إليهن. جاءت فاطمة وزارتها في الأضحى تحمل كعكاً ومعمولاً ثم جاءت هند وجاءت ورد. وهي ذهبت مثقلة بكعك العيد وردّت الزيارة. لكنها على الطريق، بينما تفتح باب الحارة وتخرج إلى سوق الفشخة المحتشد بالوجوه الغريبة والضجة العالية ودخان الأراجيل، ثم بينما تقطع الطرقات بالأقنية المملوءة بوسخ الحمير والطيور والماشية، ثم بينما تعبر دهاليز ملتفة رطبة مظلمة كثيرة الحفر، شعرت بالخوف. خافت كما تخاف بنت صغيرة. خافت لكنها لم تشعر أنها صغيرة. خافت كامرأة عجوز

ابتعدت كثيراً عن البيت، عن باب الخشب الذي تعرفه، عن جرن الحجر الذي تعرفه، وعن الطناجر الذي تعرفها. عندما بلغت بيتها، بعد الزيارة المرهقة، جلست على الفرشة المطوية عرقانة. كان العرق يسيل على جسمها وخافت أن يضربها البرد وتمرض فردّت الباب. ظلّت قاعدة في الظلمة الخفيفة حتى هدأت أنفاسها. بعد ذلك تجنبت مغادرة أسوار الحارة.

إلى أن جاءت هذه الطفلة إلى بيتها. الحاج عبد الرحيم قال لها: «ليس لي غيرك يا خالتي. وزاهرة وحوراء تساعدانك. وأقول ليوسف أن يُخفف الشغل. البنت أهم من الطبخ.»

ملأت الصغيرة عليها حياتها. وهي تخطف رجلها إلى هنا أو هناك، بينما الطفلة تنام لحظة ملفوفة بأغطية القطن، تباغت أم هند نفسها وهي تضحك وحدها. لا تخرج منها رنّة الضحكة لكنها تسمع الضحكة الهنية في بطنها. تكبت فرحها عندئذٍ. كيف تفرح والأم الطيبة ماتت قبل أن تُرضع طفلتها؟ كيف تفرح والأولاد باتوا بلا أم؟ تراهم ماشين على «الطريق البيضاء» يتلفتون إلى هذه الجهة وتلك كأنهم أضاعوا خروفاً أو دجاجة. والحاج أبو حسين لم يعد الحاج أبو حسين. لا إله إلا الله. ارحمنا يا أرحم الراحمين.

تتلو في سرّها ما تحفظه من آيات كريمة وتهرع إلى الطفلة. لا تلزم العتبة الآن. مضطرة للخروج. المرضعة بيتها في «بيروت الفوقا». عليها أن تقطع الفشخة ثم العطارين وبعد ذلك إما تصعد في طلعة الدركاه أو تذهب يميناً جنب معاصر دندن وتصعد في الطريق المفضية إلى باب يعقوب. مرة تأخذ هذه الطريق ومرة تلك الطريق. ذهبت الغُربة عن الطرقات. لا تسلك المتاهة وحدها الآن. الطفلة تنبض بين ذراعيها، ترسل من بطنها صوتاً لا يُشبه أصوات هذا

العالم. سبحان الله. يا ربّ يا كريم. وقبل يومين انتبهت أنها تكلمها على صوتٍ عالٍ طوال الوقت. وانتبهت أن الصغيرة تسمعها. عندما ابتسمت لها للمرة الأولى توقف قلبها وقفز عن نبضتين. لو يملأ الربّ صدرها حليباً! كانت نائمة وفي نومها رأت أن البنت تزعق باكية، مع أنها رضعت في «زاروب منيمنة» عند صلاة العشاء. عضّها الجوع وهي نائمة في السلة جنبها فقامت زاعقة. وسعدية الحصّ البارودي رفعتها من السلة وأخرجت ثديها الأيسر المملوء حليباً وأرضعتها. كان مناماً. واستيقظت جافة الحلق ساخنة الرأس.

طوال الوقت تُكلمها. تُخبرها عن هند وورد وفاطمة. تخبرها أشياء أقدم: تحكي عن بيتها الأول، بيت أمها حيث عاشت قبل أن يأتي ويطلبها من أمها المرحوم أبو شاهين. لا تدري لماذا تخبرها هذه الأشياء. طوال الوقت تحكي معها. تضعها قبالة عينيها وهي تنقي الرزّ، وهي تنقي العدس، وهي تقشر ثوماً، وهي تقشر بصلاً. لا تدع الطفلة الملفوفة تغيب عن بصرها لحظة. إذا انشغلت دقيقة في إشعال الموقد تنادي على زاهرة أو على حوراء لتقعد معها. حتى الصغيرة سليمة تأتي وتجلس قبالة الطفلة وتحكي معها. هذه الطفلة نسمة من الجنّة: لولاها كانت قلوب أخواتها فقعت. تراهن حائمات حولها، ترى البنتين وقد تفتحتا ونضجتا، فتتذكر أم حسين مرة أخرى. لا تقدر أن تفهم كيف لا تراها في هذه اللحظة آتية من بيتها القرميد تطلب الصغيرة وتحمل الصغيرة وتأخذ الصغيرة. كيف هذا، لا تفهم. ترمي العيدان الصغيرة في النار وتتأكد من عدد الحطبات وتثبت قدر الماء ثم تهرع إلى زهية. ترفعها من بين أخواتها وتسألهن ماذا أبكاها. مع أن الطفلة لم تبكِ. فقط أصدرت صوتاً ليس ضحكاً. تأخذها وتهدهدها وترفعها إلى صدرها. تسير بها حول

البيت حتى تهدأ من جديد. إذا لم تهدأ تلّفها ببطانية أخرى ـ مع أن الوقت ظهيرة والدفء ملأ الجو ـ وتقول للبنت زاهرة أو للبنت حوراء انتبهي للنار أو انتبهي لئلا تلصق الطبخة بالطنجرة أو حركي الشوربة كل دقيقتين. ترمي الكلمات من فوق كتفها إلى وراء راكضة على طريق عبد الجواد خارجة من باب الحارة طائرة إلى زاروب منيمنة.

الحاج عبد الرحيم يمّر عليها ساعة المساء. يمّر بعد صلاة العشاء ويسألها هل يلزمها شيء ويسألها هل ساعدتها البنات. هذا ليس صوتك يا ابني، تريد أن تقول له. لكن ماذا تقول له؟ هي عندها زهية، هو من له؟ تراه خارجاً عند الفجر، يردّ خلفه باب البيت ويده تعبث بالمفاتيح ولا تجد المفتاح. ثم ينتبه أنه لا يحتاج إلى مفتاح. ينتبه أنه خارج وليس داخلاً إلى البيت. تسمع خشخشة مفاتيحه، طرطقة المفتاح الكبير على المفتاح الكبير، وتقول يا أرحم الراحمين ارحمنا يا ربّ.

ظهرت عائلة في الجانب الآخر، عائلة جاءت ونزلت في الغرفة البيضاء العالية. الأخوان خالد وأحمد نقوزي يؤجران الغرفة لعائلات لا تبقى فيها طويلاً. صار السقف قديماً. الغرفة رطبة. المياه تدلف من السقف. أم هند تكره الغرفة العالية لكنها نسيت في هذه الأيام الغرفة العالية والبيت الذي تحتها. رأت العائلة الآتية. ومن قبل رأت عائلة خارجة. لم تهتم. عقلها أخذته زهية. تلعب معها، تخفي نفسها وراء الباب ثم تطلّ عليها ضاحكة. والصغيرة تبتسم. وعما قليل ينشق لحم «النيرة» ويظهر سنّها. سبحان الخالق. جمال البنات الباروديات لا يُصدق. الوجه المدوّر والعينان المشروحتان والبشرة الطرية طراوة الزبدة. سبحان الخالق. والحاج

عبد الرحيم ضحك وجهه عندما حملها. لكنه بقي ساكتاً ولم يتكلم معها. الله في عونه. وصار يتأخر في الرجوع إلى الحارة. ومرات ينشغل بالها عليه. ترى البنات أمام الباب وترى عبد الغني يعلم أخاه الداما. زاهرة تشعل القنديل بالزجاجة وتعلقه بضلفة النافذة. أم هند تحمل الطفلة وتقطع المسافة إلى أمام بيت القرميد فتركض زاهرة إليها وتركض حوراء، وتركض سليمة. عبد الفتاح أيضاً يترك حجارة الداما ويقترب. وحده عبد الغني يظلّ قاعداً ينظر إليهن أو إلى «الطريق البيضاء» أو إلى عصافير الدوري تطير إلى أعشاشها.

بات الحاج عبد الرحيم يتأخر في الخان إلى بعد صلاة العشاء. لولا الأولاد يفرش فرشة على السطح أو في أي مكان وينام ساعة أو ساعتين ثم يقوم. من أجل الأولاد يذهب إلى الحارة. وأصعب ساعة ساعة يهجعون ويدخل الغرفة وينظر إلى السرير العالي. مرات يدنو من السرير وهو يتجنب النظر إليه. يتخلص من المشاية ويرفع ساقيه ويطوي جسمه على الفراش الكبير ويغمض عينيه. النوم لا يأتي. ينقلب على الجهة الأخرى. النوم لا يأتي مع أنه أنهك نفسه بالأشغال هذا النهار. راجع حسابات الخان وراجع حسابات المطعم وراجع حسابات الحوانيت الثلاثة. رصد الداخل ورصد الخارج وتأكد من العمولات وتأكد من أمور طالما انتبه أنه يتأخر في مراجعتها، وعندما انتهى من كل ذلك سمع للمرة الألف الشيخ عزّت يقول له «ستحرق نظرك في هذا الضوء يا حج». عندئذٍ فقط انتبه أن الشمس غابت وأن الشيخ أشعل السراج.

هذا الربيع دافئ. غير مألوفة هذه الحرارة المبكرة. تسلق الدود الوزال وغزل شرانقه. الشرانق جفّت وقست وتصلّب وسطها في

خمسة أيام. غير معهود هذا. عادة تأخذ سبعة أيام أو عشرة أيام حتى تنشف. الموسم قُطف والسفن تملأ الميناء. هذه المرة لم يأتِ شيخ القوافل عبد القادر الأسطى بقطيع إبل محملة بصناديق الشرانق والسلال. الشيخ بيضون أخبره أن ابن الداعوق أخبره أن الحاج عبد القادر غيَّر طريق تجارته. ابن الداعوق سمع الحاج الأسطى يقول عندما التقاه في سهل البقاع أن هذه العربات الفرنجية سرقت لقمة العيش من بين أسنانه. كان يضع اللقمة في فمه فمدّوا يدهم وسرقوا اللقمة. قال جملته ثم أطلق ضحكة مفرقعة أسقطت الزهور عن الشجر. هذا الموسم لم يظهر عبد القادر الأسطى على رأس جيش من أبنائه في باحة خان التوتة. وإبله المشهورة ذات السنمين لم تبرك في ساحة البرج التي حدلتها الثيران.

رجل آخر جاء في تلك الفترة إلى الخان. عبد القادر الأسطى يتاجر الآن بين حوران وحاصبيا وصيدا. ينقل الحبوب إلى حاصبيا ويأخذ منها الزيت. يحمل إلى صيدا صوفاً وسمناً وشرانق حرير تؤخذ بالبحر إلى ليون والإسكندرية. مرافئ البحر تتصل بدروب الماء. سفينة خارجة من مرفأ يافا تقصد مرفأ أزمير عبثت بها عاصفة ربيعية. السفينة شراعية. ليست مركب نار. تيارات مائية تحتانية ورياح بحرية عالية بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة لعبت بالسفينة الثلاثية الصواري أثناء الليل. وقذفتها صوب شطآن بيروت. هذه السفن كبيرة الحجم، لكن السفينة قديمة، والصاري الأمامي تخلخل خشبه. تُبحر بين يافا وطرابلس وأزمير والإسكندرية منذ أيام الجزّار. انكسرت على صخور المدوّر. الرجل الذي يشعل ناراً على الشط سمع الصراخ وسمع قضقضة الخشب وسمع خبطة الشراع الكبير على صفحة الماء. كانت العتمة دامسة. تخلص من جبّته وقميصه

وزناره ونعله وقفز إلى جوف البحر. سبح كدلفين. غاص بين صخور وبالات بضاعة محزومة وخرج من المياه مُحاطاً بحطام السفينة. لم تغرق بعد. رأى نوتية على قوارب نجاة يرفعون من الماء بشراً وصناديق. كان الموج منخفضاً واستغرب أن السفينة تسلقت هذه الصخرات. هل نام الربّان على الدفّة؟ ساعد النوتية على إنقاذ الركاب. قال لهم جذفوا إلى النار هناك. ظلّ يغوص تحت الخشب المكسر والسلال الطافية والأشرعة المنبسطة كأغطية على وجه الماء، بينما السفينة تُصدر أصواتاً غريبة مفاجئة وتهتز وتبدو عالقة فلا تغرق ولا تطفو كما تطفو سفينة. المياه ملأت بطنها رويداً رويداً. غاص نصفها وظلّ نصفها فوق الماء. النوتية عادوا بقوارب خفيفة. رأوا الرجل الأبيض الرأس يجذب غرقى من شعورهم ويسندهم إلى الصاري المكسور. تحرك واحد من الغرقى: رفعه عمر البارودي على العمود الضخم وخبطه على صدره. خبطه وأخرج الماء من رئتيه. رغوة بيضاء غطّت وجه الرجل. هذا بهجت السكاكيني. فيما بعد سيقول للحاج عبد الرحيم أن أجداده كانوا يُبيضون القدور ويجلخون السكاكين في القدس القديمة؛ «نحن من أقدم عائلات بيت المقدس لكنّ ستّي كانت تقول إن أصلنا من طبرية».

تنفس بهجت السكاكيني على شط المدوّر وعاش. لم يمت التاجر المقدسي صاحب البيوت الموزعة على بلد أهله ويافا وعاصمة السلطنة اسطنبول. بيته في القدس يطلّ على قبّة الصخرة. قبيل الغروب تنعكس الشمس على القبّة الذهب وتملأ البيت برقاً أصفر وبرقاً أحمر. بيته في يافا غارق بين بيارات البرتقال، مثلث القناطر عالي الشبابيك، يشرف على بحرٍ كثير السفن. القناصل

الأجانب يأكلون على مائدته. قالوا في يافا: لم يجتمع قنصلا لندرة وباريز إلا على «مسخن» السكاكيني.

عمر البارودي شاله على كتفه ورفعه من البحر. طرحه عند «البلاطة» مقطوع الثياب بفردة صباط يتيمة في قدمه. الأخرى أكلها البحر. الشط غطته السلال والثياب والأجسام التي تقطر ماء. كانوا يضحكون. نجوا من الموت. النار تراقصت على وجوه فرحة بالنجاة، تراقصت على عيون تنظر إلى قلب البحر، تنتظر المراكب وما تنقذه المراكب من بضاعة.

عمر البارودي أخذ الرجل المقدسي صاحب الخواتم الذهب والأسنان البيضاء القوية إلى «خان التوتة». قال للرجل الذي يعرج لئلا يجرح قدمه الحافية: «هذا أخي الكبير». تركه في الخان ورجع إلى الشط.

الحاج أبو حسين أكرم الرجل النصراني الذي غرقت بضاعته في البحر. جلب له ثياباً تليق بمقامه وأرسل مع شروق الشمس صبياً ليجلب صهره الاسكافي. سلمان قدورة حضر على وجه السرعة وقاس قدم الخواجة بهجت السكاكيني وقال هذه الليلة يكون الحذاء عندك، وفي هذه الأثناء البسْ هذا. كان يحمل في جرابه حذاء. والتاجر نزع من إصبعه الصغير خاتماً وقال «امسكْ»، والاسكافي تراجع، والحاج البارودي أنقذه: «عيب يا شيخنا، عيب، أنت ضيفنا». ردّ الخاتم إلى إصبع التاجر المقدسي وخرج.

تصادقا. عندما أراد بهجت السكاكيني النزول إلى مكتب التلغراف على المرفأ ليرسل برقية إلى أهله في يافا ذهب الحاج أبو حسين معه. المكتب يشغل غرفة واحدة في مركز البوسطة (البريد). جنب هذه العمارة رأى بسطة عليها حلويات: عوام ومشبك

ومعكرون وتمرية. لعله عيد من أعياد النصارى، فكر الحاج أبو حسين. اشترى صدراً وأرسله مع الصبي إلى الحارة. وأوصاه أن يذهب إلى يوسف منيمنة ويقول له إن عنده ضيفاً على العشاء في البيت هذه الليلة. «وقلْ له نريد أشهى أكلة «مسخن»، وقلْ لأم هند».

الرجل الذي يقلي العجين في الصاج الكبير ويحرك بالملعقة الخشب قدر القطر ابتسم له. الحاج أبو حسين ردّ بسمة الرجل ناظراً إلى نمش أحمر يغطي وجهه الأبيض. لم يرَ هذا الرجل من قبل. ولم يرَ بسطة الحلويات هذه هنا إلا اليوم. لكن الرجل أليف الوجه، كأنه يعرفه. ولعله نزل يوماً في الخان.

عبد الغني البارودي ابتهج بالضيف الذي جلس إلى المائدة ورسم إشارة الصليب على وجهه. عبد الفتاح نظر إليه يرفع رغيف المسخن ويقضمه قضمات سريعة فاتسعت عيناه. سليمة الصغيرة جلست بجوار أبيها تلعب بمسبحته وتنظر إلى الرجل الغريب صاحب القفطان الأحمر. كان عريض الصدر، قصير الرقبة، وعندما يفتح فمه يظهر صفان من الأسنان البيضاء الكاملة. أعطى الصغيرة حبّات ملبس.

أهل يافا يعملون المسخن لضيوفهم ويقولون «هذا من حواضر البيت». الدجاج عندهم كبير الحجم أحمر الريش. يُبسملون متجهين إلى القبلة ثم يذبحون رقبة الدجاجة. النصارى مرات لا يبسملون. مع هذا يتوجهون إلى القبلة (الجنوب). ينتفون الريش ويفتحون بطن الدجاجة ويفرغونها وينظفونها بالماء. يشقون جلدة الرقبة ويسحبون الزلعوم بالذرة الباقية فيه. دجاج المسخن الملوكي لا يُعلف إلا بالذرة. يسلقون الدجاج ولا يستعملون في المسخن غير الصدور.

الصدر أبيض شهي خالٍ من الدهن. عندهم توابل خاصة لسلق الدجاج. ويُقشرون في المياه التي تغلي بصلة حمراء ويضعون ورقة غار واحدة وورقة برتقال واحدة. القلية بصل وزيت زيتون وسماق. السماق حوراني، أطيب سماق في بلاد الشام. يطرحون القلية وصدور الدجاج في الأرغفة. يرشون لوزاً وجوزاً وصنوبراً. ثم يلفون الأرغفة ويخبزونها في التنور. الفن أن تدهن الرغيف بزيت الزيتون أولاً. والفن أن تشعل أكواز صنوبر وخشب صنوبر في التنور. الحاج أبو حسين سيأكل بعد سنوات المسخن اليافاوي في بيت صديقه بهجت السكاكيني. ولن يرجع إلى بيروت من دون هدية: آلة بيانو.

ظلَّ التاجر المقدسي في بيروت خمسة أيام ثم ودّع صاحبه الجديد على أرصفة المرفأ. ودّعه بقبلات على الكتفين وبهذه الكلمات:

ـ تزوج يا أبا حسين. الله في عونك. تزوجْ. الرجل الذي مثلنا حرام أن يعيش وحده.

عبد الرحيم البارودي تضايق من كلمات صديقه الجديد. تركه يغادر اسقالات المرفأ إلى المركب ثم إلى البابور وهو ينظر إليه نظرة حزينة عاتبة. أعطى ظهره للبحر ومشى بلا وجهة. صعد في طرقات لم يعد يعرفها وضاع في زحمة الأصوات والطرطقة والدخان. دخل دهليزاً يعجّ بالسلال والأكياس والحمير والبشر ثم خرج منه. الدنيا ملطومة على رأسها. اشتاق إلى طعم النوم الأول القديم. يقوم في الليل على فراشٍ لم يعد فراشه. ويقعد ساكناً في الظلام ينظر عبر النافذة المشرعة إلى مئذنة الجامع المنتصبة كشبح. ولا يدري إلى ماذا ينظر. يرى ولا يرى. أتعبه النوم القليل. صدره فارغ. ويشعر

وهو يسير كأنه يرتفع عن الأرض. يشدّ زناره الآن. يشدّه وعليه أن يرسل الثياب إلى الخيّاط، القمصان والسراويل كلّها تحتاج إلى قطبة. يشدّ زناره الآن ويشعر أنه يرتفع عن أرض الزقاق وأن السلال تطرق رأسه وأن الحمير تعبر جنبه في المكان الضيق وأن البغال أيضاً تمرّ. لا ينام. ويأكل من غير نفس. الفراش غريب والحارة غريبة والخان غريب والبلد غريب وهذه الدنيا الصفراء غريبة. ذهب إلى السنطية يزور تربة عائشة. رأى قاطفات التوت عند حافة المقبرة يحملن سلالاً معبأة بالورق. رأى البحر أزرق اللون يتخايل وراء صف السنطات المعوجة المصقولة الجذوع. هذا هواء البحر يفعل في الأشجار فعله. نظر إلى زهور بابونج نمت بتيجانها الصفر وبتلاتها البيض الذابلة على تربة خالته أم زهرة. نظر إلى بزّاقة بيضاء القوقعة تتحرك بليدة بين الزهور. الأعناق النحيلة تميل. والبزاقة تمرّ بين الأعناق ولا تؤذيها. انتبه أن الشمس قوية. انتبه أنه يعرق. انتبه إلى بخار يخرج من التراب ويغزل خيوطاً كبيت العنكبوت بين الشواهد. قرأ الفاتحة على قبر خالته وقرأ الفاتحة على قبر زوجته ثم ترك السنطية. لكنه رجع بعد يومين أو ثلاثة ووقف بين صاحبه الشيخ رفاعة قرنفل وصهره عبد الرحمن قرنفل في دفن تاجر من تجار باب إدريس. التاجر المذكور لا يهّمنا اسمه. ما يهمّنا هو معرفة سبب موته. أصيب الرجل بإسهالٍ حادٍ وأخفى الأمر وقتاً عن أهل بيته. بعد ذلك، عندما أرهقه الإسهال، أخبر زوجته وأولاده. تغير لون بشرته إلى البني الغامق ومات.

موسى نقوزي أصيب بالإسهال. قبل أن تستدعي حالته الخوف، شُفي. ظهر أن إسهاله ناتج عن حماقته: سطا على سلٍ مملوء بفطائر الفرفحين والحميضة. هذا النبات الحامض البريّ لا

يؤكل إلا باعتدال. التهم الصبي العفريت كميات كبيرة تكفي لنزهة المرسلين إلى حرج الصنوبر يوم الأحد. أمه زعلت منه. عبد الله سلوم الذي تبناه نظر إليه يقف على ساقه المكسورة من جديد وقال «سجلتك في المدرسة».

أدخله المدرسة التي فتحها المعلم بطرس البستاني في زقاق البلاط. بقي فيها وقتاً قصيراً. ثم نقله إلى مدرسة الأميركان. المعلم بطرس قال له: «هذا الصبي لا يصلح لعلم». تضايق موسى من كلمات المعلم فوضع كل تركيزه في دروس الأميركان. سرعان ما بدأ يكتب بالإنكليزية جملاً صحيحة تخلو من أخطاء القواعد والإملاء. المدرسة كانت تعمل امتحاناً في نهاية الفصل تطلب فيه من الطلاب كتابة موضوع عن حياتهم أو قصة تتعلق بعائلتهم. موسى نقوزي (موسى سلوم) كتب بحبر الكوبيا صفحتين حُفظتا في صناديق المدرسة ثم في أرشيف الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية). الصفحتان لا تحملان تاريخاً، ولا ندري هل كتبهما في السنة الأولى أم الأخيرة. هنا السطور الأولى:

> My Father died with cholera when I was still small, and my mother brought me with my brothers and sisters to Beirut...

(مات أبي بالكوليرا وكنتُ صغيراً، فجاءت بي أمي مع أخوتي وأخواتي إلى بيروت. . .)

موسى المفصول عن ابن خاله منذ كُسرت ساقه، صادق في المدرسة ولداً يُدعى أمين الخوري. هذا الصبي يعيش مع أمه التي تعمل في «كرخانة دبانة» المجاورة لمقبرة الباشورة. أم أمين حياتها

ابنها. نزلت في بيروت قبل سنوات. الربيع والصيف للكرخانة. الخريف والشتاء لغسل الثياب. تغسل ثياب الناس وتعيش مستورة. أدخلت ابنها مدرسة الأميركان. اشترت له زناراً وقميصاً ومداساً من السختيان وسروالاً خالياً من الرقع. اشترت له دواة حبر. كل ليلة قبل النوم تصلي وتشكر ربّها على النعمة. فرحت عندما وجدَ أمين صديقاً.

عبد الفتاح البارودي رأى موسى نقوزي مع صاحبه الجديد صاعدين في طلعة الأميركان وكل واحد يشك ريشة ودواة حبر في زناره. استدار ونزل عبر باب يعقوب إلى البازركان. عبد الغني رآه آتياً يقطع أمام الأراجيل وغيمات الدخان تلتف حول وجهه ثم تتلاشى. رأى وجهه أصفر كالكوربا فأسرع إليه. ظنّ أن أحداً تهجّم عليه في السوق. أولاد الحرام كثر. وعندك الجنود. مرات يُحششون. ويفلتون كالبقر على الطرقات. سحب أخاه الصغير من ذراعه وأجلسه على مقعد قش وأعطاه ماء ليشرب. عندما سأله عما جرى كذب عبد الفتاح وقال إن بغلاً محملاً ارتطم به أمام مخزن جده الاسطمبولي.

حوادث الاصطدام تكاثرت في تلك الفترة. الخطر الأكبر هو العربات: إذا انطلقت الجياد سريعة على الطريق يصعب لجمها. تكررت الحوادث. مجلس الأعيان اتفق مع الوالي. والوالي طلب من الشركة الفرنساوية تأمين سلامة المشاة ومنع سائقي العربات من سوط الأحصنة داخل البلد. صارت العربات تتحرك بطيئة من الميناء إلى ساحة عالسور إلى زاوية أبي النصر. بعد ذلك تُلهب السياط ظهور الجياد. الحوادث قلّت. أسوأ الحوادث وقعت في قطعة الطريق بين ساحة عالسور وزاوية أبي النصر. هنا، حيث معمل

الألاجة الذي تحول ميتماً، قُتل صبي في الخامسة تحت حوافر الجياد. وطأته الجياد ثم داسته عجلات العربة المحملة بضاعة فرنجية. الطريق منبسطة أمام ميتم اللعازارية. وباب الميتم يفتح على الطريق. بعد هذه الحادثة سدّت الأخت جيلاس هذا الباب. صار مدخل الميتم من الجهة الجنوبية.

الحاج عبد الرحيم زار المكان فلم يعرفه. الراهبات اللعازاريات هدمن قواطع وبنين قواطع أخرى. زرعن الباحة أشجار برتقال. وأقمن في ناحية ظليلة مقاعد وطاولات لتعليم الأيتام القراءة والكتابة. ماريو فابري مرّ في بيروت خلال تلك الفترة. كتب أن هذه المدينة لا تشبه البلدة التي سكنها قبل القصف الإنكليزي. كتب أن الضواحي تزينت ببيوت القرميد وبقصور الرخام المثلثة القناطر، العالية الشبابيك، تحيط بها الحدائق كما في توسكانة، وفي قلب كل حديقة نافورة ماء، وحول النافورة تماثيل حوريات منحوتة في روما. زار قصور آل سرسق وآل بسترس في الرميل. وتناول الطعام على مائدة سليم بسترس. كتب أن «الوجبة تقدم على دفعات كما في البلاط الفرنسي الموصوف في رسائل دوماس». أولاً الحساء الكثيف ويُقدم في أطباق واسعة، ثم السلطة وتُقدم مع أصناف من الجبن غريبة الشكل، وبعد ذلك تدخل أطباق اللحم على الصواني الفضة. كتب أن ندلاً يلبسون ثياباً مخصوصة يحملون طاسات الغسيل الفضة والمناشف المجلوبة من انكلترا والصابون الذي يحمل طبعة مصانع ليون. كتب أن ثريات الكريستال المعلقة في قصر موسى سرسق تحمل شموعاً على شكل نساء لا يُصنع مثلها إلا في فيينا. كتب أن الضوء يسطع على تحف الذهب في هذه القصور العالية السقوف. لكن الضوء لا يدخل دهاليز البلدة القديمة. كتب أن البيوت العتيقة

المجاورة للأسواق تشبه الزرائب بحيطانها السوداء وبالنبات اليابس على شبابيكها. استوقفه خان أنطون بك. كتب أنه يشبه خانات البوسفور بقناطره وشرفاته ونوافذه البحرية. كتب أن رصيفه الذي يتصل بالبحر عبر درجات حجر تنزل من العنابر إلى الماء يشبه أرصفة فينيسيا (البندقية). كتب أن الأميركان يخططون لشراء قطعة أرض كبيرة على جبل الأشرفية أو على هضبة رأس بيروت. أكل مشمشاً من شجرة زرعها رجل هرب من دمشق إلى بيروت وظلَّ في بيروت، وقال إنه أطيب مشمش في العالم.

أشجار المشمش أضاءت بساتين بيروت بحبّاتها. نمت نمواً سريعاً بين البيوت الجديدة على حافة ساحة البرج. الشجرة بين بيت البستاني وبيت أورفللي وصلت أغصانها إلى الطبقة العالية.

امتدت ذراع عارية بيضاء العاج وقطفت حبّة مشمش لم تنضج بعد. هذه حنّة البستاني. في السلة جنبها تنام ابنتها هندومة. حنّة تلعب بالحبّة وتنظر إلى الصغيرة النائمة ثم تنظر من النافذة. قطرة عرق تسيل على رقبتها. نسائم الربيع تحرك أغصان الشجرة. الغصن القريب من حافة الشباك أثقله الثمر. يتقوس كأنه سينكسر. من الغرفة الأخرى يُسمع صوت مريم، تئن وهي هاجعة: ضرسها يؤلمها.

الحلاّق الذي يمر على البيوت ويجزّ شعر الصبيان ويقلع الأضراس المسوسة لم يمرّ منذ فترة. السنّ إذا تخلخل يسهل قلعه. بأصابعك تقلعه أو تربط خيط الحرير على مسكة الباب وتُعلق الطرف الآخر بالسنّ وتشدّ رأسك إلى خلف. السنّ سهل. لكن الضرس لا. من دون الحلّاق وكماشته لا يُقلع الضرس. والحلاّق لا يمرّ. قالوا سكن في مقبرة الباشورة. سكن في باب المقبرة والآن من يطلبه يذهب إليه. لم يعد يبرم على البيوت.

حنّة دلّت مريم إلى الحاج البارودي قبل يومين وقالت: «هذا رجل لكِ يا مريم، لولا أنه مسلم». مريم عرفت أن حنّة تحكي عن الحاج الأرمل ولا تحكي عنه. إذا مرّ خالد نقوزي تحت الشبّاك ترى حنّة رموش أختها ترفّ وترى اختلاجة أذنها. قالت لها: «عيب يا مريم». وضحكت. في القداس، يوم الأحد، دلّتها إلى يوسف سرسق: دخل سنّ الزواج، يلبس البذلة الفرنجية ويُعلق ساعة ذهب من الصدرية المخمل. أبوه صرّاف الخديوي. يستدين الذهب لباشاوات مصر من بنوك أوروبا. يعرف الفرنسية والطليانية والانكليزية. عربته مبطنة بالمخمل، مسقوفة بالمخمل، مسكة بابها ذهب. جياده المطهمة حمراء اللون ضاربة إلى البنيّ، ذيولها مخضبة بالحناء، على عيونها قطع جلد سميكة. يوم الأحد تصطف النساء في أبهى الثياب بانتظار وصول آل سرسق. يوسف سرسق يتحرك مثل أمير أوروبي، أبيض الوجه أزرق العينين، ويضع وردة في عروة قميصه. انجيله الفولكاتا مجلد بجلد غزال وعلى حافة المجلد حروف منقورة بماء الذهب. عندما يغلق انجيله ترى حنّة صبايا، في المقاعد المجاورة، يُسقطن على الأرض مسابح الصلاة. يسمّونه في البلد يوسف الصغير. أبوه يُدعى يوسف أيضاً. أمه من بيزا، كونتيسة باست الخاتم في يد البابا.

حنّة قالت لأختها: «هؤلاء بشر، يقعدون في بيوتهم وليراتهم تشتغل عنهم». مريم قالت أن جلده الأبيض يبدو بارداً مثل سمكة ميتة. حنّة ضحكت وقالت: «أنتِ تتكلمين عن البياض يا كيس اللبنة». مريم قالت البياض للمرأة وليس للرجل، الرجل الأبيض نصف رجل، انظري زوجك خليل. حنّة قالت خذي زوجك خليل وانقعيه واشربي ماءه، الحق عليّ أنا الحمارة لأنني أريدك ألا تغلطي

مثلي، اغلطي، تزوجي سوّاقاً ولا تتزوجي رجلاً يعرف قيمتك.

مريم تفاجأت بكلام أختها ودافعت عن خليل. سألتها لماذا تقول هذا الكلام، وقالت خليل يعرف قيمتك يا حنّة، خليل يضعك على رأسه، متى رفض لك طلباً؟

حنّة أشاحت بيدها وسكتت. كأن في بطنها امرأة أخرى، كأن حنّة القديمة ذات الثوب الأزرق السماوي محبوسة في بطنها، تطلب الخروج والسياحة في الأسواق بينما العيون تتبعها. كل هذا التململ! تسمع أزيزاً حول رأسها، في أذنيها، وهي قاعدة إلى النافذة. الأزيز يخرج من بطنها. تضع يدها على بطنها الفارغة، تضع كفّها على السرّة وتسمع الأزيز. لم يسكت الأزيز بولادة الطفلة. تنظر إليها نائمة ثم تنظر من النافذة.

كل مساء يخبرها خليل عن الطريق ويخبرها عن شتورة وكيف تتغير ويخبرها عن القرى التي تظهر جنب الطريق بين ليلة وضحاها. قرى بدكاكين وخانات وكرخانات وبيوت وبسطات تبيع الأسواط والحدوات والحبال والدواليب الخشب. صاروا يصنعون عجلات من خشب الصنوبر في بحمدون وفي القرية وفي حمانا. أحراج القريّة قطع نصفها حطباً لكرخانة «الأرملة غيران وأولادها». كيف تغلي المياه في خلاقين الحلّ بلا حطب؟ والآن صاروا يخنقون الشرانق بالأفران وهذه أيضاً تحتاج إلى حطب. الفيسكونت فرعون يكبس الشرانق كبساً ويملأ الصناديق. هذه أسهل تحميلها في السفن، الشرانق المكبوسة. وتأخذ مساحة أصغر. يشتري محصول الحرير قبل أن يفقس القزّ من بيوضه. يشتري بالرخيص ويبيع بالغالي. وإذا أعطى قرضاً قبض فائدة تقطع الظهر. الأحراج تختفي في الجبل. القرى تزدهر على حافة طريق الشام. خليل يقول أمر

عجيب أن يأكل الواحد في اليوم نفسه طعاماً في بلدين. يأكل صباحاً في بيروت كشكاً أو منقوشة ويأكل ظهراً في شتورة شواء أو «مخلوطة».

جنب محطة العربات في شتورة امرأة تبيع طعاماً تطبخه في بيتها. تدعو السوّاقين إلى بيتها ويأكلون مع أولادها. تأخذ قروشاً أو تأخذ بضاعة. على الطريق، في القرى، يُقايضون الفخار والصنوبر والفواكه بالقماش والملح والسكر. قال خليل إن هذه الطريق عجيبة، عندما ينزل من العربة في شتورة ويُخلص الأحصنة يشعر كأنه رجل آخر، غير الرجل الذي أكل منقوشة في بيروت عند الصباح. يُسلم الأحصنة إلى الرجل الذي يأخذها إلى أحواض الماء، ويسير تحت غيوم تتبعثر فوق السهل ويشعر أنه ليس هو. كل هذا لأنه قطع في ساعات جبلاً!

قال خليل إنه لا يرجع هو إلا بعد أن يقطع حرج الصنوبر ويقطع رأس النبع ويطلّ على نزلة الكراوية. عندما يرى «خان التوتة» وأشجار المشمش وشبّاك البيت يرجع إلى نفسه. قال لحنّة إنه إذا رآها في الشبّاك يعرف أنه وصل.

حنّة قالت إن التي تقعد في الشبّاك هذه الأيام مريم وليست أنا، أنا مشغولة بالرضاعة.

خليل ضحك وقال أنت ملكة، لو استطعتِ كنتِ قلتِ لمريم أن تُرضع هندومة.

حنّة كانت في البدء تحب هذه العبارة(أنت ملكة). مرّت الأيام ففقدت العبارة طعمها. مثل قميص باخ لونه في الشمس. وأشدّ ما يضايقها هذه الأيام أنها صارت ـ من دون أن تنتبه ـ تنتظر رجوعه. تنتظر كلامه عن نهاره وعن الطرق والقرى وخان المرج وخان العيون

وضهر البيدر وشتورة القابعة في السهل وراء الجبل، شتورة التي لم تعد تشبه شتورة. الأزيز يغمر جسمها. وتوّد لو تطير وتترك هذا البيت وتسرح بعيداً. كانت قاعدة تحلم عندما بدأ ألم بطنها. أصابها إسهال. والطفلة لم تعد ترضع. تغير طعم الحليب فلم تعد ترضع. رضعت فبصقت الحليب.

عمر البارودي أصابه الإسهال. كان يأكل توتياء ومحاراً بكثرة في الأيام الأخيرة. اللحم الساخن غير المطبوخ جعل معدته تسيل. الصغار مرضوا أيضاً. اعتاد أن يفتح أصدافاً ويُطعمهم اللبّ الحار الطري. مرضوا لكن الرزّ المطبوخ شفاهم. النشاء يشدّ المعدة. عمر انشغل بنحت شختورة من جذع شجرة. كفَّ عن أكل التوتيا وثمار البحر، فلم يعد يهرع إلى وراء الصخرة كل لحظة. الجذع ضخم، يقعد عليه ويحفر بالسكين. جلب مطرقة وإزميلاً. وصار يقضي نهاراته في نقر الخشب. يسلق بيضاً تبيضه الدجاجات في الخربة جنب بيته. ويشرب الزهورات. امرأة وادي التيم قالت له أن المحجر ليس على بعضه. النازلون فيه فُصلوا على أبنية. والأبنية أقفلت بالرتاجات. وصلت سفينة من الجزائر أو مصر، عليها ماشية ماتت في البحر. سفينة عليها أغنام وناس. الأغنام ماتت. والناس أصابهم مرض. قالت المرأة أن الحراس يبقون خارج حيطان الكرنتينا خوفاً من العدوى.

زهرة خافت عندما رأت ابنها يفرك بطنه. ظلّت تسأله بعد أن شفي عن معدته. حلف لها أنه لا يشكو ألماً. رفع قميصه وقال «هذه عقصة برغشة». رأت العقصة فاطمأنت. عندما دخل بيت الخلاء لحقت به. أزاحته عن الجورة ونظرت فرأت أنه شفي من الإسهال. عندئذٍ تنفست الصعداء. من قبل مات أبوه بالهواء الاصفر.

القس دانيال بلس أرسل زوجته إلى بيت عبد الله سلوم. السيدة بلس طلبت من الستّ زهرة مساعدتها في إعداد عشاء يحضره المرسلون جميعاً والقنصل الأميركي روبرت لويس جونسون وتاجرٌ إنكليزي من أهل الخير والإحسان يحاول القسّ بلس إقناعه بتمويل مشروع جديد للمرسلين: القسّ بلس يريد أن يفتح كلية في بيروت. كلية تُخرّج أطباء وأساتذة.

التاجر الإنكليزي لي (Lee) مولع بالمأكولات الشرقية. استقدم إلى قصره في مانشستر طبّاخاً تركياً. زهرة استعانت بندرة الصايغ ابنة أختها ياسمينة. ندرة ـ صغرى بنات نصر الله الصايغ ـ لها نَفَس ستها سهيلة في الطبخ. لم تتزوج بعد. لكن جسمها تفتح. ساعة الصباح تفوح رائحة ماء الورد من رقبتها. زهرة طلبتها لأن الأطباق كثيرة والوقت قليل وعليهن إعداد حلويات أيضاً.

كان عشاء لا يُنسى. القنصل جونسون الذي يُوقع رسائله R.L. Johnson وصف العشاء في رسالة إلى زوجته في بوسطن. التاجر لي لم يترك طبقاً إلا وذاقه. حتى القسّ بلس، المعروف بزهده في شربه وطعامه، فكّ زراً من أزرار قميصه على سبيل المزاح وقال «الرب يسامح». النبيذ جلبه خليل باسيليوس الذي يعمل منذ سنة في المطبعة. مسز سميث أعدت فطيرة أميركية حُشيت بالتوت البري. بقيت الفطيرة كما هي. حلويات زهرة وندرة اختفت عن المائدة. مسح التاجر لي أصابع ملتوتة بالسمن والسكر على منديله وقال «الرب يحفظنا».

خليل باسيليوس (الناجي من مذبحة دير القمر) أحبّ ندرة الصايغ من النظرة الأولى. كانت في المطبخ تصفّ صدور الدجاج فوق طبق الرزّ البيضاوي ثم تزين الصدور بالجوز المحمر مع زبيب

وصنوبر. رآها تحرق رؤوس أناملها باللحم الأبيض الحار فأحسّ بقلبه يرتفع إلى زلعومه. أراد أن يتكلم. لكن صوته انحبس. ظلَّ ينظر إليها حتى رفعت عينيها. رأى الحمرة تورد خديها فعرف أنها ستقبل به. لم يعد يسمع ضجة الضيوف وراء الباب. لم يعد يسمع عزف مسز سميث على البيانو. ولم يعد يسمع شرائح الباذنجان تطقطق في زيت يغلي على النار. لم يعد يسمع غير نبضة قلبه. ذهب بعد ثلاثة أيام وطلب يدها من الخواجة نصر الله.

الخواجة نصر الله أوشك أن يقول لا. ثم طلب مهلة للتفكير. أوشك أن يقول لا بسبب ألم غير مفهوم ملأ بغتة بطنه. سمع عن حالات ديزنطاريا في البلد. منذ سمع هذا أبلغ ياسمينة أن عليها غسل الخضر طويلاً. صارت ياسمينة تنقع الخضر في الماء والملح أو في الماء والخل. مع هذا باغته الإسهال. أسرع إلى بيت الخلاء ونسي أمر خليل باسيليوس. عندما تراجع الإسهال تذكر الرجل بالندبة في جبهته. على الطريق إلى الخان فكر فيه وفكر في ندرة، وكالعادة أخذته الأفكار إلى الإسكندرية. أيوب حمل إليه رسائل من أخويه. وحمل رسائل من سوسن ونرجس إلى ياسمينة. تخيل بيوت الإسكندرية البيضاء بياض الحليب. قفز فوق قناة مياه قذرة أسفل سوق القطن. ودخل منطقة المرفأ. ناظر المسلخ أخبره قبل أيام عن بقرات مريضة وثيران مريضة. تلمس جيبه، لمس الرسالة المطوية.

عبد الفتاح البارودي رأى ـ وهو قاعد يأكل شواء على مصطبة المطعم ـ زوج عمته ياسمينة منحدراً إلى المرفأ شارد الخاطر. نادى على زوج عمته. أراد أن يلحق به. ثم تردد ولم ينزل عن المصطبة. الخواجة نصر الله تابع طريقه كأنه لم يسمع نداءً. عبد الفتاح ودَّع يوسف منيمنة وخرج من قنطرة الدباغة إلى ساحة البرج قاصداً خان

أبيه. عندما سمعه الحاج عبد الرحيم يطلب الدخول إلى المدرسة لم يصدق أذنيه: هذا الولد العفريت الذي لا يطيق القعود لا في البيت ولا في الدكان يطلب العلم والدراسة! مسح أثر الشواء الأسود عن فمه وذقنه. وقف الولد أمام أبيه ينتظر جوابه. الشيخ عزّت بيضون بان في تلك اللحظة، يقطع الباب من جهة إلى جهة. اختفى نازلاً الدرج الحجر راكضاً. ابتسم الحاج عبد الرحيم: هذا الإسهال اللعين يتنقل بين بيوت البلد.

ماتت نِعاج عند آل العود في عين المريسة. أثر الطاعون ظهر على رقابها وتحت بطنها. الكونت إسحاق طرازي انحدر بشعره الأبيض إلى الميناء، وخلفه امرأة وأولاد وثلاثة أحباش يحملون صناديق. لم يركب العربة لأن أحصنته مرضت فجأة وماتت. ركب الكونت طرازي السفينة النمساوية Villemena مع عائلته وذهب إلى إيطاليا. الأحباش الثلاثة رجعوا إلى البيت الفارغ الكبير. كانوا يضحكون ويأكلون الترمس الأصفر ويرمون القشور على الأرض.

تكاثرت السفن الراسية قبالة الكرنتينا. عمر البارودي ضايقه المنظر. البواخر سدّت الأفق. تقترب من المحجر ثم تتراجع. لكنها لا تدخل الميناء. تابع حفر قاربه. يستخدم السكين فقط الآن. يخاف أن يشق الإزميل العروق فتتفتح مسام الخشب. الجذع ثقيل، يجره إلى جنب النار عند المساء. يقعد في ضوء اللهب ويتابع النقر. المرأة لا تأتي إليه في هذه الليالي. دار القمر دورته؛ قالت إنها مريضة. الصبي ينزل ويقعد معه. عنده كلب أبيض، على ظهره بقعة رمادية. الكلب يتبع الصبي أينما ذهب، يتمرغ على ساقيه. يرمي له الصبي عظمة إلى عرض البحر فيغطس ويسبح ورأسه فوق الماء

ويعود مع العظمة. يرميها أمام الصبي وينفض عن جسمه الماء. يتطاير الماء مع وبر خفيف. والكلب يحرك ذيله وينبح. مرات يقترب من الجذع، ويجرب عليه أسنانه. عيناه حمراوان. لثته قاتمة اللون. نبش عظاماً وراء الخربة. عمر طرده بعيداً.

الحاج عبد الرحيم أرسل إلى أخيه حبشياً محملاً بالصابون والملح والسكر. عمر البارودي نظر إلى مكعبات الصابون الخضراء فشعر بالحيرة: فَقَدَ للحظة وجيزة القدرة على الفهم. نظر إلى مكعبات الصابون ولم يعرف ماذا تكون هذه المكعبات! عندما غابت الشمس وزحف الظلام على البحر وعلى اليابسة جلس عند البلاطة ينظر إلى النار وإلى الشرر. سمع الصمت الكامل. كانت ضجة السوق العمومي تبلغه من قبل. ومرّات يسمع ضجة من ناحية الرميل: كان يسير في تلك الأنحاء ذات ليلة، كان يقطع بساتين التوت، ورأى عربات فخمة تتراصف في باحة بيضاء أمام قصر رخام ومرمر. كانت النوافذ مضاءة بالقناديل، ورأى قناديل معلقة من أشجار الأوكاليبتوس أمام القصر الأبيض. سمع الموسيقى وسمع الأصوات. ورأى رجالاً يراقصون نساء داخل زجاج النافذة. كان مشهداً عجيباً. ولم يخرج من ذهنه بعد ذلك. لكنه في الليالي الأخيرة ما عاد يسمع غير الصمت الكامل. في الليل، يكون نائماً جنب «البلاطة»، فيسمع طرقة باب. يفتح عينيه فيرى شبحاً أبيض يقرفص جنب أحد البيوت تحت الكرنتينا. هذا مشهد بات يتكرر في الليالي الأخيرة. وفي الصباح يرى وجوهاً تعبانة، صفراء. رائحة الزهورات تملأ الشط. لكن المشكلة هي المحجر: الرائحة التي تهبّ من هناك فظيعة. كرائحة الأبقار الوسخة، لكن أقوى.

هبّ الهواء الشرقي فرفع الرائحة الثقيلة فوق شط المدوّر.

عبقت الرائحة المشؤومة في طرقات بيروت. ثم مات الهواء الشرقي وتراجعت الرائحة. هبَّ الهواء في الليل، والناس نيام، وتراجع قبل شروق الشمس من وراء جبل صنين. الديكة صاحت صياحاً ضعيفاً في ذلك الصباح. لكن الكلاب نبحت مجنونة. والذئاب أجابتها من البراري.

مخايل فرح ابن التاجر الثري متّى فرح كان يقضي عطلة الصيف في بيت أبيه في بيروت على غير عادة. درج على السفر إلى مصر أو أوروبا في السنوات الماضية. استيقظ صباح 28 حزيران(يونيو) متوعكاً. تعشى قبل النوم لبنة وزيتوناً وبصلاً وزعتراً وبندورة. يحبّ البندورة. أكل ثلاثة أرغفة خبز مرقوق ونام. صباحاً ركض إلى بيت الخلاء. ذابت معدته. يخرج من بيت الخلاء فتهجم عليه نوبة الإسهال من جديد. يهرع إلى بيت الخلاء. وما إن يخرج حتى يركض إلى الجورة مرة أخرى. لم يبق فيه طعام حتى يخرج، فمن أين يأتي هذا السائل القاتم، هذا السائل الأصفر،هذا السائل الأبيض؟ شعر بمادة غريبة تفور في أحشائه. صعدت المادة الحامضة إلى زلعومه وتدفق الماء من فمه. انقلب جوفه كما يُقلب الكلسات. مصرانه انحلّ. لم يعرف ماذا يحصل. رأى ما يشبه المخاط الممزوج بالأغشية والقطع الحمراء الصغيرة على الأرض. «هذا خرج من فمي؟» لم يفهم مخايل فرح ماذا يحصل. في تلك اللحظة هاجمته نوبة إسهال جديدة. عضلاته لم تعد تسيطر على خروجه. أهله أرسلوا يطلبون طبيباً. قبل أن يأتي الطبيب تقلصت عضلات ساقيه فصاح ألماً. انتفض كأن النار تحرقه وسقط على ظهره. الماء خرج من جسمه. والأملاح خرجت من جسمه. خمس ساعات وهو يعاني. انتفض جسمه وجحظت عيناه. ثم همد. لم يمت إلا بعد

الغروب. قبل أن يؤذن المؤذن لفظ أنفاسه. المصلون في الجامع العمري كانوا خارجين من صلاة العشاء فسمعوا النادبات. الطبيب قال «كوليرا». عمَّ الذعر.

دفنوه في مقبرة الموارنة. كانت جنازة صغيرة. حملوا التابوت من بيته إلى المقبرة تحت جنح الظلام. لم يسهروا عليه ويصلوا الليلة. الميت بالكوليرا لا يسهر أهله عليه. الكوليرا مخيفة. تخرج من الموتى وتُعشش في أمعاء الأحياء. دفنوه على عجل ورموا كلساً على تربته.

الحاج عبد الرحيم أسرع إلى الحارة وردّ الباب خلفه وأقفله. حَزِن على الخواجه متى. يعرفه ويعرف مخايل. طالما خزّن الخواجه بضائع في عنابره. تخيل الرجل قاعداً هذه الليلة بلا ابنه فاشتدّ حزنه. رأى نور القنديل يتلامع تحت باب بيت ابنه حسين فلم يقرع الباب. استحى أن يقرع الباب. وأسرع على طريق الكلس إلى بيت خالته أم هند: وجدها قاعدة جنب الجرن في ضوء المساء الخفيف تهدهد الطفلة. نقل إليها الخبر. قالت «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فرأى أسنانها تصطك. كأن ريحاً باردة صفعتها. قال الحاج إنه أقفل البوابة.

القناديل مضاءة في البيت. عبد الغني يلعب بورق الكوتشينة مع عبد الفتاح. وسليمة تتفرج على اللعبة. زاهرة وحوراء تفرشان البساط وتضعان العشاء. رائحة الرز والحليب تملأ البيت. ردّ الباب ثم فتحه من جديد ونادى على خالته أن تجلب الطفلة وتأتي وتتعشى. الخالة قالت «سبقتكم».

ـ تعالي واقعدي معنا.

جلسوا إلى الطعام وهو ينظر إلى وجوههم ويفكر في الخواجه

متى. أراد أن يقوم وينادي حسين وزوجة حسين. ماذا لو أرسل عبد الفتاح؟ يقول له أن ينادي ثم أن يقرع الباب. لكن حسين لن يخرج في الليل من الحارة. غداً يكلمه.

هجع البيت فوقف عبد الرحيم إلى النافذة ينظر إلى بيوت الحارة وإلى مئذنة الجامع العمري المستطيلة. من مكانه العالي رأى أشباحاً تقطع طرقات البلد. ماذا يجري؟ من ناحية سوق الحدادين تجيء ضجة متقطعة. خيل إليه أنه يسمع ارتطام مراكب بأرصفة المرفأ. صوت الليل يذهب بعيداً. كان يمسح عرقاً عن رقبته عندما سمع قرعاً على باب الحارة. علا صوتٌ من وراء السور. هذا حليم صعب ابن سليم صعب. قبل أن يلبس عباءته رأى باب الصيّاد الدرزي يُفتح ورأى سلمان أو خطار ـ من هنا لم يميز الوجه ـ يخرج وهو يسأل من الطارق؟ عندهم مفتاح معلق في البيت. فتح الرجل الباب فدخل حليم صعب يُبرطم بالسباب. سمعه الحاج يقول «الله يلعن هذه الليلة». ورأى، في ضوء قنديل تسرب من بيت خويري، وجه الرجل المعتكر: بدا الوجه محتقناً بالدم، واللون الأسود يغمر الجبهة العريضة.

كلمة كوليرا تعلقت في الفضاء مثل غيمة سوداء عملاقة. «هواء أصفر»، قالت احدى النساء، وهو خارج من الجامع هذا المساء. رآها تخبط كفّاً على كف، ثم تحضن وجهها بين كفيها، واقفة أمام عطارٍ يُدخل أكياس التوابل إلى دكانه متعثر القدمين، والأغراض تقع من يديه. سمع تمتمات وأدعية. رأى وجوهاً تتغير أشكالها. وكيفما التفت رأى ناساً يركضون إلى بيوتهم بلا حكي. عندما دخل الحارة لاحظ أن جميع النوافذ مردودة مع أن ضوء المساء الضعيف لم يتبدد تماماً بعد. قبل ذلك، وهو يقطع سوق الفشخة من جهة إلى جهة،

رأى ثلاثة رجال لا يعرفهم يخفّون الخُطى باتجاه باب ادريس وهم يتكلمون كلاماً سريعاً غير مفهوم. كانوا يعتمرون طرابيش مغربية وكانوا طوال القامة. وفكر أنهم أغراب عن البلد.

لبس عباءته وخرج من البيت وردّ الباب. قطع «طريق عبد الجواد» إلى الرجال الذين تجمعوا أمام بيت سليم صعب. ألقى عليهم السلام فردّوا سلامه. إلا حليم صعب: كرّر الجملة ذاتها، كأن الكلمات علقت بين أسنانه، في بطن فمه، فلا يستطيع أن يلفظ غيرها:

ـ الله يلعن هذه الليلة.

أبناء الصيّاد الدرزي قالوا «الله يحمينا» ورفعوا وجوههم في حركة واحدة صوب السماء. الحاج عبد الرحيم نظر هو أيضاً ورأى النجوم البيضاء ترصع القبّة، مثل ثقوب في القماشة القاتمة. خالد نقوزي جاء مع أخيه أحمد. أحمد قال إنه رأى المرفأ من السطح، القناديل مضاءة، والناس على الأرصفة. حليم صعب استطاع عندئذٍ أن يلفظ جملة جديدة. كانت قصيرة، لكنها اختصرت ذعره:

ـ الخواجات يخرجون.

في ليلة واحدة فرغت البيوت في سوق الفرنج. الخواجه نصر الله الصايغ أخذ عائلته وهرع إلى الميناء ما إن سمع الخبر. لم يفكر. الرسالة المطوية في جيبه ما زالت دافئة. ارتفع حداء النادبات فركض إلى ياسمينة وقال اجمعي أغراضك، الليلة نركب البابور. «إلى أين؟» سألته ملهوفة. لم يردّ عليها. ركض خارجاً من «دار الصايغ» قاصداً بيت صهره دبّانة. لن يترك هيلانة هنا. هاج الهواء الأصفر. لا ينجو إلا من يفرّ بجلده إلى وراء البحر.

احتشد المرفأ بالعربات والحمير والبشر. صناديق ومقاطف وأكياس. حقائب فرنجية بحواف خشب وسيور جلد وبكلات نحاس تبرق في الظلام. النساء جلسن على الصناديق. الأولاد اجتمعوا بين السيقان، يتعلقون بالأثواب، يشدّون الأكمام. المراكب ازدحمت عند الأرصفة. حمّالون يتراكضون. وأحباش يظهرون من العنابر وينفضون عن ثيابهم القش. اشتعلت القناديل وارتفعت الأصوات. أحد الرجال نهر امرأة باكية. المرأة سكن عويلها. إبراهيم بك سرسق لم يظهر على الأرصفة. بان لاحقاً أنه ركب المركب الأول وخرج إلى البابور الطلياني الراسي وراء الصخور. الكوليرا لا ترحم الباكوات. لقب الباكوية لا يردّ الإسهال.

المؤذن عبد العزيز قدورة كان أول من شاهد إشارات الدخان التي أخرجتها مداخن البوابير وهي تبحر مبتعدة. روى فيما بعد أنه استيقظ في ذلك الفجر من حلم غريب: رأى في المنام أن الرمال تطمر المرفأ وأن السفن تعلق في الرمال والفئران تخرج من بطونها وتجتاح العنابر وتأكل الحبوب. في منامه رأى المؤذن عبد العزيز قدورة - نسيب المرحوم لطف الله قدورة الذي اشتهر بالصوت الرخيم - أن الرمل يتحرك فيرتفع كالموج الأصفر ويغطي المراكب المقلوبة على الأرصفة ويغطي مينا البصل. لم يكن نام غير ساعتين. الضجة منعته من النوم في أول الليل: أطلّ من نافذة الجامع العمري ورأى الناس، وراء شجرة الرمان، ينحدرون مسرعين مع قناديل من جهة مار جرجس. سمع يهودياً يمزج كلمات عربية بكلمات غير عربية يقول لأهله أن النصارى يهربون. بعد منتصف الليل تراجعت الضجة ولم يعد يظهر أحد وراء شجرة الرمان. نظر إلى النوافذ الثلاث، العالية والعميقة، أعلى جامع السراي السميك الحيطان.

قرأ ما تيسر من آيات كريمة. ثم تراجع وردّ خشب النافذة. نام وفي نومه رأى الرمل يطمر الميناء.

في ذلك الفجر ذاته غسل وجهه ثم توضأ وصعد إلى أعلى المئذنة حاملاً سراجاً. وقف على الشرفة ونظر إلى حيث اعتاد أن ينظر كل هذه السنين. النظرة الأولى نحو جبال صنين، والخط المنير الذي يتشكل عند القمم. النظرة الثانية إلى البلد الذي ينام في الأسفل. النظرة الثالثة إلى «الطريق البيضاء» التي تمتد كاللسان من حائط سوق الفشخة حتى حارة القرميد التي تفصل الحيّ المسور عن العنابر وعن البحر: النظرة الرابعة إلى البحر بصفحته المستوية صيفاً الصاخبة شتاءً. هذه هي عادته.

لكنه في هذا الفجر غير المألوف وجد نظرته الأولى تقع على البحر. هناك، في عرض البحر، رأى عدداً لا يحصى من البوابير يبتعد عن المرفأ ويبتعد عن الكرنتينا مطلقاً من دواخينه إشارة الوباء. أبحرت البوابير بطيئة فعرف أنها مثقلة بالبضائع والركاب. التفت برقبته ثقيل القلب ونظر إلى حافة جبال صنين. هناك، حيث تبدو الجبال كأنها تتساقط في البحر عند صخور المدوّر، رأى في غبشة الفجر، ثلاث سفن شراعية. كانت سفناً ثلاثية الصواري، تنشر أشرعتها العملاقة، وتبتعد إلى قلب البحر. للوهلة الأولى خيل إليه أنها سفينة واحدة. ثم سبقت السفن بعضها بعضاً وانفصلت الأشرعة عن الأشرعة ورأى أنها ثلاث سفن. كانت الظلمة تسبح مثل ضباب داكن على صفحة الماء. رأى الضباب يتكاثف كشوربة العدس الأصفر، وظنَّ أنها أضغاث منام. تكاثف الضباب أمام عينيه وتحبحب كما لو أنه رمل. سعل فسمع خرير بلغم في صدره. هبّ الهواء عندئذٍ فغمرته هذه الرائحة الفظيعة. من أين يأتي هذا الهواء؟

من الشرق؟ من الكرنتينا؟ أم من البحر نفسه؟ كانت السفن تبتعد، والريح تنفخ الأشرعة. رأى الأشرعة تتورم أمام عينيه. ورأى مقدمة السفينة الأولى ترتفع فوق بيوض الموج، ترتفع فوق الأمواج البيضاء المتعاقبة، ثم تهبط، وتتابع حرث المياه. أمواج الفجر التي تفقس بعيداً ملأت عينيه. مسح رطوبة غير مفهومة تجمعت على رموشه وقال إنه ندى الفجر. قبل أن يرفع الأذان رأى الجنازات الخارجة من البلد. عندئذٍ تذكر أنه سمع قرع النواقيس وهو نائم: بينما يرى أسراب الفئران تخرج من كوى السفن سمع خبطات نحاسية موقعة. عبد العزيز قدورة نظر إلى التوابيت الخارجة من البيوت ونسي أن يرفع أذان الفجر.

كانت خمس جنازات في ذلك الفجر. جنازتان انحدرتا صوب السنطية. جنازة أخذت طريق الشام طالعة صوب مقابر الناصرة. وجنازة سلكت طريق مار متر عند سفح جبل الأشرفية. الجنازة الخامسة أضاعها عندما حجبها عن نظره ميتم اللعازارية. لعلها ذهبت صوب الباشورة. ولعلها ذهبت صوب الناصرة. لم يرَ المؤذن قدورة أين ذهبت. بانت الشمس من وراء صنين فنزل الشعاع في عينيه. عندئذٍ انتبه أنه لم يؤذن.

قصور الرميل فرغت من أهلها. لم يبقَ غير بعض الخدم والعبيد. سوق الفرنج لم يفتح أبوابه ذلك الصباح. سوق الفشخة فتح: ليس كلّه، لكن القسم الأكبر من دكاكينه. البازركان فتح. بعض الدكاكين ظلّ مقفلاً. لكن معظم الأراجيل ظهرت في مواقعها. والدخان ملأ الدهاليز. التجار طلبوا القهوة والفول المدمس وبليلة الحمص وجلسوا يأكلون ويتكلمون عن الليلة الماضية وعن الأيام الآتية. كَثُرَ ذكر الله على ألسنتهم. كأنهم فجأة انقلبوا أشد الحجّاج إيماناً. مع

أنهم في العادة قد يمضون النهار كاملاً بلا صلاة. الخواجه طراد فتح متجره. وجيرانه المسلمون اجتمعوا في باب المتجر يسألونه لماذا يبقى ويضحكون. بادلهم الضحكات وأرسل الصبي إلى «القهوة» ليأتي بالمطلوب. بدوا في نزهة. وبدا العالم بخير. في تلك اللحظة ارتفع زعيق من جهة «العطارين». طرطقت نوافذ على حيطان. وارتفع الندب. في رمشة عين سقطت الوجوه. الوجوم ملأ البازركان. طغت رائحة «الفطيس». الخواجه طراد رسم إشارة الصليب وأقفل دكانه. أسرع إلى البيت لا ينظر وراء ظهره. جاره الحاج بيهُم ردّ باب متجره وقال «نذهب ونرى من مات». ظهر ولد آتياً من سوق العطارين وقال هذا العطّار الحلبي السيد أمين، مات في دكانه، ما زال على الأرض. الحاج بيهُم استدار مع الكلمات وذهب في دهليز البازركان لا يرد سلاماً وقطع الأزقة مبتعداً عن «العطارين» ما أمكن إلى أن بلغ باب يعقوب. قبل أن ترتفع شمس الظهيرة إلى كبد السماء حطّ عائلته في عربة وترك البلد إلى الجبل. الكوليرا لن ترحم الأولاد والبنات. رأى من قبل أفعال الهواء الأصفر.

الحاج محي الدين الاسطمبولي ظهر في «دار البرتقال» وقال للنساء «اجمعوا الأغراض وإلى ساحة عالسور». إحدى أخواته سألته إلى أين؟ ردّ بوجهٍ مقطب: «بسرعة، بسرعة، بلا حكي». دخل على أبيه الهاجع في السرير الكبير وقال له «يا حج». لفظ النداء وانتظر حتى يتحرك أبوه من نومه. لم يتحرك الشيخ مصطفى غندور الفاخوري. كان غارقاً في نوم ثقيل على غير عادة. اقترب الحاج الاسطمبولي متهيباً ولمس كتف الختيار الأعمى. لم يتحرك. لمس بأصابع لا ترجف رقبته المجعدة. لم تكن باردة. والحاج الاسطمبولي لم يعرف هل يرتاح الآن أم العكس! هذا الهواء الأصفر

يخبل العقل! أيقظ أباه وقال «لازم أن نسافر يا حج». الشيخ طلب البقاء في بيته. «عشت أكثر من سنواتي»، قال. ابنته ـ هذه أم عصام ـ لم تقبل أن تترك الدار من دونه. أولادها اجتمعوا حولها وقالوا «نحن لن نذهب من دونك يا أمي». كل واحد بطول الباب. عندهم زوجات وأولاد. ماذا تفعل؟ الحاج الاسطمبولي تركهم يقررون وركض إلى بيته. اتفق معهم أن يلتقوا أمام المخزن. الشيخ كرّر عبارته: «شبعت من العمر». أم عصام قالت «لا تكفر يا أبي، أنت تاج رأسنا، كيف تقول هذا؟» وبكت. لم تبكِ بسبب كلامه. بكت خوفاً. رأت أبناءها الرجال يرمشون بعيونهم الزائغة فبكت. رأت الأولاد قاعدين تحت أشجار البرتقال ساكتين، لا يلعبون، فبكت. رأت النساء مصفوفات كفزاعات الصحراء بين الأكياس المحزومة والصناديق التي تنتظر الحمّالين فبكت.

الشيخ قال «من أجل دمعاتك أترك الدار يا ابنتي». بدا في تلك اللحظة كاذباً. بدا راغباً في الحياة، في البقاء حيّاً، أكثر من الحاضرين جميعاً. ولعله كان كذلك.

محمد الفاخوري صاحب اليد المقطوعة لم يرغب أن يركب معهم. «هذا قضاء الله»، قال. الحاج الاسطمبولي لم ينهره. تركه ومضى. ومحمد استحى وطأطأ رأسه. وقف عند زاوية أبي النصر، وظلال السروات الثلاث تموج على رأسه. رأى العربات تكرّ خارجة من البلد فتحرك حركة مباغتة (جسمه وحده تحرك) ونادى على أبيه وركض وراءه. لحق به عند باب الدركاه وقال لا تخف علينا يا أبي، إذا اشتدّ المرض نذهب إلى شوران ونبقى هناك حتى ينتهي المرض.

عبد الله الفاخوري بنى في الشهور الماضية بيتاً جنب معمل الفخار على شط شوران. لم يسقف البيت بعد. جلب جسور السقف

الصنوبر. وكان ينتظر«العونة» من أقاربه ومعارفه عندما جاءت الكوليرا. الذين لم يطلعوا إلى الجبل من أهله، قطعوا بساتين التوت وبراري الصبير ونزلوا عنده، على شط شوران. انعقدت «العونة». فرفعوا جسور السقف وهم يبسملون. الخيم والشوادر (هذه شوادر من شعر الإبل تُمد في المآتم والأعراس)انتشرت من الشط إلى رأس بيروت. الصغار ركضوا بين الأشجار، يلعبون.

في الجهة الأخرى من البلد لم تظهر خيم: ما ان هبّ الهواء الشرقي حتى ظهرت حالات الإسهال في «بيوت الغسيل» على شط المدوّر. هذه البيوت المتاخمة للكرنتينا اجتاحها المرض بين ليلة وضحاها. العبيد الذين ظلّوا في قصور الرميل باغتهم الإسهال وهم يذبحون عجلاً ويعدون شواء. كانوا أعدوا العدّة لحفلة تدوم ليالي: أحدهم كسر باب كهف النبيذ وأخرج قوارير وجراراً يغطيها الغبار. عندما رفعوا الأغطية والسدّادات ظهر السائل الثمين المعتق وملأ عطرٌ الفراغ بين أشجار الأوكاليبتوس. الخادمة الحبشية خبزت خبزاً يكفي جيشاً. بينما تخبز على الصاج كانت تُغطس الخبز الساخن الذي تكومه جنبها، تُغطّس الخبز في قصعة ملأتها بزيت الزيتون الذهبي، وتأكل، وتضحك. كانوا يُغنون ويضحكون، وبشرتهم الصقيلة السوداء تلمع بين أعمدة المرمر، والمياه تسقسق في البركة المدوّرة المبلطة بالفسيفساء. كانوا يضحكون، والدم فرّ من رقبة العجل غزيراً ولطخ حافة المقعد الحجر حيث يقعد نقولا بيك مع الكونتيسة ويشرب كوب الحليب ساعة الصباح. كانوا يضحكون ويقفزون بين جذوع الكينا عندما اعتكر الهواء وهرع أحدهم إلى وراء البيت وهو يفكّ زناره. كفوا عن الضحك. حصدهم الإسهال واحداً واحداً. انطرحوا على الأدراج البيضاء الرخام بسيقان تنتفض وبشرة

تشحب. اللون الأسود تغير: داخلته صفرة. لم يعد يلمع. الأقوى بينهم مات أولاً. تبقع بالأصفر مثل حرباء. الخادمة صمدت يومين. ثم لفظت أنفاسها.

الكوليرا أذابت بطون الغّسالات في بيوت المدوّر الحزينة. المرأة الساكنة لصق المحجر كانت تغسل ثياباً قاعدة على الأرض عندما سمعت بطنها تقرقر. كأن مصارينها صارت ماء. هرعت إلى وراء الصخرة كي تقضي حاجتها. لم يكن إسهالاً عادياً. طعم مالح غزا زلعومها، غزا فمها. ثم صار الطعم حامضاً. وشعرت أن المياه تفور في فمها. هذا ليس ماء. مادة كثيفة خرجت من بين أسنانها. انحنت فتدفق السائل الأصفر من جوفها. في اللحظة ذاتها هاجمتها نوبة الإسهال من جديد. صارت تبكي وهي لا تدري ماذا تصنع. جسمها ذاب وهي تتلوى. لم يبقَ فيها مادة جامدة. كأن ناراً اندلعت - لكن بلا حرارة - داخل جسمها، فسالت أعضاؤها الداخلية وخرجت سائلة من فمها ودبرها. مصرانها الدقيق يتقطع. وهي تتلوى جنب الغسيل المنقوع في الماء. عضلات الساقين تتقلص وتنتفض. ولا أحد يأتي إليها. دام احتضارها ثلاث ساعات.

عمر البارودي كان خارجاً من الماء - كل صباح يسبح، هذا حمامه الصباحي - عندما سمع الأصوات الباكية. رأى النساء يتراكضن بين البيوت. والأولاد يقرفصون زاعقين جنب الحجارة. لم يستوعب ماذا يجري. قبل أن يغطس عند الشروق رأى أن البوابير والسفن التي كانت تصطف أمس قبالة الشط قد اختفت. رآها في الأفق مثل نقط تتلاشى. أولاً يتلاشى جسم السفينة. بعد ذلك تتلاشى الصواري. مداخن البواخر تختفي والأفق يرجع كاملاً، بلا خدوش. هذا منظر غريب. فقط في عزّ الشتاء وعزّ العواصف يخلو

هذا البحر من السفن. غطس في ساعة الشروق والمياه ما زالت باردة، لم تدفأ كفاية بعد. وعندما خرج من الماء، والشمس ملأت الفضاء وملأت البحر بشعاعها، رأى هذا المنظر: رأى أجساماً على الأرض، أمام «بيوت الغسيل»، تتلوى. لم يستوعب ماذا يجري. وقف عند رماد «البلاطة» فتدفقت الذكريات وغمرت وجهه: كأنه على ساحل القُرم والهواء الأصفر يحصد العسكر.

أثناء شهر تموز (يوليو) فرغت طرقات بيروت من البشر. الأهالي خرجوا إلى وراء البحر أو إلى الجبل والبّرية. حرج الصنوبر امتلأ خيماً. الحاج عبد الرحيم البارودي أخذ عائلته إلى شط شوران. عائلة الصيّاد الدرزي انتقت إلى عين المريسة. الأخوان نقوزي افترقا: أحمد نقوزي صعد إلى بتاتر (الجبل) حيث نزل معلمه الحاج الاسطمبولي، جنب معمل بورتاليس لحل الحرير. الحاج الاسطمبولي استأجر بيوتاً لأهله في بتاتر وبحمدون بانتظار زوال الهواء الأصفر. قال لأحمد نقوزي إن المكان يتسع لأخيه خالد أيضاً. لكن خالد قبِل دعوة أخرى: مرض خليل البستاني. ارتفعت حرارته وهجم ألم على ساقيه. لكنه لم يصب بالإسهال. هذا مرض يسمّونه «أبو ركب». يأتي عندما تأتي الكوليرا. لكنه ليس كوليرا. بيوت ساحة البرج أقرب إلى الكرنتينا من بيوت البلد القديمة، ومع هذا لم تقتحمها الكوليرا. هذه بيوت جديدة، الشمس تدخلها، وحجارتها لم تتشبع بالرطوبة بعد. الهواء الأصفر قطع فوق سطوحها واستقرّ في بطن البلد. مرض خليل البستاني فجاء خالد نقوزي يسأل عنه. لم يكن الحجر الصحي ضُرب على بيروت. حنّة البستاني قالت لزوجها نخرج الآن أو نعلق ونموت. خليل البستاني طلب من

صاحبه ـ على مضض ـ أن ينقلهم بالعربة الديلجانس إلى شتورة. كان يتوقع أن يقول خالد لا. خالد نظر إلى الأختين القاعدتين عند رأس المريض وقال: «أحسن ألا نتأخر».

ذهب إلى الحارة وجمع بعض الثياب. في خروجه رأى زهور دوّار الشمس طويلة السيقان مكتملة الأقمار تتمايل عند بركة الماء. تمايلت الزهور في الحارة شبه الخالية. كان السكوت غريباً. تذكر خاله الحاج عبد الرحيم، قبل أن تحل هذه الكارثة، يدل أولاده إلى الأقمار الصفراء التي تدور مع حركة الشمس ويقول أنتم لا تعرفون هذا لكن المرحومة أمي، يعني ستكم أم شاهين، زرعت هذه الأقمار في هذه الحارة قبل أن يزرعها أحد في بيروت. قال الحاج أن هذه الأقمار تنبت وحدها منذ ذلك الوقت. تذبل وتيبس وتتساقط بزورها في التراب عند نهاية الصيف. والمياه التي تنشّ من البركة تسقيها فتنمو هكذا مع مجيء الربيع ونأكل بزورها التي تحبّها العصافير. قال الحاج أبو حسين إنه عندما كان ولداً كان يرى المرحومة أمه تظل تسقي هذه الشتلات حتى تعربش أعلى من الشبّاك وأعلى من الباب وتصل أقمارها إلى السطح. كان المرحوم أبو شاهين يقول: «هذه غابة».

«حارة البارودي» امتلأت بالعصافير. عائلة صعب تركت الحارة إلى دير القمر. تركوا بيروت قبل أن يُفرض الحجر الصحي. عائلة خويري خرجت على البغال إلى جزين. أم هند ذهبت مع الحاج عبد الرحيم وعائلته إلى شط شوران.

سلكوا طريق وادي أبو جميل. كانت سوق الفشخة مقفلة وهم يقطعونها إلى باب إدريس. أم هند امتلأت بالدموع وهي تحضن الطفلة زهية بينما الصغيرة سليمة تتعلق بثوبها وتشدّه. أرادت أن

تحملها. قطعوا جلول التوت فبلغوا قربة عين المريسة. لم يدخلوا القرية. ذهبوا في طريق البحر إلى معمل الفخار. البحر عن يمينهم تتلألأ عليه قطرات الشمس. وهضبة رأس بيروت عن يسارهم تبقعت بالخيم. الخيم تشبه ثمار فطر عملاقة. المرسلون الأميركان ـ ومعهم الياس فواز وعائلته، وعبدالله سلوم وعائلته، وخليل باسيليوس وآخرون ـ نصبوا خيمهم على التلة العالية حيث سيُبنى «مرصد فانديك» (يُسمّى في سجلات الجامعة: Lee Observatory) بعد سنوات قليلة. كانوا من قبل احتاروا أين سيبنون الكلية: في هذه البرّية أم فوق جبل الأشرفية؟ بينما يقطفون تيناً من أرض دندن، بينما يشربون الشاي ساعة العصر ناظرين إلى جلول تتدرج حتى صفحة البحر الأزرق، قرروا أن يبنوا الكلية هنا، إذا عاشوا.

«حارة البارودي» امتلأت بالعصافير. البيوت مقفلة ولا أحد يسكنها. إلا بيت المرحومة أم شاهين. حسين البارودي وزوجته ظلاّ في الحارة.

المكان ساكن. العصافير تتقافز على «طريق عبد الجواد». حسين يتسلى بسقاية أشجار الورد أمام بيت أبيه. نسب تعد طعام الغذاء قاعدة في أفياء الجميزة. سوق الفشخة صوتها ضعيف. قلة الذين يفتحون دكاكينهم. في «بيروت الفوقا» الناس أكثر. البيوت في الدركاه ما زالت ملآنة. وكذلك في باب يعقوب. أهل «دار البرتقال» خرجوا على طريق الشام، صعدوا إلى الجبل. لكن جيرانهم لم يخرجوا. وعندما يؤذن المؤذن تراهم في جامع النوفرة وفي الجامع العمري وفي جامع السراي.

تعشيا تحت الجميزة. نسب أشعلت سراجاً وتركته على العتبة. حسين جلس يدخن تحت الجميزة. الهواء البحري لا يهبّ هذا

المساء. إذا سكت الهواء تراجعت الرائحة. يذهب إلى الوردات وينظر إليها. يبدو العالم بخير. لولا أن ضحكات الأولاد لا تملأ الحارة. يسير إلى بيت أم هند. ينظر إلى ريشة حمامة تطفو على مياه الجرن. الدخان يرتفع من لفافة التبغ. يرتفع في عمودٍ مستقيم. الهواء ساكن. الوطاويط تتطاير بين البيوت.

عند نصف الليل، ونسب نامت، وهو ما زال تحت الشجرة، رأى شبحاً أبيض الرأس تحت شجرة التوت. اقترب فرأى عمه عمر جالساً يسنّ سكيناً على حجر. لم يرَه قاعداً يصنع السكاكين إلا تحت شجرة الجوز. لكنه الآن تحت التوتة. استغرب هذا. لم يستغرب رجوع عمه إلى الحارة في زمن الكوليرا لكنه استغرب جلوسه تحت التوتة، قبالة القنطرة البيضاء الحجر.

جلس مع عمه. لفّ له لفافة تبغ وأشعلها من لفافته. قال عمر البارودي إن البرد غريب، كيف يبقى البرد ونحن في عزّ الصيف.

حسين قال هذا بسبب البحر، برد البحر يقوى إذا غربت الشمس.

عمر البارودي قال إن المرأة ماتت، والأولاد الثلاثة ماتوا. البنتان أولاً. ماتت البنت الصغيرة. وبعدها البنت الكبيرة. ثم مات الصبي. كان الكلب يدور وينبح ويزوم ويبكي. الصبي مات بين يديّ، قال عمر البارودي. وفتح يديه أمامه. ونظر إلى أصابعه الكبيرة. كانت ندبات السكاكين ظاهرة على كفيه.

حسين سأله ما هذه الجروح.

عمر البارودي قال لابن أخيه إنه نقر قارباً في جذع شجرة، أخذ وقتاً طويلاً، لكنه نقره.

شقَّ الليل حداء. هذا ميت آخر. «الله يساعد الناس»، قال

حسين. لم ينتبه أنه يكرر عبارة أبيه. البكاء جاء من وراء بيت أم هند، من وراء السور، من سوق الحدادين. السوق فيه بيوت لم تفرغ بعد. ومرات عند الظهيرة يسمع طرطقة الحديد على الحديد. لكنه لا يخرج إلى السوق. يبقى في جوار نسب. نادراً ما يخرج. مرات يجيء الشيخ محمد الفاخوري، يمرّ على الحارة، ويلقي عليه السلام. لكنه لا يقعد للقهوة. يذهب وكمّه يتطاير على ذراعه المقطوعة. لا أحد يشرب عند أحد هذه الأيام. ولا أحد يأكل عند أحد. والناس إذا تكلموا انتبهوا ألا يقتربوا بوجوههم وأفواههم وأنوفهم من الآخرين. يتكلمون من بعيد. وينصرفون على عجل.

انتظر عمر حتى ابتعد الندب. قال إن مقبرة السنطية امتلأت.

حسين سأله ماذا أخذه إلى هناك.

عمر لم يردّ. قلب السكين بين يديه فبرق عليه نور القمر. نورٌ فضي لمع ثم انطفأ. قال عمر إن المرأة ماتت وهي تقبض على ساقيها. رأى العضلات تتقلص وتنتفض. حاول أن يقبض على العضلات، لم يقدر. قال إن لون رقبتها صار كدبس الخروب. ومع هذا لم تمت. غسلها بالماء والصابون. ولم يخبرها إن الصبي مات. كذب وقال إنه أخذه إلى راهبات المحبة.

حسين ظلّ ساكتاً. أطفأ لفافته ومدّ يدّاً كبيرة. أراد أن يضع أصابعه على ركبة عمه. لكن عمه تراجع إلى وراء وقام واقفاً.

حسين سأله أين يذهب.

عمر البارودي قال إن الحراس رموا جثثاً عن حائط الكرنتينا. ومن هناك جاء المرض.

غيمة نحيلة سوداء عبرت وجه القمر. حسين البارودي دعس على اللفافة التي تحترق بين العشب الأخضر. عندما رفع وجهه لم يرَ عمه.

حسين البارودي نام ساعة تحت الجميزة، قاعداً. أيقظه صوتٌ يهمس في أذنه. فتح عينيه. ظنَّ أنها نسب. رأى أمه. كانت تلفّ شعرها بمنديل أبيض. لم يكن متأكداً أنها أمه. لكنها تكلمت. وعندما سمع الصوت الحبيب تأكد.

أمرته أن ينهض إلى فراشه، لماذا ينام تحت الشجرة؟

كان يبتسم ويريد أن يقول شيئاً. لكنها تلاشت في الهواء. كانت تلبس ثياباً بيضاء. وتلاشت على طريق الكلس. أغمض عينيه. تلاشت الابتسامة عن وجهه. أحسّ بألم في جوفه. كأنه أكل سمكاً ورزّاً، وجوانح البصل المقلية أثقلت عليه. وقف البصل المحروق الأسود على رأس معدته. والآن يشعر بتخمة غير عادية. فتح عينيه ونادى على أمه شاعراً بالألم المتصاعد في أمعائه. قال «يا أمي. يا أم حسين». فرجعت من حيث اختفت وانحنت عليه. مرة أخرى سألته لماذا ينام تحت الجميزة، لماذا لا يقوم إلى البيت؟

قال إنه خائف على زوجته.

التفتت ونظرت إلى السراج. نظرت إلى الشعلة على العتبة ونظرت إلى العتمة داخل البيت. من هنا ترى أطراف الفراش وترى الغطاء القطن الأبيض.

مسحت العرق عن رأسه بمنديلها. تعلقت نظرته بصندوق متروك أمام القنطرة البيضاء الحجر. رأته ينظر إلى الصندوق فسألته ما هذا الصندوق؟ قال إنه لعائلة طبّارة، عائلة استأجرت هذه الغرفة فوق البيت ثم هربت من الحارة عندما جاء الوباء. سألته لماذا بقي هنا ولم يخرج بزوجته مع الخارجين. ظلَّ ساكتاً. ورأته يعضّ على شفته. وركبتاه ترتفعان إلى صدره. ويده الكبيرة تكبس معدته. سكتت ومسحت العرق عن عينيه وقالت لا تخفْ يا ابني لا تخف،

قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ردّد الكلمات ترديداً بطيئاً. ثم سألها هل رأت عمه عمر.

قالت إنه جرّ قاربه إلى حافة الماء ورقد في بطن القارب. قالت إنه نقر القارب من جذع شجرة.

حسين قال أعرف، جاء وأخبرني.

قالت إن بيوت الشط لم يبقَ فيها لا امرأة ولا ولد. قالت إن الحراس رموا جثثاً عن حائط الكرنتينا.

حسين قال أعرف.

نهض متثاقلاً. سألته إلى أين. ساعدته على الوقوف، وسألته إلى أين.

ارتفع حداء من وراء البيت، من وراء السور. صوت البكاء علا من سوق القطن. هناك أيضاً لم تفرغ جميع البيوت بعد. حسين البارودي مشى تحت نور النجوم إلى باب الحارة. أحسّ بمعدته تذوب فأسرع الخطى. لن يرشّ حبّاً لدجاجات أم هند غداً. أرادت أن تأخذ دجاجاتها معها، تربطها من أقدامها وتأخذها، لكن الحاج عبد الرحيم قال دعيها، حسين يطعمها، تعالي، تعالي. وهي تركتها مترددة. الطفلة بكت فتركت الدجاجات. غداً لن يرش لها حبّاً.

سوق الفشخة مهجور. نور النجوم يضيء السلال المعلقة أمام الدكاكين. السلال فارغة تتهادى في هذا الليل. مع أن الهواء ساكن، رآها تتهادى. امرأة مصابة بالأرق رأته من مشربية بيتها، رأته يعرج ويقطع السوق ويختفي تحت قناطر الجامع العمري. عرفت من يكون. هذا ابن الحاج البارودي.

عثروا عليه عند الفجر. جاؤوا إلى صلاة الفجر فرأوا الجسم المطروح تحت القناطر. سلمان قدورة الإسكافي كان بينهم. عرفه

من النظرة الأولى مع أن لونه تغير وجلده جفّ وظهرت فيه شقوق. امرأة تسكن في سوق العطارين قالت إنها سمعت اصطكاك أسنانه طوال الليل. وكانت ساقه تلبط الحائط لكنه لم يزعق وأطفالها ظلّوا نائمين. صلّوا عليه. صلّوا على عجل. ونقلوه ملفوفاً ببطانية صوف إلى مقبرة السنطية.

تركوه لحفّار القبور وأسرعوا إلى أجران الماء وغسلوا أيديهم. المؤذن نادى باسم الميت من المئذنة ليسمع أهله في البرّية أنه غادر دار الفناء إلى دار البقاء ويصلوا عليه.

المدينة شبه فارغة. تقدم آب (أغسطس) وتلوّنت ثمار الصبّير بالبرتقالي الحلو. لكن الهواء الأصفر لم يتراجع. الطنابر تنحدر محملة بالموتى من ساحة عالسور إلى باب إدريس إلى مقبرة السنطية. الكوليرا تحصد الأهالي داخل باب يعقوب. عائلات كاملة تخرج على محامل من البيوت. انكسر محور عربة وسقط البغل على جنبه والعربة سحبت البغل وراءها في النزلة القوية. انقطع الحبل وكرجت العربة المحملة جثثاً. ارتطمت بالأجران الحجر أمام خان أنطون بك وانقلبت. الأجسام سقطت متخشبة على حافة الماء. حفّار القبور تركها هناك. زبد البحر يفور ويلمس الوجوه الميتة. طيور الوروار ـ هذا عيد الصليب يدنو ـ ظهرت في سماء البلد.

الجنود جاؤوا من القشلاق وطمروا الجيف الخضراء المتفسخة. أخذوا أخشاب العربة المحطمة. وأخذوا عجلاتها. ثم رجعوا إلى القشلاق. بعد أيام بدأت المحامل تخرج من القشلاق. في خمسة أيام ـ من 15 إلى 19 أيلول (سبتمبر) ـ حصدت الكوليرا فرقة من الأرناؤوط.

بعد عبور الوروار انحسر الوباء. لم تعد النواقيس تقرع كل

ساعة. تباعد قرع الأجراس. وكفَّ المؤذن عن الصياح متجهاً بندائه إلى رأس بيروت، ثم إلى المصيطبة، ثم إلى رأس النبع.

النازحون إلى البراري المجاورة رجعوا أولاً. في البدء أرسلوا كشافة. الجنود فكّوا الطوق المضروب على البلد. الهواء الأصفر انتقل إلى أماكن أخرى. الحاج الاسطمبولي رجع من الجبل وقال إن الهواء الأصفر صار وراء سهل البقاع ووراء سلسلة الجبال الشرقية، صار في حلب وحمص ودمشق. لم ترجع عائلته إلا مطلع الخريف. قال لهم «انتظروا حتى ينظف الهواء في البلد». عندما رجعوا وجدوا بيوت جيرانهم فارغة.

بيوت كثيرة لن يرجع إليها أهلها. الأميركان رجعوا إلى أبنيتهم قبالة القشلاق. الراهبات اللعازاريات اعتصمن في الدير قبالة باب الدركاه طوال فترة الوباء. كن يخرجن أحياناً ويوزعن خبزاً على بيوت دخلها الهواء الأصفر. مرات يدخلن البيت المنكوب. مرات يتركن رغيف الخبز على حافة الشباك ثم يقفلن عائدات إلى الدير الأصفر الحيطان. ويقفلن البوابة.

هطلت أمطار الخريف. قبل أن تهبّ عواصف الشتاء عاد الخواجات من وراء البحر. وجدوا بيروت كما تركوها. لم تتغير المدينة. لولا أن الشواهد تكاثرت في المقابر. والبيوت على شط المدوّر هجرها البشر. عندما فتحوا متاجرهم، عندما بدأ الكلام وتبادل الأخبار، انتبهوا إلى حزنٍ يمازج الأصوات، انتبهوا إلى ظلام خفيف يبين في العيون ثم يتبدد. كرّت العربات من جديد على طريق الشام. ارتفع الغبار. بانت البضائع كالجبال على أرصفة المرفأ. الشتاء يدنو، وقبل أن تحلّ العواصف تغلي البلد. الميت يذهب. الحيّ يبقى.

القنصل روبرت لويس جونسون الذي رأيناه قبل الوباء يأكل طبيخ زهرة وندرة، ترك تقريراً يسجل عدد الوفيات وخط انتقال المرض. لم يذكر القنصل الأميركي أسماء الموتى. لكن الأسماء محفوظة في سجلات المحكمة الشرعية وفي سجلات الوفيات عند الكنائس المسيحية. لعل بعضها ضاع بمرور العقود. تقرير القنصل جونسون في المقابل محفوظ. هنا قسم منه:

«قبل ظهور الكوليرا في بيروت ببضعة شهور انتشرت عدوى الإسهال والديزنطاريا... نُقل الوباء من مصر عن طريق بعض البواخر التي قضى بعض ركابها في الطريق، ومات المصابون داخل الحجر الصحي وفي شوارع المدينة وبيوتها. وقعت أول حالة وفاة في 28 حزيران (يونيو)، وبلغ أكبر معدل للوفيات في اليوم الواحد 35 حالة. ولعل عدد تلك الحالات خلال الشهور الثلاثة الأولى أقل من ألفين. ولكن يجب أن نلاحظ أن ستين ألفاً من السكان البالغ عددهم ثمانين ألفاً هربوا إلى قرى الجبل حيث قضوا الصيف بسلام في ما عدا بعض الاستثناءات كما أُرسلت المؤن إلى الخيام التي ضُربت خارج المدينة للمئات من الذين بقوا من السكان. ومن بيروت كنقطة بداية انتشرت الكوليرا ببطء في سوريا على طول الساحل شمالاً وجنوباً. وكان اتجاهها العام صوب الشمال، تترك أحياناً أحد الموانئ كاللاذقية، وتتبع بشكل عام الأراضي المنخفضة والسبخة، غير أنها لم تسر على وتيرة واحدة مثلما حدث في القدس ونابلس اللتين تقعان على ارتفاع آلاف الأقدام فوق سطح البحر وفقدتا 10 بالمئة من سكانهما، بينما لم تمس مدينة طبرية على بحر الجليل إلا مساً طفيفاً.

ولم تكن صيدا التي تقع على بعد 30 ميلاً جنوب بيروت قد أصابتها العدوى حتى 18 آب (أغسطس)، وربما تأخر الوباء في

تقدمه بسبب النهر الذي يصبّ في البحر في منتصف الطريق بين المدينتين ولوجود المحاجر الصحية على ضفتيه. وانتقل الوباء من صيدا إلى يافا حيث كان فتاكاً، ومضى في طريقه إلى القدس ونابلس، وهكذا يمكن ملاحظة انتشار الكوليرا عبر فلسطين بوضوح.

ولعل جبال لبنان التي تمتد بمحاذاة الساحل لعبت دور الواقي ـ إلى حين ـ للمدن الداخلية من الوباء. فلم تنتقل العدوى إلى القرى العليا في الجبال، على الرغم من حدوث بعض حالات الوفاة بين المهاجرين إلى الجبل... ورغم أن الكوليرا ظهرت في دمشق في الثاني من آب (أغسطس)، لا يبدو أنها جاءتها من بيروت التي تبعد عنها نحو 60 ميلاً مع توقف خط المواصلات اليومي الذي تديره شركة فرنسية والذي يربط المدينتين عبر الجبل.

ويذكر نائب القنصل الأميركي أن الكوليرا جاءت إلى دمشق عن طريق حراس الحج الذين فتحوا لفائف الملابس التي نهبوها من الموتى، وأنها ظهرت أولاً في منطقة يسكنها أولئك الحراس وتُعرف بسوق السروجة في أكراد الصالحية. واستمر الوباء 60 يوماً، وقُدّرت الوفيات في مناطق دمشق وحماه وحمص بعشرة آلاف.

ومكث الوباء بصورة عامة فترة أطول في المدن التي عانت منه بقدر أقل، ولكنه كان فتّاكاً في حلب التي استمر فيها مدة أطول من غيرها. ويذكر نائب القنصل أن الوباء دخل تلك المدينة عن طريق المهاجرين إليها من المدن الساحلية، وازداد انتشاراً بعد وصول ثلاثين جثة مصابة حملها الحجاج لدفنها.

وقد وصل المرض إلى هنا في نصف آب وبلغ ذروته في أيلول (سبتمبر) وهدأت حدته في تشرين الأول (أكتوبر) وأصبح موزعاً هنا وهناك في تشرين الثاني (نوفمبر). ومات ثمانية آلاف من سكان حلب المسلمين البالغ عددهم 70 ألفاً، كما مات 800 من المسيحيين البالغ عددهم 15 ألفاً، ومات مئتان من اليهود البالغ عددهم ستة

آلاف. أما من التزموا الاحتياطات الصحية في حلب ـ كما في دمشق ـ فلم يُصبهم الوباء.

وانتشر الوباء إلى أنطاكية وعينتاب وكلس على التوالي. وأصاب كذلك القرى المجاورة. وفي أضنة تمَّ تعقب دخول الوباء، واتضح أنه جاء مع عائلة كوزان أوغلو التي ماتت إحدى نسائها ليلة وصولها من بانياس في 8 تشرين الأول (أكتوبر) بصحبة علي رضا باشا الحكمدار، وكان الوباء قد ظهر هناك في 30 أيلول. ومن أضنة امتد الوباء في الإقليم فبلغ طرطوس في 17 تشرين الأول، ومرسين (ميناء أضنة ويقع على بعد بضعة أميال منها) في 13 تشرين الثاني.

وقد وصلت الكوليرا إلى سوريا لأول مرة عن طريق الحجاج المسلمين القادمين من الحجاز عام 1832، ولم تنتشر انتشاراً واسعاً عندئذٍ، إلا في حمص حيث ارتفعت الوفيات إلى 248 حالة في اليوم نتيجة وجود القوات المصرية والقوات التركية هناك. كما لم تنتشر حالات الإصابة بالوباء في المرات التالية حتى عام 1848 عندما وصلت العدوى من دمشق عن طريق الحجاج المسلمين القادمين من الشمال. ويذكر الدكتور مشاقة نائب القنصل في دمشق أن الكوليرا تصبح أكثر فتكاً عندما تاتي من الشمال.

وكانت الوفيات كبيرة بين المسلمين في كل مكان، فهم لا يراعون الإجراءات الصحية التي يجب اتباعها للوقاية من الوباء. والقليل منهم ـ حتى من الأغنياء ـ يطلب العلاج الطبي عند الأطباء المتعلمين. والنظافة الشخصية ضرورية بحكم العقيدة الدينية ولكنهم يهملون عامة نظافة البيوت والاهتمام بالصرف الصحي، ويترك الفقراء منهم النفايات الكريهة تتجمع أمام أبواب بيوتهم. ويقال إن أكبر عدد من الوفيات وقع بين نسائهم، وأن الحوامل منهن كان مصيرهن الموت. ومما لا شك فيه أن النساء كنّ أكثر تعرضاً

للهواء الفاسد بسبب بيوتهن القذرة على حين يخرج الرجال يومياً للعمل في جوٍ أنقى.

كما يلاحظ أن الوفيات كانت أكثر في المدن ذات الأسوار التي تقع داخل البلاد، رغم ارتفاعها عن سطح البحر مقارنة بالمدن الساحلية حيث البيوت منتشرة بين الحدائق، وأن طاعون الماشية كان يسبق الكوليرا دائماً.

وعلمت من القنصل الإنكليزي العام أنه عند وصول باخرة تحمل العدوى من مصر، سُمح لها بالبقاء في منطقة الحجر الصحي ثلاثة أيام خارج ميناء بيروت. وأصاب الإسهال الشديد جميع بحارة طراد بريطاني ألقى مراسيه في اتجاه الريح القادمة من الباخرة، واضطر قائد الطراد أن يبحر إلى عرض البحر حيث تحسنت أحوال رجاله بعد مغادرة منطقة العدوى.

ويذكر الوكيل القنصلي في حيفا أن فلاحي كرياش كانوا يغطسون مرضى الكوليرا في مجرى مائي قريب ويسحبونهم من الماء من أيديهم ومن أرجلهم وهم عراة تماماً، وأن هذه الطريقة العلاجية كانت ناجحة في معظم الأحوال.

وختاماً أود أن أبيّن أنه من واقع مشاهداتي استنتجت أن القرى التي تقع على ارتفاع كبير نجت نسبياً من العدوى، ولم تكن تستمر فيها طويلاً في حال وقوعها، ولا يتسع مداها، وأنه يجب إقامة محطات الحجر الصحي على بعد بضعة أميال من المراكز السكانية حتى تكون أكثر فعالية.

ولا ريب أن الكوليرا هندية الأصل، حملها الحجاج معهم بسرعة أكبر عبر البواخر المتجهة إلى مكة حيث يتجمع حشد هائل من المؤمنين أنصاف الجياع، مما يخلق الظروف الملائمة لزيادة سرعة العدوى وانتشار سمّها. وإخضاع جميع السفن الواردة من تلك

الأنحاء للحجر الصحي، يؤدي إلى انخفاض العدد الهائل للوفيات أو على الأقل حصر الوفاة في منطقة المنشأ.

ونامل أن يتوصل مؤتمر الكوليرا في القسطنطينية إلى تحقيق ذلك، وإذا لم يفعل فإنه يخشى أن يقع هذا الوباء سنوياً في أوروبا ومن المحتمل أن يصل إلى أميركا.

توقيع

R.L. Johnson

أمطار تشرين الثاني(نوفمبر) تساقطت غزيرة على بيروت. غسلت السطوح وحيطان البيوت. غسلت الأشجار والطرق. إمام الجامع العمري الكبير قال بعد خطبة الجمعة: «هذه الأمطار رحمة من الله تعالى.» الشمّاس الياس دبّاس تعافى من حمّى أصابته. انتشرت حمى خفيفة بعد الكوليرا ثم تراجعت. وقف الرجل الأبيض اللحية تحت قناطر مار جرجس ينظر إلى خيوط المطر بعينين متسعتين. عظام وجهه ظاهرة. لكن النور يلمع في بؤبؤيه. استمر سقوط الأمطار سبعة أيام ثم تباعدت الغيوم وسطعت الشمس. النمل الطيّار خرج من الأرض يطنّ. قواقع البزّاق بانت على الأرض الموحلة.

الحاج عبد الرحيم البارودي ذهب مع ابنيه عبد الغني وعبد الفتاح إلى مقبرة السنطية. ظهرت الشمس من بين أغصان السنط وطرحت شبكة من الخطوط المتقاطعة على الشواهد الحجر. وقفوا تحت سماء زرقاء مغسولة وقرأوا الفاتحة.

أسراب الحمام حامت في القبّة، ترتفع أعلى فأعلى، وأقواسها

تتسع. قرأوا الفاتحة على قبر حسين ثم قرأوا الفاتحة على قبر عائشة. هبّ هواء خفيف. تمايلت أغصان فاهتزت شبكة الظلال على الشواهد. سكن الهواء فكفّت شبكة التخاريم عن الحركة. دوائر نور وقعت على العشب الأصفر: برقت مثل ليرات ذهب.

الحاج عبد الرحيم أنزل رأسه كالصوص بين كتفيه. ردّوا سلام معارف انتشروا بين الأشجار. الأيدي مبسوطة. والصلوات ترتفع. هبَّ هواءٌ خفيفٌ. تمايلت الأغصان. اهتزت شبكة الفروع فماجت القبور كأنها تتحرك. تغضّن وجه بركة أمطار تجمعت عند شجرة توت. الشجرة قديمة مجوفة البطن شبه يابسة. لكن الورق الطري الأخضر ينبت على أغصانها المعوجة. هذا الموسم الخريفي يُقطف للخراف، يُطرح علفاً للماشية.

ضاقت الممرات بين القبور. تنحوا جانباً كي تعبر جماعة داخلة. شتلة عطر اهتزت وأسقطت قطرات ماء عن أوراقها. وراء شجرة عنّاب بان أزرق البحر تقطعه سفن بيضاء الأشرعة. كان نظيفاً صافياً يمتد إلى نهاية العالم. مرّ بين القبور ثلاثة رجال طوال القامة يعتمرون طرابيش مغربية. كان نطقهم لمخارج الحروف غريباً. توقفوا أمام قبر بلا شاهد. قال أحدهم: «لا إله إلا الله».

رفع الحاج عبد الرحيم وجهه الأصفر فرأى أسراب الحمام تهبط من الأعالي وظلالها تخفق على خان أنطون بك. وضع يداً على كتف عبد الفتاح وأخرى على كتف عبد الغني. دفع عبد الفتاح أمامه. ودفع عبد الغني. وخرجوا من المقبرة.

دخلت بربارة نوّار «حارة البارودي» فقلبت حياة العائلة رأساً على عقب. طرشت حيطان المنازل على حافة «طريق عبد الجواد» بالأبيض. وأصلحت أسيجة الجنائن أمام البيوت. قادت الأحباش في جولات ترميم وترَّبت أحواض الزرع وردّت الخضرة إلى أشجار الورد اليابسة. شغّلت كل أهل الحارة معها وسقت دوّار الشمس فسوَّرت الزهور البيت كأنها غابة. جلبت أمها من ساحة البرج وأنزلتها في البيت الذي غادرته أرملة حسين البارودي. غيّرت الستائر في بيت القرميد وغيَّرت الطراحات وجلبت من السوق قناديل وطناجر وصحوناً وشمعدانات جديدة. ركبت مرآة مبروزة بطول عبد الغني في مدخل البيت فأنارت المرآة المدخل. غسلت زجاج النوافذ الشمالية، تعاونها حوراء وسليمة، فدخل ضوء البحر أزرق نظيفاً وتراقص على الفرش.

جدّدت وجوه المساند والمخد. ونقلت غرفة النوم إلى جهة البحر. ومنعت عبد الفتاح من دخول البيت بمداسٍ وسخ. كانت عاصفة نشاط لا يهدأ. وإذا حلّ المساء انطرحت في مقعدها المفضل وأخرجت من السلّة شغل الصنارة. لقماتها صغيرة وقليلة، وما إن تشبع حتى تبدأ التطريز والحياكة. سليمة بنت السبعة أعوام

تولعت بها أولاً. تركت دفاتر أبيها وأخيها ـ التي ملأتها خربشات ورسوماً ـ وانصرفت إلى مطاردة المرأة الحلوة الصغيرة من الغرف إلى المدخل إلى «الطريق البيضاء». أحبّت رائحة ثوبها الأحمر وأحبّت جدائل شعرها. كانت تراها تحلّ الجدائل، وترى الفرشاة العظم تمشط الشعر السائل الكثيف فيضحك وجهها. تعلمت منها الصلاة المسيحية وصارت تمزج بين صلاة أبيها وإخوتها وصلاة المرأة التي دخلت البيت فملأته ضوءاً. لن يطول الوقت قبل أن تناديها «أمي». قبل ذلك سمعها الحاج أبو حسين تصلّي راكعة على ركبتيها وقد جمعت يديها على الفراش مثل بربارة فمات ضحكاً. سمع صلاة سليمة وحفظها وكرّرها أمام أصحابه بينما يُدخن أرجيلة: «بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة. مباركة ثمرة بطنك». كان يزيد كلمات وينقص كلمات ويسمع ضحكات الخلان فتدمع عيناه ويقول «أستغفرك يا ربّ».

زاهرة خرجت من الحارة إلى بيت الزوجية قبل مجيء بربارة. حوراء الصامدة في بيت أبيها قررت في المقابل أن تُحوِّل حياة الزوجية النصرانية جحيماً. خطَّطت لذلك وقالت لأختها الكبرى صفية (عندما جاءت تزور الحارة وتحاول أن تستوعب ماذا يجري ومتى عزم أبوها على الزواج مرة ثانية):

ـ سأذيقها العلقم حتى تندم على الساعة التي دخلت فيها بيت أمي.

بدت شراستها غير محدودة حتى أن صفية تراجعت إلى خلف من دون أن تنتبه. لكن خطط حوراء سقطت منذ الأيام الأولى. كانت تتوقع امرأة غير هذه البربارة: من النظرة الأولى شعرت بها قريبة من القلب، كأنها تعرفها منذ سنين طويلة. لم تنسَ العهد الذي

قطعته أمام صفية. قالت «أؤجله الآن قليلاً وأترك أبي يكتشف وحده خطأ أفعاله».

مرّت الأعوام والحاج عبد الرحيم لم يكتشف «خطأ أفعاله» وحوراء نسيت ذلك العهد القديم وأحبّت بربارة.

زهية الطفلة لم تتخلَّ عن أم هند التي ربّتها وأطعمتها كعكاً مبلولاً بماء وسكر وتركتها تعضّ يدها بينما أسنانها تنبت. لم تتخلَّ زهية عن خالتي سعدية وستّي سعدية لكنها هي أيضاً باتت لا تختفي من أمام عينيّ أم هند إلا لتظهر بين ذراعيّ بربارة.

صفية جاءت مع ابنها لتزور الحارة فلم تفهم ماذا جرى بين ليلة وضحاها. اعتادت منذ ماتت أمها أن تهجم عليها أخواتها ما عن تضع قدمها على «الطريق البيضاء». هذه المرة أحاطت الوجوه بها وضمّتها السواعد ووقعت القبلات على وجهها وكتفيها لكن من دون تلك الهجمة الساحقة الحارة. عندما رأت زوجة أبيها الجديدة تغمر سليمة باللمسات الدافئة بلعت ـ من دون أن تنتبه ـ ريقها. المرأة غمرت أهل الحارة بعاطفة جياشة لم يكن أحد يعلم أنها كامنة فيها. حتى الحاج عبد الرحيم لم يتوقع حدوث هذا: دخلت بربارة نوّار حارة البارودي فاستعادت الحارة عصرها الذهبي. هذه النصرانية ضحكت ضحكة عائشة ورفعت أولاده من بئرٍ بلا قرار. حتى أمها الآتية من خارج السور إلى البيت الفارغ بين بركة الماء والجميزة شعرت بالدهشة: في حياتها كلّها لم ترَ هذا النور الملائكي يشع من وجه بربارة. كأنها، ما إن خطت على هذه «الطريق البيضاء»، حتى امتلأت بالروح القدس. صلّت الأم أن يحفظ الربّ ابنتها وعائلة ابنتها الجديدة. أشعلت شمعة أمام أيقونة السيدة العذراء، مسحت الأيقونة بالزيت ثم أشعلت الشمعة وصلَّت.

الصلاة لم تنفع مع عبد الغني. لعله الوحيد بين سكان الحارة الذي لم يتوله بالمرأة النصرانية الصغيرة. لم يمقتها، ويجوز أنه استلطفها، لكنه وضع مسافة ذراعين بينه وبينها. مرور الوقت بدّل موقفه قليلاً حتى رست العلاقة بينهما على صلةٍ أخوية في جوٍّ من مرح ودعابة يشوبه بين حين وآخر توترٌ وشدٌّ وجذب. حفظ عبد الغني في أعماقه صورة أمه الأولى. ولم يرضَ، وقد شبَّ وكبر وصار تاجراً في البازركان، أن يفسح في القلب مكاناً لأم ثانية. ظلَّ، إذا دبَّ الحنين في أعضائه، يقصد «دار البرتقال» ويطلب من خالاته قطايف، قطايف بجوز، وقطايف بقشطة، يغمرها بالقطر الساخن ويلتهمها فيشعر أنه أقرب بإصبعين إلى المرحومة أمه. الحاج أبو حسين سمّاه «ابن عائشة».

سعدية الحصّ البارودي تضايقت في البدء من نزول النصرانية في حارة القرميد. شعرت بخطر غامض يتهددها في بيتها ولم تستطع أن تحدد هذا الخطر بوضوح. وعدم تحديدها الخطر زاد من خوفها. كانت تحمل زهية التي باتت تركض بعد أن دبّت وقامت ومشت، تحملها حتى تطلب الصغيرة النزول ومطاردة الدجاجات حول الجرن وحول القن، فتنزلها على مضض.

عبد الفتاح هو أيضاً أزعجته المرأة في البداية. ولو أن انزعاجه لم يطل. لم يستسغ طبخ بربارة نوّار زوجة أبيه. ولم يفهم لماذا تعمل الأكل بلا ملح. كل طبيخها بلا ملح، حلو كأنه ليس طبيخاً، حلو كأنه حلاوة! المرأة جربت إقناع الصبي بجودة طبخها لكن عبد الفتاح لم يقتنع. صار يزغرد حين تطبخ أخته. ويحرد ولا يقعد إلى طعام إذا طبخت بربارة. «افتحي يدك ورشّي ملحاً»، صارت المرأة الصغيرة تقول لنفسها. لكنها ظلّت عاجزة عن اكتساب عادة الملح

الجديدة. تعلّمت التقتير بالملح عن أمها الفقيرة. والأم تعلّمت بدورها التقتير عن أهلٍ فقراء. الحاج عبد الرحيم يكمش الملح كمشاً من صحن الملح ويرش المسحوق الأبيض على صحن الطبيخ ويقول «طبخك مالح مالح يا بربارة».

أخذ عبد الفتاح عن أبيه هذه المهارة ولم يعد ـ ما دام صحن الملح موجوداً ـ يحرد ويزعل حين تطبخ بربارة. رأته مرة متضايقاً عند رجوعه من مدرسة الأميركان فقطعت له من صينية الصفوف قطعة كبيرة وجلبت له كوباً من شراب الورد. شرب الورد الحلو وأكل قطعة الصفوف الصفراء فذهب عنه حزنه. نظر إليها تطرز شرشفاً قاعدة على طراحة أمام البيت ففكر أنها لطيفة مثل أمه عائشة. منذ زمن يواظب على دروسه لا حبّاً بالأميركان ولا حبّاً بالرياضيات والعلوم والجغرافيا لكن تقرباً من صديقه ابن عمته زهرة. كل هذا لم ينفع مع موسى. تغيّر موسى وابتعد عنه. ظنّ دخوله مدرسة الأميركان يفيد. كان ظنه خطأً. عندما قال لأبيه «شبعنا علماً» تذكر الأب كلمات المرحوم حسين نفسها، وحَزِن.

أرسله إلى عبد الودود الحصّ في حانوت التبغ على باب إدريس. وابن الحصّ النافع علّم عبد الفتاح مسك الدفاتر. في هذه الفترة بدأ عبد الفتاح يتلمس الشعرات النابتة في خدّيه ويُخطط لحلق ذقنه. أم هند انتبهت أنه التبدل المنتظر: التبدل الذي يصيب ذكور آل البارودي فجأة فينقلبون عمالقة خشني الأصوات غلاظ الطباع بين ليلة وضحاها.

رأت القمصان تضيق على الصبي. رأت السراويل تقصر. وتذكرت عمّه صانع الصنانير الذي مات بالكوليرا على شطّ المدور فدفنه الجنود في حفرةٍ هناك مع بشرٍ سكنوا «بيوت الغسيل» زمناً ثم

محاهم عن وجه الأرض هواءٌ أصفر. لم ينبش أحد تلك المقبرة (من ينبش مقبرة؟) ولم يُعرف أبداً مَنْ رقد تحت شط المدوّر، ومن فرّ من الهواء الأصفر ومات في البراري بين الرميل وحرج الصنوبر. أم هند سمعت عن ناسٍ ماتوا بين صبّيرات رأس النبع. سمعت عن ناسٍ ماتوا بين توتات فرن الشباك. وسمعت عن ناسٍ ماتوا على شوكات الحازمية. لكن أم هند لم تسمع ـ وأين تسمع هذا؟ ومن يخبرها هذا؟ ـ خبر الرجل الأبيض الشعر المشروم الأذن الذي دفن المرأة الميتة والأولاد الموتى في خربة جنب بيته ثم نزل إلى حافة الماء ورقد في بطن قارب منقور من جذع شجرة وترك البحر يأخذه إلى نهاية العالم.

بنى الحاج عبد الرحيم البارودي على بربارة نوّار ابنة المرحوم جرجس نوّار بينما أشجار اللوز تزهر. قبل أن يملأ الورق الأخضر واللوز الأخضر الأشجار جاء إلى الحارة رجل يحمل على كتفه صندوقاً ونزل في بيت موسى الحلبي المجاور لبيت سليم صعب. بعد يومين دخلت الحارة امرأة على ظهرها بقجة ثياب يتبعها أربعة أولاد صغار. اتضح لاحقاً أن الرجل يُدعى يوسف زيدان وأن هذه عائلته وأنه استأجر البيت من موسى الحلبي الذي خرج بعائلته إلى بيتٍ جديد في المصيطبة. اتضح أيضاً أن الرجل يمتّ بصلة قربى إلى الياس زيدان الذي فتح مطعماً ولوكندة على ساحة البرج بعد سنة الستين.

ظلَّ الصندوق الغريب الحجم والشكل لغزاً إلى أن جاء خادم الفيسكونت فرعون إلى الحارة يحمل ساعة معطلة: سعدية الحصّ البارودي رأت الخادم يحمل الصندوق بين ذراعيه فظنت أنه يحمل قن دجاج. لم يكن يحمل قن دجاج. هذه ساعة توضع في صالونات

القصور. لها رقّاص بطول صبي. وفي رأسها زجاج وعقارب ذهب وأرقام رومانية لم ترَ أم هند مثلها. أين تعلم الرجل المسمى يوسف زيدان تصليح الساعات؟ أحمد نقوزي أخبر أم هند لاحقاً أن الرجل أقام زمناً في الاسكندرية وأنه عاد إلى بيروت عندما مرضت زوجته بالحمى المصرية. هنا تعافت من الحمى. والآن يصلح ساعات الخواجات. صندوقه ملآن بالأدوات الغريبة والمرايا الصغيرة ونوابض الحديد وقوارير الزيت. عنده آلة يضعها على عينه، يسمّيها «العدسة»، وتُكبر الأشياء. إذا ثبّتها فوق عشب يابس وسقطت الشمس على زجاجة «العدسة» احترق العشب.

أم هند كانت تقطف رماناً من الشجرة وراء بيتها عندما رأت الرجل قاعداً في نافذة بيته وقد وضع الآلة على عينه. كان منكبّاً على العمل ولم تفهم ماذا بالضبط يصنع بهذه الأدوات التي تظهر بين يديه ثم تختفي. منذ بدأت زهية تهرب منها إلى حارة القرميد صارت أم هند تحسّ النهار فارغاً طويلاً، وعليها أن تملأ فراغه. يوسف منيمنة لم يعد يُرسل إليها حماراً محملاً بالخضر واللحم. الحاج عبد الرحيم قال «أتعبناك كفاية يا خالتي». وهي لم تعد تطبخ إلا لبيتها. طبيخها الآن كم حبّة كوسى، طنجرة عدس بحامض، صحن برغل بالبندورة، أقل القليل. ماذا تأكل وحدها؟ كانت من قبل تطبخ وتقول لزهية ذوقي هذه، وتنظر إلى وجه البنت وتقرر ماذا ستزيد إلى الطبخة. اكتشفت أن الطفلة ذوقها ملوكي. ما إن كفّت عن الرضاعة، ما إن فُطمت، حتى صارت تطلب الملفوف المحشي وتطلب القرع المحشي وتطلب الكوسى باللبن. أحبّت ورق السلق القاطع. وأحبّت البيض المقلي بزيت الزيتون. وأحبّت فطائر البطاطا بالقورمة. الكلمات الأولى التي نطقت بها كانت «بيض» و«كوسى»

و«زيتون». أختها حوراء كانت تقعدها في حضنها وتطعمها حبّات الزيتون الشتوي الأسود بعد أن تنزع بزورها. لم تحبّ الزيتون الأخضر المسبح في البدء، ثم أحبّته. أم هند كانت تمعس لها حبّة الكوسى المحشية رزّاً ولحماً وبندورة في الصحن وتطعمها. ثم صارت البنت تدبّ إلى الطنجرة التي تبرد على العتبة وترفع عنها الغطاء الفخار بلا مساعدة وتستخرج حبّات الكوسى وتأكلها بينما أم هند تنام قيلولة العصر. لم تلبث أن وقعت في حبّ قطع اللحمة «الموزات». يوسف منيمنة لم يفهم لماذا تصل «اليخاني» إلى المطعم بلا «الموزات». استغرب ذلك لأن أم هند أمينة، وعينها شبعانة، ولا تمدّ يدها على طبيخ المطعم. لم يعلم أن الطفلة زهية تغافل الطبّاخة كلّما غمضت عينها فتقعد جنب الطنجرة وتلقط من بين القرنبيط (أو الفاصوليا أو اللوبياء أو البامية) قطع الموزات وتأكلها.

تعلقت زهية بأختها سليمة وتعلقت بزوجة أبيها النصرانية وصارت تفرّ إلى بيت القرميد. أحسّت أم هند أنها هُجرت من جديد. في تلك الفترة بدأت «الست أم زكي» ـ وهي العجوز المقيمة في بيت الصيّاد الدرزي ـ تخرف وتخرج من البيت الذي لم تُرَ على عتبته إلا في أحيان نادرة... بدأت تخرف إذاً وتخرج من البيت حيث أقامت عقوداً وتدخل أي بيت تراه مفتوح الباب على حافة «الطريق البيضاء». ليست والدة الشيخ الصيّاد. وليست والدة زوجته. لعلها خالته، لعلها جدته، هذه المرأة العجوز نادراً ما شكلت جزءاً من حياة الحارة. كل حياتها تقيم بين حيطان البيت، والآن ـ فجأة ـ اقتحمت حياة الحارة. حتى أن عبد الغني البارودي لم يكن يعلم أنها موجودة! كان عائداً من البازركان ذات عصر، كان عائداً أبكر من الوقت المعتاد فرآها قاعدة على الدرجة أمام البيت وهي تهرش

ساقها. كانت في طريقه تسدّ باب البيت ولم يعرف ماذا يفعل ولم يعرف من تكون ولم يعرف ماذا تطلب. حيرته لم تكن أسوأ من حيرة أم هند التي استيقظت من قيلولة طويلة، وكان المساء يهبط على الحارة، فرأت المرأة العجوز تتمدد جنبها وتنظر إليها بعينين كبيرتين. أم هند لم تخف من العجوز لأنها رأتها من قبل، ولأن أحمد نقوزي أخبرها أنها دخلت عليه قبل أيام وكان يحلق ذقنه عند الشباك وصارت تكلمه كأنه ابنها أو حفيدها ثم أعطته ظهرها ورفعت الغطاء عن سلّة الخبز وبحثت بين الجرار والقوارير وأخرجت فخارة الدبس وقعدت تأكل. أحمد نقوزي قال إنها كانت تتصرف كما لو أنها في بيتها وأنه استغرب كيف تعرف أين سلّة الخبز وأين فخارة الدبس. أم هند لم تخف من العجوز. ولم تطردها حتى عندما رأتها تمد يدها وتخرج بيضاً من القن وتكسر البيضة وتشرب الصفار الساخن. لم تطردها لكنها تضايقت منها لأنها تذكرت مناماً: رأت نفسها في المنام تدبّ على أربع وتعجز عن الوقوف.

دخلت العجوز على بربارة نوّار البارودي وهي تغتسل في بيت الخلاء. لم تفزع بربارة. أمرتها أن تنتظرها خارج الباب وعندما انتهت خرجت إليها وأخذتها إلى تحت الجوزة وأجلستها على مقعد قش. جلبت لها شيئاً تأكله وأرسلت سليمة إلى بيت الدروز ليأتوا ويأخذوا «الختيارة». بعد هذه الحادثة لم تعد «الختيارة» تظهر في البيوت.

لا «الختيارة» تظهر الآن على «الطريق البيضاء» ولا خالد نقوزي يظهر. صار أحمد سيد البيت بالقنطرة الحجر. بعد عائلة طبّارة استأجرت الغرفة العالية عائلة أخرى، وهذه أيضاً سرعان ما تركتها. لم تعد الغرفة صالحة للسكن. سقفها يدلف في أكثر من مطرح. قبل

أن يحلّ الربيع قالت بربارة لأحمد نقوزي إنها تريد الغرفة للقزّ. أراد أن يتهرب فلم يستطع. عندما وجد أغراض جدته القديمة في علية الخشب (هذه صواني القزّ و«فرّامة» التوت) قال لزوجة خاله الجديدة أن تأخذها. الأطباق ما زالت كما هي. و«الفرّامة» ما زالت تقطع الورق كأنها جديدة.

طلبت الغرفة وأخذتها. عندما جاء خالد نقوزي يزور أخاه في البيت الذي ما زال يعتبره بيته رآها نازلة على الدرج تحمل سلّاً. لم تكن وحدها. أمها تشتغل معها، وبنات الحاج عبد الرحيم يشتغلن معها، وحتى أم هند ـ التي لا تطيق هذه الغرفة العالية ـ صارت تشتغل في تربية القزّ. بنوا اسقالات خارجية على حيطان الغرفة، وقطعوا أغصان السنديانة المتطاولة، وربّوا من الدود أضعاف ما كانت تربيه المرحومة أم زهرة في عزّ أيامها. الحاج عبد الرحيم دبّر علب القزّ الكورسيكي «الباب أول». وبربارة صارت تقوم من نومها قبل أن يؤذن المؤذن وتهرع إلى بيت القزّ. حوراء قالت لعبد الغني «تغيّر الحال الآن». عبد الغني كان قال من قبل ضاحكاً إن بربارة نقلت غرفة النوم إلى الجهة الأخرى لا حبّاً بمنظر البحر كما زعمت بل هرباً من المؤذن قدورة الذي يوقظها كل فجر.

استبقوا خالد على الأكل وسألوه عن أحواله. كانوا يحبّون حديثه ويحبّون وجهه اللامع الأسمر ويتمنّون لو يقعد وقتاً أطول ويخبرهم أكثر. منذ ترك الحارة آخذاً أغراضه لم يعد يجيء ويزور أخاه إلا في الأعياد. حياته الآن على الطريق بين بيروت وشتورة. وإذا نام ينام في شتورة. يتجنب النوم في بيروت بسبب حنّة البستاني.

ماذا جرى لعائلة خليل البستاني بعد خروجه إلى شتورة هرباً من

الهواء الأصفر؟ هذا ما جرى: تغلبت الحمى على الرجل وخطفت بصره. جربوا عسل النحل دواء، مسحوا العسل على الجفنين والعينين ثلاث مرات كل صباح، وثلاث مرات كل ليلة، ولم ينفع العسل. انطفأ بصره كما حدث من قبل مع علي سلامة. صار خليل البستاني أعمى مثل المقرئين في أبواب المقابر. حنّة البستاني استأجرت بيتاً في شتورة، غير بعيد عن محطة الديلجانس. أنزلت في البيت زوجها الأعمى وطفلتها وأختها مريم. وقالت لخالد نقوزي «خذني إلى بيروت، لن أسكن في بيروت بعد هذه المصيبة، خذني إلى بيروت كي أبيع بيتنا وأجلب فرشنا». قالت لمريم أن تنتبه لخليل، وقالت لخليل «لا تعذب مريم يا خليل»، ومشت مع خالد إلى العربة.

نزلت إلى بيروت وقالت للجارات إنها تريد بيع البيت. ذهبت إلى بيت عمها وقالت لعمها إن خليل يريد البقاء في شتورة وإنه يريد بيع البيت. جمعت قسماً من الأغراض، وليس كلّها، واشترت قماشاً من ساحة البرج، وقالت لخالد خذني إلى شتورة. باعت القماش في شتورة بضعف الثمن الذي اشترته. وقالت لزوجها إنها عرضت البيت للبيع. وهو سألها هل جلبت كل ما فيه؟ وهي قالت إن العربة كانت محملة ركاباً وبضاعة وغمزت خالد. قالت «سأنزل مرة ثانية وأجلب كل ما تبقى». وهكذا بدأت حنّة البستاني تتاجر بالقماش بين بيروت وشتورة. جاء من يشتري البيت فطلبت ضعف السعر الذي قالت من قبل إنه سعر البيت. مع أن أسعار العقارات في بيروت انخفضت في تلك الفترة. مرّت على لوكندة زيدان وقالت لصاحب اللوكندة ألا يرسل إليها زبائن بعد الآن لأنها لن تبيع البيت. صارت تنام في بيروت.

ماذا حدث بينها وبين خالد نقوزي حتى صار ينام في شتورة؟ خليل البستاني هو الذي قال لصاحبه ابقَ هنا، هذا المكان واسع. قال هذا وهو ينظر بعينيه المطفأتين إلى مريم لا إلى خالد. حنّة كانت حاضرة على الحديث، وقالت هذه فكرة، هنا أحسن لك، تديرون بالكم على بعض ونوسع التجارة. مريم الضائعة بين هذه الأحاديث بدت لخالد في تلك اللحظة أكثر مدعاة للشفقة من صاحبه خليل الضائع في عماه.

وسَّعت حنّة تجارتها. حوّلت بيتها على ساحة البرج مخزناً للأقمشة ولأغراض مختلفة. وبنت أمام البيت في شتورة تخشيبة صارت تعرض عليها بضاعتها. تعرض بضاعة وترسل بضاعة ـ مع صبيان درّبتهم على المهنة ـ إلى البيوت. شتورة تكبر. كل القرى والبلدان على حافة الطريق تكبر. بحمدون بعيدة عن الطريق، مفصولة عن الطريق بالتوت والصنوبر. لكن أهلها بنوا بيوتاً جديدة جنب الطريق. صرنا نقول «بحمدون الضيعة» (هذه بحمدون القديمة الأولى) و«بحمدون المحطة» (هذه بحمدون التي نبتت كالفطر جنب الطريق: أقامت شركة الطريق هنا محطة لتبديل الخيول، وذلك قبل عقدين كاملين من مدّ سكة الحديد ووصول القطار البخاري). البيوت الجديدة بيوت ودكاكين معاً. في الغرفة الداخلية ننام. وفي الغرفة الخارجية التي تفتح بوابتها على الطريق نبيع الباذنجان المقلي والكعك والفواكه والمربى. السوّاقون يقعدون ويأكلون كبّة بالصينية وسلطانية لبن وخيار. الراكب التعبان يشرب ماء ويغفو لحظة تحت الشجرة. العربة تعطلت، انكسر دولابها، وحتى يصلحوا العربة، وحتى ترسل الشركة عربة أخرى، ينبطح الركاب على الحصائر تحت شجرة الجوز، وينتظرون حتى تنضج الشوربة.

الفرنساوي بورتاليس شقّ طريق فرعية من طريق العربات إلى معمله في بتاتر. هذه أول طريق فرعية تُشق في الجبل من طريق الشام. شقّها سنة الستين: صديقه الجنرال بوفور وضع فرقة من الجنود الفرنسيين بإمرته. وهو شغّل الجنود - وشغّل بعض الأهالي سخرة - في شق الطريق إلى الكرخانة. حيث تذهب الطريق تكرّ العربات ويتكاثر البشر. وحيث تذهب الطريق تتكاثر كرخانات القزّ. الفرنسيون يستوردون حرير الجبل إلى مرسيليا، يعملون منه ثياباً ثمينة وحرائر وقماشاً ألطف من نور الشمس. حنّة البستاني تحمل هذه الحرائر من ساحة البرج وتبيعها في شتورة وبحمدون وحمّانا. أهل السهل أحبّوا حرائر الفرنسيين. الجبل كلّه يلبس مناديل من ليون ومرسيليا.

قالوا في بيروت إن مريم أخت حنّة البستاني مخطوبة لخالد نقوزي. سواقو الشركة ذمتهم واسعة، أشاعوا قصصاً غريبة: قالوا إن ابن نقوزي عنده بيتان وامرأتان الآن. بيت في شتورة وبيت على ساحة البرج. وفي كل بيت تنتظره امرأة تشبه أختها كأنها هي.

جرجي ابن الياس زيدان كان ساهراً في نور الشمعة يحفظ القاموس الإنكليزي - عربي عندما رأى من شق النافذة رجلاً يخرج من بيت البستاني حيث تنام - في بعض الليالي - الست حنّة. سيكبر الفتى ويصير رجلاً ويذهب إلى مصر ويتزوج ويرزق البنين والبنات، وسيظل يتذكر الست حنّة بذراعيها البيضاوين بياض اللبنة، الست حنّة التي تغش بذراع القماش وتقيس طوله كما تشاء فلا يعترض على غشها زبون لأنها تغش وهي تضحك.

الحاج عبد الرحيم تذكر ابن أخته صغيراً. تذكره أيام المدبغة وعجب كيف تبدل. خطر خالد في باله وهو يركب السفينة إلى يافا.

رأى الحمالين يرفعون براميل الماء إلى السفينة فتذكر زمناً قديماً. أخذه البحر إلى يافا وردّه البحر مع آلة بيانو لعبت (في المستقبل) دوراً مهماً في حياة العائلة.

هرمان ملفل صاحب «موبي ديك» أكل برتقالاً في يافا وقال إنه شديد الحلاوة. الحاج عبد الرحيم مشى في بيارات البرتقال مع صاحبه السكاكيني وشمَّ رائحة كأنها عطر الجنّة. أخبره صاحبه أنه يستورد صناديق الخشب من أوديسه وإزمير ولا يدفع عليها الجمرك لأنه مسجل على قائمة التراجمة عند القنصل الإنكليزي. الترجمان لا يدفع الجمرك. يملأ الصناديق بالبرتقال ويرسلها بالبحر إلى موانئ أوروبا. أقاربه يتاجرون بالقطن، بزيت الزيتون، وبزيت السمسم. هو يتاجر بالبرتقال. رجع الحاج عبد الرحيم من رحلته مبهوراً. في تلك الفترة عاد إلى البلد عبد المجيد الفاخوري قادماً من البصرة. هذا الرجل كإبن بطوطة. لا يكف عن التجوال. رجع على رأس قافلة محملة بتوابل بومباي والبنغال، بأصناف البخور والزهورات والنيلة، بالموسلين والدانتلا والشيلان. قال إنه جاء على طريق الشركة من دمشق إلى بيروت فأجبرته الشركة أن يدفع ضريبة. قال إنه لم يدفع إلا بطلب من الحاج الإسطمبولي. لم يستخدم عربات الشركة، الإبل ليست للشركة، ومع هذا أجبروه أن يدفع ضريبة الطريق. شتمهم واقفاً أمام «خان التوتة» وقال الفرنج أبناء حرام. أنزل البضاعة في خان البارودي وقال «مع هذا ينفعون». الطريق صارت أسهل: لا ينكر عاقل أن الطريق صارت هينة. والآن يشقون صحراء سيناء، يحفرون الصحراء، ويشقون ترعة من البحر الكبير إلى البحر الأحمر. عبد المجيد قال مجانين، الصحراء صحراء، تشرب الماء، تشرب بحراً.

أخبار عبد المجيد الفاخوري زرعت سوسة في عبد الفتاح. تحرك فيه حبّ المغامرة فجاء إلى أبيه يطلب إذناً بالسفر إلى عمّاته في الإسكندرية. ردّه أبوه خائباً فانتظر يومين ثم كرر الطلب. قال إن عبد الودود لا يحتاج إليه في الحانوت، وليس غلطاً أن يذهب ويرى عماته وأبناء عماته ويرى الإسكندرية. الحاج عبد الرحيم هرب إلى الأمام عندئذٍ وقال لعبد الفتاح إنه يريد أن يتولى شؤون الدكان في باب إدريس منفرداً لأنه محتاج إلى عبد الودود في الخان. هذه المفاجأة أسكتت عبد الفتاح فصرف ذهنه عن ركوب البحر مؤقتاً.

ضعفت صحة الشيخ بيضون منذ فترة. صار يسعل كثيراً كأنه يختنق مع أنه لا يقرب التبغ ولا يقرب الأرجيلة. كلما دخل الإصطبلات سُمعت سعلته إلى الطبقة الفوقانية. تعب ولم يعد قادراً على المساعدة في إدارة الخان. والحاج أبو حسين احتار ماذا يفعل. الشيخ بيضون هو نفسه اقترح جلب عبد الودود الحصّ إلى الخان. الحاج أبو حسين ظلّ يؤخر هذا الانتقال لأن عبد الفتاح مملوء طيشاً. صحيح أنه تضخم، صحيح أنه صار يلبس قمصان أخيه ويحلق ذقنه كل يومين مرة، لكن هذا النمو الجسماني لم يأخذ من طيشه شيئاً. بل العكس: زاد طيشه. بربارة تقول إن الأشياء تقع على الأرض إذا مرَّ جنبها. انكسرت مسكة الباب في يده. يأكل أكل خمسة رجال وإذا رفع إبريق الماء ليشرب أنزله فارغاً. طيشه زاد. ومع هذا يقيس التبغ بالميزان. ويلف اللفافات ويُرتبها في العلب الصغيرة الصفيح. هذه العلب يجلبونها من وراء البحر. عبد الودود رأى مثلها مع الضباط الفرنسيس مرة فسألهم من أين يشترونها. عبد الودود يلقط العصفور وهو طائر. وعبد الفتاح تعلم منه الكثير. لكن فيه شراسة.

صاحبه الشيخ رفاعة قرنفل أخبره أنه رأى عبد الفتاح أمام خان أنطون بك يرفع صوته على ثلاثة حمالين ويدفعهم في صدورهم. ذلك المساء، على العشاء، سأل الأب ابنه من كان يعارك هذا الصباح على رصيف الميناء. عبد الفتاح غصّ بلقمة الزيتون والتفت مغتاظاً إلى عبد الغني. عبد الغني قال أنا لم أقل شيئاً. الحاج أبو حسين قال لابنه الصغير «تكلم». لكن عبد الفتاح لم يتكلم. الحاج أبو حسين غضب ونظر إلى عبد الغني وقال «أخوك يعارك الحمالين وأنت تحميه!». سكت لحظة محاولاً أن يهضم المسألة، واللقمة ما زالت بين أصابعه لم يغمسها في صحن الكشك بعد، ثم قال بصوت عالٍ حادٍ «اخرجا من وجهي».

حوراء فزعت وسليمة فزعت وحتى بربارة تغير لون وجهها. الحاج نادراً ما يرفع صوته. إذا ارتفع صوته قليلاً ركضوا ولبوا. لكنه الآن صرخ في ولديه، والولدان هربا إلى خارج البيت. هذا ما لم يتوقعه. توقع أن يتكلم عبد الغني فإذا به يهرب مع أخيه! كان الدم يغلي في رقبته. وقام ولحق بهما. بربارة لم تتحرك من مكانها. أرادت أن تمدّ يدها وتلقط ثوبه، خافت على عبد الفتاح وخافت على عبد الغني وخافت على زوجها. أرادت أن تمدّ يدها لكن الخوف شلَّ عضلة لسانها. مكثت حيث هي تنظر إلى البخار الصاعد من أطباق الكشك، والحاج أبو حسين اختفى تتبعه حوراء. حوراء لم يشلّها الخوف.

خرج الحاج أبو حسين غاضباً لا يرى أمامه فوجد الولدين واقفين بانتظاره تحت الجوزة. عبد الغني تكلم ما إن رأى أباه يهبط الدرجة وذراعه المسبلة ترتفع قدامه. تكلم عبد الغني فدخلت الكلمات في صدر الحاج عبد الرحيم وأطفأت غيظه. كان يفور

وجسمه يأخذه في خطٍ مستقيم إلى عبد الفتاح فتكلم عبد الغني ووضع سوراً بينه وبين الابن الأصغر. قال عبد الغني إن عبد الفتاح لم يتهجم على الحمالين لكن الحمالين قالوا كلاماً نابياً بحق بربارة. عبد الفتاح لم يسكت في البيت إلا احتراماً. كيف ينقل أمام زوجة أبيه كلام الزعران؟ قالوا إن المسيحية الخيّاطة صادت «حج بو حسين» في معلم الألاجة، كانت تُخيط عنده فصارت... عبد الغني لم يكمل الجملة. رأى أسنان أبيه تعضّ شفته السفلى فعضّ على لسانه.

هل انطفأ غضب عبد الرحيم؟ استدار فرأى حوراء تتبعه. أشار إليها أن تدخل إلى البيت فدخلت. اقترب من عبد الفتاح وعبد الفتاح يتراجع حتى صار ظهره على جذع الشجرة. سأله من هم هؤلاء، سأله عن أسمائهم. قال عبد الفتاح إنه لا يعرف أسمائهم، قال إنهم بلا عقل وبلا أدب، لكنهم الآن تربّوا. عبد الغني أراد أن يتكلم فلم يقدر. كانت الكهرباء تشرقط خارجة من جسم أبيه فلا يستطيع أن يقترب ولا يستطيع أن يتكلم. أصابه الذعر وصار من دون انتباه يصلي ألا يستدير أبوه صوبه.

لم يُنقذ عبد الفتاح إلا خوفه: كان خائفاً من اللون الأحمر الذي غطى عيني أبيه، وكان خائفاً من العبارة التي علقت على لسانه. ظلّ الحاج يسأله عن أسماء الحمالين الثلاثة بينما وجهه يكبر أمام عينيه وأسنانه تظهر من فمه. شمَّ أنفاسه. ورأى الشريان الأخضر ينبض في رقبته فخاف. صار يهذي بأسماء، يلفظ كل أسماء الحمالين على المرفأ، بينما يحاول أن يتململ بجسمه وأن يتخلص من جذع الشجرة. أنقذته هذه الحركة. الأب رأى ذعر الابن اللانهائي فتراجع. سأله ماذا جرى بينه وبينهم. عبد الفتاح قال إنه

رمى واحداً منهم في الماء. الحاج قال لا يا حمار، ماذا جرى بينكم أصلاً حتى يلفظوا الكلام الذي لفظوه. عبد الغني استطاع عندئذٍ أن يتكلم فقال إنهم اشتروا تبغاً بالدين وظلّوا يأخذون بالدين ولا يدفعون. عندما طالبهم عبد الفتاح بثمن التبغ قللّوا أدباً. عبد الفتاح رمى أحدهم بالبحر وعصر ثانياً بين ساعديه فأخرجوا القروش ودفعوا. لن يلفظوا كلاماً نابياً بعد اليوم. «ونحن لم نغلط معهم»، قال عبد الغني.

الحاج عبد الرحيم خاف على عبد الفتاح. كان غاضباً عليه فانقلب الغضب خوفاً. لم يتخيل أن ابنه صار رجلاً! ويعارك شغيلة المرفأ! متى انقلب عبد الفتاح رجلاً؟ نظر إلى ابنه وخاف عليه. عبد الغني كرّر مرة ثانية «نحن لم نغلط معهم يا أبي». الحاج عبد الرحيم سكنت فورته، التفت وقال «لا، لم تغلطوا». ربّت على كتف عبد الفتاح، وربّت على كتف عبد الغني، وقال «الكشك بَرَدَ»، ودفعهما صوب البيت.

عبد الفتاح لن يفتح سيرة الإسكندرية بعد ذلك. قال له أبوه أريدك أن تتولى دكان باب إدريس وحدك فأحسّ بالمسؤولية. رأى نفسه وحيداً في الدكان يتسلم التبغ ويقسم التبغ ويبيع التبغ وشعر بالثقل الملقى على ظهره. أقفل سيرة الإسكندرية.

في هذه الأثناء انتظمت مواعيد البوابير، مواعيد وصولها ومواعيد إقلاعها. صار تجار البلد يعرفون متى (في أين نهار وفي أي ساعة) تصل هذه السفينة النمسوية ومتى تقلع هذه السفينة الإنكليزية. خط التلغراف مُدَّ سنة 1867 بين بيروت واستانبول عن طريق حلب ـ ديار بكر ـ أنقرة. خطوط كثيرة مُدَّت وجميع موانئ المتوسط اتصلت ببعضها بعضاً. عندما قرر بطرس الصايغ أن يجيء إلى بيروت في

زيارة لم يرسل خبراً بالبوسطة (البريد) إلى أخيه الخواجه نصر الله. أرسل برقية بالتلغراف. نصر الله الصايغ عرق وجهه وهو ينتظر وصول أخيه وزوجة أخيه. آخر رسالة وصلته قبل شهرين ولن يكن يتوقع زيارة. منذ زمن لم يحدث لقاء. منذ سنة الكوليرا.

اللقاء في الإسكندرية كان غريباً. لم يحبّ الخواجه نصر الله الإسكندرية. اكتشف أنه خارج بيروت يشبه السمكة خارج البحر. اكتشف أنه أسير عاداته. إذا لم يمشِ كل صباح من دار الصايغ في سوق الفرنج إلى خان الصايغ على المرفأ لا يكون هو نصر الله الصايغ. لا يكون أحداً. جلس في بيت أخيه بطرس وجلس في بيت أخيه إبراهيم فلم يرَ أمام عينيه غير ظلمة. حتى سوسن بدت له بعيدة، باردة، غريبة الكلمات غريبة اللهجة، كأنها امرأة أخرى. لم يتبدد هذا الإحساس إلا في الأيام الأخيرة. عندما رجع إلى بيروت مع ياسمينة والأولاد، عندما استقر في الدار والخان من جديد عادت إليه ذكريات الإسكندرية القريبة بلا مرارة. تذكر سوسن وهذه المرة لم يجدها غريبة وبعيدة.

خليل باسيليوس تزوج ندرة. لكن جرجس دبانة أصابه الخبل في الإسكندرية وقال لعمه لن أرجع إلى بيروت. هيلانة قالت لأبيه هذا زوجي يا أبي، ماذا أقول، إذا كان يريد أن نبقى هنا فليس أمامي غير البقاء معه. خسر شريكه وصهره. هذه الإسكندرية لن تترك له أحداً! الربّ أرسل إليه خليل باسيليوس. هذا الرجل يضع ندرة بين عينيه ولا يحبّ البحر. سكن في بيتٍ يجاور دار الصايغ. يشتغل عند المرسلين. والخواجه نصر الله يخطط لجلبه إلى خان الصايغ.

الخواجه نصر الله يحاول مع إبراهيم سرسق إقناع المجلس البلدي الجديد بتوسيع المرفأ: التجار النصارى جميعاً اقتنعوا بفائدة

هذا العمل لكن توسيع المرفأ يحتاج إلى أموال والأموال لا تأتي إلا بضريبة جديدة. التجار المسلمون قالوا إن هذه الضرائب بدعة وضلال، هلكنا بهذه الضرائب والمرفأ ليس صغيراً. «أفقهم ضيق»، كتب الخواجه نصر الله في رسالة إلى أخيه بطرس.

الحاج عبد الرحيم قال لصهره المشكلة ليست الضريبة، المشكلة أنكم احتكرتم التجارة بالبحر، السفن لكم أو للمساجيري، لماذا نوسع لكم المرفأ؟

الخواجه نصر الله قال أنت تقول هذا يا حج بو حسين، معقول؟ أنت طول عمرك تقول ضروري توسيع هذا المرفأ، والآن لا تريد!

الحاج عبد الرحيم قال إنه يريد ولكنه يشرح ماذا يفكر التجار عموماً، نحن أصحاب خانات وقوافل، الجزء الأكبر من تجارتنا في البرّ، الجمل يجيء من حوران ولا يجيء بالبحر، فكيف تريدون أن ندفع من أجل توسيع المرفأ ضريبة على أملاكنا وأعمالنا مثلنا مثلكم؟

الخواجه نصر الله قال بلا مرفأ أين يذهب الحرير والقمح والصوف والزيت الذي تجلبونه؟

الحاج عبد الرحيم قال أنا معك يا صهري، لكنني أقول لك ماذا يفكر التجار عموماً.

الحاج خالد الفاخوري قال إن الضريبة نصف المشكلة. النصف الثاني هو المراكب والصنادل التي تنقل البضاعة من الأرصفة إلى البوابير. إذا وُسع المرفأ وبنت المساجيري الرصيف الذي تريد أن تبنيه ماذا يفعل أصحاب المراكب والصنادل؟ تخرب بيوتهم عندئذٍ لأن الباخرة ستدخل إلى المرفأ وتفرغ حمولتها مباشرة على الرصيف.

«المساجيري امبريال» جلبت من باريز مهندس طرق وأرصفة بحرية وجسور اسمه ستوكلان. هذا المهندس الذي يشتغل مع دي ليسبس في السويس أقام عشرة أيام في بيروت. وخلال عشرة أيام أعدّ خطة: درس طبيعة القعر في منطقة المرفأ فوجدها صخرية لا رملية. قال «هذا يكفينا» ورسم على ورقة بمساحة غرفة رصيفاً أطول من سور بيروت القديم، رصيفاً يمتد بطول 620 متراً وبعمق يتراوح بين 4 أمتار و 16 متراً، داخلاً في البحر وهو يتجه شرقاً. من رأس الرصيف ستُرى بيوت المدوّر.

الحاج أبو حسين جلس على الشرفة البحرية مع بربارة يشرب قهوة. أخبرها عن خطة ستوكلان الفرنساوي. وأخبرها عن قنال السويس. كل بيروت تحكي بالسويس هذه الأيام. والحاج عبد الرحيم اتفق مع الحاج الإسطمبولي وآخرين أن يركبوا البحر معاً ويحضروا الافتتاح. عبد الفتاح أراد أن يذهب مع أبيه. الحاج عبد الرحيم ردّه خائباً. قال له أريدك أن تدير بالك على الخان والدكاكين مع أخيك، هذا وقت الشغل يا عبد الفتاح، لا تُخيب ظني.

سافر الحاج عبد الرحيم البارودي إلى مصر في يوم جمعة. يوم السبت ظهراً رأت سعدية الحصّ البارودي رؤيا غريبة: كانت قاعدة جنب جرن الماء تُنقي عدساً عندما غفلت عينها لحظة. غفت لحظة فرأت هذه الرؤيا: رأت أسراب حمام تطير من سوق العطارين وتحطّ على قناطر الجامع العمري. ورأت رجلاً في عباءة بيضاء يرش للحمام حبّاً على أرض السوق فتهبط عصافير دوري وتهبط غربان وتأكل الحبّ. أما الحمائم فلا تهبط من فوق القناطر. قامت من نومتها القصيرة منزعجة. لم تفهم الرؤيا. وظلّت تضايقها حتى غابت الشمس. جاء المساء ولم يفارقها الانزعاج الغامض. نسيته

وهي تفرم بصلاً وتقليه. ثم تذكرت انزعاجها من جديد قبل أن تغلي الطبخة. أكلت لقمة ولم تكمل أكلها. غابت الشمس فظهر عبد الغني آتياً على «الطريق البيضاء» يرفع يداً طويلة الأصابع ويلقي السلام على الواقفين في أبواب البيوت. يلقي السلام ويردّون السلام. يقولون له أهلاً وسهلاً. ويقولون له «تفضل». وهو يردّ بعبارات قصيرة. ويتابع طريقه. كان آتياً من خارج الحارة وفكرت أم هند انه يأتي من البازركان أو من الخان. وسألت نفسها لماذا انزعجت الآن أيضاً وهو يرفع يده ويلقي السلام. ولم تعرف جواباً. ردّت سلامه ورأت سليمة وزهية تخرجان من باب البيت. والصغيرة تركض إليه. ثم سمعت صوت بربارة من الداخل. وسمعت صوت حوراء. رائحة القورمة فاحت من أعماق البيت الكبير. وأم هند فكرت أنهم هذه الليلة أيضاً يتعشون من دون «حج بو حسين». في تلك اللحظة رجعت إليها الرؤيا وفهمت سبب ضيقها. الرجل اللابس العباءة البيضاء، الرجل الذي رشّ حبّاً للحمائم فنزلت طيور السماء والتقطته، كان بذراعٍ واحدة! لم ترَ وجهه ولم يخطر في بالها لحظة أنه المرحوم زوجها. لكنها الآن رأته في خيالها من جديد: بلى، كان ينثر الحبّ بيده الباقية، وكم اليد الأخرى يطير في الريح.

هبط الظلام ولم يرجع عبد الفتاح إلى الحارة. أم هند لم تنتبه في البدء إلى غيابه. تمدّدت داخل بيتها وتركت الباب مفتوحاً. هذه الليالي تواجه صعوبة في النوم. ثم إن جسمها لم يتعب بعد. تقضي النهار شبه قاعدة. زهية تأتي وتلعب عندها، لكن ليس طويلاً. بربارة سرقتها: تُخيط لها دمى من قماش، وتعمل للدمى ألبسة صغيرة وتعمل على الألبسة تطريزاً. سليمة أيضاً صارت تُطرز. هذه البنت

ماهرة: تلتقط الصنارة كأنها تعلمت الحياكة وهي في بطن أمها. حوراء كبرت. وأم هند رأت الخاطبة تدخل وتخرج ثلاث مرات. وعما قريب تغادر حوراء الحارة. تأخرت قبل أن تخرج. ولا بد أن بربارة أخّرت خروجها. زوجة «حج بو حسين» تعلقت بهذه الحوراء كأنها أختها. رأتهما مرة تعجنان وتغليان لبناً وتعملان طبخة «شيش برك» ففكرت أن حوراء صارت تشبه زوجة أبيها في الشكل أيضاً. كأنها لم تعد من بنات العائلة! وجهها تغيَّر. وحركة أصابعها تغيَّرت. ولولا العيب والحياء ترسم إشارة الصليب إذا أوقعت صحناً!

حوراء تلازم بربارة كأنها ظلّها. سليمة صارت تطرز وتُخيط صوفاً. وزهية باتت تقضي النهارات داخل البيت أو على الشرفة في الجهة الأخرى. بربارة نقلت القعدة من أمام البيت. هربت من أهل الحارة إلى الشرفة البحرية. أمها تأتي من وراء الجميزة ويدها تلمس الصليب الخشب المعلق من رقبتها. تُسلم على أم هند من دون أن تترك طريق الكلس. ثم تقرع باب البيت المفتوح، مرة واحدة، وتدخل. بلا إذن تدخل. وتقضي النهار مع ابنتها. أم هند تعرف أن بربارة ليست سيئة. إذا كانت تقعد في الجانب الآخر فلأنها تنتظر رجوع الحاج. الحاج سافر بالبحر ولن يتأخر. لا تقول في نفسها إن بربارة سيئة. لكنها لا تفهم لماذا تضاءل الوقت الذي تُرى فيه «عائلة بو حسين» تحت الجوزة. منذ فترة كفّوا عن القعود هنا. كانت تحبّ الوقت وتحب النهار الطويل إذا لعبت زهية مع سليمة تحت الجوزة. لا تدري ماذا تصنع بنهارها. وقبل أيام نامت لحظة على الطراحة في باب البيت فسمعت صوتاً من زمن طويل: سكاكين تُسَّن على حجر الجلخ. فتحت عينها ونظرت إلى النقطة حيث اعتاد عمر القعود فلم ترَ إلا الهواء ولحاء الشجرة.

تغير عليها الليل أيضاً. صار نومها قليلاً. تنام ساعتين وتقوم والبلد كلّه ينام والشخير يتسرب من بيوت الحارة. ولا تدري ماذا تصنع إلى أن يؤذن المؤذن الفجر. صارت تتمدد وتترك الباب مفتوحاً وتؤخر ميعاد نومها.

لم تنتبه إلى غياب عبد الفتاح إلا متأخرة. كانت تنعس. ورأت عبد الغني يخرج ويقف تحت الجوزة، ينظر باتجاه مدخل الحارة ثم يرجع إلى البيت. نامت قليلاً ثم سمعت حركة. فتحت عيناً واحدة ورأت حوراء تحت الجوزة وضوء النجوم يقع أبيض على كتفيها. نامت قليلاً وهي تحاول أن تدفع النوم عنها فلا تقدر. سمعت حركة ففتحت عيناً. هذه المرة رأت بربارة ملتفة ببطانية . وبعد بربارة ظهرت حوراء من جديد. ثم سمعت صوت عبد الغني. لم تفهم ماذا يحدث. أرادت أن تقوم وتسأل ثم انتبهت وحدها: لم ترَ عبد الفتاح منذ الصباح. رأته خارجاً في الصباح يلبس ثياباً كانت لأبيه، وينتعل مداساً كبيراً كالشختورة. كبر الفتى وصار رجلاً. كانت من قبل تظنه لا يشبه ذكور العائلة فإذا به أشدّهم شبهاً بالمرحوم عمه. يُشبه عمه شاهين. كأنه هو. حتى المرحوم حسين لم يتضخم جسمه هكذا! رأته لابساً ثياب عبد الرحيم. انتبهت أن الثياب ضيقة عليه. وقالت «سبحان الخالق». خرج في الصباح. وبعد ذلك لم يظهر.

عبد الغني لبس عباءة وخرج في ظلام الليل وردّ الباب خلفه. أم هند فهمت أنه خرج يبحث عن أخيه. لم تتحرك من مكانها. سمعت بربارة تتكلم مع حوراء ولم تتحرك من مكانها. استحت أن تخرج الآن. واستحت أن تبقى مكانها. سمعت بربارة تقول كلمة «الإسكندرية» مرتين فملأ الخوف قلبها. خافت على عبد الفتاح. خافت أن يكون ركب البحر. عمه عمر أخذه البحر إلى البعيد،

وعندما ردّه ردّه عجوزاً، أبيض الشعر، لا يتكلم! خافت أم هند على عبد الفتاح وصلّت أن يعود سالماً.

الليل ساكت. من البرّية جاء عواء الواوية. مضى وقت أطول من دهر. ثم سمعت دعسات في سوق الفشخة. ثم صرّ باب الحارة. الصرير أرسل الدم خافقاً في رقبة أم هند. تحركت أم هند. تحركت على مهل ومدّت رأسها. رأت عبد الغني آتياً من بعيد وعبد الفتاح يستند إليه. ظنّت أن مكروهاً أصابه. قفزت خارجة من البيت وركضت على «الطريق البيضاء». بينما تركض سمعت دعسات وراء ظهرها. لم تلتفت. بلغت عبد الغني. ساعدته. سندت عبد الفتاح من الجهة الأخرى. وسألت عبد الغني ماذا حدث، مع من تعارك؟ عبد الغني قال تعارك مع العَرَق؛ لم يتعارك مع أحد، يعمل كالكفار الإنكليز ويسكر، الله يسامحه، ونحن هنا لا نعرف ماذا نفكر.

أم هند شمّت الرائحة القوية ولم تعرف ماذا تردّ. ظهرت حوراء أمامها فكادت تصطدم بها. قالت أم هند «نأخذه إلى بيتي». عبد الغني وافقها.

مدّدوه على الفرشة داخل الباب. مسحت أم هند وجه المارد بقماشة مبلولة. قالت «الله يسامحه». كان نصف نائم. قال مدمدماً إن رأسه ثقيل كصخرة. أم هند طلبت من حوراء أن تعمل زهورات وقالت لعبد الغني أن يذهب ويردّ باب البيت لئلا تستيقظ سليمة وزهية وبربارة. قالت «بربارة» فظهرت المرأة أمامها كأنها خرجت من الهواء، كأنها خرجت من اللفظة ذاتها. رأت وجهها أبيض، مخطوف اللون، وفكرت أنها تشبه عائشة. رأت لهفتها وخوفها على عبد الفتاح ولم تصدق. أزاحتها بربارة كأنها تزيح غرضاً وانحنت على المارد العرقان ومسحت بيدها وجهه. فتح عبد الفتاح عينيه

وقال لم أشرب كثيراً. ثم شخر ونام.

جعلته بربارة يحلف يوم الأحد ألا يقرب المنكر أبداً. لم تكف عن البكاء حتى حلف. أم هند سمعت الحديث وعجبت من هذه البربارة. كان يمسك رأسه بين يديه ويقول أخ يا رأسي. وحلف لزوجة أبيه أنه لا يلمس الكأس مرة أخرى. هو حلف. وبربارة أشرق وجهها. أم هند قالت «الله يحفظها». بعد هذه الحادثة صارت تذكرها في صلواتها وتطلب من الله أن يرزقها طفلاً ذكراً. تعرف كم تتعذب. ورأت أمها ذاهبة إلى الكنيسة تحمل شمعاً. تنتظر وتنتظر وبطنها لا ينتفخ. مضى الوقت ولم تحبل. وعندما كانوا يقطفون شرانق الحرير رأت الماء في عينيها وحدست أنها تبكي لهذا السبب.

بربارة تصلي ليلاً نهاراً، تطلب من الربّ أن ينفخ بطنها. الربيع يتلو الربيع وهي لم تحبل. كلما رأت القزّ يُفقس ويسعى على أطباق التوت شعرت بنار تحترق في جوفها. كلما قطفت الشرانق من الوزال أحست النار تلتهب في بطنها. تقشر خيوط «الليسيني» التي تُعلّق الشرنقة بالعود وتتمنى أن يقشر الربّ هذه المرارة عنها. قلبها ملآن حُباً لأولاد الحاج عبد الرحيم. تحبّ حوراء كأنها أختها. تحب سليمة وزهية. زهية كأنها خرجت من بطنها. وتحبّ عبد الفتاح. وحتى عبد الغني ـ الذي لا يعاملها بودٍ كبير ـ تحبّه. تحبّهم وإذا مرضوا تمرض. لكن الحاج ينتظر أن تحبل. الحاج لا يقول شيئاً. لكنها تعرف من دون أن يقول. وذات مرة قال. وهي حبست الغصّة. أمها قالت لا تبكي قدّامه، لا تبكي قدّامه لئلا يزعل.

الأم نذرت النذور من أجل ابنتها. بربارة طرّزت أغطية لمذبح الكنيسة ولم تأخذ من الكاهن قرشاً. علمت الأم بذهاب نساء من آل فياض حاجّات إلى القدس فأوصتهن على الزيت المقدس. مسحت

رأس ابنتها بالزيت ومسحت بطنها. جلبت لها صنوبراً وفستقاً ولوزاً وجوزاً. قالت كل يوم دقي من هذه الحبّات في الجرن واخلطيها وكليها. كل صباح وكل مساء. بربارة أقبلت على «النقولات»، تأكل منها ما استطاعت، حتى سمنت وضاقت عليها ثيابها. صارت تلهث وهي تلاعب زهية وترفعها في الهواء وتنزلها. ولم تحبل.

عندما جاءت زاهرة مملوءة البطن بطيئة الحركة تزور بيت أبيها أحسّت بربارة بالنار في أحشائها. بعد وقت قصير عانقتها حوراء وودعتها. تزوجت حوراء عقب عودة الحاج عبد الرحيم من افتتاح قناة السويس. تزوجت عبد الرازق بيهُم وخرجت إلى بيتٍ تحوطه البساتين في المصيطبة. خروجها زرع حزناً في بربارة.

عندما جاء الربيع من جديد وفقس القزّ من بزره بارتفاع الحرارة رأت بربارة هذا المنام: رأت أنها تدخل داراً فسيحة عالية السقف، كثيرة الشبابيك والقناطر، لكنها فارغة. دار بلا فرش، بلا حصائر وطراحات، بلا مقاعد، بلا أي أثر لوجود إنسان. خالية مثل كنيسة البروتستانت. قطعتها إلى باب صغير في أعماقها. دفعت الباب فرأت حديقة من أشجار مملوءة زهراً أبيض. العطر ملأ صدرها. تقدمت بين الأشجار متجهة إلى جدول ماء. سمعت سقسقة المياه، سمعت الخرير بين الشجر، قبل أن ترى الساقية. تقدمت من الصوت فرأت امرأة تنام على العشب الأخضر. كانت عارية، تغطي قسماً من جسمها بدثار أصفر اللون. لم ترَ وجهها. المنديل الأبيض المطرز بزهور زرق تشبه زهرة السوسن غطى وجه المرأة. رفعت يدها. كانت القبضة مجموعة. حدست بربارة أن المرأة تريد أن تعطيها شيئاً. فتحت المرأة أصابعها فرأت بربارة مسبحة. تعرف هذه المسبحة. أمها لا تصلّي بلا هذه المسبحة. تعدّ الحبّات الخضر

وتصلّي وتقرأ مزاميرها. هذه أمها؟ قبل أن تتأكد رأت المرأة تستلقي من جديد وتختفي بين الأعشاب الطويلة. كأن الأرض أخذتها إلى بطنها. من جديد جاء نداء الماء يدعوها. أصغت وعرفت أن الساقية وراء هذه الجنائن، في الطرف البعيد. عبرت تحت الأغصان فتساقطت الأزهار الثلجية على رأسها وكتفيها. كانت تنحني هكذا عندما رأت سلّة عريضة من القصب. تغيّر شكل السلّة أمام عينيها فصارت فرشة. على الفرشة رأت بنتاً صغيرة تلعب بعيدان، تُكومها كالهرم، كأنها تُعد ناراً صغيرة. العيدان اليابسة تكاثرت بين أصابع البنت. البنت رفعت وجهها. نظرت إلى بربارة بعينين تشبهان عيني عبد الرحيم وضحكت. دبّت البنت على الفرشة لتلقط عوداً بعيداً فرأت بربارة طفلاً كان مخفياً وراء الطفلة. لم تره إلا عندما دبّت الطفلة الصغيرة. نظرت إلى الطفل العاري وخافت عليه من البرد. كان نائماً.

عبد الرحيم البارودي سمع بربارة تروي المنام وعدّ حبّات المسبحة (66 حبّة) وقال لا إله إلا الله، سبحانك يا ربّ. رجع من مصر محملاً بالهدايا. عندما احتواهما الفراش ونزل فيها شدّته إليها وصلّت. ظلّت تكرر صلاتها ليلة بعد ليلة بعد ليلة. المنام الذي رأته ليلة فقس القزّ ملأ صدرها نوراً. سمعت عبد الرحيم يقول «لا إله إلا الله» فنذرت في سرّها نذراً ولم تقل لأمها ماذا نذرت. عند الصباح رأت عبد الغني يلبس قميصاً عليها تجاعيد. جعلته يخلعها وملأت المكواة جمراً وكوت القميص. انتظرها قاعداً تحت الجوزة وعبد الفتاح خرج وراءه وقال «ماذا تفعل هنا يا أخي الصغير؟». صار ـ مذ جاوزه في الطول والعرض ـ ينادي عبد الغني «يا أخي الصغير».

أخفوا عن الأب قصة تلك الليلة. وعبد الفتاح لم يكذب. ولم

يرجع إلى الحارة مخموراً مرة ثانية. المشكلة في أصحابه. رمى حمّالاً في البحر فخرج الرجل مبلولاً من الماء وصادقه. صار يأتي إلى عبد الفتاح في دكان التبغ ويجالسه ويدخن معه تبغاً وأرجيلة. عبد الفتاح يرسل أحد الصبيان إلى «قهوة النوفرة» أو إلى خان أنطون بك أو إلى يوسف منيمنة فيرجع الصبي بالطعام وما يلزم.

صاحب عبد الفتاح اسمه حافظ. حافظ دلّ عبد الفتاح إلى «حانوت طوبيا». طوبيا صار عجوزاً، قدم هنا وقدم في القبر، لكنه ما زال يبيع عرَقاً. أهل المرفأ يسمّونه «طوبيا أبو سن». وقعت جميع أسنانه باكراً ولم يبقَ في فمه غير سنٍّ واحدة، في الفك الأسفل، سن صفراء تبرق كأنها طُليت ذهباً. عبد الفتاح قال إنه يشبه القندس الأميركاني في جنينة المرسلين قبالة القشلاق. حافظ دلّ عبد الفتاح بعد ليالٍ إلى السوق العمومي شرق ساحة البرج. أول مرة عبر عبد الفتاح أمام بائعات الهوى سمع تصفيراً. سأل حافظ لماذا يُصفرن؟ وحافظ ضحك وقال هذا حظك الحلو. انحنى عبد الفتاح كي يدخل باب البيت المضاء بالقناديل. بدا البيت طويلاً كدهليز، وأصغر من أن يتسع لجسمه.

الحاج عبد الرحيم لم ينتبه أن ابنه صار مارداً إلا بعد فوات الأوان. الحاج أبو حسين لم يقضِ مع الابن الأصغر ـ أصلاً ـ غير وقتٍ قليل. كل الوقت يركض من الخان إلى البازركان إلى ساحة العصافير إلى مطعم الشواء، كل الوقت يركض. ولا يدخل البيت إلا ساعة العشاء. مع الفجر يخرج تاركاً الحارة. لم يعرف ابنه. لم يعرف مثلاً أنه صار يسبح إلا بعد أن رآه مرة ـ هذا قبل الكوليرا ـ يعوم مع أبناء العبيد في ماء البركة التي تعكس سماء الصيف وراء البيت حيث رُزقت المرحومة أم شاهين أبناءها. ولم يتأكد من قدرته

على السباحة والغطس والبقاء تحت الماء إلا في زمن الكوليرا، عندما نزلوا في بيت عبد الله الفاخوري على شط شوران. في تلك الفترة فقط، عندما تعطلت الأشغال، رأى عبد الرحيم ابنه عبد الفتاح يركض مع أقرانه ويلعب مع أقرانه. رآه يسبق الجميع إلى قمم الأشجار وصلّى أن يحفظه الله سالماً.

عائداً بالبحر من مصر فكر عبد الرحيم في أولاده وفكر في بربارة. الرحلة البحرية أعطته وقتاً للتفكير. انتبه أنه منذ زمنٍ بعيد لا يجد وقتاً للتفكير على مهلٍ هكذا. كان يستيقظ عند الفجر لأن هذه عادته منذ زمنٍ بعيد، فيخرج إلى ظهر السفينة وينظر إلى النور يتسرب إلى السماء رويداً رويداً. في هذه اللحظات، بينما المياه تتلاطم على جوانب السفينة، انتابه الإحساس أنه فقد على الطريق ـ على طريق حياته ـ شيئاً ثميناً، وأنه لم ينتبه. أتعبه هذا الشعور. وجرب ـ مرة تلو مرة ـ أن يحدده. ماذا خسر من دون أن ينتبه، ماذا خسر؟ عذّبه الشعور ولم يخلص إلى نتيجة. لم يكن وقت التفكر طويلاً. سرعان ما تشرق الشمس ويتجمع الأصحاب من حوله. عندما أطلّوا على البلد وبان القشلاق الذي يُتوّج الهضبة وبانت شرفات خان أنطون بك وقناطره ابتهجت وجوههم. الحاج خالد الفاخوري الذي طالما ركب البحر وأبحر وعاد، دلّ الحاج عبد الرحيم إلى قرميد يعلو بين البيوت، دلّه إلى القرميد تحت المئذنة العالية المستطيلة وقال: «بيتك».

حملهم مركب من البابور الخديوي إلى الميناء. كان قعر المركب مملوءاً بالماء. اختض على الموج الخفيف. عبد الرحيم هاجمته ذكرى بعيدة: رأى نفسه واقفاً مع أخيه عمر على الرصيف، ورأى أباه واقفاً عند الحافة ينظر إلى مراكب تجيء من سفينة محملة

بجرحى بحرصاف. اختض المركب ورأى المشاعل في الليل، تتأجج ثم يضعف لهبها، ورأى سمكات صغيرة ـ كل سمكة أصغر من يد طفل ـ تسبح تحت وجه الماء. كم سنة مرتّ؟ ماذا ذكّره بتلك الليلة الآن؟ لم يبقَ إلا هو. ذهب بعد أيام إلى المقابر المقفلة خارج باب الدباغة. قرأ الفاتحة على قبر أبيه. وقرأ الفاتحة على قبر أمه. بينما الكلمات تتشكل أمام عينيه مثل فراشات ملأه اليقين. عندما تهلّل وجه بربارة بعد أيام قليلة عرف أن صلاته مستجابة.

الفرحة كادت تكتمل لولا سحابة: مرضت أم بربارة. سعلت وهي تشكر ربّها (كانت تقول في نفسها، وهي تتلو مزامير داوود التي تحفظها، الربّ فتح رحمها الربّ فتح رحمها). سعلت فظهر أثر دم على منديلها. نظرت إلى المنديل وعرفت. منذ زمن تشعر أن النهاية تدنو. وقبل أيام كانت تكنس البيت وتُخرج الحصائر إلى الشمس وتخبطها بالعصا وتُشمسها، كانت منهمكة في تنظيف البيت خفيفة الجسم مسرورة لأن بطن بربارة انتفخ، كانت سعيدة تلهو كطفلة عندما انفتحت المخدة. هذه مخدة لم تجلبها معها من البيت في ساحة البرج. هذه مخدة كانت هنا. لم تستخدمها يوماً. لكنها إذا نظّفت تخبطها بالعصا خبطة وتتركها على الحشية في الزاوية. كانت سعيدة. والشمس تملأ الحارة. وعصافير الدوري تزقزق في الجميزة. والضفادع يعلو نقيقها في البركة. كانت سعيدة والشبابيك مفتوحة وروائح الطبيخ تفوح والجارة الحبشية السوداء تنشر غسيلاً أبيض كالثلج على الحبل. هذا الفرح أعطاها قوة فخبطت المخدة خبطة شديدة. انفتحت المخدة وخرج منها صوف وريش وخرج ما يشبه الشعر الأسود. عبقت رائحة قديمة، رائحة غير طيبة، ليست رائحة حنّة، رائحة عفن ورطوبة. رائحة مرض أيضاً. تشاءمت أم بربارة.

زوجة الصيّاد الدرزي سمعت سعلتها في الليل فقالت «الله يستر». وأوصت أهل البيت ألا يمروا أمام بابها. ليست المرة الأولى. من قبل ماتت في ذلك البيت مسلولة.

بربارة استغربت أن أمها صارت تزورها أقل من قبل. المفروض أن تزورها الآن أكثر. رأت فرحتها. رأت أمها ترقص عندما أخبرتها. رأتها كأنها ترقص. الأم التي نادراً ما ضحكت مذ مات زوجها في الزندان، رقصت أمام ابنتها. قالت كلاماً غير مفهوم ورقصت ثم جلست وصلّت. أخرجت مسبحتها من ثوبها وأغمضت عينيها قاعدة أمام بربارة وصلّت بصوتٍ مسموع. بربارة رأت دمعاً يكرج من عينيها. فما بالها قلّت زياراتها؟ وإذا أتت تأتي قليلاً ولا تبقى وتأكل! ولا تقبل أن تشرب فنجان قهوة.

عبد الفتاح الذي يتأخر رجوعه في بعض الليالي سمع المرأة تسعل وفكر أنها تختنق. اقترب من بابها فسمعها تخنق سعلتها. الهلال يضيء السماء. تحته بشبرٍ نجمة واحدة مشعة. بدا مرتجاً. الهلال يرتج. والنجمة تتحرك. كان شرب كأساً أو كأسين. مع أنه حلف، ومع أنه لم يقصد أن يحنث بالعهد، شرب قليلاً. قال في نفسه أشرب بلعة واحدة فقط، المهم ألا أسكر. شرب بلعة. وأكمل الكأس. وصاحبه سكب له كأساً ثانية. الليل ساكن. الوقت تقدم. ولا يُسمع غير نباح الكلاب. هذه كلاب سوق الدباغة، لا تنام ليلاً. من البعيد، من البراري، أجابها عواء الذئاب. البحر لا يُسمع هذه الليلة. الموج ساكن. والهواء ساكن. مرة أخرى سعلت المرأة داخل البيت: كان سعالاً فظيعاً، كأن الزلعوم يتمزق.

ماتت أم بربارة. كان أخضر البقدونس وأحمر البندورة يُلونان

أسواق البلد عندما ماتت. بربارة جلست بعد الدفن على الشرفة البحرية ويدها على بطنها. سليمة جاءت وفرشت على الأرض قربها وجلست تلاعب زهية. نظرت بربارة إلى البنتين وقالت «كانت تحب التبولة». سليمة ستظل تذكر من المرحومة هذه العادة: تكون منهمكة في الكلام وفجأة تسكت وتُخرج مسبحتها. تبتعد إلى مقعد جانبي وتبدأ صلاتها. مرات تقول كأنها تستأذن «جاء وقت الصلاة»، تبتعد إلى زاوية وتُخرج مسبحتها.

بكت المرأة الحامل أمها إلى أن قال لها الحاج أبو حسين: «كفاية يا بربارة». عمل برأسه حركة غريبة ناظراً إلى بطنها. رأت حاجبيه الكثيفين يتقوسان فمسحت دمعتها.

قال الحاج:

ـ الأم عزيزة، الأم عزيزة يا بربارة ولكن...

هزّت بربارة رأسها:

ـ معك حق، معك حق.

انتظرت حتى الأربعين. بعد أربعين يوماً على رحيل أمها عن عالمنا شهدت بربارة نوّار البارودي الشهادتين وصارت مسلمة.

في تلك الفترة تدفق الزجاج إلى بيروت. عبد الودود الحصّ اقترح على معلمه أن يدخلوا هذه التجارة وأن يستوردوا من وراء البحر زجاجاً لحساب الخان. الحاج عبد الرحيم تردد. رأى العبيد يحملون زجاجاً إلى مخازن السادات بيهُم. رأى عبداً يتعثر والزجاج يقع على الأرض ويتكسر إلى آلاف القطع. رأى دماً يقطر من أيدي العبيد وهم يرفعون كسور الزجاج. تردد لكن عبد الودود ألحّ. قال طيب، نُجرب، وعسانا لا نندم. جرب ولم يندم. خلال سنوات

قليلة بات الحاج البارودي أهم مستورد للزجاج في بيروت (مرايا وثريات وألواح نوافذ وأطباق وأباريق وزجاجات قناديل). خان التوتة عُرف منذئذٍ بخان القزاز.

ازدهر الخان لكن عبد الفتاح جلب له الهم والغمّ. عبد الغني إذا خرج من الحارة مساء يقصد القهوة على ساحة البرج ويقصد الأرجيلة والحكواتي. هذا إذا خرج: مرات كثيرة لا يخرج. عبد الغني لا يشغل البال. أما عبد الفتاح... قال له الشيخ رفاعة أن ابنه بات زبوناً عند «طوبيا بيّاع العرق». في البدء لم يصدق. ثم واجهه فقال نشرب بلعة من حين إلى حين، ليس أكثر. أسمعه كلاماً حازماً. لكن الولد صار كالبرج. ماذا يفعل معه؟ لا يستطيع أن يرفع يده عليه. يستحي أن يضرب برجاً! والكارثة أنه رآه بعينيه ماشياً إلى شرق الساحة عند المساء. الحاج عبد الرحيم أحسّ قلبه يصغر، يصير حبّة عدس. تأخر في الخان وأذّن المؤذن العشاء ولم يستطع أن يخرج. الحمولة ثمينة وعليه أن يكون حاضراً عند التفريغ. تأخر والشمس غابت والضفادع ارتفع صوتها والنجوم ملأت السماء. لم ينتبه كيف مرّ الوقت. عندما انتبه أسرع خارجاً من قنطرة الخان. كيف وقعت نظرته على عبد الفتاح وهو يطير كالطائر إلى البيت؟ لا يدري كيف رآه. مع أنه عادة يتجنب النظر إلى تلك الجهة ولا يحبّ العبور أمام سوّاقي العربات الذين يتجمعون هناك عند الغروب.

إذا هبّ الهواء من تلك الجهة لا يحمل رائحة التبغ والأراجيل والتنباك فقط. يحمل رائحة الحشيشة أيضاً. يحششون ويسكرون. وما يجنونه في النهار يصرفونه ليلاً في بيوت الدعارة. ومرات يشتبكون بالأيدي ويتضاربون. الجنود يتسلون بهم في آخر الليل. عبد الرحيم بلع ريقه ولم يصدق. ابنه عبد الفتاح يقصد بيوت

الدعارة؟ معقول؟ تذكر المرحوم شاهين. وتذكر المرحوم عمر. تذكرهما فزاد ضيقاً. أحسّ جلد رقبته يضيق على زلعومه. ولم يعرف ماذا يفعل. لو أخبره أحد ما كان يصدق. لكنه بعينيه رأى البرج الأخرق داخلاً السوق، يُطوح بذراعيه ويضحك مع السّواقين!

السمسار الحايك أتى من باب الدركاه وعزّى بالمرحومة أم بربارة ثم سأل عن البيت. كانوا طهروا البيت بحجر الكلس المذاب في الماء، ثم بالكبريت، ثم بالكلس مرة أخيرة. طهروا البيت وأقفلوه. سليم الحايك جار آل نوّار القديم جاء، وغيره جاء أيضاً: يسألون هل البيت للبيع، هل البيت للإيجار؟ المرحومة لم تبرد جثتها في مقبرة الناصرة بعد، وهم يسألون عن البيت.

حملوها إلى المقبرة في عربة يجرها بغل. ومشوا وراء العربة. هذه عادة استجدّت على البلد بعد زمن الكوليرا: استخدام العربة في نقل التابوت. الخواجات يستخدمون العربة. أهل البلد يحملون التابوت على الراحات، وعلى الكتف. حملوا أم بربارة بالعربة إلى مقبرة الناصرة. ابنا عبد الرحيم، عبد الفتاح وعبد الغني، رفعا التابوت من باب المقبرة إلى المثوى الأخير. كانت خفيفة في التابوت، تهتز في جوفه. النجّار نجّر التابوت لرجلٍ، والرجل لم يمت بعد، وأم بربارة حصلت على التابوت. دفنوها. قبل أن تبرد تحت التراب جاء السماسرة يسألون عن البيت الذي فرغ.

الحاج عبد الرحيم ردّهم خائبين:

ـ نفرح منكم، لكن عبد الغني كبر وعبد الفتاح كبر، آن الأوان والزواج نصف الدين.

أسراب البط البرّي عبرت ساعة القيلولة. عبرت منخفضة

فأيقظت بصيحاتها الخالة أم هند. غسلت وجهها في مياه الجرن. رفعت عينيها. رأت البطّات تختفي سابحة في سماء الغروب صوب مستنقعات برج حمود. مسحت يديها المبلولتين على ثوبها. بينما تقلب راحتيها ارتفعت صرخة بربارة من قلب البيت الكبير.

أم هند أرسلت أحد صبيان الحارة ـ هذا ابن الساعاتي ـ ليأتي بالداية. منذ أيام تنتظر هذه الساعة. حان الوقت. ركضت إلى بيت القرميد ودفعت الباب الموارب ودخلت بلا إذن. منذ لفظت بربارة الشهادتين صارت تقول في سرّها «هذه ابنتي الرابعة».

كانت ولادة صعبة. دامت من ساعة الغروب حتى الهزيع الأخير من الليل. الحاج عبد الرحيم جلس مع ولديه تحت شجرة الجوز، يشربون القهوة المرّة من فناجين الشفّة الخزف ويدخنون لفافات التبغ. رأى الحاج ابنه عبد الفتاح يشعل اللفافة من اللفافة ولم يقلْ شيئاً. ماذا يقول؟ عمّا قريب يجد له بنتاً و«البنت تضبُّه في البيت». من قال هذا؟ الشيخ عزّت؟ لعله الشيخ عزّت. ارتجفت أصابع عبد الرحيم. أتعبه هذا الانتظار. أتعبه النهار الطويل. وأتعبه القسّ بلس. جاء إلى الخان وجادله في الأسعار وأتعبه. ليس سهلاً هذا القس. الأميركان اشتروا أرض دندن على تلة رأس بيروت. اشتروا غير بعيد من المنارة الجديدة. ابن دندن باعهم التلّة المشرفة على البحر وعلى قرية عين المريسة. حفروا الأساسات. ومن قبل أن يشيدوا البناء أوصوا الحاج البارودي على الزجاج ومسكات الأبواب والشبابيك.

زكريا جاء مع القس. وموسى نقوزي الذي طال وشبّ وصار يتكلم كالخواجات جاء مع القس. باس كتف خاله عبد الرحيم وجلس على مقعدٍ قشٍ وطرح ساقاً على ساق. يلبس الزي الفرنجي.

وعلى رأسه طربوش. أسنانه متراصفة بيضاء تلمع كأنه فركها بالكلس. الحاج عبد الرحيم سمع أن المرسلين نقبوا الوعر وغرسوا سرواً. يغرسون الأشجار قبل أن يشيدوا البناء! وجلبوا من وراء البحر شجراً لا ينبت إلا في بلادهم.

الحاج الإسطمبولي أخبره أنهم يفاوضون المجلس البلدي لعل المجلس يشق طريق عجلة من «ساحة عالسور» إلى الكلية التي يبنونها في البرّية بين الواوية. الوالي قال لهم ابنوا هنا في القنطاري جنب القشلاق. لم يقبلوا إلا أن يبنوا في آخر الأرض. «الأميركان بلا عقل»، قال الحاج محي الدين الفاخوري الاسطمبولي ودخن أرجيلته.

خرجت الخالة أم هند أكثر من مرة تمسح عرقاً عن وجهها. خرجت الداية مرة أيضاً. المرأة التي أتت مع الداية ظهرت لحظة ورمت طنجرة ماء جنب البيت. ارتفع البخار من التراب والمرأة اختفت داخل البيت. بعد ذلك لم تظهر.

الحاج عبد الرحيم صلّى أن يحفظ الله بربارة. تقدم الليل فلم يعد يقول «يا ربّ ليكنْ ذكراً». نظر إلى ولديه قاعدين أمام عينيه وقال «امنح عبدك ما شئت يا ربّ. لكن احفظْ بربارة». كان يهمس الكلمات همساً، وشفتاه تتحركان. عبد الغني الذي ينعس على مقعد الخيزران ظنّ أنه يكلمه ففتح عينيه وسأله ماذا يطلب؟

ـ أطلب السلامة، قال الحاج عبد الرحيم. وقام يسير على «الطريق البيضاء» جامعاً يديه وراء ظهره، وأصابعه تقبض على المسبحة العاج.

سار على «طريق عبد الجواد» ذهاباً وإياباً. يصلي. يتلو في سرّه ما تيسر من آيات كريمة. بينما يتلو الآيات شعر أنه يترقى، شعر أنه

يرتفع عن الأرض. القهوة ملأت جسمه تحفزاً. مع هذا انتبه إلى تعبٍ شديدٍ في أعضائه. قام قبيل الفجر. وها هو الفجر يقترب. وفي النهار تعب. والآن بربارة تلد. رأى عبد الفتاح يسند ظهره إلى جذع الجوزة وينام. سبحان الخالق. كم مرة رأى أخاه قاعداً هكذا في نصف الليل؟ يا رحمن يا رحيم. استدار ومشى صوب الجميزة. خفقت الوطاويط تحت التوتة ثم ابتعدت. المدينة نامت. موج البحر يُسمع إلى هنا. في النهار لا يُسمع الموج إلى هنا. ولعله يُسمع. منذ زمنٍ بعيد يقضي النهار خارج الحارة. ولا يرجع إلا مع صلاة العشاء. بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. استدار عند الجميزة سامعاً نقيق الضفادع. أين شجرة الخروب؟ متى يبست هذه الخروبة؟ تناهى إليه شخير من بيت الأحباش. نعق بومٌ في أعماق الليل. خشخشت أوراق يابسة إلى جهة سوق القطن. إياك نعبد وإياك نستعين. أصابعه تعدّ حبّات المسبحة. رأسه ينام وهو يسير. لكن جسمه متحفز. شرب قهوة تكفيه كي يسهر ليلتين، أكثر من ليلتين. بلغ التوتة ومرة أخرى خفقت الخفافيش أمام وجهه ثم تطايرت مبتعدة. اهدنا الصراط المستقيم. أحسّ طيفاً من ضوء النجوم يسير عن يمينه. عطر كأنه المسك. لم يتذكر المرة الأولى التي رأى فيها ابنة جرجس نوّار على درج الدركاه. رائحة المسك غمرته ثم تبدّدت. رأى رأس عبد الفتاح يميل على كتفه فيفتح عينيه لحظة ثم يُحرك رأسه وينام من جديد. رأى الجبهة العريضة والأنف الحاد فتذكر حسين وتذكر شاهين. صراط الذين أنعمت عليهم. استدار وفكر وهو يستدير أن النجوم لا تُعدّ في سماء هذه الليلة. السماء مشكوكة بالنجوم شكاً! سبحان الخالق. أنوار تخفق في السماء. مرة أخرى أحسّ الطيف

يسير عن يمينه. كان شفافاً لا يُرى، له لون الحليب، له لون الشرانق البلدية، أبيض اللون يضرب إلى صفرة. رأى الطيف بطرف عينه وصلى أن يبقى قربه. كان يسير كأنه في منام. تغمض عيناه فيفتحهما من جديد. مشى من تحت التوتة إلى تحت الجميزة مغمض العينين ولم ينتبه إلا عندما تعثر بحطبات تركها أحد الأولاد في الطريق. نظر إلى الحطبات وتذكر العيدان اليابسة في منام بربارة. أشهد أن لا إله إلا الله. قالت له إن البنت الصغيرة نظرت إليها بعينيّ زهية. رأت المنام في ليلة ثانية وهذه المرة تأكدت: البنت هي زهية. وكانت تدبّ. ثم رأت الطفل النائم على الفرشة. وأشهد أن محمداً رسول الله. يا ربّ يا كريم. روت المنام لأم هند. وأم هند قالت عسى خيراً عسى خيراً. خفقت الوطاويط أمام عينيه ثم تلاشت. النور يتلامع في شبابيك البيت لكن أحداً لا يخرج من البوابة. بطرف عينه رأى الطيف يسير جنبه. عرف أنها عائشة. كان نصف نائم وقال «هذه أم حسين».

صلّى عبد الرحيم البارودي أن يحفظ الله بربارة. رُزق ـ بينما المؤذن يؤذن الفجر ـ بنتاً سادسة. سمّاها مريم. بربارة نزفت. لكنها نجت. هل أنقذتها «النقولات» وملعقة العسل والسُّمنة الزائدة؟ نجت المرأة وحملت الطفلة وأرضعتها. والحاج البارودي شكر ربّه ولم يزعل أنها أنثى وليست ذكراً. شكر ربّه وغمر الداية بالقروش والهدايا.

عبد الفتاح ضحك وهو يحمل الطفلة عالياً فوق رأسه ويقول كأنها زهية، هذه زهية.

زهية التي جاوزت الخامسة سمعته يُسمي أختها الجديدة باسمها، فلم تفهم كيف تكون هي زهية والطفلة ـ التي خرجت من

بطن «أمي بربارة» أخيراً ـ زهية أيضاً. طلبت من سليمة أن تعطيها الطفلة كي تحملها وتتكلم معها. سليمة شرحت لها أن الطفلة ما زالت صغيرة، ولا تحكي.

عبد الغني حمل الطفلة لئلا تزعل زوجة أبيه. ثم ردّها إلى السلّة.

سعدية الحصّ البارودي تذكرت بعد أيام، وهي تخفق بيضاً وتصنع حلوى، المنام الذي رأته أم مريم (هكذا صارت تنادي بربارة) قبل الولادة. تذكرته وتذكرت منامها عن الغربان والحمائم والرجل الذي يرشّ حبّاً تحت قناطر الجامع العمري. تذكرت المنامين وخلصت إلى تفسيرٍ بسيط: في المرة الأولى ستعطى بربارة طفلة أنثى، وفي المرة الثانية يجيء الطفل الذكر. لم تستوعب ما علاقة منامها بمنام بربارة. لكنها شعرت أن تفسير الرؤيا قد أُعطي لها. لم تقل شيئاً لأم مريم. ونسيت بتعاقب الأيام والليالي الرؤيا وتفسيرها. ولم تتذكرها مرة أخرى إلا بعد سنوات. وعندما تذكرتها بدت خيالاً.

جاءت حوراء وجاءت صفية وجاءت زاهرة. العائلة كلها اجتمعت داخل سور الحارة. جاء يوسف منيمنة مع زوجته وابنه، وخلفه صبيّ يجرّ حماراً محملاً بأكياس الرزّ والسكر وأصناف النقولات. طبخوا المغلي ففاحت رائحة القرفة وجوزة الطيب وماجت بين الأشجار والبيوت. سكبوا المغلي في قصعات فخار بتلاوين وزخارف. وزينوا المغلي بجوز الهند الأبيض المبروش وبالجوز المقشور واللوز المنقوع والصنوبر الأبيض والفستق الحلبي. وزعوا المغلي على بيوت الحارة. عملوا مهلبية. وعملوا ـ من أجل بربارة ـ الرزّ بحليب. وزعوا الشربات ورفعوا زغاريد. الحاج عبد الرحيم

البارودي احتفل بولادة ابنته السادسة وبسلامة قلب بربارة كما احتفل بولادة الكبيرة صفية قبل أكثر من ربع قرن. أزواج صفية وزاهرة وحوراء جلسوا على الكراسي تحت شجرة الجوز. رأوا الناس داخلين خارجين يحملون قصعات الحلوى وأكواب الشراب. تبادلوا النظرات الضاحكة. الأولاد تراكضوا بين الأقدام يقضمون ما غنموه من جوز وفستق ولوز وصنوبر وفاكهة جافة. سليمة ابنة الـ 11 سنة حملت طبقاً فيه القضامة والزبيب والتمر ودارت على الموجودين. لم تكبر سليمة بعد. غمرتها بربارة بالعاطفة فظلّت صغيرة.

الحارة تستقبل والخان يستقبل. كثر يقصدون الحاج البارودي في خانه. بولس عيساوي المقيم في بيروت منذ عشر سنوات جاء إلى الخان مع إخوته الثلاثة . بولس عيساوي ما زال ينطق باللهجة الشامية. الأخ الأصغر يتكلم كالبيارتة البيارتة. تسمعه يتكلم فلا يخطر في بالك لحظة أن هذا الرجل وُلد في دمشق وعاش في دمشق وتزوج في دمشق ورُزق ذرية في دمشق قبل مذبحة الستين. غيّر لهجته ساكناً على ساحة البرج. إخوته تغيرت لهجتهم قليلاً لكنها ما زالت شامية. إلا بولس عيساوي لم تتبدل لهجته ولا نطقه لمخارج الحروف. ما زال يحكي كأنه أمس نزل في بيروت، جاء في تجارة ونزل في هذا الخان، وغداً ـ مع شروق الشمس ـ يرجع إلى بلده. رغم أنه أول من وفد بينهم إلى بيروت. جاء إلى خان البارودي مع إخوته وهنأ الحاج وقال الكريم يكرمه ربنا وإن شاء الله تفرحون بها وبأولادها. قال هذه الكلمات بنبرة حلوة صادقة. مع أنهم في عائلتهم يُرضعون البنت من حليب أمها سنة واحدة. أما الصبي فيرضع سنتين. على أساس أن الصبي للعائلة والبيت، أما البنت فسرعان ما تخرج إلى بيت زوجها.

الحاج البارودي يستقبل التهاني في الطريق، قاطعاً الأسواق، داخلاً الجامع العمري، خارجاً من الصلاة، عابراً تحت القناطر. يستوقفونه ويسلمون عليه ويبوسون كتفه. وهو يقول شرفونا في الحارة وكلوا كاسة مغلي. ذبح ذبيحة. عملوا الشواء بين الجوزة والتوتة. عبد الفتاح أشعل ناراً تشوي جملاً. شوى الخروف على السفود وهو يدخن تبغه مُخرجاً من رأسه الدخان كالمشحرة. عبد الغني قال له «صرت بابوراً يا أخي، على مهلك».

عبد الفتاح امتلأ طاقة. هذا الفوران في جسمه لا يهدأ. لولا طوبيا والسوق العمومي لا يدري ماذا يصنع. ابن كسّاب جلب ديكة أطعمها شحماً وأفلتها في البورة المسيجة وراء حانوت طوبيا. قامروا على الديكة. القمار حرام. لكنهم قامروا. وعبد الفتاح رأى ديكه يربح. أدمى أعراف الديوك جميعها. ونتف ريشها. كان يقفز وينقر ويصيح. ولا يتراجع إلا ليطير وينفض ويُدمي. وحده عبد الفتاح قامر على هذا الديك. الآخرون نظروا إلى الديك فقالوا لا ينفع، رقبته قصيرة ولا يرفع رأسه. نظروا إلى الديكة المتباهية وظنّوا أنها تربح. ديكه القصير الرقبة أدمى رقابها. تضاءلت وتداخلت. امتلأت جيوبه بالقروش فأفرغ جيوبه على طاولة طوبيا وقال «وزع». لم يبقَ في الحانوت رجلٌ إلا وسكر على حسابه. خرجوا والشمس غطست تحت الماء وقطعوا الأرصفة إلى باب الدباغة. مروا عند حائط المقابر المقفلة يخبطون في الظلام وضحكاتهم تؤرق نوم أحياء وموتى. ارتفع ضجيج السوق عندما دخلوه. عبد الفتاح الذي يقود القافلة نظر إلى العاهرات تحت القناديل المضاءة وقال «الدجاج على حسابي الليلة».

أخذه حافظ إلى ربابنة السفن. ربّان من عائلة بلطجي يُبحر

بسفينة شراعية إلى مرافئ بعيدة قال له: «واحد بجسمك ينفع على السفينة». الربابنة لا يسكرون في حانوت طوبيا. عندهم مكان آخر. لا يختلطون بالبحارة والعوام والحمّالين. حافظ قال البحر مراتب وعليك يا عبد الفتاح أن تتعلمها. عبد الفتاح نظر إلى صاحبه وفكر أن يرفعه مرة أخرى ويرميه في البحر. بين حينٍ وآخر يمل منه. ثرثار هذا الحافظ. وقبل أيام تهجّم على عبد الفتاح وقال جسم عملاق ومخ ولد، ما زلت تتكلم مثل الصبيان وتقول أشياء لا يقولها رجل. عبد الفتاح مدّ يداً كالمطرقة ولقطه من وتر كتفه. زعق الحمّال حتى بلغ زعيقه القشلة على الهضبة.

كان التوت يورق عندما تدافع مع أحد البحارة أمام خان أنطون بك فتحول التدافع إلى عراك. البّحار غريب، ليس من البلد، سحنته قبرصية. تضاربا، والبّحار العصبي الجسم صدّ ضربات عبد الفتاح وردّها. التقط محور عربة وهجم. ضربة واحدة بهذا الجسر تصرع بغلاً. فرّ عبد الفتاح من قدامه والقبرصي طارده. دار عبد الفتاح حول بالات بضاعة محزومة والقبرصي يلاحقه. دارا دورة ثانية والناس تجمعوا يضحكون على المنظر. لكن القبرصي لم يضحك. كان الدم يسيل من فمه، وبدا وجهه أزرق من الغضب. عبد الفتاح دار الدورة الثالثة كالنمر وصار وراء القبرصي وخبطه على ظهره. اندفع القبرصي إلى الأمام فاقداً توازنه وارتطم بالحائط فانفتح رأسه. انفجر الدم والناس زعقوا. بلغت الزعقة العسكر فجاؤوا راكضين، وبواريدهم تقرقع. عبد الفتاح تلفت حوله وأدرك ماذا حدث. القبرصي تهاوى على جنبه وغطس في بركة ماء. هجمت موجة وانكسرت على الرصيف الحجري وفارت حتى الأقدام. عرف عبد

الفتاح أنه سيؤخذ إلى الزندان. رأى الجنود يركضون إليه. ورأى أهل المرفأ الذين يعرفهم وجهاً وجهاً يزيحون من الطريق. ابتعدوا فصار وحده. والجنود كبرت وجوههم كأنها تضحك له. رأى الأسنان الصفراء وعرف أنها كارثة. رآهم من قبل ينقضّون على لصٍّ ويلطمونه ويرفسونه وهم يتضاحكون. ضربوه بأعقاب البواريد. رفعوه ثم رموه على الأرض. لص صغير الحجم، ظلّوا يضربونه ويركلونه من المرفأ إلى الزندان. لم يصل الزندان إلا محمولاً. وبعد ساعة خرج محمولاً أيضاً... إلى السنطية.

عبد الفتاح البارودي رأى الجنود على بعد خطوتين فاستدار وركض على طول الرصيف أمام خان أنطون بك. أحد الجنود صاح به: «لا تتعبنا وتتعب نفسك». كان يصيح لكن صوته بدا حزيناً، متعباً. كأنه فعلاً لا يريد عبد الفتاح أن يتعب. لكن عبد الفتاح لم يتوقف. ركض وسمع جندياً يضحك وراء ظهره ويقول «آخر الرصيف البحر، وبعدها؟». سمع صوتاً غليظ النبرة يشتمه. انهالت الشتائم عليه، ظلّ يسمع اللهاث والشتائم، وظلّ يركض. شتموه. ولم يلتفت. ولم يضرب أحداً. ركض كما كان يركض في جلول وادي أبو جميل وهو صغير وطار في الهواء والبواريد تفرقع وغاص في أعماق البحر.

الخبر سقط كالصاعقة على عبد الرحيم. الله سبحانه ستر ولم يمتْ القبرصي. سال دمه وغاب عن الوعي. لكن الله ستر. الحاج أبو حسين دفع «إرش الجريح» (قرش الجريح)، دفع للقبرصي التعويض، وخرج إلى الهواء ملطوماً على وجهه. غاص عبد الفتاح في الماء ولم يخرج. أين اختفى؟ مرّت الأيام والتوت تغطى بالورق ثم تعرى وعبد الفتاح لم يرجع. لو أن العثمليات الذهب تردّ الولد.

دفع الليرات للقبرصي، وزاد عليها. القبرصي لم يفهم لماذا يدفع الرجل زيادة. زاد عليها وخرج إلى الهواء ملطوماً على وجهه. أين ذهبت يا ابني وأنا وجدت لك البنت والبيت أفرشه من أجلك؟ أين ذهبت؟ سار عبد الرحيم البارودي في طرقات سلكها ألف مرة في حياته، فأضاع الدرب مرة تلو مرة تلو مرة. كان ذاهباً إلى البيت، إلى بربارة. ظلَّ يضل الدرب. يعرف هذه الزوايا كما يعرف الشامات على ظهر يده. ومع هذا عبرت دهورٌ قبل أن تظهر طريق الكلس. ودهورٌ قبل أن يقطع الطريق إلى بربارة. البخار خرج من الحجر الأبيض، اقتحم عينيه. ثقلت العباءة على كتفيه. عندما بلغَ باب البيت استند بيده إلى الحائط. أراد أن يلقط أنفاسه.

بربارة سقته. ذوّبت سكراً في كوب ماء وقطرت في الكوب ماء زهر وقالت «اشربْ يا حج اشربْ». حامت حوله وهو قاعد في كرسي الخيزران وأعطته منديلها المطرز وقالت «امسحْ عرقك يا حج امسحْ عرقك». مسح عرقه وقبض المنديل بين أصابعه وقال شيئاً. لم تسمعه. كانت الصغيرة تبكي فلم تسمعه. دنت وقالت ماذا يا حج، لم أسمع، ماذا قلت؟ عبد الرحيم رفع وجهاً مختضاً وقال «انقطع ظهري يا بربارة».

رمى عبد الفتاح البارودي نفسه في البحر وانطلق كالفقمة مبتعداً عن خان أنطون بك. رئتاه كبيرتان. أخذ نفساً عميقاً وهو طائر فوق الماء. غاص وابتعد تحت البحر ولم يظهر على برّ بيروت من جديد إلا بعد سبعة أعوام.

قبل خمسة أعوام من رجوعه إلى بيروت أرسل خبراً إلى أبيه مع نوتية من عكا أنه حيّ يُرزق وأنه لم يرجع إلى البلد لئلا يُشنق بجريرة القبرصي الذي صرعه خطأً. الحاج عبد الرحيم أرسل خبراً إلى ابنه

الذي يدور في الأرض معتقداً أن دم القبرصي في رقبته، أرسل إليه يُعلمه أن القبرصي عاش وأن التعويض دُفع وأن المسألة انتهت وليس عليه إلا الرجوع. لم يصل الخبر. النوتية بلغوا عكا فلم يعثروا على العملاق الطريد. بعد فترة أرسل خبراً إلى أبيه مع نوتية من حيفا ويافا أنه حيّ يُرزق وأنه لا يرجع إلى البلد لئلا يُشنق بجريرة القبرصي الملعون. الحاج عبد الرحيم أرسل خبراً إلى ابنه الذي يدور في الأرض معتقداً أن دم القبرصي في رقبته، أرسل إليه يُعلمه أن القبرصي عاش وأن التعويض دُفع وأن المسألة انتهت وليس عليه إلا الرجوع. لم يصل الخبر. النوتية بلغوا بلادهم فلم يعثروا على العملاق الطريد. بعد فترة أرسل خبراً إلى أبيه مع نوتية مصريين أنه حيّ يُرزق وأنه لا يرجع إلى بيروت لئلا يُشنق بجريرة القبرصي البائس الحظ. الحاج عبد الرحيم أرسل خبراً أن القبرصي لم يمت، لم يمت، لم يمت. لكن الخبر لن يصل هذه المرة أيضاً إلى العملاق البائس الحظ عبد الفتاح بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي.

سنتان كاملتان وأهله لا يعرفون هل هلك في البحر أم نجا. عندما أتى الخبر أنه حيّ يُرزق مع نوتية عكا أثناء السنة الثالثة كان عبد الغني ينتظره. أمه عائشة جاءت في الليل وقالت له: «عبد الفتاح يُسلم عليك ويقول لك البيت جنب البركة بيتك وعندما يرجع يبني بيتاً».

كتب عبد الغني البارودي كتابه على أمينة أياس ابنة تاجر الجلود عبد الرحمن أياس، وأنزلها في البيت المطروش جنب البركة. عبد الغني قال لزوجته: «هذا بيت جدي، جدي عبد الجواد بناه بيدٍ واحدة منذ خمسين سنة، وطوال هذا الوقت لم يدلف سقفه مرة واحدة. أبي

وُلد هنا، المرحوم عمي شاهين وُلد هنا، والمرحوم عمي عمر وُلد هنا». كانت جديدة على الحارة ولم يقل لها «ستّي أم شاهين ماتت هنا مسلولة قبل ولادتي» ولم يقل لها «المرحوم حسين أخي الكبير عاش هنا قبل أن تقتله الكوليرا» ولم يقل لها «قبل ولادة مريم ـ أختي من أبي ـ ماتت هنا بالسلّ أم بربارة». لم يكشف أمامها تاريخ البيت عند الجميزة كاملاً مع أنه مولع بالتاريخ والأخبار الغريبة. دلّها إلى دوّار الشمس، دلّها إلى أقراص البزور تتحلق حولها البتلات الصفراء الناعمة وأخبرها أن جدته أم أبيه زرعت هذه البزور هنا عندما تزوجت، ومنذ ذلك الوقت تنبت الشتلات وحدها كل صيف. أمينة أياس نظرت إلى الزهور الصفراء العملاقة فلم تحبّها. لم تلبث أن أقنعت عبد الغني بقطع أعناق الشتلات النابتة عند الباب وعند النافذة. في سنوات آتية ستذبل هذه الشتلات وتيبس. وستقول الست أمينة أياس البارودي إنها ذبلت وماتت وحدها.

الحاج عبد الرحيم البارودي ذبل أمام عينيّ بربارة. غياب عبد الفتاح قطع ظهره. السنة الأولى مرّت عليه كحجر الطحن. السنة الثانية زرعت ثلاث تجاعيد في جبهته العريضة. صار يسند ظهره بيده وهو يقوم من الفراش. وأثناء الصلاة تدمع عينه. عندما يقعد جنب المحراب في الجامع العمري الكبير ناظراً إلى نقوش السجادة يرى موجاً يعلو ويهبط فترتفع يداه وتستقران على صدره. يمسك بقلبه ويمكث هكذا بينما الشمس تغرب وخادم الجامع يظهر مع شعلته ويضيء القناديل حصيراً بعد حصيرٍ بعد حصير.

لا السنة الأولى أذبلت عبد الغني ولا السنة الثانية. حَزِن عبد الغني لغياب أخيه ثم غلبته الحيرة. الحيرة أخذت عنه الحزن: «أين عبد الفتاح؟»

موسى نقوزي ـ الذي صار يُسمى موسى سلوم ـ جاء من طلعة الأميركان إلى مخزن البازركان يُسلّم على عبد الغني في ذلك الربيع ويسأل هل الحاج مريض؟ قال إنه مرّ على خان التوتة أكثر من مرة ولم يجد الحاج. عبد الغني سحب مقعداً وأجلس ابن عمته زهرة وأرسل مونس الكوشي إلى قهوة النوفرة ليأتي بالمطلوب. رحَّب بالشاب الذي أنشأه المرسلون وقال «اقعدْ يا ابن عمتي اقعدْ، الله يساعد «حج بو حسين»، إذا أردته اذهبْ إلى العمري لا تذهبْ إلى الخان».

قفز عبد الفتاح إلى البحر في بداية موسم القزّ. الحاج أبو حسين أقفل دكان التبغ في باب إدريس وصار يقضي نهاره بين الخان والجامع والغرفة العالية فوق البيت بالقنطرة الحجر. بربارة نوّار البارودي تضع له مقعداً على المصطبة عند سقالات القزّ. ينظر إليها حاملاً الطفلة الرضيعة بينما ورق التوت يُفرم ويُلقى في الأطباق. سليمة تعلمت أن تغلي ركوة القهوة في البيت ثم تحملها إلى هنا مع صينية نحاس عليها فناجين. زهية تساعد في القزّ أيضاً. تهزّ الأطباق إذا نامت الديدان في حرّ الظهيرة، تهزّ الأطباق وتنفخ عليها من أنفاسها الحلوة فتقوم الديدان متململة وتعود إلى قضم الورق الطري. مهم أن تأكل طوال الوقت. هكذا تلف شرانقها سريعاً، قبل هجمة الحرّ.

أم هند قالت لبربارة أن زوجة الساعاتي زيدان تُربي قزّاً أيضاً في علية البيت. لكن القزّ عندها نوعه غريب: يقضم فروع التوت حتى بلا فرم. والمرأة قالت إنه يأكل أقل من دودنا ويلف شرنقته في ثلاثين يوماً. بربارة نظرت إلى الخالة تضع مقطف التوت على المصطبة ـ وهي تلهث وتحكي وتمسح بمنديلها عرق وجهها ـ

ونظرت إلى زوجها. الحاج أبو حسين بدا في عالمٍ آخر: لا يسمع كلام أم هند ولا كلام غيرها. لا يفتح أذنيه إلا إذا جاء إلى الحارة رجلٌ يفوح برائحة البحر. عندئذٍ يفتح عينيه ويفتح أذنيه وينظر ويصغي ويسأل. عبد الغني قال لها إن الحاج ينزل كل ظهيرة إلى يوسف منيمنة ويقعد على مصطبة المطعم وكلّما دخل بحّار يسأله هل تعرف عبد الفتاح البارودي؟ بربارة سمعت عبد الغني يحكي ووضعت يدها على فمها.

لولا عبد الودود الحصّ وأمانته كان الخان خرب في تلك الفترة. الشيخ عزّت بيضون انتقل إلى دكان التبغ المواجه لحارة اليهود لئلا يُقفل «حج بو حسين» هذا الدكان أيضاً. قال لعبد الودود «الله يوجه لك الخير، أنا تعبت وشغل الدكان أسهل عليّ». وعبد الودود قال للحاج عبد الرحيم إن الشيخ يودّ القعود في دكان التبغ القديم. والحاج قال «الشيخ يقعد حيث يريد، وإذا شاء يقعد في بيته والليرات تصل إلى بيته، أنا أبقيه في الخان من أجل البركة، هذا الرِجل يا عبد الودود لم يطلب مني مرة شيئاً، يُعطي ولا يأخذ، الله يعطيه الصحة، مكانه الجنّة». عبد الودود سمع كلام معلمه وحزِن عليه: صوته تغير وحركته تغيرت وحديثه تغير. يبدو قانطاً طوال الوقت. والضوء خفت في عينيه. يسير محني الظهر كأنه يحمل كيس طحين لا يراه أحد. الناس قالوا له إنهم مرّات يُسلمون عليه في الأسواق فلا يراهم. صهره سلمان قدورة رآه في سوق الصرامي فنادى عليه والحاج لم يسمعه. رمى قدورة الكندرجي الشغل من بين يديه وركض بين الأساكفة ولفات الجلد من حيث يقعد إلى سوق العطارين إلى البازركان ينادي على الحاج في الزحمة والحاج لا يسمع ولا يلتفت.

قُطفت الشرانق وأخذت إلى كرخانات الحلّ. رائحة الدود الذي يُقتل في خلاقين الماء المغلي فاحت وصنعت غيمة رمادية فوق بيروت. زهية سألت أختها سليمة ما هذه الرائحة؟ كلّما هبّ الهواء الجنوبي تأتي الرائحة من كرخانات الحوت وجبيلي وطراد ودبّانة، والحلوة زهية تقطب حاجبيها وترسم تكشيرة. أنفها حسّاس هذه الزهية. سليمة تضحك عندما تعبس. وتطاردها وتدغدغها. ظهرت أنوال الحرير على المصاطب والسطوح. زوجة الساعاتي جلبت مغزلاً على ظهر الحمار. وضعت المغزل عند شجرة التين وراء بيت تامر الذي صار بيت خويري. علقت وزالاً بين أغصان التينة فلا تضربها الشمس ثم جلست إلى مغزلها. كلّما تعبت تنادي على أحد الأولاد ليأتي لها بإبريق الماء. تشرب الإبريق ثم تردّه للولد. أم هند رأتها تشرب وعجبت كيف يتسع جسمها لكل هذا الماء وكيف لا تركض كل لحظة ـ ملآنة البطن ماء ـ إلى وراء البيت.

اكتشفت سعدية الحصّ خلال رضاعة الصغيرة مريم أن الزمن تغير. كانت تنظر إلى بربارة برقبتها البيضاء المبرومة وكتفيها البيضاوين المبرومين تتدثر بالملاءة البيضاء وتلقم الطفلة ثديها فتعجز عن تذكر المدة التي أرضعت خلالها هند وفاطمة وورد. انتبهت أم هند أن ذاكرتها امتلأت بالفجوات. وقالت في نفسها إن السبب لا يكمن فيها بل في طبيعة العالم. منذ هاجت الكوليرا تغيّر العالم. تذكرت الرجوع من البرية، تذكرت الدخول إلى المدينة المملوءة بالقطط والكلاب، وقررت أن طبيعة العالم تغيرت في ذلك الوقت. لكنها بعد أيام قليلة، وبينما تجمع الخبيزة من وراء البيت، رأت غسيلاً ملوناً معلقاً على حائط الحارة فتذكرت سنة الستين والأولاد

المهجرين وفكرت أن طبيعة العالم تغيرت قبل الكوليرا بسنوات.

كانت الذكريات تختلط عليها وهي تنقي باقة البقدونس من الفروع الذابلة المصفرة قاعدة جنب جرن المياه، فلا تعرف متى رجع عمر البارودي من حرب القُرم وتخلط بينه وبين حسين الذي عاد من زندان دمشق وهو يجرّ ساقه. ذهبت في العيد محملة بالكعك والمعمول وزارت فاطمة وورد وقعدت عندهما سحابة الصباح ثم غادرت حارة الداعوق وهي لا تدري لماذا جاءت أصلاً. انحدرت في طرقات غريبة مزدحمة بالناس والحمير والبضائع. رأت أناساً يحملون الشماسي مع أنها لا تمطر. تجنبت أن تدخل الشماسي في عينيها ووجهها. كانت الشمس قاسية على رأسها وانتبهت أن رقبتها ابتلت بالعرق. مع هذا لم ترجع إلى البيت. حصّة الكعك التي تخص هند في يدها، واليد الأخرى تلقط الملاءة السوداء. رأت أولاداً يلبسون ثياباً جديدة ويحملون أقراص المعمول بالتمر المستديرة يركضون تحت قناطر الجامع العمري. تمهلت لحظة لئلا يرتطموا بها وبينما تتمهل انتبهت إلى بقع على البلاطات وفكرت أن هذه البقع تشبه البقع على حيطان بيتها. لا تدري كيف جاءت هذه الخاطرة الغريبة وتملكتها. ذهبت وزارت هند ورأت وجه الكندرجي قدورة البشوش ولاعبت الصغار قليلاً ثم قفلت عائدة إلى الحارة. عند المساء، بينما تفرش وتُعد لنومها، لم تتذكر لا بناتها ولا الصغار ولا طرقات العيد المكتظة بالوجوه الضاحكة والأصوات العالية. لم تتذكر إلا تلك البقع تحت قناطر الجامع العمري.

استغربت هذا كلّه وصارت تردد ما تحفظه من آيات كريمة وهي تحاول أن تنام. لكنها عجزت عن النوم. التفّت ببطانية وخرجت ووقفت عند جرن الماء. كان السكون يغمر الحارة ويغمر العالم.

رأت الهلال مطفأً في سماء غائمة. سمعت نعيق الضفادع. هبّ هواء خفيف فخشخش الشجر ونعق بوم في الجوزة. عبد الفتاح ليس هنا حتى يهزّ الشجرة ويُسقط عش البوم ويلقط البيوض المكسرة ويشرب صفارها. أم هند تخيلت المارد الأسود العينين يهزّ الشجرة في هذه الليلة الغائمة وفكرت أن البحر لا يبلع أجسام البشر وتساءلت أين ذهب.

تقدمت صوب طريق الكلس محاذرة أن تصدر صوتاً. هذا الحذر فيها لا تعرف سببه، رأت هند تتحرك في بيتها كأن البيت ليس لزوجها، كأن البيت لها، وعجبت كيف تتحرك ابنتها هكذا. سحلاة لم تخلد إلى النوم عبرت على طريق الكلس ثم اختفت بين الأعشاب. نظرت أم هند إلى السحلاة السريعة وسألت نفسها أين ينام عبد الفتاح الآن، وإذا كان مستيقظاً ماذا يفعل؟ لا تحبّ هذا الأرق. تحبّ أن تنام إذا نام الناس. لكن ماذا تفعل؟ تمشت على طريق الكلس ذهاباً إياباً لعلها تتعب وتنعس. رأت سحلاة أخرى جامدة على صخرة جنب الطريق كأنها تتشمس تحت الهلال المطفأ. رأتها في النور الخفيف وتساءلت من أين يأتي هذا النور إلى فضاء الليل والسماء غائمة ولا نجوم تظهر. رفعت وجهها وتأملت الهلال الشاحب حتى أوجعتها رقبتها. مرّت تحت أغصان التوتة شبه العارية فتذكرت ضرّتها النابلسية وتذكرت الجارية الشركسية التي ماتت حيث يربون منذ ذلك الزمن البعيد قزّاً. حاولت أن تتذكر عائلة نزلت على هذا السطح زمناً: حاولت أن تتذكر الوجوه فعجزت لكنها ظلّت تتذكر امرأة في فستان أحمر عليه ورق أخضر، امرأة لا تعرف اسمها ولا تعرف هل كانت تعرف اسمها (لا بد أنها كانت تعرف الاسم، لكن عبرت السنوات وضاع الاسم من رأسها، كثرٌ مرّوا في هذه

الحارة وخرجوا، لا احد يقدر ان يتذكر الأسماء كلّها) نسيت وجه المرأة ونسيت من تكون لكنها تذكرت الثوب الأحمر المشجر وتذكرت طرحة خضراء بغوايش ذهب تزقزق وهي تنزل على الدرج. تذكرت سلّة قصب أيضاً معلقة في يدها. من هي، أين ذهبت، وماذا حدث لها؟

الذكريات تتمازج في رأسها. وقبل أيام كانت تتذكر المرحوم زوجها وقعوده تحت شجرة الجميز يشرب زهورات مع أولاده عصراً فانتبهت أنها لم تعد تتذكر وجهه! فزعت وشعرت أن قلبها كفّ عن النبض في صدرها. تذكرت يده الكبيرة الأصابع والفنجان الذي يختفي في بطن يده ولم تتذكر وجهه! فزعت ولم تعرف ماذا تفعل. شعرت أن ربّنا لن يسامحها على هذا النسيان الفظيع. وظلّت تفكر في هذا وتجرب أن تتذكر وجه عبد الجواد حتى نامت. في المنام رأت امرأة تلبس منديلاً أبيض وتحمل طنجرة عليها غطاء. وقفت المرأة في بابها وقالت «هذا لكِ». أم هند أخذت الطنجرة ورفعت الغطاء فرأت يخنة خضر بردت فصار وجهها سميكاً. رأت بقعة السمن الجامد طافية على وجه الطبخة ولم تعرف لماذا أعطتها المرأة الطنجرة. استدارت فرأت المرأة تركض هاربة على طريق الكلس. خافت ورمت الطنجرة خارج البيت. قامت مذعورة وهي تشعر بجسمٍ باردٍ على بطنها. خبطت بطنها بيدها وقفزت وهربت إلى خارجِ البيت. ابتعدت عن الباب وتفحصت جسمها. ماذا لمسها وهي نائمة؟ كانت مذعورة وقلبها ينبض نبضاً سريعاً والدم يضج في شريان رقبتها ويهدر في فتحتي أذنيها كالصدى في صَدَف البحر. كانت خائفة كما لم تخفْ منذ زمن بعيد وفي تلك اللحظة تذكرت وجه المرحوم: عاد إليها واضحاً كأنها رأته هذا الصباح. خيل إليها

للحظة أنها تتذكر وجه أحد أولاده أو أحفاده لكنها تأكدت من دقة الذكرى عندما رأت فمه يتحرك ورأت أسنانه. تحدّث معها وسألها عن صحتها. استحت من سؤاله ثم قالت:

ـ الحمد لله. مستورة.

سألها عن البنات فقالت هند تزوجت سلمان قدورة وفاطمة تزوجت رفعت الداعوق وورد تزوجت ابن عمه عبد القادر، عندهم صبيان وبنات، ولا يمر العيد من دون أن أراهم.

عبد الجواد أحمد البارودي قال:

ـ الحمد لله.

وأم هند قالت إن زهية بهجة، كل يوم تأتي وتلعب عندها، لكنها تخاف عليها أن تقع في جرن الماء.

عبد الجواد أحمد البارودي قال أعرف، أعرف. وأم هند أرادت أن تسأله كيف يعرف لكنها لم تسأله. دقات قلبها انتظمت من جديد لكن عرقاً بارداً غطى صدرها. أحسّت أنها غير قادرة على الوقوف. جلست على حجر اعتادت أن تجلس عليه قبل سنوات، وهي تنتظر وصول الحمار المحمل بالخضر واللحم. جلست على الحجر وهي تتلمسه بيدها، وبينما تجلس رمشت عينها لحظة، وفي رمشة عين تبدّد من أمامها المرحوم عبد الجواد.

زهية الصغيرة تسلقت بعد شهور جرن الماء وشربت منه فأصيبت بإسهال. كان المطر يقع غزيراً على البلد. وخافت بربارة على الطفلة مريم من الرشح فصارت تُشعل كوانين الجمر في البيت ليلاً نهاراً. شفيت زهية من الإسهال لكن أيام المرض العصيبة زرعت جواً من التوتر تحت سقف القرميد وعبد الغني عوَّد نفسه ألا يرجع إلى البيت

إلا متأخراً. صادق في تلك الفترة صديق أخيه القديم موسى سلوم وتوطدت صداقته بزكريا المعلم في لعبة الداما. موسى سلوم صار يجلب إليه في البازركان كتباً وجرايد. عبد الغني لم يكن قرأ جرايد قبل ذلك. صارت العادة بين الاثنين أن يستقبل عبد الغني صاحبه موسى بسؤالين. الأول سؤال عن دروسه. والثاني سؤال عن الأخبار الجديدة. عند هذا السؤال يُخرج موسى سلوم من ثوبه الجريدة الصفراء المطوية.

عندما مرّ في بيروت الغراندوق نقولا ولي عهد روسيا ودعاه متصرف جبل لبنان فرانكو باشا إلى وليمة على ضفة نهر الكلب تفاجأ تجار البازركان بالنبأ لأن السيد عبد الغني البارودي أعلمهم قبل أسابيع أن الغراندوق آتٍ إلى بيروت وهم ضحكوا منه وسألوه متى صار يضرب في الرمل ويقرأ الغيب. لم يصدقوه حتى حضر ولي العهد في خريف 1872 لابساً الثياب الروسية وملتفاً بالفراء المطرزة بالماس والذهب. نظروا إلى فخامته يركب عربة الكونت سرسق المنحوتة من خشب الجوز وخشب الكرز فلم يصدقوا هذه الأبهة. الحاج عبد الرحيم البارودي دُعي إلى الوليمة على ضفة نهر الكلب بصفته عضواً في المجلس البلدي. ذهب بلا نفس وأكل مع الحاضرين. عند رجوعه إلى البلد سمع الحاج خالد الفاخوري يصف الوليمة للخلان ويقول إنها حوت كبّة حرّة داخلها كبّة حرّة، القرص المحشو في جوف القرص المحشو، طعام لا يصنعه إلا ملوك الطبخ. الحاج أبو حسين استمع إلى هذا الكلام وشعر بمسافة أميال تفصله عن أقرب الجالسين جنبه.

مَرِض فرانكو باشا بالقلب فجاء مكانه سنة 1873 المتصرف الثالث الطلياني الأصل رستم باشا. مثل سلفيه شقّ طرقات عجلة في

جبل لبنان. فرانكو باشا أكمل شق طريق بيروت ـ بيت الدين (الشوف) التي حلم بها المتصرف الأول داوود باشا. رستم باشا شقّ طرقاً فرعية من طريق الشام شمالاً صوب المتن وجنوباً صوب الشوف. عندما بنى جسراً على النهر عند الحازمية وغرس أشجاراً وأقام حديقة إيطالية، صار يعمل حفلات لكبار القوم في الجبل وبيروت. الحاج عبد الرحيم البارودي تلقى دعوة فلم يلبِ الدعوة: كان شرطها لبس البذلة الفرنجية. الحاج عبد الرحيم وجد ذلك بلا ذوق.

أثناء الربيع الثالث، قبل وقتٍ قصير من وصول الخبر الأبيض مع نوتية عكا أن عبد الفتاح حيّ يُرزق ولم يغرق في البحر، تعرضت كرخانات بيروت لضربة قاسية: رستم باشا منع نساء الجبل من النزول للشغل في معامل الحرير في بيروت خوفاً على أدبهن و«لئلا ينشرن في قراهن الفساد الذي اكتسبنه في إقامتهن بعيداً عن أهلهن». في هذه الواقعة أيضاً أدهش السيد عبد الغني البارودي جيرانه في البازركان بحسه الثاقب: كان قال لهم قبل أيام وهو يطوي الصفحة الكبيرة الصفراء المغطاة بالحروف والخطوط القاتمة إن نساء الجبل لن ينزلن للعمل في الكرخانات هذا الموسم. توقع هذا قبل أن «يُشيح» الدود على الوزال وهم لم يصدقوه. لكن توقعاته أصابت والجبليات لم ينزلن إلى كرخانات بيروت. سُرَّ عبد الغني بدهشة جيرانه لكنه بالحسّ السليم الذي ورثه عن أبيه لم يغشّ أحداً: شرح لهم أن الجريدة تكتب ما يقوله كبار القوم في مجالسهم ولهذا يعرف ما سيحدث قبل أن يحدث.

عبد الغني البارودي لم يقل لأحد إنه يقرأ الجرايد لعله يعرف شيئاً عن أخيه عبد الفتاح. كان يقرأ جريدة أعاره إياها موسى.

واكتشف أن الجريدة تنشر أسماء جنود يقضون أثناء الجهاد، وتنشر أسماء سجناء يُعدمون بالشنق أو بالرصاص، وتنشر أسماء ناس يُقتلون خطأً في الطريق، وتنشر أسماء غرقى عُرفت هويتهم، وتنشر أسماء لصوص قُبض عليهم، وتنشر أسماء تجار أفلسوا فعرضت ممتلكاتهم للبيع بالمزاد العلني، وتنشر أسماء بحارة تمردوا على الربابنة وجُلدوا، وتنشر أسماء. . . اكتشف عبد الغني أن الجريدة تحفل بأسماء الناس المنكوبين وصار يبحث بين الأسماء عن اسم واحد: «عبد الفتاح البارودي». لم يجد الاسم. لكن أمه عائشة جاءت إليه وهو نائم. لفظت الاسم في أذنه وأيقظته.

ظلّ عامين يؤخر زواجه. صاحبه زكريا تزوج كاترينا طعمة، والمرأة انتفخ بطنها. زكريا تأخر حتى تزوج لأنه يتيم بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا بيتٍ. عبد الغني عنده تجارة وبيت بناه جده فلماذا يبقى بلا زواج؟ استحى عبد الغني أن يكتب كتابه على بنت عبد الرحمن أياس تاجر الجلود والسيور والسرج المزركشة جاره في البازركان، استحى أن يكتب كتابه على البنت وأخوه الصغير عبد الفتاح غائب عن البلد ولا أحد يعرف هل هلك في البحر أم نجا. واستحى أن يكتب على البنت كتابه وظهر أبيه مهدود حزناً وقلقاً. قال «أنتظر حتى يفتحها ربّنا». في السنة الثالثة فتحها ربّنا: جاءت أمه عائشة إليه ثم جاء الخبر مع نوتية من عكا: عبد الفتاح حيّ يرزق يدور في الأرض ولا يرجع إلى بيروت لئلا يُشنق بجريمة القبرصي الذي يظنّ أنه صرعه.

الحاج عبد الرحيم وزع الشربات على أهل الحارة ووزع الشربات في الخان. حتى الحمائم ابتهجت في السماء. عصافير الدوري المعششة في أشجار الحارة ارتفع تغريدها. زهور تم السمكة في الحوض أمام بيت أم هند تمايلت ورقصت بألوانها الزهر

والصفراء والبنفسجية. زهية رمت حصى في جرن المياه وقفزت وغنت أغنية عن أخيها الراجع بالبحر. الحاج عبد الرحيم لم يعرف أين تعلمت هذه الكلمات. مريم دبّت ثم وقفت ومشت على طريق الكلس تلتفت بوجهها إلى أهلها (انظروا إليّ) وتقع وتبكي فيركضون إليها، يرفعونها فتطلب أن تدبّ وتمشي وحدها من جديد. فطمتها أمها مرتين، وفي المرتين عادت الصغيرة إلى ثدي أمها. الحاج عبد الرحيم تذكر أن عبد الفتاح أيضاً عذّب المرحومة عائشة بالرضاعة في طفولته. لكنه لم يفهم لماذا تأخرت مريم كل هذا الوقت حتى تدبّ وتمشي. مرضت مرتين طفلةً، وفي المرة الثانية صار وجهها يحرق حرقاً. التهبت بالنار كأن الحمّى تُشعل حطباً وأكواز صنوبر في بطنها. لكنها نجت. لعل الحمى أورثتها ضعفاً في ساقيها. الحاج عبد الرحيم محظوظ. يعرف كُثراً في البلد فقدوا أطفالاً. لم يفقد أطفالاً. صلّى وقال «الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم». أول ما بلغه الخبر مع نوتية عكا امتلأت عيناه بالماء. عندما صلّى العشاء في الجامع العمري نظر إلى نقوش السجادة جنب المحراب المنحوت من خشب الأرز فلم يرَ موجاً يعلو ويهبط على السجادة. رأى النقوش (ورقة تخرج من ورقة) كما هي، وقال «يا رحمن يا رحيم حفظته في بطن الحوت سالماً ثلاث سنوات والآن ترده إليّ». إمام الجامع رآه دامع العينين والظلال تتماوج على وجهه ورقبته وقمبازه فلم يعرف أنه يدمع فرحاً. خشي أن يضايقه أكثر فأخفى نفسه وراء الأعمدة التي تحمل القبب. لكن الحاج عبد الرحيم بحث عنه حتى وجده. كان وجهه يضحك ورأى أنه كفكف دمعه بكمه وعرف ـ من قبل أن يتكلم ـ أن الخبر يتعلق بابنه الغائب المنكود الحظ عبد الفتاح.

كان ربيعاً حلواً. لم يرجع عبد الفتاح في تلك السنة ولن يرجع قبل مرور أربع سنوات أخرى. لكن الحاج عبد الرحيم تبدل من حال إلى حال. ارتفعت معنوياته ورجع يأكل. كلّما عاد إليه القنوط أرسل إليه سبحانه نوتية يافا أو حيفا أو غزة أو دمياط أو الإسكندرية ينقلون إليه سلاماً من عبد الفتاح. وفي إحدى المرات جاء إليه في الخان الخواجه تتراكي ـ من «محل الخواجات تتراكي الوكلاء العموميين لشركة البوابير برنس لين» أصحاب المكاتب في خان أنطون بك ـ يحمل برقية جاءت بالتلغراف من الخواجه الياس باسيليوس في الإسكندرية. الخواجه المذكور الذي أقام في بيروت قبل سنوات طويلة قال في برقيته أنه التقى في ميناء السويس بحّاراً من بيروت اسمه عبد الفتاح البارودي ويسمّونه «الدمياطي». البرقية أتت على ذكر عبد الفتاح عرضاً. لكن الخواجه تتراكي أحب أن يجيء إلى التاجر المسلم في خان القزاز وينقل إليه هذا الخبر. الحاج البارودي شكر الخواجه تتراكي وذهب معه إلى خان أنطون بك وأرسل برقيتين بالتلغراف، برقية إلى الياس باسيليوس المذكور، وبرقية إلى بطرس الصايغ. أثناء هذه السنوات الباقية سيتعلم الحاج كيف يستخدم آلة التلغراف وهو يراقب العامل يدق على الآلة.

ذهب اليأس عن «حج بو حسين» وصار يطارد المرافئ بالبرقيات. لم يترك صديقاً أو خواجه أو ربّان سفينة إلا أوصاه بالبحث عن ابنه عبد الفتاح البارودي الذي يسمّونه الدمياطي أيضاً. لم ينسَ أن يُبرق إلى معارف في دمياط ليسألوا عن ابنه في البلد. واستعان بإبراهيم بك يا حرام (إبراهيم سرسق) صاحب الصلة الوثيقة بآل كيوان في دمياط. واستعان بكل شخص يقصد مطعم المرفأ أو يُنزل بضاعة في الخان أو عنده تجارة مع آل الفاخوري وآل بيهُم وآل

الداعوق وآل الصايغ. صهره نصر الله الصايغ نصحه أن يركب بنفسه البابور ثيرا الذي يسافر كل يوم جمعة إلى صيدا وصور وعكا وحيفا ودمياط ثم يعود إلى بيروت محملاً ببضاعة وركاب، أو أن يرسل ابنه عبد الغني. الحاج أبو حسين فضّل طريقته: نسج شبكة عنكبوت ضخمة وانتظر أن يصل الخبر إلى ابنه عبد الفتاح على خيوط هذه الشبكة. أراد الحاج عبد الرحيم أن يرجع ابنه وحده. وصلّى للربّ أن يلهمه الصبر.

زوَّج عبد الغني وأعطاه البيت المطروش جنب البركة. ابتاع في الربيع الخامس(ثم السادس) علب قزّ كي تتسلى بربارة. وعاد إلى نشاطه في الخان. الدكان خارج باب ادريس أجرّه لرجلٍ من آل عيتاني بشرط أن يترك الدكان عندما يطلبه منه. دكان أبيه القديم تركه للشيخ بيضون يتولاه على راحته. ودكان البازركان وجده في حال مقبولة تحت يد عبد الغني. فانصرف بكامل همته إلى تدبير الخان: وجد تجديدات عبد الودود مثمرة وذكية وقرر أن يتوسع أكثر في مجال البضاعة المجلوبة من وراء البحر. بدأ يستورد حيّات نحاس. المهندس الإنكليزي ماكسويل كان يجرّ خلال تلك الفترة ماء شُرب من نهر الكلب إلى بيروت. الحاج البارودي استورد حيّات للماء واستورد مضخات يدوية. بعد نزهة مع الشيخ بيضون إلى رباعات الصبير في الكروم الحمرا (رأس بيروت) قرر أن يشتري أرضاً في جوار الكلية التي يبنيها الأميركان. أعجبته الهضبة المطلّة على البحر والقريبة من المنارة الجديدة فقرر أن يبني بيتاً صغيراً تقضي فيه العائلة قسماً من فصل الصيف. الهواء هنا عليل، المكان حلو العطر، وشط شوران يبعد فشخة.

عبد الغني المنغمس في حياته الزوجية أعجبته فكرة البيت

الصيفي. وما أعجبه أكثر قرب البيت من كلية الأميركان. صداقته بموسى وزكريا أفضت إلى تعلقه بالمرسلين ومشاريعهم. صار يتابع أخبارهم ويدعم خططهم: قال لأبيه إن خطة طريق العجلة من ساحة عالسور إلى رأس بيروت لن تفيد كلية البروتستانت فقط بل ستفيد البلد كلّه، خصوصاً أصحاب التوت والصبير وبساتين الخس. الحاج أبو حسين عدّ حبّات مسبحته مصغياً إلى حماسة ابنه. وقال له «لا تتعب نفسك يا ابني، الطريق تُشق بينما نتكلم، غداً أو بعد غد ترى الشغيلة يحرقون الشوك ويقلعون الصخور، الأميركان عندهم قنصل، ليسوا أبناء جارية، والإنكليز معهم».

عبد الغني انتقل بالحديث إلى أماكن يعرفها أفضل من أبيه وأخبره أنهم وضعوا هذه الأيام خريطة لمدينة باريز طولها 25 ياردة وعرضها 20 وفيها جميع بنايات باريز واضحة ظاهرة للعيان وهي عبارة عن 88 ألفاً و500 بناية.

الحاج عبد الرحيم سحب نفساً من الأرجيلة ورفع حاجبيه الرماديين ثم قال إن صاحب العربات سليم السروجي الذي يرسل العربات من بيروت إلى بيت الدين أصيب بالفالج. كان يتحمم في حمام الدركاه وخرج من الحمام فضربه هواء بارد وفلجه.

اعتادت بربارة نوّار البارودي في تلك الفترة أن تدعو عبد الغني وزوجته إلى اليانسون والكعك على الشرفة البحرية أول المساء. يقعدون هنا والشمس غطست في البحر فينظرون إلى النجوم تشتعل في السماء نجمة بعد نجمة. السفن في عرض البحر، وقبالة الميناء، تبدو مثل جبالٍ عائمة إذا ساد الظلام. أحياناً تتلامع عليها قناديل.

لم تحبل بربارة بعد ولادة مريم. مرّت السنوات وفي كل ربيع تربي قزّاً وتقطف حريراً. وكلّما أرسلت الشرانق في السلال إلى

الكرخانة أو إلى المرفأ شعرت بالحاجة إلى أن تملأ بطنها: كأن جسمها يتجوف من المادة وعليها أن تملأ هذا الجسم تراباً من جديد. كان شعوراً غير قابل للشرح بكلمات. لكنه حقيقي أكثر من الطعام الذي تأكله وأكثر من اليانسون الذي تشربه وأكثر من الفراش الذي ترقد عليه. الحاج أبو حسين كفّ زمناً عن لمسها. بعد أن وصلت الأخبار من وراء البحر أن عبد الفتاح حيّ يُرزق، بانت أسنانه من جديد واسترد نشاطه. بربارة استبشرت خيراً. وعندما دبّت مريم أخيراً وقامت وركضت على «طريق عبد الجواد» بعد طول انتظارٍ ذكرت بربارة منامها القديم وقالت آن الأوان. في ذلك الربيع السابع انتظرت أن ينتفخ بطنها بينما القزّ الطلياني الجديد يفقس من البزر.

أمينة أياس البارودي انتفخ بطنها قبل أن يحلّ الربيع. كان بطنها يكبر عندما هاجمها مرض شبيه بالجدري. ظهرت بثورٌ على جلدها فهرع عبد الغني إلى كلية الأميركان في رأس بيروت. رجع إلى البيت حاملاً قارورة مزج فيها الطبيب فاندايك دهن الطرطر وزيت القطن. فرك مكان البثور بهذا الدواء فتكاثرت البزور في ليلة واحدة. تكاثرت في البقعة ذاتها ثم انطفأت وزالت.

خلال تلك الفترة فتح أحمد نقوزي معملاً صغيراً لصناعة الكراسي والكنبات وطاولات الأكل وعواميد تعليق الثياب، في الباشورة. ترك البيت داخل سور الحارة منتقلاً إلى بيت يجاور معمله. الحاج البارودي دفع له مبلغاً من المال ثم طرش البيت الفارغ بالكلس وأقفله. قال لزوجته:

ـ أشعر أن عبد الفتاح على الطريق. قولي إن شاء الله يا بربارة.

بربارة وضعت يدها على بطنها وقالت:

ـ إن شاء الله، ربّنا يسمع منك.

كان القزّ صائماً، ويستعد لجولة أخيرة من الأكل قبل أن يغزل شرانقه، عندما وقعت جريمة في خان أنطون بك ظلّت حديث الأهالي زمناً. قُتل الخواجه اليوناني تاجر الحرير تيودوري. جنود ومعهم حدّاد خلعوا الباب وشاهدوا السيد تيودوري مطروحاً قتيلاً في الممشى أمام مطلع السلم إلى الطابق الثاني. كان القتيل يلبس بنطلوناً أسود وحزاماً أبيض وكان رأسه مفصولاً فصلاً تاماً عن جثته وإلى جانبه منديل أبيض عليه حرفان يونانيان وغمد سكين من جلد أحمر وطربوشان ومصباح من زجاج تحطم تحطماً. ووجدوا صندوقين حديد أحدهما مفتوحاً والثاني مغلقاً. وظنَّ نوري بك أن تيودوري قُتل في الليل بينما كان حاملاً مصباحاً وقاصداً صعود السلم ما يفسر وجود المصباح المحطم.

عبد الغني قرأ لأبيه المكتوب في الجريدة. نور القناديل أضاء الشرفة البحرية. قالت بربارة التي خرجت وهو ينتهي من القراءة:

ـ يا ساتر يا ربّ.

الحاج أبو حسين رآها تضع يدها على بطنها ولم يعرف ماذا يفكر. منذ أيام يرى يدها ترتفع إلى بطنها كلّما قالت «يا ربّ». عندما احتواهما الفراش رأى برقة عينيها قبل أن تتكلم. شكر الله تعالى وانتبه أن الثقل الذي كان يرهقه نزل عن ظهره.

سعدية الحصّ البارودي رأت وجه بربارة يتهلل ورأت الحاج عبد الرحيم يستقبل نور الشمس وينظر إلى أزرق السماء مبتهج الوجه. صار يمرّ عليها عند رجوعه من صلاة العشاء ويكلمها كلمتين

بينما القناديل تتوهج في بيت القرميد وروائح الطبخ تفوح. سليمة كبرت وصارت تطبخ: إذا أشعلت حطباً ووضعت قدراً على النار جنب البيت تتحول إلى أم للبنتين زهية ومريم. مريم استطاعت أخيراً أن تتوازن على ساقيها الهزيلتين. وزهية أحبّت ـ بعد كرهٍ ـ هذه الأخت الصغيرة. مرة رأتها أم هند ـ والطفلة ما زالت باللفلوفة ولم تنبت لها سن بعد ـ رأت أم هند الشقية زهية تؤنب أختها وتشهر في وجهها إصبعاً. ظلّت تؤنب الطفلة الملفوفة حتى زعقت الطفلة بالبكاء. أم هند حملت زهية كما كانت تحملها وهي طفلة فتركض بها إلى المرضعة في «زاروب منيمنة» في «بيروت الفوقا». حملت أم هند زهية فسمعت عمودها الفقري يطقطق. ومرة أخرى فكرت أن الخطأ ليس فيها بل في طبيعة العالم ذاته. أنزلت الطفلة التي صارت بنتاً ثقيلة الوزن، وأقعدتها على الطراحة جنبها، وشرحت لها أن أختها الرضيعة هي مثل ابنتها الآن، وأن عليها ـ هي، زهية التي صارت طويلة وتقطف ورقاً من التوتة في وقت القزّ ـ أن تتصرف على هذا الأساس، وأن تحمي مريم الطفلة من الأذى، فتبعد عن سلّتها الحشرات، وتكشّ عن وجهها البرغش والذبان، ولا تدع الخروف ولا الديك ولا «البسين» يقترب من السلة... ظلّت تتكلم والبنت زهية عابسة لا تلين. وأم هند فكرت أن هذا أيضاً من فساد الزمن.

عندما رأت البنت زهية تُغير معاملتها لأختها الصغيرة وتحملها وتلاعبها ندمت على تسرعها واستغفرت ربّها. صارت تجيء إلى تحت الجوزة إذا قعدت سليمة هنا تعدّ الطعام. تتأمل مريم تجمع العيدان اليابسة والورق الناشف للموقد. تتأمل زهية ترصف الحطبات فوق الورق والعيدان. تنظر إلى سليمة التي بانت دوائرها وتغطّت كليتاها بالشحم. تنظر إليها تنقر حبّات الكوسى والباذنجان

والقرع. وتريد أن تساعدها. لكنها تكتفي بغسل الرزّ. أو ـ إذا كانت تعمل الطبخة «قاطع بالزيت» ـ تُنقي لها البقدونس وتغسل الباقة. بربارة تخرج أحياناً وتقعد على كرسي الخيزران أمام باب البيت. تقعد في ظلّ الحائط تطرز أو تخيط بالصوف. خاطت كنزة لسليمة وكنزة لزهية وكنزة لمريم. خاطت لأم هند جورباً طويل الساق تلبسه في الليالي الباردة فيبعد عنها آلام العصبي. وخاطت كنزات لأولاد حوراء. إذا جاءت حوراء إلى الحارة مع أولادها ضجّت الحارة بألعابهم. زهية تقودهم في جولات استكشافية تبدأ تحت سيقان البيانو الطلياني الضخم الذي لم يُفتح وتُدق مفاتيحه إلا مرة واحدة (الستّ ياسمينة الصايغ بنت المرحومة أم زهرة جاءت وفتحته في العيد ودقت عليه كرمى لأخيها عبد الرحيم)، يبدأ اللعب تحت صندوق البيانو العجيب فينتهي في العلية الخشب بين الأعمدة المائلة والجسور التي تحمل قرميد السقف. لم تعرف بربارة ولا حوراء أين اختفى صخب الأولاد حتى سُمعت قرقعة على السطح. بربارة فزعت. أنّبت زهية تأنيباً شديداً وحرّمت عليها الصعود إلى العلية الخشب. مع ذلك كشفت لها شيطنة البنت مكاناً صالحاً لتربية القزّ. عندما سألت الحاج رأيه ضحك وقال: «لن أنام تحت الدود وأنا حيٌّ أرزق يا ست بربارة». لم يقبل. وقال إذا أردتِ نبني غرفة وراء البيت.

ارتفعت حرارة الجو. صارت بربارة تنتقل ـ بحسب موقع الشمس ـ بين الشرفة البحرية والقعدة أمام البيت. عندما تجلس في أفياء شجرة الجوز تدنو أم هند وتسألها عن حالها. بربارة تبتسم لأم هند وتقول «الحمد لله، ادعي لي يا خالتي ، ادعي لي أن يكون صبياً».

قالت لأم هند إن الحرارة ترهقها. أم هند قالت هذا بسبب الحمل. الحرارة مقبولة اليوم، ولم تهبّ الخماسين بعد. طارت عصافير الدوري من التوتة إلى الشوكات الباقية وراء البيت بالقنطرة الحجر. ابتعدت الدجاجات عن طريق الكلس واختفت في الزوايا الظليلة. من وراء بيت الصيّاد الدرزي جاءت خبطات فأسٍ على حطب.

تصاعدت موجة الحرّ وامتلأ البحر بالبوابير. بربارة نوّار البارودي القاعدة على الشرفة البحرية ساعة الغروب عجزت عن إحصاء البواخر. في حياتها كلها لم ترَ هذا العدد من السفن! المداخن ترسل غيوماً بيضاء، وإذا هدر البوق البحري اهتزت ألواح النوافذ الزجاج. جاء الحاج مساءً وأخبرها أن سفن الإنكليز تتجمع في بحر بيروت تجنباً لعبور قناة السويس إلى اليمن والهند: البرقيات جاءت من عدن وبومباي وسيلان أن الكوليرا تجتاح جزر المحيط الهندي.

قرّبت قناة السويس المسافة بين الشرق والغرب وجعلت الهند أدنى إلى بيروت من بغداد والبصرة. صارت التوابل الهندية تجيء إلينا بالبحر لا بالقوافل البرّية. الخوف من العدوى انتشر في المرفأ فرفض الحمّالون وأصحاب الصنادل والقوارب إنزال البضائع من البوابير. لم يرجعوا إلى أعمالهم إلا بعد وصول البرقيات من عدن وبومباي وسيلان أن الكوليرا انحسرت كما ظهرت، وأنها ـ في هذه المرة ـ لم تتحول إلى وباء.

الحاج عبد الرحيم تنفس الصعداء. بيروت كلّها تنفست الصعداء. لم تأتِ الكوليرا. هبّت الخماسين محملة بالرمل وصار الجو أحمر بالغبار. الناس تحملوا هذه الريح وقالوا «كله يهون، هذا

ليس الهواء الأصفر». ابن فيليبوس أرقش أرسل إلى حارة البارودي كعادته كل صيف حماراً محمّلاً بالخضر والفواكه. حبّات البندورة الحمراء الناضجة لمعت بين يدي سليمة وهي تغسلها في جرن الماء. الحاج أبو حسين طبخ بنفسه طبخة برغل مفلفل بالبندورة. بربارة ذاقت طبخته وقالت إنها في حياتها كلّها لم تأكل طعاماً طيباً كهذا الطعام.

بعد حمار فيليبوس جاء حمار من المرفأ. هذا الحمار الذي يحمل صندوقاً مقفلاً مدفوع الجمرك سلفاً وصل من وراء البحر وعليه اسم الحاج عبد الرحيم البارودي وعنوان الحارة في سوق الفشخة. لم يُعرف من أرسل الصندوق. الحمار خاف أن يدخل من باب السنديان المرصع بالحدائد، خاف أن يدخل بين العقدين. يوسف زيدان الساعاتي الذي قلّما يظهر خارج بيته تضايق من نهيق الحمار فخرج من باب بيته وهو يمسح شحماً عن أصابعه بمنديل قديم. شدّ رسن الحمار وأدخله من البوابة. مشى قدامه على طريق الكلس مقطب الحاجبين والشمس تلمع على شعره الرمادي. سعدية الحصّ البارودي القاعدة مع العائلة تحت شجرة الجوز رأت الرجل مقترباً مع الحمار وشعرت أنها عاشت هذه اللحظة من قبل. لم تعرف أين عاشت هذه اللحظة. ولم تعرف متى عاشتها. وقالت في نفسها من يعرف ماذا في هذا الحرّ!

فتحوا الصندوق فوجدوا فيه أشياء غريبة: قارورة من زجاج سميك لا ينكسر بالشحن، ملفوفة في قماش كثير، ومسدودة بفلينة ومختومة بالشمع. على القارورة ألصقت ورقة كُتب عليها بحبر الكوبيا البنفسجي اللون:

«ماء جنتلي من جملة النعم الإلهية من الينابيع

المعدنية في بروسة بولاية خداوندكار مصدق على منافعه من المجمع الطبي الملكي ونفعه عظيم في تلبك المعدة والأمعاء وعسر الهضم وأمراض الكبد والبول السكري والنقرس والرمل وفرط السمن ويزيد قابلية الطعام ويقوي الهضم ويحمي من الهيضة».

بربارة أخذت القماشة الكبيرة وفردتها تحت الشمس فرأت عليها تطريزاً فخماً لم ترَ مثله في حياتها. قالت إن هذه القماشة لا تُقدر بثمن: فردتها فشهقت سليمة وهي ترى الطواويس والحمائم ونهر المياه الأبيض كاللبن والأشجار الخضراء والسماء الزرقاء الساطعة.

وجدوا في الصندوق رقعة من الجلد عليها مربعات بيضاء وسوداء. وجدوا كيساً حمله عبد الغني وهو يقول «هذه حجارة داما» فلما أفرغه في حضنه رأى حجارة من عاج أبيض ومن أبنوس أسود منحوتة في أشكال غريبة. سليمة قالت «هذه ليست حجارة داما». زهية التقطت قطعة وقالت «هذا رأس حصان». عبد الغني كشف أمامهم عندئذٍ اسم اللعبة الغريب:

ـ هذا شطرنج!

وجدوا صرّة فيها تبغ فوّاح الرائحة. خرجت الرائحة قوية فشعرت مريم بدوخة. ضحكوا بينما عبد الغني يُخرج التبغ الذهبي اللون بين إصبعين. ضحكوا بلا سبب. من أرسل هذا الصندوق وما هذه الأغراض ولمن هي؟

وجدوا صرّة أخرى فيها مسبحة من حبّات العنبر ومسبحة من حبّات سوداء منقطة بالأصفر لم يُرَ مثلها في هذه المدينة من قبل.

أدهشهم الصندوق وأدهشهم أكثر من الأغراض الثمينة المبهجة

الهواء البارد الذي خرج من الصندوق وأبعد عنهم هذا القيظ. كانت الشمس تميل وتختفي وراء قرميد الحارة. قالت سليمة: «هذه الأغراض من عماتنا في الإسكندرية» (قبل سنوات، وهي صغيرة، أرسلت عمتها سوسن الصايغ صندوقاً صغيراً فيه أقمشة وعقود خرز وشمعدان.)

لفظت كلماتها عفو الخاطر وشعرت أنها لم تُصب. هذا الصندوق لم ترسله عمتها. نظرت إلى وجه عبد الغني ونظرت إلى وجه بربارة ونظرت إلى وجه أم هند: رأت العيون مركزة في اتجاه واحد. استدارت بعينيها ونظرت هي أيضاً إلى أبيها الذي يتلمس المسبحتين ويتلمس صرّة التبغ ويتلمس الزجاجة التي تحوي الماء الغريب. انتبهت فجأة إلى وجوده: طوال الوقت، بينما يُخرجون الأغراض الغريبة من الصندوق، لم تشعر بوجوده. كأنه تلاشى في الهواء. وما إن كفّوا عن إخراج الأغراض حتى ظهر أبوها من جديد. نظرت إلى أبيها، نظرت إلى رموشه ترفّ، وعرفت من أرسل الصندوق.

أم هند دمدمت كأنها تكلم نفسها:

ـ عبد الفتاح.

قبل أن تمرض بربارة رُزق عبد الغني بنتاً. سمّاها عائشة. الطفلة ولدت قوية البدن كاملة الأعضاء. أقبلت على الرضاعة. وظهر أن بكاءها قليل. موسى سلوم جاء بالبذلة الفرنجية والطربوش وأكل المغلي عند ابن خاله. كان عائداً من اسطنبول حيث عَبَر امتحان المكتب الطبي الشاهاني مع خمسة طلاب آخرين أنهوا دروسهم الطبية في كلية الأميركان. أكل المغلي ونظر إلى الطفلة

وأبدى إعجابه ببشرتها وبلون عينيها. ثم مرَّ على حارة القرميد وسلّم على أهل البيت. أم هند تذكرته يلعب على السطح مع عبد الفتاح وهو صغير لكنها لم تتذكر من يكون. عندما قالوا لها هذا ابن زهرة حفيد أم زهرة شعرت أنها توغلت في الخرف حتى لم تعد تعرف من تكون سعدية الحصّ البارودي.

أم هند تبالغ. لكنه حرّ الصيف أنهكها. هذه الحرارة مرهقة. سقط المطر يوماً ثم عاد الحرّ. البلد كلّه تضايق من الحرّ.

الحاج أبو حسين يرجع إلى الحارة باكراً هذه الأيام. الجو الحار أتعب بربارة. صارت ثقيلة الحركة. طلبت سمكاً. طبخوا رزّاً. وشووا من أجلها سمكاً. أم هند أرادت أن تعمل «صيادية». ثم خافت أن تتضايق بربارة من البصل المحروق. جلسوا في البهو وتركوا الباب مشرعاً فيدخل تيار الهواء. فتحوا النوافذ الشمالية أيضاً. كانوا يأكلون والبوابير تعبر خارج النوافذ وتنفخ غيومها البيضاء. بربارة طلبت السمك لكنها لم تذقه. قالت «أطعموا الأولاد» ولم تأكل. خلَّصت سمكة «فريّدي» من حسكها وأطعمت مريم وأطعمت زهية. لكنها لم تذق السمكة. حوراء كانت موجودة. جمعت رزّاً ولحماً أبيض في لقمة كبيرة وقالت لزوجة أبيها «من أجلي كلي هذه اللقمة، الأكل يقويك». الحاج أبو حسين أصرّ عليها أيضاً. أخذت اللقمة وابتسمت للحاج كما ابتسمت له قبل 18 سنة على درج الدركاه. تلك الليلة أيقظه أنينها. عندما خرج يُصلّي الفجر جلست معها أم هند. رأت شفّة بربارة ترجف. كانت تحضن بطنها. سألتها أم هند وهي تشعل قنديلاً ماذا تحسّ الآن.

بربارة نوّار البارودي قالت:

ـ خايفة يا خالتي.

أم هند بلعت ريقها:

ـ لا تخافي.

قالت ما قالت وبلعت ريقها مرة ثانية. رأت الوجه المدوّر يشحب، رأت لوناً أزرق يتسرب إلى الوجه الأبيض وإلى الرقبة البيضاء.

سليمة ساعدتها. غسلتا بربارة بالمياه الباردة لعل برودة الماء تسحب حرارة جسمها. ارتعشت المرأة الكبيرة البطن بين الأيدي. ذهبت عنها الحرارة ساعة. ثم نشف شعرها فسال العرق على وجهها. قالت إن الحرارة لا تضايقها.

ماتت راقدة على ظهرها. لم تلد صبياً ينام في بطنها. غسلوها بالماء والصابون. طيّبوها بالمسك العدني. وكفّنوها. صلوا عليها ودفنوها في مقبرة السنطية.

كان الرمل الأصفر يغطي الطريق. بان البحر أبيض اللون، مغبراً، وراء أشجار السنط. عزّوا الحاج البارودي. وقف ساكتاً، يُحرك رأسه، ولا يتكلم.

روايات للمؤلف:

1 ـ **سيد العتمة**، دار رياض الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، دار الآداب، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، دار الآداب، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ **رالف رزق اللّه في المرآة**، دار الآداب، 1997.

6 ـ **كنتُ أميراً**، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي**، المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ **يوسف الإنجليزي**، المركز الثقافي العربي، 1999.

9 ـ **رحلة الغرناطي**، المركز الثقافي العربي، 2002.

10 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الأول)، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2003، طبعة ثانية 2005.

11 ـ **بيريتوس: مدينة تحت الأرض**، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2005، طبعة ثانية 2006.

12 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الثاني)، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2005.

13 ـ **تقرير ميليس**، المركز الثقافي العربي ودار الآداب، 2005.

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

III

بين 28 أيار (مايو) و20 حزيران (يونيو) 1860 تغطى جبل لبنان بالدخان. مخازن القزّ كانت مملوءة فيالج جديدة، احترقت. رائحة الحرير المحروق ملأت القرى المحروقة. عندما نذكر «حرب الستين» اليوم نحسب أنها دامت سنة، «حرب الستين» في جبل لبنان دامت ثلاثة أسابيع.

في ثلاثة أسابيع (من معركة عين دارة إلى مذبحة دير القمر) كسر الدروز النصارى...

قطعان الهاربين من المذابح تدفقت إلى صيدا (حامية صيدا سدّت أبواب البلد في وجه النازحين)، تدفقت إلى شط البحر، تدفقت إلى بيروت. إلتفّ الدخان الأسود حول جبل لبنان. عبد الرحيم البارودي رأى قطعان النازحين تتدفق إلى سهلات البرج. ثيابهم ممزقة، أقدامهم حافية. النساء باكيات، والأولاد يبكون. مشى بين جرحى ومرضى وجياع باحثاً بين الوجوه المتربة عن وجه بكره الحبيب.

أين اختفى حسين البارودي؟

ISBN 9953-68-226-7



دار الآداب ـ بيروت

